موسوعة التاريخ الإسلامى
الكتاب العاشر

الحضارة الإسلامية

الحياة الإجتماعية والثقافية والعلمية



دكتور
عبد اللطيف عبد الهادى السيد
أستاذ مساعد التاريخ الإسلامى والوسيط
كلية الآداب - جامعة غريان - ليبيا - سابقاً



موسوعة التاريخ الإسلامي
الكتاب العاشر

الحضارة الإسلامية

الحياة الاجتماعية والثقافية والعلمية

دكتور
عبد اللطيف عبد الهادي
أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي والوسيط
كلية الآداب

2010

رقم الإيداع : 13373 /2009
الترقيم الدولي : 4 - 058 - 438 - 977

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

طبقات المجتمع فى الدولة الإسلامية

١- طبقة الأشراف:

تكون المجتمع داخل الدولة الإسلامية من طبقات ثلاث أساسية هى: طبقة الأشراف، طبقة العلماء، طبقة الرقيق (العبيد).

فأما عن طبقة الأشراف، فكانت تقوم على أساس شرف النسب، بإعتباره أو يقصدون به أنه فى الدم، وأول ما يجب أن يتوفر للسيد الشريف أن يكون جواداً شجاعاً؛ ومن خصاله أن يكون عاقلاً. ولابد أن يكون عظيم الرأس، ومن لم يكن عظيم الهامة فليس بسيد[١]. كالكاتب فمن صفته أن يكون صغير الهامة[٢]، ومن صفات السيد الشريف أن يكون كث الشعر خاصة فى ناصيته، أشم عرين الأنف، واسع الأشداق[٣]، غير مستدير الوجه، عريض الصدر والمنكبين، مديد الساعد، طويل الأنامل[٤]. ويكره فى السيد الشريف التصنع فى اللباس والمشية، ولذلك يقال: «عمامة السيد ملوثة، اى يديرها على راسه كيما اتفق»[٥]. ويحكى عن الفضل بن يحى أحد رجال الحاشية فى العصر العباسى أنه قال: «الناس أربع طبقات: ملوك قدمهم الاستحقاق ووزراء فضلتهم الفتنة والراى وعلية أنهضهم اليسار - وأوساط ألحقهم بهم التأدب؛ والناس بعدهم زبد جفاء، وسيل غثاء، لكع وكاع، وربيطة إتضاع، هم أحدهم طعمه ونومه»[٦].

وكان من شروط الشرف والسيادة إمتلاك المال كابر عن كابر، بالتالى يمكن

(١) ابن قيتبة، عيون الأخبار، طبعة بروكلمان، ص٢٧١ .

(٢) نفسه، نفس المصدر، ص٢٧٠ .

(٣) القلقشندي، صبح الأعشي، طبعة دار الكتب المصرية، ١٣٤٠هـ جـ١، ص٣٧ .

(٤) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص٣٥ .

(٥) ابن ظفر المكي (المتوفي عام ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م) انباء نجباء الأنباء، مخطوط برلين، ص١٤ .

(٦) الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، طبعة ليدن، ١٣٠٢هـ، ص١-٢ .

السيطرة على الحياة السياسية، وهما شيئان فى غاية الدنائة. وقد أهمل المسلمون مسألة الدم، وخصوصاً دم الأم، إهمالاً شديداً، وذهبت قلة الإكتراث بذلك إلى الحد أن جميع الخلفاء خاصة فى القرنين الثالث والرابع الهجريين كانوا أبناء جوار من الترك أو الروم، وكاد رجل أسود فى أوائل القرن الثالث الهجرى ان يرتقى إلى عرش الخلافة[1]. على ان الإسلام اوجد نوعاً من شرف الدم لا يزال باقياً إلى عصرنا هذا، وذلك فى قرابة النبى أو بنى هاشم أو أهل بيت النبى محمد، أو أهل البيت بإختصار. وكانوا يأخذون بإعتبارهم اقرباء النبى راتباً من الحكومة، وكذلك حرمت عليهم الصدقة هم ومواليهم[2]. وكان لهم قضاء مستقل بهم يتولاه نقيبهم الذى يعينه الخليفة[3]. وكان لهم نقيب فى بغداد وجميع المدن الكبرى، مثل واسط والكوفة والبصرة والأهواز[4]. وفى سنة ٣٥١هـ/ ٩٦١م كانت نقابة الطالبيين بمصر للشاعر ابى القاسم أحمد بن اسماعيل طباطبا[5]. وكان نقيب العلويين فى عهد الفاطميين ايضاً من كبار رجال دار الخلافة[6]، وقد إنتهى إلينا كتاب بتقليد أبى أحمد الحسين بن موسى نقابة الطالبيين سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م، ونرى من هذا الكتاب أن النقيب هو الذى يحكم أيضاً فى النزاع بين الطالبيين وبين سائر رعية الخليفة[7].

---

(١) هو إبراهيم بن المهدي، وامه أم ولد سوداء، وكان شديد السواد، براق اللون طويلاً ديناً، انظر مختصر كتاب البلدان للهمذاني، ص١ .

(٢) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ص٧ .

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٦٥ .

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ص١١٥ب .

(٥) ابن سعيد، المغرب، ص٤٩ . وراجع أيضاً Becker, Beltrage, I,p.33

(٦) رسائل الصابي، طبعة لبنان، ١٨٩٨م، ص١٥٣ .

(٧) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

وكان الفرعان المتعاديان من أهل البيت وهما العباسيون الذين وصلوا إلى الرياسة، والطالبيون الذين لم يبلغوها، يخضعون جميعاً لنقيب واحد حتى القرن الرابع[1]. وفى آخر هذا القرن صار لكل فريق منهم نقيب خاص؛ والسبب الأقوى فى ذلك أن العباسيين بدأ أمرهم فى الضعف، وبدأ الآخرون فى القوة، فلم يستطيعوا أن يتحملوا أشراف أحد على أمرهم، وقد مهدت ظروف ذلك العصر لما عليه الأشراف اليوم.

وكان كل من العلويين والعباسيين يخاطب بالشريف[2]، ولم يكن للعلويين شارة يتميزون بها. كما تدل على ذلك الحكاية التى أوردها غريب ابن سعيد القرطبى فى كتابه صلة تاريخ الطبرى[3]. اما اللون الأخضر فلم يجعل شارة لهم إلا أخيراً فى القرن الثامن الهجرى[4].

وكان يعطى لكل واحد من بنى هاشم ببغداد دينار فى كل شهر فى عهد المعتمد (٢٧٩/٢٥٦هـ- ٨٩٢/٨٧٠م)، أما الذين خرجوا من بغداد، فقد تركوها خاوية الوفاض، ثم اقتصر الخليفة المعتضد على ربع دينار. وكان عدد بنى هاشم بالحضرة (الحاضرة) أربعة آلاف نفس، وجملة الجارى لهم ألف دينار فى الشهر[5]. وفى سنة ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م أحصى عدد العباسيين فكانوا ثلاثة وثلاثين ألفاً[6]. على حين أن الجاحظ، حوالى ذلك الوقت يقول: «إن آل أبى طالب احصوا

---

(١) عريب، ص٤٧ .

(٢) التنوخي، كتاب الفرج بعد الشدة، جـ٢، ص٤٢ .

(٣) ياقوت، الإرشاد، جـ١، ص٢٥٦، عريب، ص٤٩ .

(٤) انظر الفصل الخاص بالشيعة.

(٥) كتاب الوزراء، ص٢٠ .

(٦) الطبري، جـ٢، ص٩٦٩، كتاب العيون، ص٣٥١ .

منذ أعوام، فكانوا قريباً من ألفين وثلاثمائة»[1].

وكان يجرى للهاشميين راتب خاص، وإن كان قليلاً، فكان المعتضد يجرى على أولاد المتوكل وأولادهم رجالاً ونساءاً ألف دينار فى الشهر، وكان يعطى اولا الواثق والمهتدى والمستعين، ومن فى قصر أم حبيب خمسمائة دينار أيضاً[2]. ولذلك لم يخل العلويون من بعض المخاطرين الساخطين، وكانت بخارى مركز هذه الجماعة الذى إليه يأوون، لأنه كانت ببخارى اكبر حكومة غير شيعية بعد بغداد. وفى حوالى سنة ٣٨٠هـ، إلتقى ببخارى بعض أبناء الخلفاء، مثل أبى طالب المأمونى، وأبى محمد الواثقى، وابن المهدى، وابن المستكفى[3]. وكان أبو محمد الواثقى يشهد بنصيبين عند الحاكم والقضاة، وإليه مع الشهادة الخطابة فى المسجد الجامع، ثم أفسد على القاضى امره، فأخرج من بغداد، فقصد خراسان راجياً أن يقلد قضاء، أو ديوان بريد، فلم ينل ما اراد، فذهب مغاضباً يتوغل فى البلاد (بلاد الترك) حتى ألقى عصاه بحضرة بغراخاقان، وإفتعل مع رجل آخر كتاباً عن الخليفة بتقليده العهد بعده، حتى اضطر الخليفة أن يكتب بتكذيبه إلى خراسان وسائر الأطراف، ولم يزل الواثقى يزين لبغراخاقان إزالة الدولة السامانية والإستيلاء على المملكة، وبنى التدبير على أن تكون له الخلافة، ويتقلد التركى أعمال خراسان وما وراء النهر من يده فجمع التركى جيوشه ببخارى واستولى عليها، ولكنه مات قبل تحقيق نهاية التدبير، وعاد الواثقى إلى بغداد سراً بعد فشل تدبيره، لكن الخليفة فطن إليه واضطره إلى الخروج، فعاود بلاد الترك، وتقلبت به الأحوال حتى قبض عليه يمين الدولة محمود بن

---

(١) الجاحظ، كتاب الفصول، مخطو رقم ٢١٣٨ بالمتحف البريطاني، ص١٢٠٧ .

(٢) كتاب الوزراء، ص٢٠ .

(٣) نفس المصدر، ص٢٠ .

سبكتكين، وحبسه فى إحدى القلاع موسعاً عليه بالضرب حتى مات[1]. اما المأمونى فكان ايضاً يسمو بهمته إلى الخلافة ويمنى نفسه قصد بغداد فى جيوش تنظم إليه من خراسان لفتحها، فمات قبل بلوغ الأمنية، ولم يكن بلغ الأربعين، وكانت وفاته سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م[2]، ثم حاول محمد بن الخليفة المستكفى الذى خلع سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م أن يستولى على الدولة مستعيناً بما جاء فى الأخبار من ظهور المهدى، فظهرت دعوته بين العام والخاص، وادعى أنصاره انه «يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويجاهد أعداء المسلمين، ويجدد ما عفا من رسوم الدين، فتطلعت إليه نفوس العامة، وجعل دعاته يأخذون له البيعة على الرجل بعد الرجل؛ فمن كان من أهل السنة قالوا له أنه عباسى، ومن كان من أهل التشيع قالوا له أنه علوى؛ ودخل جماعة من وجوه الكتاب وأماثل الناس فى هذا الأمر ودخل فيه خلق كثير من الديلم والترك والعرب، وكان فيهم سبكتكين القائد العجمى، وكان يتشيع، فقال له الدعاة، أن الرجل علوى ووعدوه بأن يقلد أمرة الأمراء فاستجاب للدعوة، ثم ظهر لسبكتكين أن الرجل عباسى لا علوى، فتغيرت نيته، وتصوره بصورة المحتال، ثم إنتهى امره بأن قبض عليه بختيار وعلى أخيه، وأسلمهما للخليفة المطيع لله، فأمر بجدع انف صاحب الدعوة، وقطع أذن أخيه وحبسهما، ثم هربا وخفى امرهما[3].

وكان الهاشميين إلى جانب ما يجرى لهم من راتب خاص، يقدمون فى تولى مناصب مشرفة، يصبون منها المال بلا مبالاة، ولا مراجعة ضمير؛ فكانت تسند إليهم إمامة كثير من المساجد[4]، فمثلاً كان أحد الهاشميين إماماً لجامع المنصور

(١) كتاب الوزراء، ص٤٢١، يتيمة الدهر، جـ٤، ص١١٢-١١٣ .

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٩، ص٧١ .

(٣) مسكويه، جـ٦، ص٣١٥-٣١٧ .

(٤) قدامة بن جعفر، كتاب الخراج، مخطوط باريس ص١١٤.

ببغداد وهو أكبر جامع فى الدولة الإسلامية[1]، وكان إمام جامع عمرو بمصر فى مثل هذا الوقت هاشمياً ايضاً[2]. وكذلك تولى قضاء القضاء فى عامى ٣٦٣-٣٩٤هـ/ ٩٧٤-١٠٠٤م، رجلان من بنى هاشم[3]. وفى أواخر القرن الرابع كان أبو محمد الواثقى من ولد الواثق بالله أمير المؤمنين يتولى الخطبة فى المسجد الجامع بنصيبين[4] كما كان الذى يحج بالناس فى كل عام رجلاً من بنى هاشم؛ وهذه مهمة يصيب من يقوم بها شيئاً كثيراً، وكانت لا تخرج من يد الهاشميين. ولما إحتاح المأمون أن يستعين بالعلويين على أخيه الأمين، تولى الحج بالناس رجال من الطالبين منذ سنة ٣٠٣هـ، وكانت هذه أول مرة ينج فيها الطالبيون بالناس ولكن إمارة الحج عادت إلى الهاشميين بعد ذلك بثلاث سنين، وبقيت لهم حتى آخر أيام المسعودى عام ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م[5]، ثم آلت إلى العلويين، وكانوا ينيبون من بينهم من يقوم بالحج[6]. وكانت أول ما تعطى المبرات إلى أقارب النبى محمد، فكان أحمد بن أبى يعقوب بن يوسف بن إبراهيم المعروف بابن الداية (توفى سنة ٣٤٠هـ) يجرى بمصر فى عهد ابن طولون الجرايات على الإشراف الطالبيين؛ ومنهم من كان ينال مائتى دينار فى كل سنة[7]. وكان الوزير على بن عيسى فى أوائل القرن الرابع ينفق كل سنة أربعين ألف درهم فى صلات الطالبيين والعباسيين وأولاد الأنصار والمهاجرين وفى مصالح الحرمين[8]. وفى سنة ٣٣٤هـ

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ص٩٠ .

(٢) الكندي، ملحق الكندي، ص٥٧٥ .

(٣) ابن الجوزي، المرجع السابق، ص١٠٥ا، ١٤٩ب.

(٤) كتاب الوزراء، ص٤٣١ .

(٥) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ٩، ص٦٩-٧٠ .

(٦) ابن الأثير، الكامل، جـ٩، ص٥٤، ابن الجوزي المنتظم، ص١٢٩ب

(٧) ياقوت، الإرشاد، جـ٢، ص١٥٩ .

(٨) كتاب الوزراء، ص٣٢٢-٣٢٣ .

وصل الخليفة المطيع لله، العباسيين والعلويين فى يوم واحد، ينيف وثلاثين الف درهم[1]. وقد كان أبو علاء المعرى يصل بعض العلويين، ويبعث إليه مرة بشئ من النفقة، وأرسل له يعتذر لقتله ويرجوه قبوله[2]. ومن الأمثال المعروفة أن العلوى يأخذ ولا يعطى[3]. وإذا نظرنا إلى قلة جارى بنى هاشم، وهو ربع دينار فى الشهر علمنا أنهم لابد أن يكونوا جميعاً علويين وعباسيين فى فاقة شديدة ونجد أحد الهاشميين يشتغل عيناً بجمع الأخبار، وفى عام ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م وقع غلاء ومجاعة فقتل كثير من النساء الهاشميات لأنهن كن يقتلن الأطفال ويأكلن لحمهم[4]. وكان عند الصاحب بن عباد وزير فخر الدولة لشمال فارس علوى شامى يحدثه بما شاهد من الأعاجيب[5]. وقد تحدث بن الحجاج (المتوفى سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠١م) فى بعض شعره عن مغنية هاشمية سيئة السيرة[6]. ومما يحكى عن كافور الأخشيدى صاحب مصر، انه وقفت له إمراة فى طريقه وصاحت به: إرحمنى يرحمك الله، فدفعها أحد رجاله دفعاً عنيفاً فسقطت، فإغتاظ كافور وأمر بقطع يده، فقامت تشفع له، فتعجب من مكرمتها، وقال: أسألوها عن أصلها، فما تكون إلا من بيت عظيم، فسئلت فإذا بها علوية، فعظم الأمر على كافور وقال: «قد أغفلنا الشيطان عن نساء الأشراف، واحسن إليها وتفقد سائر النساء (نساء الأشراف) وأدر عليهن الإحسان وأيضاً الجرايات[7]. وفى سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م وقعت

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ص١٧٤.

(٢) رسائل ابي العلاء المعري، ص٢٥ .

(٣) التنوخي، كتاب الفرج بعد الشدة.

(٤) يحي بن سعيد، ص٨٧، ابن الجوزي، المنتظم، ص٧٤ .

(٥) محاضرات الأدباء، جـ٢، ص٢٩٥ .

(٦) ديوان ابن الحجاج، جـ١٠، ص١٤١ .

(٧) ابن سعيد، المغرب، ص٤٨ .

فى بغـداد فتن عظيم اصلها ان عـربد رجل عـباسى على رجل علوى وهمـا على نبيذ، فـقـتل العلوى ونفـر اهله واسـتـغـاثوه لأجله، ودخلت العـامـة، وعظم الأمـر، وكان «اعمام النبى» من أكبر مشعلى نيران الفتنة بين عامة بغداد[1].

وفى عـام ٣٠٦هـ/ ٩١٨م، وثب جـمـاعـة من الهـاشـمـيين على الوزير على بن عيسى بسبب تأخـر أرزاقهم فشتمـوه وخـرقـوا دراعتـه، وأرجلوه، فخلصه القـواد منهـم، وإتصل ذلك بالمقـتـدر فـأمـر فـيـهم بأمـور عظام وبأن ينفـوا إلى البـصـرة مـقـيدين، فحملوا على سفينة مطبقـة بعد أن ضـرب بعضهم، وأمـر الخليفة أن يحبسوا فى محبس البصرة، فحملهم سبك الطولونى أمير البصرة مقيدين على حمـيـر إلى دار فى جـانب المحبس، وكلمـهم بجـمـيل ووعـدهم خـيـراً، وفـرق فـيـهم امـوالاً، إلا أنه أسـر بذلك؛ ثم نفـذ كـتـاب بإطلاقـهم فـأحـسن إليهم الأمـيـر، وصـنـع لهم طعاماً ووصلهـم، فكان مقامهم بالبصـرة عشرة أيام[2]. وكلما قوى أمر الشيعة ببغـداد، وأظهروا الإحـتـفـال بأعيادهم، قابل العـباسـيـون السنييون الشيعـة بنهوض من جـانبهم، وفعلوا مـثلما يفعله الشيـعـة، وأكبـر من كان يـفـعل ذلك السنيـون فى باب البصرة[3]، وحـوالى عام ٣٥٠هـ/ ٩٦١م وقعت فتنة عظيمة ببغداد - كما تقدم - بسبب نزاع بين علوى وعبـاسى، فقبض الوزير المهلبى الحـازم على كثـير من مثيرى الفتنة فى بعض مـدن العراق من العبـاسـيين، وجـعـلهم فى زوارق مطبـقـة مـسمـرة وأنفـذهم إلى السجن، فكانوا هنـاك حيث مـات كثـيـر منهم، ثم أطلق البـاقون بعـد مـوت المهلبى[4]. وقـد أراد القـائد عمـيـد الجـيـوش سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م أن يضـع حـداً

(١) كتاب الوزراء، ص٣٣١ .

(٢) عريب، ص٧٥-٧٦ .

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٩، ص١١٠ .

(٤) كتاب الوزراء، ص٣٣١-٣٣٢ .

لهذه العداوة القديمة بين أهل السنة والشيعة ببغداد، وهى العداوة التى كان المهرجون المتطوفون من العلويين والعباسيين يدعون الناس فيها للقتال والشغب؛ وكان عميد الجيوش قد أرسل لإخماد الفتنة القائمة، فطلب الثوار من العلويين والعباسيين، فكانوا إذا وقع أمر، يقرن العباسى بالعلوى فى جمع كبير من الناس، حتى هدأت بذلك الفتن والثورات المستمرة وتجددت الإستقامة المنسية، وخاف الغائب والحاضر[1].

وهنا لا يفوتنا أن نذكر أن ما يحدث فى العراق اليوم من إرتكاب جرائم بشعة يومياً من قتل وحرق وتدمير وتخريب وسرقة على يد الأمريكان ودول الكفر من الغربيين، إنما مرجعه ذلك الذى نذكره الآن من إختلاف مذهبى طائفى بين السنة والشيعة، وأنه أمر ليس بجديد ذلك الذى نراه على شاشات التليفزيون وعبر الأقمار الصناعية. فهو خلاف تقليدى قديم منذ قيام الدولة العباسية فى بغداد لم يتوقف لحظة طالما سنحت له الظروف؛ وقد حرصت أمريكا وذيولها من الحكام العرب والأجانب وأشعلت نار الفتنة التى خمدت فترة قصيرة لا تتعدى سنوات محدودة. استغلت أمريكا ودول الشرك هذا العداء الطائفى لوضع يدها على مقدات العراق البترولية واتخاذ أرضها قاعدة تنطلق منها لتهديد العالم العربى على وجه الخصوص والعالم الإسلامى على العموم، تحت ستار وشعار الأكاذيب «عراق حرة» وقد فضل الشيعة فى العراق هؤلاء الكفرة على الحكام المسلمين السنة وهو ليس إلا بسبب ما بين السنة والشيعة من كراهية وأحقاد فى ذلك البلد منذ قيام الخلافة العباسية فى بغداد؛ فترحيب الشيعة هنا بالمستعمر الأمريكى ليس إلا ضماناً لنفوذهم وسيطرتهم على السنة حتى لو استمر

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ص١٤٧ب.

الاستعمار الأمريكى والأجنبى راكضاً على أرض العراق أبد الدهر، ومن الغريب أن بعض الحكام العرب من المسلمين السنة يشجعون البقاء الأمريكى فى العراق..؟!! فهل من مُدكر يا من نصبتم انفسكم حكاماً على العرب والمسلمين؟ وهل من مراجعة ضمائركم ومحاسبة انفسكم قبل أن تحاسبوا؟ متروك لكم الإجابة.

على أية حال، نعود إلى العصر العباسى لنتابع الموقف هناك؛ فقد جاء الوقت الذى ترقبه العلويون بعد طول إنتظار ونفاد صبر فأخذ نجمهم فى الصعود فى كل مكان، على حين بدأ أمر العباسيين (السنة) فى الضعف، فيقول المقدسى فى كلامه عن إقليم خراسان مثلاً: «وأولاد علىّ رضى الله عنه فيه علىّ غاية الرفعة، ولا ترى به هاشمياً إلا غريباً»[1]. وفى هذا الأمر نجد أن الظروف والموقف الذى نراه الآن - والكلام للمقدسى - فالعلويين هم الذين يمثلون أهل بيت النبى محمد ﷺ، وقد عمل الجميع من قرامطة وفاطميين على خدمة قضية العلويين، فأنشأوا دولة علوية فى جبال فارس، وفتحوا مكة بعد منتصف القرن الرابع الهجرى، وجعلوها عاصمة البلاد المقدسة، واستطاعوا بدهاء أن يستغلوا المنافسة الشديدة القائمة بين القاهرة وبغداد لمصلحة هذا المركز الجديد[2]. وكان الملوك الجدد فى الغرب والشرق، وهم الحمدانيون والبويهيون على مذهب الشيعة، وكان إزدياد التكريم للنبى مما أسبغ حول أبنائه تكريماً كبيراً، ويحكى أن كافوراً الأخشيدى كان يوماً فى موكب فسقط منه سوطه، فناوله إياه أحد الشرفاء فقبل يده شكراً، وقال له: «نعيت والله إلى نفسى، فما بعد أن ناولنى ولد

---

(١) المقدسي، ص٣٢٣ .

(٢) ابن سعيد، المغرب، ص٦ .

رسول الله ﷺ سوطى غاية يتشرف لها، فمات عن قريب[1]. وكان الأخشيدى يخلف أباه طغجاً على طبرية وكان أهلها شيعة، وكان بها أبو الطيب العلوى، وجه البلد شرفاً وملكاً وقوة. فكتب الأخشيد لأبيه يذكر انه ليس له أمر ولا نهى مع أبى الطيب[2]. وكان الأخشيد بريئاً من كل تحيز، فأحضر عبد الله بن طباطبا والحسين بن طاهر بن يحى إلى مجلسه، «وكانا لا يفارقانه هذا حسنى وهذا حسينى، وبينهما عداوة الرياسة والإختصاص[3]. والحسين بن طاهر هو الذى أرسله الأخشيد إلى سيف الدولة ليفاوضه من أجل السلام، وتحديد الحدود بينهما[4]. وهو الذى سفر ايضاً بين الأخشيد وبين ابن رائق فى الصلح، حينما جاء ابن رائق مهاجماً مصر عام ٣٢٧هـ/ ٩٣٩م[5]، وكان الحج قد تعطل منذ عام ٣١٧هـ حتى عام ٣٢٧هـ، لإعتراض القرامطة، فكاتبهم أحد العلويين، وكانوا يخشونه لشجاعته وكره، حتى إنتهى الأمر بتسهيل سبيل الحج[6]، وكذلك كان العلويون هم الذين يتوسطون عادة فيما يقوم من خصومات فى بيوت الشيعة من بنى حمدان وبنى بويه. وإذا عرفنا ما كان يعود على العلويين من هذا التوسط استطعنا أن نستنبط مقدار ما لحقهم من الخسارة، حينما اضطرتهم حكومة بغداد أن يحددوا موقفهم إزاء الفاطميين، وأن ينبذوهم ولا يعتبرونهم من أبناء على بن أبى طالب الحقيقيين. وفى سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م صدر كتاب من الأمير بهاء الدولة بأن يضاف إلى الرضى الموسوى النظر فى جميع أمور الطالبيين

---

(١) ابن سعيد، المغرب، ص٤٧ .

(٢) نفسه، نفس المصدر، ص٦ .

(٣) نفسه، ص١٨ .

(٤) نفس المصدر، ص١٨ .

(٥) نفس المصدر، ص١٨ .

(٦) نفسه، نفس المصدر، ص٢٥ .

بجميع البلاد، وجعله نقيب النقباء، ولم يبلغ ذلك أحد من أهل البيت[1]، وخلع على الرضى السواد، فكان أول طالبى لبس السواد على زى العباسيين[2]. وكان فى هذا إقرار من جانب ابن عم العباسيين الذى كان أقوى منهم من قبل بأنه قد هزم.

أما أبناء الخلفاء الثلاثة الراشدين فلم يلعبوا دوراً هاماً، ولما اشتد البلاء على أهل مصر من ولاية العمرى، خرج جماعة إلى هرون الرشيد وشكوا إليه ما يفعله العمرى فيهم، فقال: انظروا فى الديوان كم لى من وال من ولد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فكشف الديوان، فلم يوجد غيره فقال: انصرفوا فوالله لا عزلته أبداً[3]، ثم خلفه على القضاء هاشم بن أبى بكر البكرى، من قبل الأمين عام ١٩٤هـ، وقد دخل مصر مقلاً؛ واليوم نجد أبناء أبى بكر وعمر إلى جانب أبناء النبى عليه السلام هم الذين يتألف منهم الأشراف بمصر، ونجد البكريين منهم بنوع خاص يسمون الصديقين، يتولون منذ أوائل القرن التاسع عشر مناصب روحية تعود عليهم بالخير الوفير[4].

ونجد فى حوالى سنة ٤٠٠هـ، أبا الغطاريف عملاق بن غيداق العثمانى يقيم بنيسابور، وينتسب إلى عثمان بن عفان، وكان كثير الشعر قليل الملح، وممن ثقل حتى خف وقبح حتى ملح، يتعاضى الفواحش، ويقول الشعر «فإذا قيل له: كيف أصبحت أيها الشريف قال: أصبحت جوالاً فى السكك حلالاً للتكك على رأسه: طائركم معكم سرمداً، وعلى جبينه: ولن تفلحوا إذن أبداً»[5].

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ص١٥٨؛ ديوان الرضي، ص٢١٠ .

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٩، ص١٧٠ .

(٣) الكندي، القضاة والولاة، ص٤١٠ .

(٤) نفسه، نفس المصدر، ص٤١٦ .

(٥) يتيمة الدهر، جـ٤، ص٢٩٣-٢٩٤ .

هذه هى أهم السلالات الشريفة التى نشأت عن الدين[1]. أما سلائل الأشراف الذين كانوا قبل الإسلام، فقد احتفظوا بأنفسهم متمسكين اشد التمسك بما كان لهم، وذلك فى الأجزاء الإقطاعية من جبال فارس وغاباتها وقلاعها؛ يقول بن حوقل: «وبفارس سُنة جميلة وعادة فيما بينهم كالفضيلة من تفضيل أهل البيوت القديمة، وإكرام أهل النعم إلى أيامنا»[2]. والغالب على ملوكهم وخدمهم والمخالطين للسلطان من عمال الدواوين وغيرهم «إستعمال المروءة فى أحوالهم ... وتحسين الموائد بالمطاعم، وكثرة الطعام، وإحضار الحلوى والفواكه قبل الموائد، والنزاهة عما يقبح به الحديث من الأخلاق الدنية، ترك المجاهرة بالفواحش والمبالغة فى تحسين دورهم ولباسهم وموائدهم، والمنافسة فيما بينهم من ذلك، والآداب الظاهرة فيهم والعلم الشائع فى جميعهم»[3]. أما السادة سادة العهد الأموى، فلم يستطع الإحتفاظ بمركزهم منهم إلا المهالبة بنو المهلب بن أبى صفرة، وكان مقرهم بالبصرة حيث كانت لهم دور حسنة[4]؛ وقد كان لأحدهم شأن فى ثورة الزنوج الكبيرة فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى[5]. ولعله كان يتوقع فى ذلك العهد نهاية دولة بنى العباس. وتولى آخر من المهالبة وزارة عضد الدولة حوالى منتصف القرن الرابع؛ وقد أراد آل بنى الشوارب القضاة أن يقيموا بينهم وبين الأمويين، وبالتالى ملوك قرطبة والملتَان[6] نسباً[7]. وكان لأبناء الدولة، الذين حاربوا لأجل الدولة العباسية وجاءوا

(١) ومن الأشراف الذين اوجدهم الدين سلائل انصار الرسول؛ المنتظم، ص١١٢ .

(٢) ابن حوقل، صور الأرض، ص٣٠٧ .

(٣) نفسه، نفس المصدر، ص٢٠٥-٢٠٦ .

(٤) الثعالبي، كتاب المرواة، مخطوط برلين، ص١٢٩ب.

(٥) كتاب العيون، ص٦ب، ١٧.

(٦) المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص٣٧٧ .

(٧) كتاب العيون، ص١٧١.

معها من خراسان إلى بغداد - وكانوا من الأشراف المحاربين الأحرار - شأن قوى فى القرن الثالث الهجرى، وكانوا يفتخرون بالصبر تحت صلال السيوف، وبأنهم فرسان شجعان، ومن قولهم: «ولدنا فى أفنية ملوكنا، وتحت أجنحة خلفائنا فأخذنا بآدابهم، واحتذينا على مُثلهم»[1]. ولكن حلّ محلهم فى القرن الرابع مماليك فرسان، معتقين أو غير معتقين، أصلهم من الترك والفرس، بل نجد أيضاً أن آخر سلائل الطاهريين الذين كان بينهم فى القرن الثالث الهجرى ثان بيت فى الدولة الإسلامية، بعد بيت الخلافة، يعالجون فى بلاط بخارى خدمة الساسانيين، وقد فقدوا ما كان لهم من مجد قديم، ولكنهم لم يحرموا من الملكة الشعرية، فكان منهم شاعر كان يخدم آل سامان جهراً، ويهجوهم سراً، ويطوى على بغض شديد لهم[2]. وكان هؤلاء السادة جميعاً يسمون فى جميع بلاد الشمال حتى بلاد الترك الرومانية البيزنطية البطارقة[3].

ويحدثنا ابن رسته فى أواخر القرن الرابع أحاديث طريفة عن البيوت الكبرى فى عصره؛ فأما الأشاعثة، فقد كان جد الأشعث بن معدى كرب علجاً من أهل فارس اسكافياً، وكانت وردة بنت معدى كرب عمة الاشعث عند رجل من اليهود، ولم تخلف ولداً، فأتى الأشعث عمر بن الخطاب يطلب ميراثها، فقال له عمر: «لا ميراث لأهل ملتين؛ وأما آل المهلب بن أبى صفرة، فقد كان أبو صفرة فرسياً مجوسياً حائكاً، وأما آل خالد بن صفوان الاهتمين، فإن الأهتم بن علجة، كانت إمرأة أكار، أخذها قيس بن عاصم بن سنان، وجماعة من بنى منقر، أغاروا على الحيرة وآل الجهم بن بدر بن جهم بن مسعود، كان جدهم مسعود عبداً

(١) رسائل الجاحظ، طبعة فان فلوتن، ص١٥-١٦ .
(٢) يتيمة الدهر، جـ٤، ص٧-٨، ص١١-١٢ .
(٣) يتيمة الدهر، جـ٤، ص٦-٧.

لحبيب بن شهاب، هرب منه ولحق بخراسان، وإدعى أنه من بنى سامة بن لؤى القرشى، وكان آل أبى دلف قوماً من العباديين من أهل الحيرة، وكانوا جهابذة بها، فخرج جد لهم، يقال له ادريس، فأثرى، وإبتاع داراً بالبصرة، ثم خرج إلى الجبل، فأبوا دلف من ولده، والربيع الحاجب، وهو رأس أسرة من كبار العمال، كان ابن زنى من جارية سوء، كانت عند مولى لعثمان بن عفان[1].

ثانياً: العلماء وأثر العلم فى إرتقائهم:

كان إهتمام الخلفاء فى الدولة الإسلامية بالعلماء شئ مثير للفخر والإعتزاز، وقد كان إهتمامهم بالعلماء يفوق التصور والخيال، حتى فى أسوأ حالات الدولة الإسلامية. وكان الخلفاء يقرّبون إليهم العلماء، بل كانوا يجعلونهم على مقربة منهم من بيوتهم أو فى بيوتهم، وكذلك الأمراء والسلاطين من المسلمين؛ إذ كان أهم ما يميز بلاط الخليفة أو السلطان هو ذلك المظهر العلمى فى أروقة قصر الخليفة المسلم. ولم يكن هذا الإهتمام بالعلماء من قبل الخلفاء أمر مبتدع فى الدولة الإسلامية، بل هى رسالة سماوية وأساس من أهم أسس ودعائم الإسلام منذ ولادته فى جزيرة العرب على يد النبى محمد صلوات الله وسلامه على؛ إذ كانت أول آية نزلت عليه جاءت لتحث النبى والمسلمين من بعد الإهتمام بالعلم والعلماء، فقال العلى القدير فى كتابه الكريم: ﴿إقرا باسم ربك الذى خلق﴾، وفى آية أخرى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

إذا كان لابد أن يكون العلماء فى الدولة الإسلامية تمثل إحدى طبقات هذا المجتمع.

---

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ص١٥-١٧ .

وإذا تخطينا المرحلة الأولى (مرحلة التكوين) فى الدولة الإسلامية وجدنا منذ القرن الثالث الهجرى، أن صار الأدباء والعلماء قد نشأوا حول الخلفاء - كما ذكرنا - وفى قصورهم، وتعلموا الأدب على تقاليد الفروسية، أدباء من طراز جديد، يحيطون بكل شئ، ويشبهون فى عصرنا الصحفيين غير المتخصصين الذين يكتبون فى كل المواضيع وفى كل الأمور؛ ولهذا نجد العلماء يفرقون بين انفسهم وبين الأدباء، حتى قال ابن قتيبة: «من اراد ان يكون عالماً فليطلب فناً واحداً، ومن اراد ان يكون اديباً فليتسع فى العلوم[1]. وهكذا يمكننا القول ان قصر الخليفة المسلم كان أشبه بالجامعة فى العصر الحديث يضم شتى فروع المعرفة الإنسانية والأدبية والعلمية. وقد خرجت من بين فنون الآداب القديمة مجموعة من العلوم الدنيوية. ولم يكن من العلوم حتى ذلك الحين ماله منهج علمى واسلوب علمى سوى الفلسفة وعلم الكلام، ثم صار لكل من التاريخ والجغرافية واللغة منهجه الخاص. وترك العلماء ماكانوا قد ألفوا قبل من إتخاذ المعارف وسيلة للتسلية، كما انهم اصبحوا لا يغالون فى حشد المعارف على تنوعها وتعددها، بل أقبلوا على الدراسة العلمية وعلى تنظيم المعارف، وشعروا بما يجب عليهم من عناية ومحاسبة فى تدوينها؛ ولقد أوجزوا مقدمات كتبهم إيجازاً كبيراً، ومن ذلك ما كتبه صاحب الفهرست، فى مقدمة كتابه عام ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م؛ «رب يسر برحمتك، النفوس تشرئب إلى النتائج دون المقدمات، وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل فى العبارات، فلذلك اقتصرنا على هذه الكلمات فى صدور كتابنا هذا، إذ كانت دالة على ما قصدناه فى تأليفه إن شاء الله، فنقول وبالله نستعين، وإياه نسأل الصلاة على جميع انبيائه وعباده المخلصين فى طاعته، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم....».

(١) المخلاة العاملي المتوفي سنة ١٠٠٣هـ، طبعة مصر، ص٢٢٨ .

ومن التغيرات الأخرى، أن علم الفقه تميز عن غيره من علوم الدين، وأصبح العلماء فريقين؛ الفقهاء والعلماء على الحقيقة. وكانت غالبية طلبة العلوم المتكسبين يقصدون الفقهاء، لأن الفقهاء هم حملة علوم الشريعة والعبادات، فكان لابد لمن يريد تولى القضاء والخطابة فى المساجد من التتلمذ على أيديهم. يقول الجاحظ فى نص مشهور له: «وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن، ويجالس الفقهاء خمسين عاماً، وهو لا يعد فقيهاً ولا يجعل قاضياً، فما هو إلا ان ينظر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة، ويحفظ كتب الشروط فى مقدار سنة او سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال، وبالحرى ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار او بلد من البلدان»[1].

وكان نهوض علم الكلام، بعد أن تخلص من قيود علم الفقه وكذلك ظهور الأفكار الجديدة فى ذلك العصر مما رفع أن العلماء إلى درجة عالية من الإحترام والتقدير. يقول المقدسى حوالى عام ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م: «ويأبى العلم أن يضع كنفه أو يخفض جناحه أو يسفر عن وجه إلا لمتجرد له بكليته ومتوفر عليه بأنيته معانا له بالقريحة الثاقبة والرؤية الصافية، قترنا به التأييد والتسديد، قد شمر ذيله وأسهر ليله حليف النصب ضجيع التعب، يأخذ مأخذه متدرجاً ويتلقاه متطرفاً لايظلم العلم بالتعسف والإقتحام، ولا يخبط فيه خبط العشواء فى الظلام، ومع هجران عادة الشر، والنزوع عن نزاع الطبع، ومجانية الألف ونبذ المحاكلة واللجاجة، وإجالة الراى عند غموض الحق والتأنى بلطيف المأتى وتوفية النظر حقه فى التمييز بين المشتبه والمتضح، والتفريق بين التمويه والتحقيق،

---

(١) الجاحظ، كتاب الحيوان، جـ١، ص٤٣-٤٤ .

والوقوف عند مبلغ العقول، فعند ذلك إصابة لامراد ومصادفة المرتاد[1].

وكان العلماء قسمان داخل المجتمع الإسلامى، علماء دين وهم المتخصصون فى التفسير والعبادات والمعتقدات الدينية، وعلماء متخصصون فى العلوم الدنيوية ويسمى أصحابها «كتاباً». وكان العالم «الكاتب» يتميز عن علماء الدين فى لباسه، فكان العلماء يلبسون الطيلسان، وكانوا فى خراسان يظهرون متطيلسين متحنكين، وكانت فارس مركز الكُتّاب، وكانوا فى مدينة شيراز يرفعون على العلماء[2]. ولكن خراسان كانت جنة العلماء، ولايزال العلماء بها إلى اليوم يتمتعون بجاه واحترام بين أفراد المجتمع المسلم لا نظر لهم فى سائر البلاد. ومن أمثلة ذلك أن أحد العلماء الزهاد دخل خراسان فخرج نسائهم وأولادهم يمسحون أردائه ويأخذون تراب نعليه ويستشفون به، وكان يخرج من كل بلد أصحاب البضائع بضائعهم وينثرونها مابين حلوى وفاكهة وثياب وفراء وغير ذلك، وهو ينهاهم حتى وصلوا إلى الأساكفة فجعلوا ينثرون المتاعات وهى تقع على رؤس الناس، وخرج إليه صوفيات البلد بمسابحهن والقينها إليه وكان قصدهن أن يلمسها فتحصل لهن البركة. فكان يتبرك بهن ويقصد فى حقهن ما قصدن فى حقه[3].

وكان فى كل جامع كبير مكتبة لأنه كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على الجامع و«الجوامع»[4]. ويقال أن خزانة الكتب بمُر كانت تحوى كتب يزدجرد لأنه حملها إليها وتركها[1].

---

(١) كتاب البدء والتأريخ، جـ١، ص٤-٥ .

(٢) المقدسي، ص٤٤٠ .

(٣) طبقات السبكي، جـ٣، ص٩١ .

(٤) ابن خلكان، جـ١، ص٥٥ .

وكان الملوك والخلفاء يفاخرون بجمع الكتب ويشجعون على استقدام العلماء إلى بلاطهم حتى كان لكل ملك من ملوك الإسلام الثلاثة الكبار بمصر وقرطبة وبغداد فى أواخر القرن الرابع عشر ولع شديد بالكتب، فكان الحكم صاحب الاندلس يبعث رجالاً إلى جميع البلاد ليشتروا له الكتب عند أول ظهورها، وكان فهرس مكتبته يتألف من اربع واربعين كراسة كل منها عشرون ورقة، ولم يكن بها سوى أسماء الكتب. اما فى مصر فكانت للخليفة العزيز بالله (المتوفى سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م) خزانة كتب كبيرة، وقد ذكر عنده كتاب العين للخليل بن احمد فأمر خُزان دفاتره فأخرجوا من خزائنه نيفاً وثلاثين نسخة منها نسخة بخط الخليل بن أحمد، وحمل إليه رجل نسخة من تاريخ الطبرى اشتراها بمئة دينار فأمر العزيز الخزان فأخرجوا ما ينيف على عشرين نسخة من تاريخ الطبرى منها نسخة بخطه، وذكر عنده كتاب الجمهرة لابن دريد فأخرج من الخزانة مائة نسخة منها[٢]. وقد ذكر المقريزى وغيره على أن الخزانة كانت تحتوى على ما يزيد على مائتى الف كتاب[٣].

وكان الجاحظ من أكبر عشاق الكتب والمولعين بها ولعاً شديداً فى القرن الثالث الهجرى، وكثيراً ما يذكر بذلك ابن خاقان، واسماعيل بن اسحق القاضى، فأما الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ماكان حتى أنه كان يكتنز دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر.

وقد حكى بعد المؤرخين المتأخرين انه مات فى حب الكتب، فقد روى بأنه مات بوقوع مجلدات عليه، وكان من عادته أن يضعها كالحائط محيطة به وهو

(١) طيفور، كتاب بغداد، ص١٥٧، وياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص٥٠٩ .

(٢) المقريزي، الخطط، جـ١، ص٤٠٩ .

(٣) نفسه، نفس المصدر والجزء، ص٤١٠، وراجع ايضاً: المقدسي، ص٤٩٤ .

جالس عليها، وكان عليلاً فسقطت عليه فقتلته[1]. وأما الفتح بن خاقان وكان من كبار رجال دار الخلافة فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل فإذا أراد القيام لحاجة، اخرج كتاباً من كمه أو خفه وقراه فى مجلس المتوكل، وأما إسماعيل بن اسحق فمتى دخلت عليه إلا رأيته ينظر فى كتاب أو يقلب كتاباً اوينفضها[2].

وفى سنة ٢٥٧هـ/ ٨٨٨م، توفى السجستانى المتحدث، وكان له كم واسع وكم ضيق، فقيل له فى ذلك؟ قال: الواسع للكتب، والآخر لا أحتاج إليه[3]. وقد عمل على بن يحى المنجم وكان ممن جالس الخلفاء خازناً لكتب عظيمة فى ضيعته، وسمى خزانته «الحكمة»، وكان يقصدها الناس من كل بلد، فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم، والكتب مبذولة لهم، والصيانة مشتملة عليهم، والنفقة فى ذلك من مال علىّ بن يحى فقدم ابو معشر المنجم من خراسان وهو يريد الحج ولا يحسن كبير شئ من النجوم، فوصفت له الخزانة، فمضى ورآها وهاله أمرها «فأقام بها وامتنع عن الحج وتعلم فيها علم النجوم واغرق فيه حتى الحد، وكان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين وبالإسلام أيضاً[4]. وفى سنة ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م، توفى أحد علماء اصفهان وكبار الضياع فيها، ويقال أنه أنفق فى شراء كتبه ثلاثمائة ألف درهم[5]. وفى سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م توفى محمد بن نصر الحاجب وخلف كتباً بأكثر من ألفى دينار[6]. وفى سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٧م، صودر حبشى بن معز الدولة لأنه أراد عصيان أخيه أمير بغداد فكان من جملة ما أخذ منه خمسة عشر

(١) تاريخ ابي الفداء سنة ٢٥٥هـ.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ياقوت، الإرشاد، جـ٦، ص٥٧ .

(٣) ابن تغربردي، طبعة ليدن، جـ٢، ص٧٩ .

(٤) ياقوت، المرجع السابق، جـ٥، ص٤٦٧ .

(٥) ابو نعيم، تاريخ اصفهان، مخطوط ليدن، ص٥١ب.

(٦) ابن الجوزي، المنتظم، ص٧٩ب.

الف مجلد سوى الأجزاء وما ليس بمجلد[1]. وفى سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٥م، نهب قوم من الغزاة دار الوزير ابى الفضل بن العميد بالرى فلما انصرف إلى داره ليلاً لم يجد فيها ما يجلس عليه ولا كوزاً واحداً يشرب فيه. وكان ابن مسكويه المؤرخ فى ذلك الحين خازناً لكتب ابن العميد، وهو يقص علينا القصة فيقول: «فأنفذ إليه أبو حمزة العلوى فرشاً وآلة واشتغل قلب الوزير بن العميد بدفاتره ولم يكن شيئاً أعز عليه منها، وكانت كثيرة فيها كل علم، وكل نوع من أنواع الحكم والآداب يحمل على مائة وقر، فلما رآنى سألنى عنها فقلت: هى بحالها لم تمسسها يد، فسرى عنه، وقال: أشهد أنك ميمون النقيبة أما سائر الخزائن فيوجد منها عوض، وهذه الخزانة هى التى لا عوض منها، ورأيته قد اصفر وجهه وقال: باكر بها غداً إلى الموضع الفلانى، ففعلت وسلمت بأجمعها من بين جميع ماله»[2]. وقد استدعى السلطان نوح بن منصور السامانى الصاحب بن عباد (المتوفى سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م) ليوليه وزارته فكان مما اعتذر به أنه لا يستطيع حمل أمواله، وأن عنده من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر، وكان فهرس كتبه يقع فى عشرة مجلدات، ولما ورد السلطان محمود الرى استخرج من بين كتب الصاحب كل ما كان فى علم الكلام وأمر بحرقه عن آخره[3]. وكذلك لم يجد البيرونى من قبل ولا الفردوسى من محمود هذا مشجعاً ولا حامياً وكان القاضى أبو المطرف (المتوفى سنة ٤٠٢هـ/ ١٠١١م) قاضى الجماعة بقرطبة وقد جمع من الكتب فى أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس، وكان له ستة وراقين ينسخون له دائماً، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه

---

(١) مسكويه، جـ٦، ص٢١٤، ابن الاثير، الكامل، جـ٨، ص٤٣١ .

(٢) نفسه، نفس الجزء، ص٢٨٦-٢٨٧ .

(٣) ياقوت، الإرشاد، جـ٢، ص٣١٥ .

ليشتريه منه وبالغ فى ثمنه، وكان لا يعير كتاب من أصوله البته، وإذا سأله أحد من ذلك والحف عليه أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ودفعه إلى المستعير. ويحكى ان أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتبه عاماً كاملاً فى مسجده، واجتمع من ثمنها اربعون ألف دينار[١]. ولما أراد البرقانى البغدادى (المتوفى سنة ٤٢٥هـ/ ١٠٣٣م) أن ينتقل احتاج إلى ستين من الأعدال وإلى صندوقين ليحمل فيها كتبه عند إنتقاله[٢]. وقد دخل ابو يوسف القزوينى المعتزلى (المتوفى عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) بغداد ومعه عشرة جمال عليها كتب[٣].

وقد أظهر المانويه من قبل عناية كبيرة بزخرفة الكتب، سنة ٣١١هـ/ ٩٢٣م احرقت على باب العامة ببغداد صورة مانى وأربعة أعدال من كتب الزنادقة فسقط منها ذهب وفضة وكان له قدر[٤]. فكانت كتبهم تكتب على ورق صينى وبعضها يكتب بماء الذهب ويبطن بالديباج والحرير ويجلد بالآدم[٥].

وكانت الكتب التى يرسلها ملك الروم مزخرفة وقد وصل إلينا من وصف بعضها ما يجعلها تحفة فنية، ففى سنة ٣٢٦هـ/ ٩٣٧م وصل كتاب ملك الروم إلى الخليفة الراضى ببغداد، وكانت الكتابة بالرومية بالذهب، والترجمة بالعربية بالفضة[٦]. وبعد ذلك ورد من الخليفة عبد الرحمن الناصر بقرطبة كتاب من صاحب القسطنطينية وكان فى ورق مصبوغ لوناً سماوياً مكتوباً بالذهب بالخط

---

(١) ابن بشكوال، كتاب الصلة في تاريخ علماء الاندلس، جـ١، ص٣٠٤-٣٠٥ .

(٢) Westenfeld, AGGw, 37, Mr, 335-336.

(٣) طبقات السبكي، جـ٣، ص٢٣٠ .

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ص١٢٣أ.

(٥) غريب عن ابن مسكويه، ص٩٠ .

(٦) ابن الجوزي، المنتظم، ص١٥٩أ.

الإغريقى، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضاً مكتوبة بالفضة بخط اغريقى أيضاً. وعلى الكتاب طابع دهب وزنه أربعة مثاقيل على الوجه الواحد منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده. وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء دهب فيه صورة الملك قسطنطين معمولة من الزجاج الملون البديع، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج[1]. وكانت أشعار الخليفة المعتمد مكتوبة بالذهب[2]. ولما تولى قاضى القضاة عبد الجبار منصبه كان الوزير ابن عباد (المتوفى عام ٨٣٦هـ/ ٩٩٦م) هو الذى انشأ له العهد وكتبه له بخطه، واعتنى بزخرفته، ويقال أنه كان سبعمائة سطر كل سطر فى ورقة سمرقندى وله غلاف ابنوس يطبق كالاسطوانة الغليظة، وقد أهدى هذا العهد فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى للوزير نظام الملك من هدايا أخرى كان منها مصحف بخط أحد الكتاب الموجودين بالخط الواضح، وقد كتب كاتبه بإختلاف القراءات بين سطوره بالحمرة وتفسير غريبه بالخضرة وإعرابه بالزرقه، وكتب بالذهب علامات على الآيات التى تصلح للإنتزاعات فى العهود والمكاتبات وآيات الوعد والوعيد وما يكتب فى التعازى والتهانى[3]. وكان اكبر ما يعنى به عشاق الكتب .. الكتب التى كتبها كبار الخطاطين والتى لأصحابها فى النسخ أصل منسوخ.

على أنه قد ظهرت دور الكتب، مؤسسات علمية أخرى، تزيد على دور الكتب بالتعليم أو على الأقل بإجراء الأرزاق على من يلازمها؛ فيحكى عن أبى القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى الفقيه الشافعى (المتوفى عام ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م)

(١) المقري، نفح الطيب، طبعة دوزي، جـ١، ص٢٣٦-٢٣٧ .

(٢) الشابشتي، كتاب الديارات، ص٢٩ب.

(٣) طبقات السبكي، جـ٣، ص٢٣٠ .

انه اسس دار للعلم فى بلده وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب علم لا يمنع أحد من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب وكان معسراً اعطاه ورقاً وورقاً[1]. وكان ابن حمدان يجلس فيها ويجتمع إليه الناس فيملى عليهم من شعره وشعر غيره، ثم يملى حكايات مستطابه وطرفاً من الفقه وما يتعلق به[2]. وقد عمل القاضى بن حبان (المتوفى عام ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) فى مدينة نيسابور داراً للعلم وخزانة كتب ومساكن للغرباء الذين يطلبون العلم، واجرى لهم الأرزاق، ولم تكن الكتب تعار خارج الخزانة[3]. وقد أنشأ ابو على بن سوار الكاتب أحد رجال حاشية عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢هـ/ ٩٨٢م) دار كتب فى مدينة رام هرمز على شاطئ بحر فارس، كما بنى داراً أخرى بالبصرة وجعل فيهما أجراء على من قصدهما، ولزم القراءة والنسخ فيهما وكان فى الأولى منهما أبداً شيخ يدرس عليه علم الكلام على مذهب المعتزلة هناك[4]. وفى سنة ٣٨٣هـ أسس ابو نصر سابور بن اردشر وزير بنى بويه داراً للعلم فى الكرخ غربى بغداد، ونقل إليهما كتباً كثيرة اشتراها وجمعها، وكان بها مائة نسخة من القرآن بأيدى احسن النساخ. كذلك اتخذ الشريف الرضى (المتوفى عام ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م) نقيب العلويين والشاعر المشهور داراً سماها دار العلم، وفتحها لطلبة العلم وعين لهم ما يحتاجون إليه[5]. ويدل مجرد اسم هذه المؤسسات على الفرق بينها وبين دور الكتب القديمة، فكانت دار الكتب قديماً تسمى خزانة الحكمة، وهى خزانة

(١) الورق (بكسر الراء) الفضة، والمقصود (النقود).

(٢) ياقوت، الإرشاد، جـ٢، ص٤٢٠ .

(٣) Westenfele, AGGW, 37-38.

(٤) المقدسي، ص٤١٣، وكتاب الفهرست، ص١٣٩ .

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ص١٣٥، ورسائل ابي العلاء ص٥٢ .

كتب ليس غير، أما المؤسسات الجديدة فتسمى دور علم، وخزانة الكتب جزء منها، وقد أنشئت فى مصر ايضاً مثل هذه الدور؛ فقد اشترى الخليفة الفاطمى العزيز بالله فى سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م داراً إلى جانب الجامع الأزهر وجعلها لخمسة وثلاثين من العلماء، وكان هؤلاء يعقدون مجالسهم العلمية بالمسجد فى كل يوم جمعة بعد الصلاة حتى صلاة العصر. فالجامعة الازهرية التى هى أكبر معهد علمى اسلامى اليوم نشأت فى القرن الرابع الهجرى. وكان الوزير ابن كلسى يحب أهل العلم والأدب ويقربهم، وكان يجرى بأمر العزيز بالله ألف دينار فى كل شهر على جمعة من اهل العلم والوراقين وايضاً المجلدين[1]. ثم جاء الخليفة الحاكم بأمر الله ففتح فى سنة ٣٩٥هـ الدار الملقبة بدار العلم[2]. بالقاهرة، وحمل الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة ودخل سائر الناس إليها يقرءون وينسخون واقيم لهم خُزان وبوابون، ورتب فيها قوم يدرِّسون للناس العلوم، ولكن الحاكم أبطل ذلك بعد قليل من الزمان وكان فى هذه الدار ما يحتاج الناس إليه من الحبر والورق والأقلام والمحابر. وقد وصلت إلينا ميزانية هذه الدار إذ كان ينفق عليها فى كل سنة ٥٢٧ دينار من العين المغربى.

وقد بقيت هذه الدار إلى أن ابطلها الأفضل بن امير الجيوش لأنه اجتمع فيها فريق من العلماء فاستفسد بعضهم عقول جماعة وأجرهم عن الصواب[3]. وكان معظم دروس الفقه والكلام تعطى فى المسجد؛ والمستمعون على هيئة حلقة بين يدى المدرس، وكان هذا يتخذ مكانه إلى جانب اسطوانه (عامود) فى المسجد مستنداً إليها بظهره إن أمكن، وإن اقترب أحد من هذه الحلقة سمع النداء دوروا

(١) ذكر ذلك معاصره وشريكه في الوطن يحي بن سعيد. ص١٠٨أ.

(٢) تسمي أيضاً دار الحكمة، المقريزي، جـ١، ص٤٥٨ (بشارع القصر العيني الآن).

(٣) يحي بن سعيد، ص١١٦أ.

وجوهكم إلى المجلس[1]. لقد احصى المقدسى فى المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء مائة وعشرة مجالس من مجالس العلم تُدَرَّس[2]. وكان جامع المنصور ببغداد وهو اقدم مسجد جامع بها أشهر مركز للتعليم فى الدولة الإسلامية. ويحكى ان الخطيب البغدادى[3]. لما حج شرب من ماء زمزم ثلاث شربات، وسأل الله عز وجل ثلاث حاجات أخذ يقول النبى ﷺ «ماء زمزم لما شرب له» فالحاجة الأولى أن يحدث بتاريخ بغداد، والثانية أن يملى الحديث بجامع المنصور، والثالثة أن يدفن إلى إذا مات عند قبر بشر الحافى، وقد جلس ابراهيم بن محمد نفطويه (المتوفى عام ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م) وكان من أكبر العلماء بمذهب داود الاصبهانى إلى اسطوانة بجامع المنصور خمسين سنة لم يغير محله منها[4]. وكان الفقهاء أكثر العلماء تلاميذ، وكان ذلك طبيعياً لأن الفقهاء يعلمون العلم الذى يؤهل اصحابه لتولى مناصب يعيشون منها كما تقدم القول، ولكن لو قارنا عدد التلاميذ فى ذلك العصر لوجدناه صغيراً بالنسبة لما نراه اليوم، وهذا يدل على كثرة العلماء بالنسبة إلى التلاميذ، فقد كان أبو حامد احمد بن محمد الأصفراييني (المتوفى عام ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م) إمام أصحاب الشافعى حتى قيل أنه افقه وأنظر منه، وكان يدرس بمسجد عبد الله بن المبارك ببغداد، وكان يحضر مجلسه مابين ثلاثمائة وسبعمائة فقيه[5]. وكان أبو الطيب الصعلوكى الفقيه الأديب مفتى نيسابور، وهى مركز علماء خراسان ويقال انه حضر مجلسه أكثر

---

(١) المقريزي، جـ١، ص٤٥٨-٤٥٩ .

(٢) المقدسي، ص٢٠٥، ابن الجوزي، المنتظم، ص٣١أ.

(٣) ياقوت، الإرشاد، جـ١، ص٢٤٦ .

(٤) نفسه، نفس المصدر، جـ١، ص٣٠٨ .

(٥) طبقات السبكي، جـ٣، ص٢٥، ابن الاثير، الكامل، جـ٩، ص١٨٣ .

من خمسمائة طالب علم فى عشية الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م[١]. وكان يعقد بين يدى أحد أصحاب الجوينى «الإمام الفرد» (المتوفى سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) فى كل يوم ثلاثمائة من الأئمة والطلبة[٢]. هذا على حين أننا نرى اليوم فى قشغر مثلاً مع أنها ليست مركزاً دينياً كبيراً أن أكثر من خمسمائة طالب يحضرون درس أكبر العلماء فيها[٣]. وكان عدد الطلاب يعرف بإحصاء محابرهم التى يضعونها أمامهم والتى كانت آهم عتاد الطالب[٤]. ولما قدم محمد بن جرير الطبرى بغداد قصده الحنابلة فسألوه عن أحمد بن حنبل وعن حديث الجلوس على العرش فقال: «أما أحمد فلا يعد خلافه فوثبوا ورموه بمحابرهم غاضبين[٥]. وكان إذا مات العالم كسر تلاميذه المحابر والأقلام وطافوا فى البلاد نائحين مبالغين فى الصياح، فلما مات الجوينى سالف الذكر، وكان خطيباً مشهوراً أيضاً، كسر منبره، واشتركت نيسابور كلها فى حزن العلماء عليه فلم تفتح الأبواب من البلد ووضعت المناديل على الرؤوس عاماً بحيث ما اجترأ أحد على ستر راسه»[٦].

وكان الطلبة يحضرون كتبهم فى شئ يسمى قارورة ولعلها سميت بهذا الاسم من سبيل الفكاهة العلمية[٧].

---

(١) نفسه، نفس المصدر والجزء، ص١٦٩-١٧٠ .

(٢) السبكي، جـ٣، ص٢٥٣ .

(٣) Hartmann, Chinesisch, tur;estan, P-45.

(٤) السبكي، جـ٣، ص١٧٠، النووي، نفس الإشارة.

(٥) ياقوت، الإرشاد، جـ٦، ص٤٣٦ .

(٦) السبكي، طبقات، جـ٣، ص٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٧) ياقوت الإرشاد، جـ٢، ص١٠ .

وكان الإملاء فيما مضى من الزمان يعتبر أعلى مراتب التعليم[1]. وكثيراً ما كان المتكلمون واللغويون فى القرن الثالث الهجرى يتبعون طريقة الإملاء خاصة، فيحكى أن الجبائى المعتزل أملى مائة وخمسين ألف ورقة[2]، وقد أملى أبو على على القالى خمسة مجلدات[3]، وكان المملى عليه يكتب أول القائمة: «مجلس املاه شيخنا فلان بجامع فلان يوم كذا». وفى القرن الرابع الهجرى، ترك المتكلمون والمحدثون فى الإملاء، واقتصروا على تدريس كتاب يقرأ منه أحد الطلبة والمدرس يشرح «كما يدرس الإنسان المختصرات»[4]؛ ويقال أن آخر من أملى من اللغويين هو أبو القاسم الزجاجى المتوفى عام ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م[5]. أما إملاء الحدث فقد بقى كما صرح بذلك السيوطى. ولما عزم الوزير الصاحب ابن عباد (المتوفى عام ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م) على إملاء الحديث خرج متطلساً متحنكاً على زى أهل العلم، واتخذ لنفسه بيتاً سماه بيت التوبة، وقعد للإملاء فحضر الخلق الكثير. «وكان المستملى الواحد ينضم إليه ستة كلٌ يبلغ صاحبه»[6]. ولكن أصحاب الإملاء اختصروا فيه، حتى أن أغلب العلماء كانوا يختصرون فى أماليهم ويطيلون فى تدريسهم[7].

(١) السيوطي، المظهر، جـ٢، طبعة مصر ١٩٣٥هـ، ص١٩٩ .

(٢) ابن المرتضي، المعتزلة، ص٤٧، وراجع، اليوطي، المزهر، جـ٢، ص٢٠٠ .

(٣) السبكي، جـ٢، ص٢٥٩ .

(٤) ياقوت، الإرشاد، جـ٢، ص٣١٢ .

(٥) ابن المرتضي، المعتزلة، ص٦٣ .

(٦) ابن النديم، الفهرست، ص٧٦ .

(٧) طبقات السبكي، جـ٣، ص١١١-١٣٧ .

وكان تغير طريقة التعليم سبباً فى إيجاد نوع جديد من المؤسسات العلمية، ذلك انه لما انتشرت طريقة التدريس نشأت المدارس، ولعل من أكبر الأسباب فى ذلك، أن المساجد لم يكن يحسن تخصيصها للتدريس بما يتبعه من مناظرة وجدل، قد يخرج بأصحابه أحياناً عن الأدب الذى يجب مراعاته للمسجد، ويدل مجموع الأخبار التى وصلت إلينا على أن نيسابور كانت مهد للمعاهدة التى نصت على نسخ جميع الكتب ولا يكون بعدها زيادة[1]. وكانت نيسابور أكبر مراكز العلم فى خراسان.

وكان المملى عليه فى المجالس الكبيرة يجلس على مقعد مرتفع ليستنصت الحاضرين، وليعيد كلام المدرس حتى يسمعه من كان بعيداً عنه. وكان العالم يبتدئ درسه بحمد الله والصلاة على نبيه، بعد قراءة قارئ حسن الصوت شيئاً من القرآن ثم يدعو للبلد وللمستضعفين.

وكان يجوز للسامع أن يقف ويسأل المدرس؛ ويدل على ذلك ما حكى عن ابى عبيدة اللغوى من أن رجلاً حضر مجلسه فسأله سؤالاً سخيفاً، يدل على الجهل وسوء الفهم، ثم قام ثان وثالث وسألا مثل ذلك، فأخذ ابو عبيدة نعليه، واشتد ساعياً فى مسجد البصرة يصيح بأعلى صوته: من أين حشرت البهائم علّى اليوم[2]. ومع هذا فقد بقيت الهيبة الشديدة للحديث. وقد كان معروفاً من قبل، فكان يبلغ من روع البعض أنه يتهيب الحديث وروايته[3].

وكان على راوى الحديث قبل أن يجلس للحديث، أن يتطيب ويتطهر ويسرح

---

(١) الطبقات للسبكى، جـ٢، ص١٦١ .

(٢) التقريب للنووى، ترجمة فارسية، جـ٢٧ من طبعة العربية.

(٣) نفسه، نفس المصدر، هامش٥، ص٥٥ .

لحيته، وأن يجلس متمكناً بوقار، فإن رفع أحد الحاضرين صوته زجره، وعليه أن يقبل على الحاضرين كلهم[1].

ويروى انه كان يحدث فى مجالس العلم، أن كان البعض يقوم برمى رقاع فى حلقة بعض العلماء الصالحين أمام العالم، وتتضمن هذه الرقعة طلب دعاء لمريض او صاحب حاجة، فيقبض العالم عليها ويقرؤها ويدعو لصاحبها ويؤمن على دعائه من حضر، ثم يمضى فى درسه[2].

وقد اختلف العلماء متى يبدأ الإنسان فى سماع الحديث فذهب جماعة إلى انه يستحب أن يبتدأ الإنسان بسمع الحديث بعد ثلاثين سنة، وقال آخرون بعد العشرين، ونقل القاضى عياض قاضى قرطبة المتوفى سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م. أن مذهب المحدثين انفسهم يقول بأن أول زمن يصح فيه السماع خمسين سنة، ويذكر حديث للبخارى (كتاب العلم، الباب الثامن عشر) لإثبات هذا الرأى. ويقول النووى المتوفى سنة (٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م) أن العمل استقر على ذلك فى زمانه. ويحكى أن الحميدى المحدث المشهور كان أبوه يحمله على كتفه[3] إلى مجلس الحديث. ولهذا يذكر مؤرخو الحديث السن التى بدأ عندها المحدث فى سماع الحديث، وكان يندر أن يذهب الولد لسماع الحديث، وهو فى السادسة من العمر. ويقال أن القاضى التنوخى المتوفى عام ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م، ممن سمع الحديث وهو فى سن ست[4]، ويقال أن أبا نعيم الأصفهانى اكبر محدث عصره سمع الحديث وهو ابن ثمان[5]. والغالب أن يبدأ فى سماع الحديث فى الحادية عشرة. وفى هذه

---

(١) الارشاد، جـ٦، ص٢٨٢ .

(٢) ياقوت، الإرشاد، جـ٦، ص٣٨٤ .

(٣) لمسعودى، مروج الذهبج جـ٨، ص١٨٥ .

(٤) النووى، التقريب، ترجمة مارسيه والنسخة العربية جـ٢٤ .

(٥) ابن الجوزى، المنتظم، ص١٣٦ب.

السن، سمع الحديث الخطيب البغدادى المحدث المشهور ثلاثة من شيوخه[1]. وكذلك ابن الجوزى، فقد كتب الحديث وله إحدى عشرة سنة[2]. وكان بعض المحدثين لا يقبل فى مجلسه من لم يكن ملتحياً. خوفاً من قصص الغرام فيما يبدو.

بينما رأى النووى، أنه لا يجوز للإنسان أن يجلس فى أى سن متى احتيج إلى ما عنده لسماع الحديث، ويجب على الشيخ المسن أن يمسك عن التحديث إذا خشى التخليط بهرم خرف أو عمى[3].

وكان العالم إذا لم يكن فقيهاً صاحب منصب، ولم يجد ما يعيش منه اشتغل بنسخ الكتب، كما حكى عن أبى زكريا يحى بن عدى المتوفى عام ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م، وكان من أكبر فلاسفة القرن الرابع ومذهبه مذهب النصارى اليعقوبيين، ذكر عنه أنه نسخ بخطه نسختين من تفسير الطبرى، وأنه كان يكتب فى اليوم والليلة مائة ورقة[4].

وكان أبو بكر الدقاق المعروف بابن الخاضبة المتوفى عام ٤٣٩هـ/ ١٠٨٦م، يعود والدة له وزوجة وبنتاً من الوراقة، وفى سنة واحدة كتب صحيح مسلم سبع مرات وهو يقول: «فلما كان ليلة من الليالى رايت فى المنام كأن القيامة قد قامت، ومناد ينادى ابن الخاضبة، فحضرت، فقال لى أدخل الجنة. فلما دخلت الباب وصرت فى الداخل استلقيت على ظهرى، ووضعت إحدى رجلى على الآخر وقلت: آه، استرحت والله من النسخ»[5].

(١) تاريخ بغداد، JRAS, 1912, p.50
(٢) ابن الجوزى، المنتظم، ص١٣٧ب.
(٣) Wustenfeld, Schafiiten, AGGW. 37, 88.
(٤) التقريب للنووى، ترجمة مارسيه، JA. 1901,18,84.
(٥) ياقوت، الإرشاد، جـ٦، ص٢٣٧ .

وقد قيل أن من آفات العلم خيانة الوراقين، كان العلماء الذين يحرصون على سلامة العلم ينسخون كتبهم بأنفسهم إن استطاعوا[1]، ولم تكن حرفة التعليم تدر شيئاً كثيراً، فقد ذهب طائفة كبيرة من الفقهاء كالحنفية جميعهم وأحمد بن حنبل، وسفيان الثورى، وغيرهما إلى أنه لا يجوز أن يأخذ المعلم أجراً عن تعليمه القرآن والحديث[2]، وأجاز ذلك آخرون، ولكنهم جعلوا معلم الحديث فى درجة أعلى، لأنه يعلم إبتغاء الثواب الأخروى؛ وفى القرن الثامن الهجرى إمتنع النووى أن يأخذ رزقاً لتدريسه فى المدرسة الأشرفية، وكان الرجل إذا انتهى من مجلس علم، قعد له من غير أجر، قال له الطالب: آجرك الله، وهو يقل: نفعك الله[3]. وفى سنة ٣٤٦هـ/ ٩٧٥م توفى ابو العباس الأصم، وكان من أكبر علماء خراسان ومحدثيهم، وقد ظهر به الصمم وهو ابن ثلاثين سنة، ثم استحكم حتى كان لا يسمع نهيق الحمار، وكان إذا ذهب إلى المسجد للتحديث، وجد السكة قد امتلأت بالناس وكانوا يقومون له ويحملونه على عواتقهم إلى مسجده وكان لا يأخذ شيئاً على الحديث، وإنما كان يروق، ويأكل من كسب يده[4]. وحكى عن أبى بكر الجوزقى، محدث نيسابور المتوفى سنة ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م أنه قال: «انفقت فى الحديث مائة ألف درهم، ما كسبت درهماً»[5]، وكان أبو بكر الخطيب البغدادى يوماً فى جامع صور، فدخل عليه بعض العلوية، وأعطاه ثلاثمائة دينار، وضعها على سجادة الخطيب، فقام الخطيب محمر الوجه، وأخذ السجادة وخرج من المسجد وترك العلوى يلتقط الدنانير من شقوق الحصير[6]. أما إذا كان أحد

(١) يذكر هذا كثيراً لاسيما فى تراجم المالكية.

(٢) السمر قندى، بستان العارفين، النووى، التقريب.

(٣) السبكى، طبقات، جـ٢، ص٢٩٧ .

(٤) ابن الجوزى، المنتظم، ص١٨٧.

(٥) السبكى، جـ٢، ص١٦٩ .

(٦) نفس المصدر، جـ٣، ص١٤ .

معلم صبيان او معلم كُتّاب، كما كان أبو زيد البلخي العالم المشهور المتوفى سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٣م[١]، فمعنى هذا عيش مُر، وحرفة محتقرة، وقد الف الجاحظ كتاباً فى المعلمين ملأه بالحكايات التى تدل على حماقات المعلمين وتفاهة رأيهم. ومن امثال العامة، أحمق بن معلم[٢]. ولعل كثيراً مما لحق المعلمين من ضروب الإستهزاء، إنما يقع إثمه على الروايات اليونانية الهزلية، لأن المعلم فيها كان من الشخصيات المضحكة. وقد ذكر ابن قتيبة عن السندى أنه كان لا يستحلف المكارى ولا الحائك ولا الملاح، ويجعل القول قول المدعى مع يمينه، ويقول: اللهم إنى استخيرك فى الحال ومعلم الصبيان[٣]. وكان ابن حبيب أحد علماء اللغة والأخبار والشعر (توفى سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م) يقول إذ قلت للرجل: ما صناعتك؟ فقال: معلم، فأصفح[٤]. ويحكى عن ابن حوقل عن أهل صقلية، أنهم كانوا يكثرون التغذى بالبصل النئ. «ومن فيهم من لا يأكله كل يوم، ويؤكد فى داره صباحاً ومساءاً من سائر طبقاتهم، وهو الذى افسد تخيلهم، وضر ادمغتهم، وحيّز حواسهم، وغر عقولهم، ونقص افهامهم، وافسد سحنة وجوههم، فأحال مزاجهم، حتى رأوا الأشياء او اكثرها على غير ما هى عليه. والذى دخل تحت العدة أن فيها ازيد من ثلاثمائة معلم يؤدبون الصبيان، وهم يرون انهم افضلهم، وانهم أهل الله، وهم شهودهم وامناؤهم، هذا على ما اشتهر عن المعلمين من نقص عقولهم وخفة ادمغتهم، وإنما لجأوا إلى هذه الصناعة هرباً عن الجهاد ونكولاً عن الحرب[٥]. وكان يدفع للمعلم اجره احياناً عدا المال اشياء مما يأكله

(١) ياقوت، الإرشاد، جـ١، ص١٤١ .

(٢) الجاحظ، البيان والتبيان، جـ١، ص١٠٠ .

(٣) بروكلمان، عيون الأخبار، ص٩٣ .

(٤) ياقوت، الارشاد، جـ٦، ص٤٧٣ .

(٥) ابن حوقل، صور الأرض، ص٨٦-٨٧ .

الناس وينتفع به، أو ينتفعون به، ولذلك كانت «رغفان المعلم» مثلاً يضرب فى الإختلاف وشدة التفاوت، لأن رغفان المعلم تختلف بحسب إختلاف آباء الصبيان فى الغنى والفقر، والجود والبخل.

أما المعلمون الذين يؤدبون الأولاد فى البيوت الغنية، فكانوا أحسن حالاً؛ يقول الجاحظ[1]: «يكون الرجل نحوياً عروضياً ... وهو يرضى ان يعلم أولادنا بستين درهماً، ولو ان رجلاً كان حسن البيان حسن التخريج للمعانى، ليس عنده غير ذلك، لم يرض بألف درهم[2]. وكان عند قائد لعبد الله بن طاهر مؤدب رزقه فى الشهر سبعون ديناراً وذلك فى القرن الثالث الهجرى، وكان مثل هذا المعلم يظل تحت اشراف من اختاره وهو الذى يقدر رزقه ويطوف عليه ويتعهد من بيديه من الصبيان، وهو يصرفه ويبدل به غيره إذا لم يعجبه[3]. وكان مؤدبو الأمراء أحسن المؤدبيين حالياً، وكان الذين يختارون لتأديب أبناء الأمراء هم علماء اللغة المشهورين، فمن ذلك أن محمد بن عبد الله بن طاهر، وكان من أجود أمراء زمانه، اختار لتأديب ابنه طاهر احمد بن يحى ثعلب النحوى اللغوى إمام الكوفيين فأفرد له داراً فى داره كان يقيم فيها هو وتلميذه وكان يتغذى معه وقد اقام الأمير مع ذلك فى اليوم سبع وظائف من الخبز الخشكار ووظيفة من الخبز السمين وسبعة أرطال من اللحم وعلوفة راس، وأجرى له فى الشهر الف درهم[4]. وفى سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م احتفل ابو القاسم ابن الوزير الخلقانى بدخول ابنه الكتاب فدعا من الرؤساء والقواد جماعة بلغوا ثلاثين نفساً وأمر الداعى بإعطاء المعلم الف

---

(١) المقدسى، ص٤٤٠، يتيمة الدهر، جـ٢، ص٦٣ .

(٢) الجاحظ، البيان، جـ١، ص١٥١ .

(٣) ياقوت، الإرشاد، جـ١، ص١٢٣ .

(٤) نفسه، نفس المصدر، جـ٢، ص١٤٤ .

دينار وأكرم الناس وأكلوا[1]. وكان يلازم المأمون فى الكتاب غلام لمعلمه، وكان العلماء الكبار يأخذون أرزاقاً وهم الندماء الذين يجالسون الحضرة وكان البعض يأخذ رزقاً فى هذه الطوائف كلها كالزجَّاج المتوفى عام ٣١٠هـ، فقد كان له رزق فى الندماء ورزق فى الفقهاء ورزق فى العلماء ومبلغ ذلك ثلثمائة دينار وكانت له منزلة عظيمة[2]. وقد أجرى الخليفة المقتدر على ابن دريد المتوفى عام ٣٢١هـ/ ٩٣٣م، خمسين ديناراً فى كل شهر، حينما قدم بغداد فقيراً[3].

وكذلك أجرى سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب على أبى نصر الفارابى، الفيلسوف التركى المتوفى عام ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م أربعة دراهم كل يوم، فاقتصر عليها[4]، ويندر أن نجد فى هذا العصر من العلماء من يتخذ صناعة أوتجارة يعيش منها إلى جانب العلم. فيحكى أن أبا بكر الصبغى المتوفى عام ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م كان يبيع الصبغ بنفسه فى الحانوت على عادة العلماء المتقدمين الذين يتسببون فى المعاش، وكان حانوته مجمع الحفاظ والمحدثين[5]، وقد أوصى الصبغى أحد العلماء فى أمور مدرسته «دار السنة» وفوض إليه تولية أوقاف فى ذلك[6]. وكذلك كان بمصر أبو العباس أحمد بن محمد الدبيلى الخياط المتوفى عام ٣٧٧هـ، وكان فقيهاً جيد المعرفة على مذهب الشافعى، وكان قوته وكسبه من خياطته، كان يخيط قميصاً فى جمعه بدرهم، ودانقين طعامه وكسوته، منها غلاء ورخصا. «وما إرتفق بأحد من احد بمصر بشربة ماء»[7]؛ وكان بمصر عالم آخر توفى عام

(١) كتاب العيون والحدائق، مخطوط برلين، ص٧٩ب.
(٢) البيهقى، المحاسن والمساوئ، الطبعة الأوروبية، ص٦٢٠ .
(٣) الفهرست، ص٦١ .
(٤) السبكى، جـ٢، ص١٦٨ .
(٥) نفس المصدرو جـ٢، ص٦٦ .
(٦) نفس المصدر، جـ٢، ص٢٢٢ .
(٧) نفس المصدر، جـ٢، ص١٠٢ .

٤٩٢هـ/ ١١٠٩م وكان يبيع الخلع لأولاد الملوك[١]. على اننا نجد ان أبا عمر المطرز المتوفى سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م، وكان أحد أئمة اللغة المشاهير الكثيرين؛ قد منعه إشتغاله بالعلوم عن إكتساب الرزق، فلم يزل مضيفاً عليه، ويقول أحمد بن فارس اللغوى عام ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م:

ياليت لى ألف دينار موجهة

وأن حظى منها فلس فلاس

قالوا: فنالك منها؟ قلت تخدمنى

لها ومن أجلها الحمقى من الناس

وأخيراً دخل علماء الإسلام فى نهاية هذا العصر فى جملة العظماء وأصحاب الألقاب، وكان الأسفراييني الأصغر المتوفى عام ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م بنيسابور، وأول من لقب بين العلماء بركن الدين[٢]. وفى ذلك العصر ظهر لقب سبيل التكريم، وهو لقب «شيخ الإسلام» الذى صار له شأن كبير فيما بعد، وكان ظهوره عند فريقين مختلفنى وذلك أن أهل السنة فى خراسان لقبوا به أحد علمائهم، فثارت النفوس المتجهمة بمدينة هراه، وعمدوا إلى شيخ لهم ألف كتباً فى ذم الكلام فلقبوه[٣].

ولم يكن يخلوا الحال من شخصيات مضحكة بين المعلمين كالتى نجدها فى المجلات الهزلية، فقد كان بين المبرد وثعلب منافرات كثيرة، والناس يختلفون فى تفضيل كل واحد منهما على صاحبه، وكان يسعى بينهما السعاة، وينقلون

---

(١) نفس المصدر، جـ٢، ص٢٩٧ .

(٢) طبقات السبكى، جـ٢، ص٨٥-٨٦ .

(٣) نفسه، نفس المصدر، جـ٣، ص٤٧، ١١٧ .

لأحدهما هجاء آخر، وكانا يتناظران[1]. ويحكى أن قتادة السدوسى قال مرة: ما نسيت شيئاً قط، ثم قال: يا غلام ناولنى نعلى، قال: نعلك فى رجلك. وكان ابن خالويه اللغوى، عالماً غليظاً، فيحكى أنه وقع بينه وبين المتنبى كلام فى مجلس سيف الدولة، فوثب بن خالوية على المتنبى وضرب وجهة بمفتاح كان معه، فخرج بن المتنبى ودمه يسيل على ثيابه[2]، وكان نفطويه مشهوراً بعلمه، كما كان مشهوراً بالقذارة والصنان ونتن الرائحة، وقد أثرت فى عقل الجوهرى صاحب المعجم المشهور، والمتوفى سنة ٣٠٩هـ/ ١٠٠٠م، كثرة عمله، فقد صنف كتاب الصحاح فى اللغة، حتى وصل إلى باب الضاد، ثم اعترته وسوسة فانتقل إلى الجامع القديم بنيسابور، فصعد إلى سطحه، وقال: أيها الناس إنى عملت فى الدنيا شيئاً لم أسبق إليه، فسأعمل للآخرة شيئاً لم إسبق إليه، وضم إلى جانبيه (جنبيه) مصراعى باب ، وتأبطهما بحبل، وصعد مكاناً عالياً من الجامع وزعم أنه يطير، فوقع فمات.

---

(١) ياقوت، الإشاد، جـ٢، ص١٤٩ .

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص٦٥ .

ثالثاً - الرقيق:

كان إتخاذ الرقيق واستخدامهم، منتشراً عند اليهود والنصارى والمسلمين، وقبل ظهور الإسلام حاربت الكنيسة تجارة الرقيق، ففرضت على من يشتغل بها عقوبة الحرمان[1]. وقد استلفت نظر المسلمين أن اليهود والنصارى لا يجوز لهم أن يتمتعوا بإمائهم[2].

وليس صحيحاً أن الإسلام يشجع على تجارة الرقيق، ولكن الإسلام كان حريصاً على تحرير الإنسان من العبودية. وذلك من خلال النص القرآنى ﴿فلا إقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة﴾[3]. وكذلك روى عن رسول الله ﷺ انه قال: «أيما مسلم اعتق رجلاً مسلماً فإن الله عز وجل جاعل وفاء كل عظم من عظامه، عظم من عظام محرره من النار، وأيما إمراة مسلمة اعتقت إمرأة مسلمة، فإن الله عز وجعل جاعل وفاء كل عظم من عظامها عظم من عظام محررتها من النار»، وقال رسول الله ﷺ أيضاً فى حرية الإنسان وتحريم العبودية: «من أعتق رقبة مؤمنة فهى فداؤه من النار». وهكذا فإن دعوة الإسلام إلى تحريم الرق والعبودية قد جاء مع بداية ظهور الإسلام، وليس كما يدعى البعض من المغرضين من أهل الكتاب من أن الإسلام كان يشجع على العبودية[4].

ومع بداية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى، كانت مصر وجنوب جزيرة العرب وشمال افريقية اكبر أسواق تجارة الرقيق وكانت قوافل هذه البلاد

---

(١) Syr Rechitsh, tom, z, pp. 160-161.

(٢) كتاب البدء والتاريخ للمقدسى، وهو ينسب لأبى زيد البلخى، جـ٤، ص٣٩، من طبعة كليمان - باريس.

(٣) سورة البلد آيتا ١١، ١٢، Syr Rechitsh, op. cit, p. 151

(٤) Sachau Muham Recht.

تجلب الذهب والعبيد من الجنوب، وكان الثمن الجارى للعبد حوالى منتصف القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى نحو مائتى درهم[1]؛ وقد اشترى كافور صاحب مصر، وكان عبداً حبشياً فى سنة ٣١٢هـ/ ٩٣٤م بثمانية عشر ديناراً كما يقال[2]. وهذا الثمن قليل بالنسبة لكافور لأنه كان خصياً يافعاً، وكان يدفع فى ثمن الزنجى الجيد بعمان مابين خمسة وعشرين وثلاثين ديناراً[3]. ولما اشترى الوزير الصاحب ابن عباد عبداً نوبياً بأربعمائة دينار استكثر الناس هذا الثمن آنذاك[4]. وقد بيعت جارية جميلة حوال عام ٣٠٠هـ/ ٩١٢م بمائة وخمسين ديناراً[5]، ويقول الشريف الإدريسى[6] أن فى نساء النوبة جمالاً فائقاً، وأنه لا أحسن للجماع منهن لطيب متعتهن، ونفاسة حسنهن، وأن الجارية منهن يبلغ ثمنها ثلاثمائة دينار. وقد جلب كثيرات من الزنج إلى بلاد العراق، وهن معروفات بكثرة النسل، وقد علل الجاحظ عدم غلبة أولاد الزنج فى العراق، لأن الزنجى والزنجية قليلاً ما يلدان من الغرائب. ،أن الزنجية لاتكاد تنشط لغير الزنجى، وهى من الزنجى أكثر لقاحاً منها من الأبيض، فكان الجاحظ يرى أن الزنجيات يصيبهن العقم فى البلاد الشمالية[7]. وكان يستعمل عبيد البيوت السود بوابين، كما هو الحال اليوم[8].

---

(١) الأصفهانى، كتاب الأغانى، جـ٣، ص٥٥ .

(٢) F. Wustenfeld, Die Staatthalter, p. 173.

(٣) عجائب الهند، ص٥٢، وكان يدفع مثل هذا المبلغ فى بيزنطة آنذاك.

(٤) الغزولى، مطالع البدور، جـ١، ص١٩٦ .

(٥) رسائل الجاحظ، طبعة فان فولتن، ص٧٧-٧٨ .

(٦) نفسه، نفس المرجع والصفحات.

(٧) رسائل الجاحظ، الطبعة السابقة، ص٧٧-٧٨ .

(٨) انظر ما ذكره رحالة صينى فيالقرن العاشر الميلادى (F.Hirth) ص٥٥ .

وإذا كان المجتمع يعنى بالشعر الجيد وبالموسيقى الجميلة أكثر مما يعنى بغيرها من ألوان الفن آنذاك، عظمت فيه قيمة الغلمان والجوارى الموهوبين المتعلمين. وكان فى عهد الرشيد فى بغداد مغن مشهور، قد يتفق عنده وجود ثمانين جارية لإخوانه يودعونهن عنده لتعليمهم فن الغناء[1]. وكانت تشترى الجارية من هؤلاء بألف دينار أوالفين[2]. وقد يحدث أن يكون بيت النخاس مكاناً يكثر غشيانه الشعراء[3]، وكان معظم القيان اللائى يحترفن الغناء ببغداد، جوارى، وقليل منهن أحرار[4]. وكان للمشهورات من حذاق المغنيات أثمان كبيرة كما نقدرهن نحن اليوم، فحوالى عام ٣٢٥هـ، اشترى ابن رائق أمير العراق، جارية مولدة كانت لابنة ابن حمدون النديم، وكانت سمراء موصوفة بحسن الغناء، فاشتراها بن رائق من مواليها بثلاثة عشر الف دينار، واعصى من دله عليها «السمسار» ألف دينار. ويحكى الصولى[5]. أن ابن رائق اشتراها بأربعة عشر ألف دينار، فاستعظم الناس ذلك.

وكان ثمن العبيد البيض يزيد على ما تقدم لأنهم ارستقراطيو العبيد، فكانت تؤخذ الجارية الحسناء من غير صناعة على جمالها بألف دينار أو يزيد قليلاً[6]؛ وكانت لأبى بكر الخوارزمى جارية فطلبت بعشرة آلاف درهم فلم يجد بها[7]. وقد إرتفعت اثمان الخدم البيض إرتفاعاً خاصاً حينما خربت الثغور

(١) الأصفهانى، الأغانى، جـ٥، ص٦ .

(٢) Michael Syrus, p. 514.

(٣) الأصفهانى، المرجع السابق، جـ٢٠، ص٤٣ .

(٤) ابو القاسم، طبعة متز، ص٧٨-٧٩ .

(٥) الأوراق للصولى، ص١٤٢ من مخطوط باريس.

(٦) الاصطخرى، ص٤٥ .

(٧) يتيمة الدهر، جـ٤، ص١٥٧ .

الغربية. وإنقطع عبيد الأندلس فى القرن الرابع، وكاد ينضب المصدر الوحيد الباقى للرقيق وهو بيزنطة وارمينية[1]، وما زاد فى ذلك أن أهل الدولة الإسلامية من المسلمين، وأهل الذمة لم يكن يجوز أن يسترقوا بوجه من الوجوه القانونية، ولم يكن الإجرام سبباً يكفى لحرمانهم من حريتهم، كما هو الحال عند غير المسلمين. وكذلك كان يحرم على الآباء المسلمين أن يبيعوا أولادهم، كما كان الحال عند اليهود مثلاً، فإنهم كانوا إذا احتاجوا باعوا أولادهم الصغار غير البالغين. وقد حدثت فتنة فى مصر فى القرن الثالث الهجرى فقبض على بعض النصارى المصريين، وبيعوا فى دمشق كما يباع الرقيق، فأثار هذا العمل أكبر السخط لأنه يخالف الشريعة[2]. على انه كان يوجد بين المسلمين بعض من شرار الفرق يعتبرون أنفسهم المسلمين حقاً، ويعتبرون من خالفهم أهلاً للحرمان من الحقوق الشرعية، ومن هذه الفرق الضالة فرقة القرامطة الذين عظم شأنهم، فقد أحلوا استرقاق من يقع فى ايديهم من الأسرى، وكان ذلك أمراً مريعاً فى عصرهم، فسرعان ما صار الكثيرون من الآمنين المسالمين من أهل الشام وجزيرة العرب والعراق أرقاء فى أيديهم. وقد اعترض القرامطة قافلة الحاج عام ٣١٢هـ/ ٩٢٤م فأسروا من الرجال الفين، ومن النساء نحو خمسمائة. وساروا بهم إلى هجر؛ وكان الأزهرى اللغوى الأديب المتوفى عام ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م من جملة الأسرى، ووقع فى سهم قوم من العرب الذين نشأوا فى البادية يتتبعون مساقط المطر، ويتكلمون بطباعهم البدوية، ولا يكاد يكون فى منطقهم لحن، وقد بقى فى أسرهم دهراً طويلاً ثم استفاد من مخاطبتهم ومحاورة بعضهم بعضاً الفاظاً جمة، ونوادر كثيرة، وأورد أكثرها فى كتابه[3].

(١) نفس المصدر، جـ٤، ص١٥٦

(٢) المقدسى، ص٢٤٢ .

(٣) ابن الجوزى، المنتظم، ص٢٧ب - ١١٨ا والأزهرى هو الذى حكى ذلك عن نفسه.

اما فى سائر الدولة الإسلامية، فقد اقتصر المسلمون فى العبيد البيض على الترك والصقالبة، وهم اللنس الذى لا ينفد معينه، والذى اشتق منه الاسم الذى أطلق على الرقيق فى اوربا، وكان الصقالبة يقدمون على الترك حتى قال الخوارزمى: «ويستخدم التركى عند غيبة الصقلبى»[١]. واكبر ما كان يجلب من بلغار، وهى قصبة البلغار الذين يقطنون حول نهر الفولجا رقيق كانوا يؤخذون من هناك إلى إقليم جيحون[٢]. وكانت سمرقند أكبر سوق لهم، وهى مشهورة بأن خير الرقيق من وراء النهر، وما كان من تربيتها. وكان من أهل سمرقند جمال وكان لهم حسن تعهد لأنفسهم بما زادوا به على أكثر أهل خراسان[٣]. وكانت بلدهم لذلك مشهورة بأنها مركز للتربية والتهذيب، وكان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها كما هو الحال اليوم فى جنيف ولوزان. أما الطريق الثانى الذى كان يأتى منه رقيق الصقالبة فقد كان يخترق ألمانيا إلى الأندلس وإلى الموانى البحرية بإيطاليا وفرنسا[٤]. وكان اغلب تجار الرقيق فى أوربا من اليهود. وكان الرقيق يجلب كله تقريباً من الشرق الأوروبى، كما هو الحال اليوم فى تجارة النساء[٥]. ومن الجلى أن إستقرار جاليات يهودية فى مدن مقاطعة سكسونيا الشرقية مثل مدينة مجديبورج ومرزيبورج كان راجعاً إلى تجارة الرقيق[٦]. وكان اليهود فى أثناء نقلهم للرقيق، يدفعون ضرائب ثقيلة، وذلك فى ألمانيا على الأقل، فكان قانون الجمارك فى مدينة كوبلنتر مثلاً يقضى بأن يدفع عن كل رأس من الرقيق أربعة دنانير[٧]. وكان اسقف مدينة خور Chur يفرض على

(١) يتيمة الدهر، جـ٤، ص١١٦ .

(٢) المقدسى، ص٣٢٥ .

(٣) ابن حوقل، صور الأرض، ص٣٦٨ .

(٤) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ترجمة محمد عبد الهادى ابو ريدة، ص٢٢٧ .

(٥) نفسه، نفس المرجع، ص٢٢٨ .

(٦) نفسه نفس المرجع ص٢٢٨ .

(٧) آدم متز، المرجع السابق، ص٢٢٨ .

الراس دينارين يدفعان فى جمرك فالنيسات Wallenstadt: أما الطريق الثالث لتجارة الرقيق فهو يسير من بلاد الرقيق فى الغرب - وكانت هذه البلاد بسبب حروبها مع الألمان كثيرة لإفراز هذه البضاعة الآدمية - ويتجه نحو الشرق راساً ماراً بمدينة براغ وروسيا. وهذا هو الطريق الذى اتبعه الروبى بتاحياً فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى. وكانت مدينة براغ هى أول هذا الطريق ومركزاً لتجارة الرقيق فى القرن العاشر الميلادى. وقد إضطر (ست) ألبرت Ada albert بمدينة براغ سنة ٩٨٩م، لإعتزال منصبه الأسقفى، لأنه لم يستطع أن يعتق جميع المسيحيين الذين اشتراهم تاجر رقيق يهودى[١].

على أية حال نعود إلى المدن الإسلامية لنجد أن ثمة سوق للرقيق فى المدينة يوكل للإشراف عليها عامل خاص بها. وقد وصلنا وصف لسوق الرقيق بنيت فى مدينة سامراء فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، وهى سوق فى مربعة فيها طرق متشعبة، وفيها الحجرات والحوانيت للرقيق، وكان بيع الرقيق الجيد فى السوق العامة بمثابة عقوبة تحط من قدره[٢]. والأفضلية تكون لبيع البعض فى منزل خاص أو بواسطة تاجر كبير. وكان تاجر الرقيق موضع تشنيع مثلة مثل تاجر الخيل فى أيامنا (أى يقوم بعمل دعاية). وكان محمد بن الأشعث صاحب شرطة يصعد إلى المنبر ويسب أحد القواد فيقول: «النخاس الكذاب»[٣]. يقول بن عبدون فى رسالة له عن الرقيق: «فكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة، وممسوح العجز بثقيل الروادف، وبطين بمجدول الحشا، وأبخر الفم بطيب النكهة، وكم من مرة جعلوا العين الزرقاء محلاء، وحمراء الخدود المصفرة، وسمنوا الوجوه المقعقعة، وكبروا الفقاح الهزيلة، وأعدموا الخدود شعر اللحا، واكسبوا الشعور الشقر حالك السواد، وجعدوا الشعور السبطة، وبيضوا

(١) اليعقوبى، جغرافية الأرض، ص٢٥٩ .

(٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

(٣) الكندى، الولاة، ص١٠٩-١١٠ .

الوجوه المسمرة، ودملجوا السيقان المعرقة، ورطلوا الشعور الممرطة، وأذهبوا آثار الوشم والجدرى والنمش والحكة».. ولذلك يجب على الإنسان أن يكون على حذر من شراء الرقيق فى المواسم، ففى مثل هذه الأسواق تتم للنخاسين الحيل حتى يبيعوا المريض بالصحيح والغلام بالجارية؛ «سمعنا بعض النخاسين يقول: ربع درهم حسناً يزيد ثمن الجارية مائة درهم». ومن عادة النخاسين أن يطولوا الشعور بأن يصلوا فى طرفها من جنسها، وأن يزيلوا روائح الأنف بالسعوط بدهن البنفسج والنيلوفر ونحوهما، وأن يجعلوا الأسنان بالسواك بالأشنان والسكر وسحيق الصينى أو الفحم أو الملح المدقوق وكانوا يزيلون الشعث فى أصول الأظفار بغسلها بالخل والعسل والمرتك، أو دهن الورد واللوز المرّ. ومن وصايا النخاسين للجوارى أن يتبرجن للمشترى تارة، ويختفين منه أخرى، فإن هذا مالك للقلوب، وأن يدارين المشايخ والنافرى الطباع ويستملنهم، ويتجنبن الشباب ويمتنعن عليهم ليتمكن من قلوبهم. وكان الجوارى يخضبن حواجبهن بالرامك وأطرافهن إن كانت الجارية بيضاء بالخضاب الأحمر، وإن كانت صفراء بالأسود، «ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة فى كشف الضد بالضد».

هذه النصوص من رسالة لإبن بطلان النصرانى المشهور الذى عاش فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى[1]. ونجد فى هذه الرسالة إلى جانب الناحية النظرية كثيراً من التجارب القديمة النافعة فى شراء الرقيق: فالهنديات لهن حسن القوام، وسمرة الألوان، وحظ وافر فى الجمال مع صفرة وصفاء بشرة وطيب نكهة ولين نعمة، لكن الشيخوخة تسرع

(١) رسالة جامعة لفنون نافعة فى شرى الرقيقى وتقليب العبيد، للشيخ أبى الحسن المختار بن الحسن بن عبدون البغدادى المتطيب ضمن مخطوط رقم ٤٩٧٩ بمكتبة برلين.

إليهن .. وهن يصلحن للولد، ورجالهم لحفظ النفوس والأموال، وعمل الصنائع الدقيقة. غير أن النزلات تسرع إليهم والقندهاريات فى معنى الهنديات، ولهن فضيلة على كل النساء، فإن الثيب منهن تعود كالبكر، والسنديات ينفردن بدقة الحضور وطول الشعور، والمدنيات سمر الألوان معتدلات القوام، قد إجتمع فيهن حلاوة القول ونعمة الجسم، وملاحة دلال وحسن شكل وبشر، لا غيرة فيهن على الرجال قنوعات بالقليل، لا يغضبن ولا يصخبن ويصلحن للقيان ... والمكيات خنثات مؤنثات لينات الأرساغ الوانهن البياض المشرب بسمرة، قدودهن حسنة، وأجسامهن ملتفة، وثغورهن نقية باردة، وشعورهن جعدة، وعيونهن مراض فاترة؛ والطائفيات سمر مذهبات مجدولات، أخف خلق الله أرواحاً، وأحسنهن فكاهة ومزاحاً، لسن بأمهات أولاد، يكسلن فى الحبل، ويهكن عند الولادة ... والبربريات مطبوعات على الطاعة، نشيطات للخدمة، ويصلحن للتوليد، لأنهن أحدب شئ على ولد؛ ويقول أبو عثمان وهو من سماسرة هذا الشأن: إذا إجتمع للبربرية مع وجودة الجنس أن تجلب وهى بنت تسع حجج، ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج، وبمكة ثلاث حجج، ثم جاءت إلى العراق إبنة خمس عشرة، فتأدبت بالعراق، جمعت إلى جودة الجنس شكل المدنيات، وخنث المكيات، وآداب العراقيات، واستحقت أن تخبى فى الجفون وتوضع على العيون؛ الزنجات مساويهن كثيراً، وكلما زاد سوادهن، قبحت صورهن، وتحددت أسنانهن وقلّ الإنتفاع بهن، وخيفت المضرة منهن، والغالب عليهن سوء الأخلاق، وكثرة الهرب، ولعجومة ألفاظهن عدل بهن إلى الزَّمر والرقص؛ ويقال لو رفع الزنجى من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بالإيقاع، وهم أنقى الناس ثغوراً لكثرة الريق، وكثرة الريق لفساد الهوم، وفين جلد على الكد، فالزنجى إذ أشبع فصب العذاب عليه صباً، فإنه لا يتألم،

وليس فيهن متعة لصنانهن، وخشونة اجسامهن. اما الحبشيات، فالغالب عليهن نعمة الأجسام ولينها وضعفها، يتعاهدن السل والدق، ولا يصلحن للغناء ولا للرقص دقاق لا يوافقهن غير البلاد التى نشأن فيها، وفيهن خيرية وسلاسة إنقياد، يصلحن للإئتمان على النفوس، يخصهن قوة النفوس وضعف الأجسام؛ كما يخص النوبة قوة الأجسام وضعف النفوس، فصار الأعمار لسوء الهضم. والبجاويات مذهبات الألوان حسنات الوجوه، ملس الأجسام، ناعمات البشرة، جوارى متعة، إن جلبت الواحدة صغيرة وسلمت من أن ينكل بها، لأنهن يقورن ويمسح بالموسى أعلى فروجهن حتى يبدو العظم فيصرن شهرة من الشهر. والشجاعة والسرقة فى رجال البجة (بادهم بين الحبشة والنوبة) طبع وغريزة، ولهذا لا يؤمنون على مال، ولا يصلحون أن يكونوا خزاناً، والنوبيات من جملة أجناس السودان ذوات ترف ولطف، وأبدانهن يابسة مع لين بشرة، وهواء مصر يوافقهن، لأن ماء النيل شربهن فى بلادهن، وإذا إنتقلن عن غير مصر تسلطت عليهم العلل الدموية والأمراض الحادة. والتركيات قد جمعن الحسن والبياض والنعمة، وعيونهن مع صغرهن ذات حلاوة[1]. وقدودهن مابين الربع والقصير، والطول فيهن قليل؛ وهن كنوز الأولاد ومعادن النسل، قلّ ما يتفق فى أولادهن وحش ولا ردى التركيب. والروميات بيض شقر، سباط الشعور، زرق العيون، عبيد طاعة وموافقة وقدمة ومناصحة ووفاء وأمانة، يصلحن للخزن لضبطهن وقلة سماحتهن، ولا يخل أن بكن يألفن صنائع دقيقة. اما الأرمينيات، فالملاحة للأرمن لولا ما خصوا به من وحشة الأرجل مع صحة بنية وشدة أسر، والعفة فيهن قليلة او مفقودة، السرقة فيهن فاشية، وقل ما يوجد فيهن بخل، وفيهن غلظ طبع

---

(١) يتيمة الدهر، جـ٤، ص٨٢-٨٣ .

ولفظ، وليست النظافة فى لغتهن، وهن عبيد كد وخدمة، متى تركت العبد ساعة بغير شغل لم يدعه خاطره إلى خير، لا يصلحون إلا على العصا والمخافة، والواحد منهم إذا رأيته كسلان، فليس ذلك عن عجز قوة، بل دونك والعصا، وكن مع ضربه وإنقياده لما تريد على حذر، فإن هذا الجنس غير مأمون عند الرضا، فضلاً عن الغضب ونساؤهم لا يصلحن لمتعة؛ وجملة الأمر أن الأرمن اشر البيضان، كما أن الزنج أشر السودان؛ وما أشبه بعضهم ببعض فى قوة الأجسام والأجساد وكثرة الفساد وغلظ الأكباد[1].

وجرت العادة منذ العصر الأول للإسلام بألا يسمى العبيد عبيداً بل يسمى العبد فتى والأمة فتاة، وقد نسب هذا - كما نسب كثير غيره - إلى أمر النبى محمد ﷺ، وكان من التقوى وشرف النفس ألا يضرب الرجل عبده، ويروى عن النبى ﷺ أنه قال: «شر الناس من أكل وحده ومنع رفده وضرب عبده». وهذا شعور نبيل عبر عنه الليث السمرقندى المتوفى سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م، بروايته هذا الحديث. وقد إتخذ البعض من قوله الله تعالى «إنما المؤمنون أخوة» نقداً يوجهونه لمن يضرب عبده.

ولذلك جاء فى وصف رجل من أشراف اليمن، وذكر جميل خصاله حوالى سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م، انه لم يكن يضرب مملوكاً أبداً[2]. وقد حدث فى أول عهد الأمويين أن إمرأة من حمير كانت بمصر جدعت أنف أمة لها، فقضى عبد الرحمن بن حجيرة قاضى مصر يعتقها، وقضى بولائها للمسلمين يعقلون عنها ويربونها[3]. وكان قانون الكنيسة المسيحية فى الشرق يهدد بعقوبة الحرمان من

(١) الرسالة المتقدمة، ص١٣٦ب- ١٣٧أ.

(٢) نفس المرجع، ص١٤٥أ - ١٥١ب.

(٣) الكندى القضاة ص٣١٧- ٣١٨ .

يكره جاريته على البغاء، وذلك بأن يدفعها إليه مباشرة أو بأن يمتنع عن إعالتها[1]. وكانت دور البغايا فى بلاد الإسلام قوامها الجوارى المملوكات، وتدل على هذا روايات كثيرة؛ ولكن كتب الفقه لم تتعرض لهذه المسألة، لأن الفقهاء يعتبرون الزنا محرماً جملة حسبما جاء فى القرآن الكريم، وأن مرتكبيه لم يكونوا أبداً مؤمنين، وأنه يجب جلدهم ثمانين جلدة دون هوادة، ويباشر جلدهم طائفة من الناس، أما رجال الكنيسة فقد إحتفظوا فى هذه المسألة بشئ من الصراحة القديمة. وأنه قد جاء فى القرآن الكريم الحض على تزويج الأيامى والأماء، قال تعالى ﴿وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾[2]. وفى الإسلام مبدأ فى مصلحة الرقيق، وذلك أن الواحد منهم كان يستطيع أن يشترى حريته بدفع قدر من المال، وقد كان للعبد أو الجارية الحق فى أن يشتغل مستقلاً بالعمل الذى يريده. ويحدثنا المسعودى مثلاً عن عبد خياط كان عليه لمولاه ضريبة قدرها درهمان يدفعها له كل يوم ويتصرف بعدها فى حوائجه بما يتبقى[3] كذلك كان من البر والعادات المحمودة أن يوصى الإنسان قبل مماته بعتق بعض العبيد الذين يملكهم. وفى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، أوصى الخليفة المعتصم عند موته بعتق ثمانية آلاف من مماليكه[4] وقد أخذ هذا الخليفة أحد حصون أرمينية عنوة بعد معركة دموية، فأمر ألا يفرق بين أعضاء العائلات التى وقعت فى الأسر[5].

(١) Sachau, MSOS, X, 2, pp. 92-93.

(٢) القرآن الكريم، سورة النور، آية ٣٢ .

(٣) المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ٦، ص٣٤٤ .

(٤) Michael Syrus, pp. 542-543.

(٥) Michael le syrie, pp. 536-537.

وقد تمتع بعض الجوارى وظهرن بمظهر النعمة؛ فيحكى عن جارية لأحد كبار العمال الأغنياء بمصر، أنها كانت تجلس فى الشباك، وحولهاالجوارى قائمات بالمذبات[1]. ويروى أن بن مسعود الواعد ذكر الحلواء وهو على كرسيه فى ليلة النصف من شعبان، وكان بين الحاضرين جارية لتاجر مشهورة بكثرة المال فلما أمسى آتاه غلام ومعه خمسمائة خشكنانكة، فى داخل كل منها دينار، فحمل الدنانير بنفسه إلى التاجر، فقال له التاجر: إن الدنانير وضعت بحضرته وبرضاه[2].

وكان بعض الغلمان يملكون قلوب ساداتهم، وذلك لميل الشرقى إلى من يجمع بين الجمال والفطنة وجميع الخصال الحسنة[3].

وقد أرسل أبو العلاء رسالة لصديق له فأهدى السلام فيه لغلامه مقبل وقال: «فهو وإن اسودت بردته آثر عندنا من ابيض لاتصدق مودته»[4].

وكان أرقى العبيد مكانه هم حملة السلاح منهم حتى أن بعضهم صاروا قواداً كباراً، مثل؛ مؤنس وجوهر بل منهم من كان حاكماً مثل كافور الأخشيدى بمصر، وسبكتسكين من الأفغان، بل أن أمراء وملوك دولة المماليك كانوا فى الأصل عبيداً من الأتراك والفرس. ومنذ عهد العباسيين الأولين، نجد عبداً تركياً إمارة مصر، وهو يحيى بن داود الخرسى الذى ولى الإمارة من سنة ١٦٢/١٦٤هـ، وكان ابو جعفر المنصور إذا ذكره قال: «هو رجل يخافنى ولايخاف الله»[5]. هذا إذا

(١) ابن سعيد، المغرب، ص١٥ .

(٢) ابن الجوزى، المنتظم، ص١٤٢ .

(٣) ديوان كشاجم، ص١٨١-١٨٣ .

(٤) ابو العلاء المعرى، رسائل، ص٤١ ومابعدها.

(٥) الكندى، ص١٢٣ .

صرفنا النظر عن بعض الغلمان الذين كان لهم سلطان على سادتهم، لأن هؤلاء كانوا يجلبونهم لتسلية بهم والاستهزاء بهم.

وكانت أفكار هؤلاء شبيهة بما كان فى فرنسا حيث نجد الأرقاء المعتقين قد بلغوا أكثر مكان من الرفعة، وأعطاهم الحرية، وكثيرا ممن تولوا قيادة الجيوش، وحكم الولايات وحراسة الملك كانوا عبيداً من قبل[1]. ولكن لم ينجح المعتقون فى التفوق على الأحرار فى الشرق مدة طويلة إلا نادراً، وكما ذكرنا خلال العصر المملوكى فى مصر والشام مثلاً. وهذا بخلاف ماكان لمن كانوا موالى ويرجع ذلك إلى أن نظام الرق فى الغرب حال دون زوال التمايز بين الأحرار والعبيد، وكان ذلك واضحاً فى النظام الأقطاعى فى أوربا فى العصور الوسطى.

ولكن الرأى العام كان مجحفاً بحقوق الأرقاء فى الجملة، ومن الأمثال «إن العبد إذا جاع نام، وإذا شبع زنى» ويقول المتنبى فى هذا :

فلا ترج الخير عند إمرئ

مرت يد النخاس فى رأسه[2].

وكذلك يقول هوميروس: «إنظر أن زيوس مدير هذا العالم، يسلب الرجل الذى طلعت عليه الشمس (شمس العبودية) نصف رجولته[3].

وعلى الرغم من كل الظروف الملائمة والضمانات القانونية والمكانة الحسنة التى يتمتع بها رقيق البيوت فى الدول الاسلامية، فلا ينبغى أن تصور مركز الرقيق عند المسلمين فى العصور الوسطى تصويراً يزيده بهاء، وكانت سائر

(١) Myer, Kultugesch Studien, pp.90-91.

(٢) المتنبى، الديوان، طبعج مصر، ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م، ص٣٧٩ .

(٣) Odyss, XVII, pp. 321-322.

ولايات الإسلام غاصة بالعبيد الأباق. وكان من أول مايؤمر به ولاة النواحى فى كتب توليتهم أن يقبضوا على العبيد الآبقين ويحبسونهم ويسلمونهم لمواليهم إن إستطاعوا[1]. وكان لنازوك صاحب الشرطة ببغداد غلام فطرده فلم يجد جهة يلجأ إليها فذهب لرجل صالح يكتب كتب العطف ليكتب له مايستفيد به عطف سيده وكان نازوك قد أرسل فى طلب الغلام، وإستخبره فقص الغلام عليه الأمر، فلم يصدقه حتى إستدعى الرجل الصالح وسأله فكان كلامه مطابقاً لكلام الغلام. «قال فلما قلت له (لنازوك) أن الغلام قال: أنا عبد مملوك، وما أعددت لنفسى من أقصده لهذا الحال، ولاأعرف جهة ألجأ إليها، وقد طردنى بكيت أنا لما تداخلنى من رحمتى للفتى ومحبتى للدينار الذى أعطانيه قال: فدمعت عينا نازوك، ثم تجلد وإستوفى الحديث»[2]. وكان معظم العبيد الاباق ممن يشتغلون بالزراعة. وكذلك كان جيش الثورة الوحيدة الخطرة التى قام بها العبيد فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، مؤلفاً من الزنوج الذين يكسحون السباخ «الروث» حتى يصلوا إلى التربة ويعمروها.

وقد أوصى القرآن الكريم فى معاملة الرقيق بالعدل والرحمة، خاصة الأرامل منهم واليتامى، وذلك لأن الحر والعبد كليهما عباد الله فهما متساويان فى الحقوق والواجبات«لافضل لعربى ولاعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح» وقد جاء فى القرآن الكريم﴿والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون﴾[3]. وجاء أيضاً ﴿واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا

(١) كتاب الفرج بعد الشدة، جـ١، ص٥٣-٥٤.

(٢) نفس المصدر، والجزء والصفحة (٥٣).

(٣) القرآن الكريم، سورة النحل، آية ٧١ .

وبذى القربى واليتمى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيب، وماملكت ايمانكم، إن الله لايحب من كان مختالاً فخوراً﴾[1].

وقد ورد عن النبىﷺ ان «العبيد إخوانكم فاطعموهم مما تأكلون» وقال «إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت ايديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولاتكلفوهم مايغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[2].

وإذا كان النبىﷺ لم يلغ الرق، فإنه قد أمر بما يضمن للأرقاء حسن المعاملة؛ وإذا كان المسلمون رغبوا عن أمره، فالنبى برئ من ذلك، ولو أن المسلمين أطاعوا ماأمرهم به نبيهم فى معاملتهم لما ملكت أيمانهم، لكان حال الرقيق عند المسلمين أحسن منه عند غيرهم.

على أننا إذا نظرنا إلى حال الرقيق ومعاملتهم فى الجملة بُحسب الشريعة الاسلامية لوجدناها عادلة، فقد كانت عقوبة الأمة الزانية أقل من عقوبة الحرة، لأنها تعتبر أقل ذنبا بسبب ماينقصها من حرية، إذ ربما تقع تحت ضغط التهديد بالعقوبة أو الطرد أو ..... وقد أوصى الشرع بالعناية بالعبيد، وعدم تكليفهم مالا يطيقون.

وكان الرقيق تنتقل ملكيته مثل سائر الممتلكات، فكان يستطيع المسلم أن يبيع ماملكت يمينه، إلا إذا كانت جارية قد ولدت منه، وكان يندر أن ينكر أبوه ولده

---

(١) القرآن الكريم، سورة النساء، اية ٣٦ .

(٢) ماجاء فى خطبة حجة الوداع، انظر. د. عبد اللطيف عبد الهادى السيد، «عصر النبوة» جـ٢ من موسوعة التاريخ الإسلامى ، ص ١٣٣-١٣٤ .

حتى يجوز له بيعها.

إن الشرع الإسلامى لم يكتف بتشديد الوصية فى حسن المعاملة للرقيق، بل مكن العبيد من إستفادة حريتهم، إذا كانوا بحسب سيرتهم أهلا لذلك، وقد حبب الإسلام فى عتق الرقيق. وقد جاء فى القرآن الكريم.

﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم﴾[١].

وتختلف طريقة التحرير فى الدولة الإسلامية فكان من الناس من يعتق كرماً منه، عتقاً كاملاً؛ ومنهم من كان يطلقهم على أن يدفع لهم مقداراً من المال فيما بعد، ويكون هذا بعقد مكتوب، أو بكلام شفاهى يشهد عليه رجلان؛ أو بأن يعطى الرجل لمملوكه وثيقة شرائه من مالكه قبله، وقد تمنح للعبد حريته إذا ادى شروطاً متفقاً عليها او بموت مالكه غالباً. ويجوز ان يوصى الرجل بثلث ماله لمن ملكت يمينه، ولايزيد عن الثلث وإلا أخذ الورثة الزيادة. وقد جعل الله عتق الرقاب للعبيد كفارة الذنوب كثيرة، وقربة من أحسن القرب.

وإذا كان العهد القديم قد تعرض لتحرير العبيد من اليهود، فإن الإسلام قد تعرض لتحرير الرقيق جملة[٢].

(١) القرآن الكريم، سورة النور، آية ٣٣ .

(٢) Lane-pool. Modern Egyptians, 168. and see Doughty, Arabia Deserta, voi. I, p.554.

الفصل الثانى

عناصر السكان فى المجتمع الإسلامى

لم تقتصر الدولة الإسلامية منذ نشأتها على العنصر العربى فقط من المسلمين، بل ضمن بين جنباتها العديد من العناصر السكانية المختلفة من غير العرب ومن غير المسلمين سواء كان ذلك داخل جزيرة العرب على أيام النبى محمد أو حتى بعد الفتوحات الإسلامية، إذ اتسعت الدولة الإسلامية منذ الراشدين وحتى سقوط دولة المماليك الثانية فى القرن السادس عشر منذ بدايته (أو فى بدايته).

لقد اشتملت الدولة الإسلامية على العنصر العربى من مسلمين ويهود ونصارى، وكذلك من العناصر التركية منذ واخر العصر العباسى الثانى، ثم العنصر الفارسى والتركمانى فى دولة المماليك الأولى والثانية، وكذلك عناصر الأكراد.

ويرجع هذا الخلط من العناصر إلى الاتساع الكبير للدولة الإسلامية التى امتدت من حدود الهند والصين شرقاً إلى بلاد المغرب والأندلس وحدود البرانس فى جنوب فرنسا فرياً. عناصر عربية وعجم من الفرس والروم، وأيضاً من أورى حوض البحر المتوسط.

وعلى هذا فسوف نعرض لهذه العناصر وكيفية حياتهم فى داخل المجتمع الإسلامى، ومدى تمتعهم بحرياتهم الدينية والدنيوية فى ظل سماحة الدين الإسلامى وعدله.

أولاً- العنصر العربى:

لقد حفلت الدولة الإسلامية بعناصر سكانية متباينة قلما نجدها فى مجتمع آخر، وذلك بسبب هذا المد الإسلامى فى الشرق والغرب من جهة، وبسبب

سماحة وعدل الدين الإسلامى، هذا فضلاً عن الظروف التاريخية التى مرت بها تلك البلدان فى الشرق والغرب. ولعلنا لا نغالى إذا قلنا أن تلك البلاد عاش فيها مزيج وخليط متباين من الأجناس بسبب ما كان يضمه جيش أو جيوش الفتوحات الإسلامية، ليس فقط من العنصر العربى، بل أحياناً كثيرة من عناصر البلدان المفتوحة، سواء فى الشرق أو الغرب. ويمكننا القول أنه فى بعض البلدان المفتوحة لم يكن يشكل العنصر العربى سوى أقلية، ربما يقتصر على أفراد الجيش العربى الإسلامى. وهكذا فإن المجتمع الإسلامى تكوّن من عناصر وطنية صاحبة البلاد الأصلية المفتوحة والعنصر العربى الخالص؛ حتى أنه بعد الفتوحات الإسلامية فى العصر الأموى والعباسى وما تلى ذلك من عصور إسلامية لا يمكننا أن نطلق على الدولة الإسلامية اسم «الدولة العربية الإسلامية» لأن هذا لا ينطبق على الوضع الطبيعى لهذا الإمتداد الإسلامى وما يدين له بالإسلام، إذ العبارة الصحيحة منذ ذاك هى «الدولة الإسلامية» وليست الدولة العربية الإسلامية، لدخول فيها عناصر غير عربية دانت بالإسلام، مع الإحتفاظ بقوميتها ووطنيتها.

والواقع أن هجرة القبائل العربية من شبه جزيرة العرب إلى تلك البلاد فى الشرق والغرب، وعبر العصور المختلفة، وذلك لأسباب عديدة منها، مزاولة النشاط التجارى، ومنها الجفاف الممتد بطول وعرض شبه جزيرة العرب، وكذلك ماكان يحدث من حروب بين تلك القبائل بين آونة وأخرى لم تسمح بالإستقرار خاصة تلك القبائل الضعيفة التى كان لابد لها من الخروج إلى مناطق أخرى للبحث عن حياة أفضل. وهكذا يمكننا القول أن هجرات تلك القبائل العربية إلى جهة الشرق بصفة خاصة، كانت قد سبقت الفتوحات الإسلامية وبالتالى يمكننا

القول أنها كانت بمثابة مرحلة تمهيدى لأبناء جلدتهم فى نشر الدين الإسلامى فى تلك المناطق؛ ومع الفتوحات الإسلامية إندفعت القبائل العربية وبطونها إلى الشام وبلاد فارس وما وراء النهر وغيرها، حاملة معها الدماء العربية واللغة العربية والدين الإسلامى إلى تلك البلاد.

ونذكر من هذه القبائل التى كانت بمثابة عضد الدولة الإسلامية سواء كانت أموية أو عباسية، وفى بعض الأحيان كانت قد شكلت عوامل نخز وضعف فى جسم تلك الدول، لما كان بين تلك القبائل من عصبية قبلية عاشت بين ضلوعها رغم مجىء الدين الإسلامى وما حرص عليه من إذابة هذه العصبية منذ أيام النبى محمد ﷺ عندما آخى بين المهاجرينوالأنصار والأوس والخزرج وغيرهما. ومع هذا استمرت العصبية العربية تظهر وتخبو حسبما تكون الظروف مواتية لها. وأهم هذه القبائل:

أولاً- بنو كلاب:

لم تكن هجرة أبناء هيه القبيلة من أرض الجزيرة العربية، خاصة منطقة نجد بشكل كبير إلا فى أوائل القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، مع بداية قيام الدولة العباسية فى بغداد[١]. وكان لهم دور كبير فى أحداث الشام، حتى نجحوا فى إقامة إمارة لهم فى حلب بزعامة صالح بن مرداس أمير بنى كلاب عام ٤١٤هـ، الذى استطاع إنتزاعها من أيدى حكامها الفاطميين[٢]. ومن حسن حظ بنى مرداس أن صادفت جهودهم فى حلب فترة ركود مرت بها الدولة البيزنطية بعد وفاة إمبراطورها باسيل الثانى ١٠٢٥م، وولاية سلسلة من الأباطرة الضعاف؛

---

(١) بيشوف، تاريخ حلب، ص٢٧-٢٨ وأيضاً محمد الشيخ، الإمارات العربية فى الشام، ص٨ .

(٢) المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ١، ص٣٥٤ .

لم تمتد همتهم لبسط سيطرتهم على شمال بلاد الشام[1]، وعلى الرغم من أن امراء بنى مرداس بذلوا جهوداً كبيرة من أجل الحفاظ على نفذهم فى حلب، إلا انهم عجزوا بسبب تهديد الفاطميين لهم، مما أدى إلى زوال حكم المرادسيين فى حلب بعد ما يقرب من ستين عاماً[2]. وفى أواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، تعرضت حلب لهجوم السلاجقة وبعض أمراء العرب، خاصة من قبل أمير الموصل مسلم العقيلى الذى استولى عليها عام ١٠٧٩م/ ٤٧٣هـ. ثم دان بالولاء لملكشاه سلطان السلاجقة، وبذلك قضى على المرادسيين. وكانت لغة المرادسيين هى التركية، وهم رجال حروب، ومن أشد القبائل العربية بأساً حتى قال فيهم المؤرخ القلقشندى أنه «لو إنقادوا لأمير واحد لم يبق لأحد من العرب بهم طاقة»[3].

ويجب الإشارة هنا إلى تركيز معظم القبائل العربية فى بلاد الشام والعراق على وجه الخصوص قبل إمتدادهم فى منطقة الشمال الافريقى.

ويرجع نسب تلك القبيلة إلى كلب بن وبرة بن ثعلبة بن حلوان بن عمران بن الحافى بن قضاعة، أى يرجع أصلها إلى قبيلة قاعة، وكانوا قبل الإسلام ينزلون دومة الجندل وتبوك وأطراف السام. وقبيلة كلب، أو كلاب، من القبائل التى أدت إلى إضطراب الأوضاع الساسية بالشام وغيرها فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، بغرض تحقيق استقلال ذاتى لها، فاستقرت فى وسط الشام[4]. وتحقيقاً لهذه الغاية دخلت فى حلف مع صالح مرداس فى حلب -

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص١٨٠-١٨١ .

(٢) جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمى فى الشام، ص٥٥ .

(٣) نفسه، نفس المرجع، ص٥٨ .

(٤) القلقشندى، صبح الزعشى، جـ١، ص٣٤٠-٣٤١، جـ٤، ص٢٢٢ .

السالف الذكر - عام ١٠٢٤م/ ٤١٥هـ، بهدف إخراج الفاطميين من بلاد الشام، على أن يكون لأبن مرداس من حلب إلى شمال الشام، ولأمير الطائيين من دمشق إلى وسط الشام، وهو لسنان بن عليان أمير الكلبيين، غير أن هذا التحالف لم ينجح فى إبعاد الفاطميين، بل تمكن الفاطميون من إسترداد جنوب ووسط بلاد الشام[١].

ثانياً- بنو طئ:

فى الوقت الذى إزداد فيه طموح الفاطميين فى بلاد الشام، كانت القبائل العربية قد ضربت بجذورها هناك، وخاصة قبيلة بنو طئ المقيمين فى حمص، ثم فلسطين فجنوب الشام، والإقليم الواقع شرق نهر الأردن والأطراف الغربية لصحراء الشام[٢]، وكان ذلك فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى.

وعندما حاول بنو طئ قيام دولة لهم فى فلسطين أواخر القرن الرابع مستقلة عن الدولة الفاطمية (٩٩٨م/ ٣٨٨هـ) لم يسمح الفاطميون لهم ببسط سيادتهم على تلك المنطقة بل تمكنوا من إستردادها حتى البقاع الجنوبية من بلاد الشام.

ومن طئ إنحدر آل ربيعة، وهم بنو ربيعة بن حازم بن على بن مفرج بن دغفل بن الجراح، وكان ظهورهم فى عهد الأتابك عماد الدين زنكى (١١٢٧-١١٤٦م) صاحب الموصل، وصارت له الزعامة على عرب الشام فى عهد طغتكين السلجوقى صاحب دمشق. وفى عهد الدولة الأيوبية ثم المملوكية البحرية حاز بعض آل الربيعة على مكانة عالية[٣] .

(١) جمال الدين سرور، المرجع السابق، ص٤٦-٤٧ .

(٢) نفسه، نفس المصدر والصفحات.

(٣) جمال الدين سرور، المرجع السابق، ص٤٧-٤٨ .

ثالثاً- بنو عمار:

حدث قبل أن تفقد الإمارة المرداسية إستقلالها بنحو عشر سنوات أى حوالى ١٠١٤م/ ٤٠٥هـ، قامت دولة ابو طالب بن عمار وقد تأسست على يديه سنة ١٠٧٠م/ ٤٦٢هـ، فى مدينة طرابلس منسلخاً عن طاعة الدولة الفاطمية[١]، التى كانت قد سيطرت عليها عام ٩٧١م/ ٣٦٠هـ، ولعل نجاح ابو طالب بن عمار من قيام دولته يرجع إلى تحالفه مع الصليبيين[٢] ، هؤلاء الأخيرين قد نجحوا فى السيطرة على طرابلس عام ١١٠٩م، بسبب خيانة بنو عمار.

رابعاً- بنو منقذ:

وهى إحدى القبائل العربية، انشأها على بن منقذ فى شيزر عام ١٠٨١م، والتى نجحت فى استقلالها عن السيادة السلجوقية، خاصة بعد وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢م، ووقع نزاع بين ورثته، وهو الأمر الذى اتاح لبنى مُنقذ الإحتفاظ بنفوذهم فى المدينة والقلعة. وقد مكنهم هذا من الإحتفاظ بموقفهم على الحياد فى الصراع الصليبى الإسلامى فى بلاد الشام، مما كان ذلك فى مصلحة الصليبيين. على أن زلزالاً حدث فى عام ١١٥٧[٣] دمر المدينة (شيزر) عن آخرها، حتى أننا لم نسمع عن ذكر لهذه الأسرة هناك بعد ذلك، ومما هو جدير بالذكر أن هذه الأسرة هى تلك التى ينتمى إليها المؤرخ المشهور أسامة بن منقذ، مؤلف كتاب «الإعتبار» الذى وصف فيه الحياة الإجتماعية بالشام فترة الصراع الصليبى الإسلامى، خاصة خلال القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى.

---

(١) محمد الشيخ، المرجع السابق، ص١١٤ .

(٢) ابن الفرات، تاريخه، جـ٨، ص٧٧ .

(٣) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص١٧٠ .

خامساً- التنوخيون:

ويرجع أصلهم إلى قحطان، ونزلوا قبل الإسلام فى بلاد الشام ثم إنتشروا فى وسط الشام، قبل مجئ الصليبيين إليها.

وقد زاد نفوذ التنوخيون أيام الأمير الموصلى نور الدين محمود زنكى، الذى اقطع كرامة بن بحتر بن على بن إبراهيم التنوخى جهة الغرب فى مملكة نور الدين محمود عام ١١٦٠م/ ٥٥٦هـ، فسار موالياً لنور الدين ضد الصليبيين. ثم فى أيام صلاح الدين الأيوبى زاد نفوذ التنوخيون لأن صلاح الدين اقطع صجى بن كرامة بن بحتر أملاك أبيه[١] حتى صار أميراً على الغرب كله (غرب مملكة لأتابكة فى بلاد الشام)[٢] . ولكن بعد دخول هولاكو بلاد الشام، دخل جمال الدين صجى دمشق وأعلن طاعته لهولاكو، فأبقاه عليها. وهكذا كانت سياسة التنوخيون متقلبة بما يتمشى ومصلحتهم الشخصية.

وإلى جانب تلك القبائل العربية هذه، توجد قبائل أخرى ترجع أصولها إلى القحطانيين والعدنانيين؛ والتى منها، قبائل قحطانية مثل جرم وهم بنو ثعلبة بن عمرو بن الغوث من طئ، ومنازلهم بلاد غزة والداروم[٣] ، وجذام التى تفرع منها بنو صخر باكرك، وبنو مهدى بالبلقاء، وبنو عقبة وبنو زهير بالشوبك وبنو سعيد بصرخد وحوران[٤] ومن القبائل العدنانية بنو خالد فى حمص.

هذا عن الحضر، أما البدو، فقد عاشوا التنقل والترحال ففى فصل الشتاء

---

(١) صالح بن يحى، تاريخ بيروت، ص٥٢ .

(٢) نفسه، نفس المصدر، ص٥٦-٥٧ .

(٣) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١، ص٢٢٢ .

(٤) نفسه، نفس المرجع، جـ١، ص٢٣٤ .

يتحركون ناحية الشرق، بحثاً عن المناخ المعتدل الملائم والمراعى الوفيرة[1]، أما فى الصيف فإنهم يعودون مرة أخرى إلى الغرب لاسيما جبال لبنان؛ وقد حاول المماليك إدخالهم ببلاد الشام فى النظام الإقطاعى، فأضفوا على زعمائهم ألقاب الإمارة، واقطعوهم الإقطاعات، وفرضوا عليهم إلتزامات معينة أهمها الولاء للدولة، وحراسة الطرق والدروب الصحراوية وتقديم الرجال وقت الحرب، ولكنهم أنفوا من ذلك النوع من التنظيمات التى تفقدهم الكثير من حريتهم.

أما عن العناصر غير الإسلامية فهى:

اليهود والنصارى:

وجدير بالذكر أن الدولة الإسلامية الكبرى كانت تضم بين جنباتها عناصر عربية من اليهود والنصارى، سواء فى جزيرة العرب أو خارجها، وكذلك اليهود والنصارى ومجوس من غير العرب.

فأما عن اليهود والنصارى فهم أولئك الذين نعتهم القرآن بأهل الذمة الذين كان وجودهم فى أول الأمر حائلاً بين شعوب الإسلام وبين تكوين وحدة سياسية، وقد ظلت كنائس اليهود والنصارى وأديرتهم أجزاء غريبة، واستند أهل الذمة إلى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود وما منحوه من حقوق، فلم يرضوا بالإندماج فى المسلمين، ولقد حرص اليهود والنصارى على أن تظل دولة الإسلام دائماً غير تامة التكوين، حتى ان المسلمين ظلوا دائماً يشعرون أنهم أجانب منتصرون لا أهل ولا وطن. حتى أن الفكرة الإقطاعية لم تتم. بل كان وجود النصارى بين المسلمين سبباً لظهور مبادئ التسامح الدينى التى ينادى بها الإسلام، ولكن الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغى أن يكون فيها من وفاق

(١) نفسه، نفس المصدر، جـ٤، ص٢١٤ .

اوجدت من بداية الأمر نوعاً من التسامح الذى لم يكن معروفاً فى أوربا فى العصور الوسطى؛ ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أى دراسة الملل والنحل على إختلافها والإقبال على هذا العلم بشغف ونهم.

وكان تغير الدين لا يجوز إلا إذا كان دخولاً فى الإسلام، فكانت الطوائف الدينية منفصلة بعضها عن بعض تمام الإنفصال، وكان المسلم إذا إرتد عن الإسلام عوقب بالقتل، كما أن قانون الدولة البيزنطية كان يقضى بقتل المسيحى إذا هو غير دينه[1].

ولم يكن يقع تزاوج بين المسلمين وغير المسلمين، وذلك لأن القانون المسيحى لم يكن يجيز للمرأة النصرانية أن تتزوج بغير نصرانى، لئلا تنتقل هى وأولادها إلى غير دينها، ولا يجوز للنصرانى أن يتزوج بغير النصرانية إلا رجاء إدخالها وأولادها فى النصرانية[2].

أما زواج المسيحى من مسلمة فهو مستحيلاً على انه كان من الدول الإسلامية ما يضمن لكل ديانة من ديانات أهل الذمة كيانها الخاص فكان لا يجوز للمسيحى أن يتهود، ولا لليهودى أن يتنصر، ولا يكون تغيير الدين إلا إذا كان ذلك دخولاً فى الإسلام «إن الدين عند الله الإسلام» ولم يكن اليهودى يرث النصرانى ولا العكس. كما لم يكن اليهودى أوالنصرانى يرث المسلم، ولا المسلم غير المسلم يهودياً كان أو نصرانيا[3]. وقد أصدر الخليفة المقتدر فى سنة ٣١١هـ/ ٩٢٣م كتاباً فى المواريث جاء فيه بأن «ترد تركة من مات من أهل الذمة، ولم يخلف

---

(١) الكندى، ملحق أخبار القضاة، طبعة Guest، ليدن، ١٩١٢، ص٥٩٣ .

(٢) Sachau, Syriche Rechtsbucher, II, pp. 75, 170, 192.

(٣) قدامه بن جعفر، كتاب الخراج، مخطوط باريس، ٥٩٠٧، ص١٣ب.

وارثاً على أهل ملته». على حين أن تركة المسلم ترد إلى بيت المال، فى حالة عدم وجود ورثة[1].

وفى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى إعترف للمجوس بأنهم أهل ذمة إلى جانب اليهود أو النصارى، وكان لهم كاليهود والنصارى، رئيس يمثلهم فى قصر الخلافة وعند الحكومة، ولكن كان بين تلك الطوائف الثلاث فروق، فأما اليهود فإنهم استطاعوا أن يستنقذوا مركزهم السياسى رغم ما تعرضوا له من مخاطر وتقلبات، وأما المجوس فهم بقية لعدو باسل مستقل لم يتم التغلب عليه فى مواطنه البعيدة المنال. أما النصارى فقد كانوا من قبل يخضعون لحكم الساسانيين على ما يشبه حال أهل الذمة، وكانت الظروف التى عاشوا فيها أقسى عليهم من غيرهم، وأقل حفظاً من اليهود لمصالحهم أو من شعوب الولايات التى أخذت من الروم[2] وكانت الرياسة فى المجوس واليهود وراثية، وكان يلقب رؤساؤهم بلقب الملك، وكانوا يدفعون الضرائب لرؤسائهم، خلافاً لما كان الحال عليه بالنسبة للنصارى[3] .

وفى أثناء القرن الرابع الهجرى، صدر منشور كتب للصابئين عن أمير المؤمنين، أمر فيه إلى جانب صيانتهم وحراستهم والذب عن حريمهم ورفع الجور عنهم ونحو ذلك، بالتخلية بينهم وبين مواريثهم وترك مداخلتهم، ومشاركتهم فيها، لأن أمير المؤمنين يرى فى مواريث الصابئين وغيرهم من المخالفين قول رسول الله ﷺ فى الورث «لا يتوارث أهل ملتين»[4] .

---

(١) كتاب الوزراء، ص٢٤٨، وكانت تركة الميت عند المسلمين تؤخذ إلى بيت المال إلى جانب ما ذكرنا، ما يزيد عن السهام المفروضة فى القرآن.

(٢) رسائل الصابى، مخطوط ليدن، رقم ٧٦٦، ص٢١١أ.

(٣) Michael Syrus ed. Chabot, p. 519 .

(٤) رسائل الصابى، المخطوط السابق، ص٢١١أ، ٢١٢ .

وكـان للنصـارى النوبيـين دون سـائر النصـارى مـركـز خـاص فى الدولة الإسلاميـة، فكانوا يدفعون الضرائب لملكهم، وكان للضرائب عامل من قبله فى بلاد الإسـلام، وقـد حـدث أن واحـداً منهم إعـتنق الإسـلام وكـان ابن ملك النوبة ببغداد زائر، فأمر بإعتقاله وغله فى القيود[1] .

ولا يتكلم المؤرخون المسلمون كثيراً عن رئيس اليهود، وقد كان إنقسام الدولة الإسلاميـة إلى خـلافة فى بغداد وأخـرى فى القـاهرة أثره فى تنظيم المجتمع اليهـودى، إذ كان رئيس اليهـود فى بغـداد يسمى الجـالوت وأمـا فى القـاهرة فكان يعرف باسم سارهساريم (أى امير الأمـراء) وكان يعين أحبار اليهود فى مصر والشام أى فى حدود الدولة الفاطمية.

لم يكن فى التشريع الإسـلامى مـا يغلق دون أهل الذمـة أى بـاب من أبواب الأعمـال، وكانت أقدامهم راسخـة فى الصنائع التى تدر الأرباح الطائلة؛ فكانوا صيـارفـة وتجار وأصحـاب ضيـاع إقطاعيـة وأطبـاء[2]. بل أن أهل الذمـة ظلموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة فى الشام مثلاً يهوداً، على حين كـان أكثـر الأطبـاء والكتبـة نصـارى[3] وكـان طبـيب الخليفـة فى بغـداد من أصل نصرانى، كما كان رؤسـاء اليهود جهابذة عندهم[4]. وكان أصغر دافع الضرائب هم اليهود الخيـاطين والصبـاغين والأساكفة والحـرازين ومن إليهم[5]. وقد وجد بنيامين فى القدس فى القرن الثانى عشر الميلادى، أن اليهود يحتكرون صناعة

---

(١) Michael, op. eit, p. 532 وراجع، البيهقى، كتاب المحاسن والمساوئ، جـ١، ص٣٨٤ .

(٢) كتاب الخراج، لأبى يوسف القاضص، طبعة بولاق، ص٦٩ .

(٣) المقدسى، ص١٨٣ .

(٤) ابو نواس، ديوان، طبعة القاهرة عام ١٨٩٨، ص٣٥٦ .

(٥) يتيمة الدهر، جـ٤و ص٣٠٦ .

الصباغة، وكذلك الإثنى عشر يهودياً ولو كان واحداً فى بلد ما فإنه يدخل ليشتغل فى هذه الصناعة[1].

اما حياة الذمى (اليهود والنصارى) فإنهم عند أبى حنيفة وابن حنبل تكافئ حياة المسلم، وديته دية المسلم، وهذه مسألة خطيرة جداً من حيث المبدأ، أما عند مالك فديّة اليهودى أو النصرانى نصف دية المسلم، وعند الشافعى ثلثها. أما المجوس فديته جزء من خمسة عشر جزءاً من دية المسلم. ومما كان يستحق الزجر أو التأديب أو يقال للمسلم يا يهودى أو يا نصرانى أو ما شابه ذلك[2].

ولم تكن الحكومات فى الدولة الإسلامية تتدخل فى شعائر أهل الذمة الدينية، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء ان يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم[3].

وفى حالة إنقطاع المطر كانت الحكومة الإسلامية تأمر بعمل مواكب يسير فيها النصارى، وعلى رأسهم الأسقف واليهود معهم النافخون فى الأبواق[4]. وكذلك ازدهرت الأديرة فى هدوء ومن ذلك أديرة مصر فى سيناء ووادى النطرون والدقهلية والغربية وكذلك أديرة بغداد التى إلى الشرق منها خاصة دير فنى (بين دجلة والفرات) حيث كانت تباع منتجات تلك الأديرة بأثمان باهظة[5].

وكان أكبر الأديرة بمصر دير أنطونيوس، وبينه وبين النيل ثلاثة أيام فى البرية، وهو يقع شرقى أطفيح فى جنوب مصر، وهو فوق جبل عال. وله بمصر

(١) كتاب الخراج، لأبى يوسف، ص٦٩ .

(٢) كتاب الخراج ليحى بن آدم القرشى، طبعة ليدن، ١٨٩٥، ص٥٥ .

(٣) كتاب الخراج، لأبى يوسف، طبعة بولاق، نة ١٢٠٣هـ، ص٨٠ .

(٤) ياقوت، الإرشاد، جـ٢، ص٢٤ .

(٥) كتاب الديارات للشابشتى، مخطوط برليين، ٨٣٢١، ص١١٥ب.

وقوفات وأملاك عدة، وعليه حصن دائر وداخل الحصن بستان كبير، وفيه نخيل مثمر، وأشجار تفاح وكمثرى ورمان وغير دلك، وأرضه مزروعة بالبقول، وله ثلاث عيون مياه جارية يسقى منها البستان، ومن جملة البساتين فدان وسدس كرم عنب، وقيل أن عدد نخيله ألف نخله، وبه جوسق كبير، وقلال للراهبات مطلة على البستان، وليس مثله فى أديرة مصر من حيث سكنى الراهبات والرهبان المصريين[1] .

على أننا نرى بأم أعيننا أن دير «دميانة» ببراري بلقاس محافظة الدقهلية، يفوق أى دير فى مصر من حيث الضياع والإمكانيات المادية؛ لها لهذا الدير من مكانة كبيرة فى نفوس المصريين النصارى بل تعدت أهميته حدود مصر إلى الخارج، فيأتيه المال والمساعدات من كل صوب فى العالم؛ ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أنه أقدم أديرة مصر على الإطلاق، إذ تأسس فى عصر الأمبراطور الرومانى دقلديانوس فى نهاية القرن الرابع الميلادى، وتقام فيه الطقوس والشعائر الدينية فى شكل إحتفال كبير فى شهر مايو من كل عام، وتحرص الدولة فى العصر الحاضر على منح النصارى فى مصر كافة حقوقهم الحياتية الدنيوية والدينية فى حرية كاملة.

هذا فى الوقت الذى كانت فيه الكنيسة الرسمية فى الدولة الرومانية الشرقية قد ذهبت فى معاداتها للمسيحيين الذين يخالفون رجالها فى التفكير أبعد مما ذهب إليه الإسلام بالنسبة لأهل الذمة والذين قد لاقوا الأمن والأمان فى ظل الحكم الإسلامى.

أما فيما يتعلق ببناء الكنائس، فلم تكن الدولة الساسانية تسير على خطة

---

(١) تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمينى، ط اكسفورد، ١٨٩٤، ص١٥٤.

ثابتة، فكانت تسمح ببنائها أحياناً، على حين أن القانون الرومانى فى العهد الأخير كان يحرم على اليهود أن ينشئوا بيوت عبادة جديدة لهم، ولا يسمح لهم إلا ببناء ما تهدم[1]. أما فى الإسلام فنجد سياسة الدولة تجمع بين التسامح والتشدد فى بعض الأوقات التى ربما يكون فيها ضرر للإسلام والمسلمين فقط وهى حالات إستثنائية، وليست ظاهرة فى العصر الإسلامى، وحتى فى وقتنا الحاضر، لم يختلف التعامل من أهل الذمة عن الماضى.

وكان أهل الذمة فى بغداد يعاملون فى المارستانات معاملة المسلمين، ولكن حدث وباء فى القرن الرابع، فحدث أن وقع الوزير على بن عيسى آل سنان بن ثابت طبيب الخليفة، وهو الذى كان يتولى علاجه وإعطاء الدواء للمرضى خارج بغداد، بأن يعالج المسلمين وأهل الذمة سواء دونما أى تمييز؛ وإن كان بعض المؤرخين من أهل الذمة قد ذكروا أن الوزير على بن عيسى قد أمر بأن يعالج المسلمين قبل أهل الذمة[2]، ولكن فى مثل هذه الحالات المفاجأة لا يمكن بأى حال تميز مسلم على ذمى.

وكان موتى المسلمين وأهل الذمة كل يدفن على حده، وإن كان فى عام ٣١٩هـ/ ٩٣١م ذكرت بعض المصادر[3] أن سيلاً كبيراً وقع فى مدينة تكريت وأغرق الدور والناس معاً فمات خلقاً كثيراً قد عددهم بنحو أربعمائة دار بما فيهم من سكان، ودفن المسلمون والنصارى مجتمعين لا يعرف بعضهم بعض.

ولم يكن يوجد فى المدن الإسلامية أحياء مخصصة لليهود والنصارى بحيث

---

(١) Michael le syrie, 517. وقد يجد القارئ كثيراً من الآراء فى هذه المسألة.

(٢) اخبار الحكماء للقفطى، ص١٩٤ من الطبعة الرسلامية.

(٣) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص١٧٤ .

لا يتعدونها، وإن آثر أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين وكانت الأديرة المسيحية منتشرة فى كل أنحاء بغداد لا يكاد يخلوا منها ناحية، وهو دليل قاطع على سماحة الدين الإسلامى وأن قانون الحقوق الإنسانية تواجد فى دول الإسلام الأولى قبل أن يسن هذا القانون فى هيئة الأمم المتحدة والذى لا يعدو إلا أن يكون حبراً على ورق[1].

ولما كان الشرع الإسلامى خاصاً بالمسلمين ﴿لكل جلعنا شرعة ومنهاجاً﴾ فقد خلت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم، فيما يتعلق بالأمور الدينية فقط، أو فيما يتعلق بأمر الزواج - وهى ناحية إجتماعية - وكذلك الميراث. هذا فى الوقت الذى كان فيه إمكانية لجوء الذمى إلى المحاكم الإسلامية فى الجرائم أو فض منازعات مدنية، بإعتبار قانون الدولة يعمل وفق القوانين الدولية المدنية المعمول بها، خاصة فيما يتعلق بحقوق الإنسان وإن كان هذا لا يرضى الكنيسة قديماً، بل وحديثاً أيضاً؛ وإن كان هناك محاولة لفصل المسيحيين أو الذميين عن المسلمين فى أمر يتعلق بالقضاء، فإن ذلك ليس إلا بهدف استقلال الذميين عن المسلمين، وأنهم يأنفون الخضوع للمحاكم الإسلامية وهو أمر ينافى الواقع بإعتبار الدولة دولة إسلامية، ولا يمكن إطلاقاً السماح بمثل هذا إلا فى حدود بعض الأمور الدينية أو الإجتماعية التى لا تتفق فى شريعتها مع الشريعة الإسلامية كالميراث أو الزواج، على سبيل المثال. وحتى فى حالة عدم تحقيق الذميين لمبدأ العدالة فيما بينهم، كان من الضرورى اللجوء إلى القضاء الإسلامى ليحكم بينهم، ويكون حكمه نافذ وملزم[2].

---

(١) إن ممارسات الدول الكبرى اليوم من قتل وسفك دماء واستخدام اسلحة غير شرعية فى بسط سيادتها على الشعوب النامية يتنافى مع قانون حقوق الإنسان - المؤلف.

(٢) أبو الحسن الماوردى، كتاب الأحكام السلطانية، ص١٠٨-١٠٩ .

ومن الأمور التى أثارت اشمئزاز الذميين هى أن شهادتهم لم تكن تقبل أمام القضاء، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا تقبل شهادتهم على أهل دينهم، وذهب البعض مذهباً آخر. أما المحاكم النصرانية فإنها كانت تقبل شهادة المسلم على النصرانى على كره منها لذلك، شريطة أن يكون الشاهد تقياً يخاف الله غير مطعون فى ذمته، وهذه هى الشروط التى كان القاضى المسلم يحتم توافرها فى الشاهد[1] .

على أية حال، كان أهل الذمة بحكم ما نالوه من تسامح المسلمين ودخولهم فى ذمتهم وحمايتهم يدفعون الجزية، كل واحد منهم بحسب قدرته، وكانوا ثلاث طبقات، تدفع الدنيا منها إثنى عشر درهماً والوسطى أربعة وعشرين والعليا ثمانية وأربعين درهماً فى السنة؛ أو ديناراً أو دينارين أو ثلاثة فى البلاد التى عملتها الذهب. وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة للدفاع الوطني فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح، ولا يدفعها أصحاب العاهات أو المترهبون أو أهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار[2]. ويحكى أن ابن خرداذبه[3] ذكر أن الروم كانوا يأخذون من اليهود والمجوس ديناراً فى السنة، وكذلك فرض النصارى على المسلمين الجزية لما فتحوا بلادهم[4]. على أن غالبية دافعى الجزية كانوا يدفعون الحد الأدنى، حتى أن بنيامين يقول: «إن اليهود فى كل بلاد الإسلام يدفعون ديناراً واحداً»[5] وكذلك يقول بتاحياً: «إن اليهود فى العراق لا يدفعون شيئاً

(١) Sachau, Syrische, Rechtsbucher, II, p. 107.

(٢) بنياميين، ص٧٧ .

(٣) المسالك والممالك لابن خرداذبة، ص١١١ .

(٤) ابن حوقل، ص١٢٧، وأيضاً، يحى بن سعيد، المرجع السابق، ص٩٨ب

(٥) بنيامين، ص٧٧، ٧٩ .

للخليفة، وإنما يدفع الواحد منهم فى كل عام ديناراً واحداً لرأس الجالوت»[1].

وقد ظلت الجزية بوجه عام عند المقدار الذى فرضته الشريعة الإسلامية، وإنما كانت تتغير تغيراً يسيراً بحسب تغير العملة. وكانت الحكومة فى مصر، فى أوائل القرن الثالث الهجرى تكتفى بأخذ نصف دينار ولكن فى سنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م، اضطر البطرق جورج المصرى أن يدفع ديناراً ونصف دينار، بعد أن كان يدفع ديناراً واحداً[2]. وكان بمصر زائراً حوالى عام ٢٠٠هـ/ ٨١٥م، مرّ بمدينة تنيس المشهورة بصناعة النسيج فقال: «مع أن المدينة عامرة بالسكان، كثيرة الكنائس فإنى لم أر من البؤس فى بلد أكثر من بؤس أهلها، وقد سألتهم عن مصدر هذا البؤس فأجابونى: إن مدينتنا محاطة بالماء فلا نستطيع زرعاً ولا تربية ماشية، والماء الذى نشربه يجلب لنا من بعيد، ونشترى الجرة منه بزريعة دراهم، ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان، فنساؤنا تغزله ونحن ننسجه، ونعطى على ذلك نصف درهم فى اليوم من تجارة الأقمشة؛ ومع أن أجرتنا لا تمفى لإطعام كلابنا، فإن كل منا يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنانير، وفى ذلك نضرب ونسجن ونلزم بإعطاء أبنائنا وبناتنا رهائن، فيلزمون بالعمل كالعبيد سنتين لأجل كل دينار، ولو ولدت عندهم إمرأة أو نبت طفلاً فإنهم يأخذون قسمنا بألا نطالب به، وقد يحدث أن تحل ضرائب جديدة قبل إطلاق هؤلاء النساء»[3].

على أننا يجب أن نشير هنا إلى أن فى هذا مبالغة كبيرة، لأن المؤرخ ذمىّ والذى يدلى بحديثه ذمى، وأن ما ذكره بعض أهل تنيس إنما لا يدل على الواقع، بل هى مجرد شكوى بسبب سوء الحالة الإقتصادية آنذاك، وربما اعتقد أن فى

---

(١) بتاحيا، ص٢٧٥، ٢٨٨ .

(٢) Mitteil. aus der samanlungen Rainer, II/III, p. 176.

(٣) Michael Syrian, pp. 515-516 .

سؤال البطرق ديونيسيوس له قد يعفيه من سداد الضريبة المقررة عليه سنوياً. لأن ما ذكره لا يدل على سماحة الدين الإسلامى، بل ينافى شريعته، وكل ما هنالك أن تلك الجزية كان تدفع منها مرتبات عمال المسلمين وأفراد الجيش الإسلامى فى البلدان الإسلامية، إذن فهى ضرورية لأن هؤلاء الذميون كانوا يعيشون فى كنف وحماية وأمن الدولة الإسلامية.

ويكفى أن ننوه هنا إلى أن جميع الأوروبيين والرهابن المتبتلين فى مصر من المسيحيين والبطرق وجميع الأتراك من المسلمين[1] كانوا يعفوا من الجزية، وكانت الشريعة الإسلامية قد أمرت بعدم القسوة فى تحصيل الضرائب، فقد نهى فى الإسلام عن إتباع أساليب العنف والقسوة التى كانت تتبع قديماً فى العصر الرومانى، أو البطلمى من قبل؛ أو بتكليف أصحابها ما لا يطيقون، أو إقامتهم فى الشمس وصب الزيت عليهم - كما كان يفعل بهم قديماً - وإنما أجاز الفقهاء حبس أهل الذمة حتى يؤدوها[2]، وهو الاسلوب المتبع حتى اليوم.

وقد وجدت فى الإسلام منذ ظهوره تعليمات خاصة باللباس فقد أمر هارون الرشيد عام ١٩٦هـ/ ٨٠٧هـ، بأن يؤخذ أهل الذمة فى مدينة السلام بمخالفة هيئتهم عن المسلمين فى لباسهم وركوبهم، فأخذوا بأن يجعلوا فى أوساطهم الزنارات مثل الخيط، وبأن تكون قلانسهم مضربة وأن يجعلوا شراك نعالهم مثنية، وأن يتخذوا على سروجهم فى موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب، وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل، ولا يركبن يهودياً ولا نصرانياً على سرج بل على أكاف[1]. وكان اليهود فى القرن الثانى يلبسون براطيل طويلة شبهها بعض

(١) M. wanslebs, Beschreibung von Agypten, p. 57.

(٢) أبو يوسف، كتاب الخراج، ص٧١ .

(٣) الطبرى، جـ٢، ص٧١٢، وراجع كتاب الخراج، ص٧٥ .

الشراء بالأميال الطوال أو بالمقاعيد على رؤوس القرود[1]. وكان النصرانى فى ذلك الوقت يلبس البرانس، ولكن لما صارت القلانس الطوال عند المسلمين لباساً قديماً لبسها النصارى وبقيت خاصة بهم[2]. اما اللون، فلم تكن هناك من المعلومات ما تشير إلى أن أحداً الزم بإتخاذ لون معين، ويبدو أن هذه المسألة تركت للعادات والتقاليد المحلية. وإن كانت هناك بعد الأحداث تشير إلى أن لون لباس الذميين كانت عسلية اللون. إذ أن المتوكل الخليفة، أصدر أمراً فى عام ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م بأخذ النصارى وأهل الذمة لباس الطيالسة العسلية، وأن من يرغب فى لبس قلنسوة مثل قلنسوة المسلمين فليجعل عليها زرين وكذلك جعل على لباس مماليكهم من الظهر رقعتين، لونهما يخالف لون الثوب الظاهر. وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره والأخرى خلف ظهره، وأن تكون كل واحدة من الرقعتين قدر اربع أصابع ولونها عسلياً. وكذلك أمر مماليكهم بمنع لباس المناطق وأمرهم بلباس الزنانير، وأن يكون على أبواب دورهم صور أشبه بالكاريكاتير من خشب تفريقاً بين منازلهم ومنازل المسلمين[3]. كذلك أمر الخليفة المتوكل أن يقتصر أهل الذمة على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين[4].

على أن مثل هذه الأوامر لم تأت بنتيجة مثمرة، وكان أهل الذمة قد أبدو إمتعاضهم لها حتى إختفت تماماً فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، ثم ما لبثت أن عادت فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، عندما زاد

---

(١) الكندى، ص٤٢٤، وأيضاً: كتاب الأوائل لعلى دده، مخطوط برلين ٩٣٧٢ ص٥٨ .

(٢) انظر هامش مفيد العلوم، طبعة مصر، ١٣١٠هـ، ص٢٠٠ .

(٣) الطبرى، تاريخ، جـ٣، ص١٣٨٩ والمقريزى الخطط، جـ٢، ص٤٩٤ .

(٤) الطبرى، المصدر السابق، جـ٣، ص١٤١٩ .

نفوذ أهل السنة منذ عام ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م، عندما صدر توقيع الخليفة بإلزام أهل الذمة ملابس يعرفون بها عند المشاهدة، واستدعى لذلك جاثليق النصارى، ورأس جالوت اليهودى فى جمع حافل من الأشراف والوجهاء فقالوا سمعاً وطاعة[1] .

وتجدر الإشارة بنا هنا إلى أن نكون على حذر عندما يردد العامة بعض الأقوال، ونأخذها على أنها تمثل جانب الحكومات الإسلامية فى الدولة الإسلامية. من أمثلة ذلك ما ذكره ابن قتيبة[2] من أن «اليهود وصفوا بأنهم أنتن خلق الله فناء، وكذلك وصف النصارى بأنهم شديدى السكر خصوصاً غداة عيد الفصح[3] . وبأن راهباتهم وشمامستهم ضعفاء الفضيلة. وأما وصف بن قتيبة للصابئة مثلاً بأن بينهم من المعاداة والبغضاء مالا يكون بين غيرهم، وأن بعضهم يسعى فى بعض ويقبح عليه ما وجد إلى ذلك سبيلاً[4] فإن مثل هذه الصفات قد لا تعيب ابن قتيبة هنا لأنها ربما تكون موجودة فيهم، ومع هذا فإنها مغالاة ربما تضر بسمعة الإسلام بشكل أو بآخر، خاصة من قبل المغرضين من أصحاب العاهات الذهنية والفكر العقيم. إذ أن مثل هؤلاء يأخذون بمثل هذه العبارات ويوجهونها تهماً ضد الإسلام ومبادئه السامية؛ فلنأخذ حذرنا خاصة وأن مؤرخاً مثل البيرونى جاء بكلام ينافى الواقع تماماً، عندما يصف اليهود والنصارى بأنهم أهل خير وبر وتقوى وإحسان، وأن «بهم خصال نبيلة مبنية عى الخير وكف الشر، من ترك للقتل، ورمى القيص خلف غاصب الرداء، وتمكين لاطم الخد من الخد الأخرى، والدعاء للعدو بالخير، والصلوات عليه، وهى لعمرى سيرة

---

(١) ابن الجوزى، المنتظم، ص١٩٢ .

(٢) ابن قتيبة، أدب الكاتب، طبعة مصر، ١٣٣هـ، ص٢٦ .

(٣) كتاب تحقيق ما للهند من مقولة، طبعة سخاو، ص٢٨٠ .

(٤) أخبار الحكماء للقفطى، ص٣٩٨، من الطبقة الأوربية.

فاضلة..»[1]. ولو دققنا النظر هنا لوجدنا أن مثل هذه المشاعر النبيلة لم تتوفر لدى اليهود أو النصارى، إذ هم أهل شر وحقد وضغينة، وميالى لسفك الدماء، لأنهم يكونون أشد الحرص على الحياة حتى لو كلفهم ذلك قتل الآخرين بالجملة، وهو ما نشاهده فى أيامنا هذه فى شتى بقاع الأرض.

ودليلنا على سماحة الدولة الإسلامية والدين الإسلامى معاً تجاه أهل الذمة من اليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب الملل الأخرى، أننا نجد أن العمال والصيارفة من غير المسلمين فى الدولة الإسلامية كثيرى العدد، فكان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين فى بلاد الإسلام[2]، والشكوى من تحكيم أهل الذمة فى أبشار المسلمين وأموالهم شكوى قديمة[3]، ويحكى عن عمر بن الخطاب أنه لما عرف أن لأبى موسى الأشعرى كاتباً نصرانياً ضرب فخده، وقال: «ألا اتخذت رجلاً حنفياً». وكان عمر أيضاً يأبى أن يتخذ الكتاب من النصارى واليهود[4]. وقد قلد ديوان جيش المسلمين لرجل نصرانى مرتين فى أثناء القرن الثالث الهجرى فوجه اللوم للوزير، لأنه «جعل أنصار الدين وحماة العقيدة يقبلون يده ويمتثلون لأمره»[5].

على أن الحركات التى كانت تقصد بها مقاومة النصارى فهى موجهة أولاً إلى محاربة تسلط أهل الذمة على المسلمين، وسيطرة أهل الذمة شئ لا يحتمله المسلم الحق. وفى عام ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م، أمر الخليفة المتوكل الا يستعان بأهل الذمة

---

(١) فيما يتعلق بالشام، انظر المقدس، ص٨٣، وأما مصر، انظر، يحى بن سعيد، ص١٢٣ .

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، طبعة جوتنتجن سنة ١٨٩٩، ص٩٩ .

(٣) نفسه، نفس المصدر، ص٦٢ .

(٤) ابن الجوزى، المنتظم، ص٩٥ .

(٥) كتاب ديوان الإنشاء، مخطوط باريس، وقم ٤٤٣٩، ص١٢٠٣- ١٢٠٤.

فى الدواوين وأعمال السلطان التى تجرى أحكامهم فيها على المسلمين[1]. فمن ذلك انه أمر بعزل النصارى عن مقياس النيل[2]. ولكن هذا الخليفة نفسه بنى بعد ذلك بعشر سنين قصره المسمى بالجعفرى، وأجرى إليه نهراً وصير النفقة عليه إلى دليل ابن اليعقوبى النصرانى[3]. وفى عام ٢٦٩هـ/ ٩٠٩م كان النصارى قد علا امرهم وغلبوا على الكتاب، فأمر المقتدر بما أمر به المتوكل من رفضهم وإبعادهم عن الخدمة[4]. وفى هذه السنة نفسها أمر المقتدر الا يستخدم أحداً من اليهود أو النصارى إلافى الطب والجهبذة[5]. ولكن كان أمر المقتدر مثير للسخرية. إذ أن وزيره أبو الحسن على بن الفرات كان يدعو أربعة من النصارى كل صباح إلى طعامه، وكانوا فى جملة الكتّاب التسعة الذين إختص بهم[6]. وكان الكتاب النصارى منتشرين فى كل مكان حتى أن محمد بن عبد الله بن طاهر فى القرن الثالث اتخذ له فرماناً نصرانياً[7]، ولما أراد المقتدر أن يستوزر الحسن بن القاسم عام ٣١٩هـ/ ٩٣١م، راسله فى أن يجتهد فى إصلاح أعدائه، فابتدأ ببنى رائق، فكان يمضى إلى كاتبهم النصرانى ويضمن له الضمانات، ثم فعل ذلك باصطفن بن يعقوب كاتب مؤنس، وقال له: إذا تقلدت الوزارة فأنت تقلدتينها، وكذلك فعل بغير هؤلاء من كتاب النصارى[8]. ومع هذا فإن الوضع بين المسلمين

(١) تاريخ الطبرى، جـ٣، ص١٣٨٩- ١٣٩٠ .

(٢) الكندى. الولاه، ص٢٠٣ .

(٣) تاريخ الطبرى، جـ٣، ص١٨٢أ.

(٤) عريب، ص٣٠ .

(٥) ابو المحاسن بن تغريردى، النجوم، طبعة ليدن، جـ٢، ص١٧٤-١٧٥ .

(٦) كتاب الوزراء، ص٢٤٠ .

(٧) كتاب الديارات، مخطوط برلين، ص١٥٦أ.

(٨) المقدسى، ص٢٠٢، سير البطارقة لأسقف اشمون بمصر «ساويرس، ص٦ .

وأهل الذمة لم يكن صافياً، وسيظل هكذا بسبب المعتقدات الدينية والتعصب، كل لبني جنسه ودينه. وإن كان أهل الذمة - كما رأينا - يحظون ببعض المناصب العليا والقيادية فى الدولة الإسلامية وحتى يومنا هذا، خاصة فى مصر وبلاد الشام والأندلس.

وهذا ما نراه أيضاً فى عصر الدولة الفاطمية - المتشددة دينياً - والمنسقة على أهل السنة من المسلمين، نجدهم لا يختلفون عن أسلافهم من الأمويين والعباسيين فى معاملتهم لأهل الذمة، فقد أظهروا تسامحاً نعجب له، إذ لا ينتظر ذلك من قوم مثلهم، فعلى مذهب خاص انفردوا به، وخالفوا به جمهور المسلمين، ومع هذا فقد كان لهم - أى للخلفاء الفاطميين - أطباء من اليهود، ولم يحتج هؤلاء الأطباء إلى تغيير دينهم أو عقيدتهم[١]، وعظم نفوذهم حتى صار لا يعمل شئ فى بلاط الخليفة المعز لدين الله الفاطمى إلا بمعرفة اليهود، وعرف ذلك الوزير الداهية ابن كلس الذى كان يهودياً فأسلم، وصار يتحيز إلى إخوانه فى الدين من قبل (أى اليهود)[٢]. وكانت النزعة العقلية فى مذهب الإسماعيلية وإعتقادهم بإمكان إقامة الدليل عليه مما مهد للمناقشة العلنية بين المسلمين والنصارى لأول مرة فى تاريخ الإسلام[٣] وفى عهد العزيز بالله زاد بلاط الخليفة فى إكرام النصارى، وذلك أنه كان للعزيز أصهار مسيحييون منهم أرستس خال السيدة إبنة العزيز بالله، وقد صار بطرقاً على بيت المقدس، وصار أخوه أمانيوس مطراناً على القاهرة ومصر، وكان لهم جميعاً موضعاً محترماً عند العزيز بالله فى دولته[٤].

(١) يحى بن سعيد، ص٢٩٢ .

(٢) ابن الجوزى، مخطوط 679 il uri 130

(٣) يحى بن سعيد، ص١٠٨أ.

(٤) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص٨٢ .

ثم إن هذا الخليفة نفسه استوزر بعد ذلك عيسى بن نسطورس النصرانى، واستناب بالشام يهودياً اسمه منشا، فاعتز بها النصارى واليهود، وآذوا المسلمين، فكتب أهل مصر رقعة وجعلوها فى يد صورة جعلوها من الورق، وأقعدوا الصورة فى طريق العزيز والرقعة بيدها وفيها «بالذى اعز اليهود بمنشا والنصارى بعيسى بن نسطورس وأذل المسلمين بك ألا كشفت ظلامتى»، فلما رآها العزيز، قبض على الرجلين وصادرهما[1]. وفى عهد هذا الوزير النصرانى وقعت فتنة بين المسلمين والنصارى، وذلك أنه لما خرج الإمبراطور باسيل إلى الشام لفتحها فى عام ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م، برز العزيز فى سائر جيوشه وأظهر العزم على غزو بلاد الروم، وأمر عيسى بن نسطورس بإنشاء اسطول يسير معه، فلما تم إعداده وقعت فيه نار فى اليوم الذى عزم فيه العزيز على السير، وإتهم الرعية تجار الروم الواردين بالبضائع إلى مصر بإحراقه، فثار العامة وقتلوا منهم مائة وستين رجلاً، ثم تحولوا عن الروم إلى نهب كنائس النصارى، وجرح فى هذا الشغب أسقف النساطرة بجراح أودت بحياته، وقد أعاد الوزير النظام إلى نصابه، واعتقل ثلاثة وستين من المخربين وأمر العزيز بإطلاق ثلثهم وضرب ثلثهم وقتل الثلث الأخير منهم، وذلك بأن كتب رقعاً على بعضها: تقتل، وعلى بعضها تطلق، وأمر كل واحد من المخربين ان يأخذ رقعة منها بعد أن وضعت تحت آزار، فكان يعمل به بحسب ما يخرج فى يده[2]، وفى عام ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م بدأت علامات العاصفة التى آثارها تعصب الخليفة الحاكم بأمر الله[3]. ولما رأى العامة أن العنان قد أرسل لهم، بدءوا

---

(١) نفسه، نفس المصدر والجزء، ص٨١-٨٢ .

(٢) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص١٩٥-١٩٦، يحى بن سعيد، ص١١٢ب، ١١٣أ.

(٣) De Sacy; Expose de la religion (Des Druses, cclxxvIII, ff.)

يهدمون الكنائس، فبنى الخليفة مكانها مساجد، منها الجامع الأزهر المشهور، ثم أعاد الحاكم بأمر الله قوانين اللباس القديمة على أشد صورها؛ فأمر النصارى أن يعلقوا على أعناقهم صلباناً من الخشب، ومنعت مواكبهم العامة، وحظر عليهم ضرب النواقيس، وأمر ألا يظهر صليب ولا تقع عليه عين، فنزعت الصلبان من الكنائس وطمست آثارها من ظاهر البيع والكنائس. ورغم هذا كله استوزر الحاكم منصور بن سعدون النصرانى، واتخذ لنفسه أطباء نصارى طوال هذه المدة، وقد تقدم بإثبات سائر المسلمين المتعطلين والمتصرفين من الكتّاب الذين يصلحون للخدمة فى دواوينه ليستعيض بهم عن النصارى إلا نفراً يسيراً من الكتّاب». وفى النهاية أصدر الحاكم قراراً بالعفو عن النصارى ورد عليهم رداً جميلاً ووعدهم بما اطمأنت له قلوبهم، فلما كان يوم الأحد النصف من شهر ربيع الآخر أمروا بتعظيم الصلبان التى فى رقابهم، وأن يجعلوا طولها ذراعاً وفى العرض مثلها. وأن يكون سمكها اصبعاً. وأمر اليهود أن يعلقوا أيضاً فى رقابهم أكر خشب من خمسة أرطال إشارة إلى رأس العجل الذى عبدوه سالفاً. وتهدد النصارى وكثر الأرجاف بهم، فأسلم كثير من شيوخ الكتاب والصيارفة، وتبعهم خلق من عوام النصارى وتلاحقوا فلم يبق منهم إلا نفر يسير، ولم تزل الطرقات أياماً عدة لا يرى فيها نصرانى، على أن كثيراً ممن اسلموا إنما تظاهروا بالإسلام، ومنهم محسن بن بدوس الذى قتل عام ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م. وهو يتولى أمر بيت المال آنذاك[1]. وقد تهدمت صوامع وبيع وكنائس وأديرة فى عهد الحاكم بأمر الله، حتى أنه فكّر فى هدم دير طور سيناء ولكنه تراجع، وتوقف الحاكم عن إضطهاده.

---

(١) يحى بن سعيد، ص١٢١ - ١٢٣، ص١٣١أ - ١٣١ب.

وفى عام ٤١٠هـ/ ١٠١٩م أمر الحاكم بأمر الله بإعادة جميع الأوقاف المقبوضة التى كانت برسم دير طور سيناء، كما اذن بعمارة القصير، وأطلق ما كان برسمه من الأوقاف[1].

وفى عهد الخليفة الظاهر الذى جاء بعد الحاكم عادت الأمور إلى ما كانت عليه، فأقام النصارى طقوسهم وشعائرهم، وحضر الخليفة نفسه أعيادهم، وخفف اللباس الذى كان عليهم، حتى أنه لم يعد ما كان فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله إلا لباس زنار أو عمامة سوداء، وهى التى يلبسها النصارى منذ ذلك الحين[2].

هكذا كانت أحوال أهل الذمة فى الدولة الإسلامية لافرق بينهم وبين المسلمين فى المعاملات، بل على العكس تولى معظم أهل الذمة المناصب المرموقة فى الدولة الإسلامية، ولم يتعرضوا لسوء أو إضطهاد، كما كان الحال فى عهد الحاكم بأمر الله إلا عندما تبدو الأمور من قبلهم تشكل خطراً على الدولة الإسلامية والمسلمين، وريثما تهدأ الأمور يعود أهل الذمة إلى ما كانوا عليه من مكانة رفيعة داخل الكيان الإسلامى - وهذا هو الإسلام وسماحته.

فإذا تركنا جانب العنصر العربى من مسلمين ويهود ونصارى، وجدنا أن المجتمع الإسلامى فى بلاد الإسلام قد ضم عناصر أخرى غير عربية تركت بصمات واضحة فى تشكيل هذا المجتمع أهمها:

---

(١) نفسه، نفس المرجع والصفحات.

(٢) السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١١٧ .

أولاً- العنصر الفارسى:

وهذا العنصر قد ظهر فى الدولة الإسلامية منذ بداية الدعوة الإسامية على أيدى النبى محمد ﷺ، وكان لهذا العنصر دوراً بارزاً فى نصرة الإسلام، بل وشارك فى غزوات الرسول ﷺ وكان من أشهر الأسماء التى صاحبت النبى فى غزواته سليمان الفارسى الذى أشار على النبى بحفر الخندق عندما فكر المشركون فى القضاء على الإسلام فى بداية دعوته؛ وكانت مشورة سليمان الفارسى على النبى بحفر خندقاً حول المدينة، قد لعب الدور الرئيسى فى إنتصار المسلمين فى هذه الغزوة التى فرقت بين الحق والباطل، بل كانت بداية النهاية لقوة المشركين ودخول معظم زعمائهم فى الإسلام، وعلى الجانب الإسلامى أبرزت قوة المسلمين، وأنه لم يعد يخش على الدعوة الإسلامية من تهديدات الأعداء الذين صار لهم منذئذ إيماناً قوياً بأن الإسلام قد ظهر عليهم وأنه لا طائل لهم بعد هذه الغزوة من القضاء عليه.

كذلك كان للعنصر الفارسى الدور الرئيسى فى قيام الدولة العباسية والقضاء على نفوذ الأمويين فى الشام، وإنتقال الخلافة من البيت الأموى إلى البيت العباسى وكان أبرز الرجال الذين ساهموا فى قيام دولة العباسيين من العنصر الفارسى، هو أبو مسلم الخراسانى، الذى تمتع بشهرة كبيرة بين بنى جلدته فاقت شهرة أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقى للدولة العباسية فى بغداد؛ ولعل زيادة نفوذ أبو مسلم الخراسانى بين قومه قد أخاف الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور، مما دفع هذا الأخير إلى ضرورة التخلص منه والقضاء عليه خشية علو شأنه ومركزه بين المسلمين فى بلاد فارس، وإستقلاله بإقليم خراسان عن جسم الدولة العباسية، فدعاه وإستقدمه إليه، وكان قد أرسل

أحد قواده ليقتله قبل الوصل إلى بغداد، قد حدث بالفعل تمكن أبو جعفر المنصور من قتل ابو مسلم الخراسانى ذلك القائد الفارسى المشهور الذى يذكره التاريخ دائماً بفضله الذى لا ينكر فى قيام دولة العباسيين فى بغداد.

يضاف إلى ذلك، ما حققه العنصر الفارسى - مع هذا - من إنتصارات فى شتى المجالات الحياتية داخل الدولة الإسلامية حتى وصلوا أعلى وأرقى المناصب والمراكز القيادية على أيام دولتى الأيوبيين والمماليك والدولة الفاطمية، نذكر من هؤلاء على سبيل المثال بدر الجمالى، رئيس الوزراء فى الدولة الفاطمية، وعبد الله بن زيادة بن سمعان، أول من ولىّ القضاء بمصر، وغيرهم كثيراً حتى هؤلاء الموالى (الفرس) قد برز نجمهم فى الدولة الإسلامية على حساب العرب، وصار لهم الأمر والنهى بتوليهم أسمى وأرفع المناصب الوظيفية، كقيادة الجيوش، وولاية الوزارات، وتولى القضاء وغيرهم كثير؛ بل أكثر من هذا صار علماء الفقه الإسلامى أغلبهم من العنصر الفارسى[١].

أما عن العنصر التركى:

فنذكر هنا أن الهجرات الأولى لقبائل الأتراك كانت من اقصى بلاد التركستان فى خلال القرنين الثانى والثالث الهجريين ثم زادت الهجرات لهذا العنصر فى القرن الرابع بشكل ملحوظ. وقد وجهت تلك القبائل وجهتها شطر الغرب، فاستقرت فى إقليمى ما وراء النهر وخراسان، وكانت هجراتهم من موطنهم الأصلى يرجع إلى ظروف قاهرية، منها الحروب التى دارت بين تلك القبائل بعضها مع بعض وغلبة إحدها على الأخرى، أو سوء الحالة الإقتصادية

---

(١) انظر فى هذا الكتاب الفصل الخاص بالقضاء وأيضاً ما يتعلق بالعلم والعلماء فى الدولة الإسلامية. المؤلف.

وحدوث مجاعات تستحيل معها الحياة. وفى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، بدأ الأتراك ولاسيما الأتراك السلاجقة الذين استقروا فى بلاد ما وراء النهر. وكانت طبيعة السلاجقة طبيعة بدوية فى حال الأصل، فإعتادت حياتهم على التنقل والترحال سعياً وراء الكلأ والعشب، كانت لتلك الطبيعة البدوية سماتها على حضارتهم[1]، والتى كان من أهم سماتها التعصب لبنى جنسهم بشكل عام وللدين الإسلامى بشكل خاص، وميلهم الشديد إلى أهل السنة والجماعة بعد إتباعهم المذهب السنى.

ومن المؤكد أن قيام دولة الأتراك السلاجقة عام ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م، وإعتراف الخليفة العباسى بها، يعتبر حدثاً جديداً فى تاريخ إيران والعالم الإسلامى، لأن تلك الدولة سرعان ما لعبت دوراً بارزاً فى أحداث الدولة الإسلامية[2]. ولم تلبث أن سيطرت على جانب كبير من الدولة البيزنطية والمناطق المجاورة لإيران أيضاً[3]. ويعتبر «طغرلبك» الذى توفى عام ١٠٦٣م/ ٤٥٥هـ، هو المؤسس الحقيقى لدولة الأتراك السلاجقة فى إيران والعراق، فهو الذى أقامها، وجعل السلاجقة من بعده يشرفون على بلاد الروم[4]،

وسواحل البحر المتوسط. أما فى بلاد الشام فقد كان للسلاجقة الدور البارز فى إظهار النظام الاقطاعى[5] وظهور الارستقراطية الإقطاعية بشكل تفوق على النظام الإقطاعى السائد فى الدولة الإسلامية منذ عهد النبى محمد

(١) عبد المنعم حسنين، سلاجقة إيران والعراق، ص١٦-١٧ .

(٢) عبد اللطيف عبد الهادى السيد، موسوعة التاريخ الإسلامى الأجزاء ٥، ٦، ٧، ٨ إذ فى خلال وعلى مدى أربعة عصور متتالية كان للأتراك دور رئيسى فى الدولة.

(٣) عبد المنعم حسنين، المرجع السابق، ص٢٩ .

(٤) نفسه، نفس المرجع، ص٤٤- ٤٥ .

(٥) د، عبد اللطيف عبد الهادى السيد، راجع الفصل الخاص بالإقطاع الإسلامى هنا.

والخلفاء المسلمين من بعده، وكانت طبقة الارستقراطية الإقطاعية السلجوقية فئة قليلة ومتناثرة، لم تتغلب على بلاد الشام بشكل يكاد يكون كلياً إلا قبل مجئ الصليبيين عند نهاية القرن الحادى عشر الميلادى. القرن الخامس الهجرى[1]. ويمكن القول أن الأتراك السلاجقة فى بلاد الشام لم تتحد قواهم، إذ كان تمركزهم فى شمال الشام، مما جعل الأجزاء الجنوبية بعيدة عن متناول أيديهم والهيمنة عليها؛ بل كانت مدينة حلب تعتبر حداً فاصلاً بين الأجزاء العربية هناك والنفوذ التركى، إذ فى شمال مدينة حلب نجد أن أعداداً قليلة لا تجيد اللغة العربية أوالتحدث بها، وعلى العكس من ذلك فى جنوبها كانت اللغة العربية هى السائدة، ولغة الجميع[2]. وخدم الأتراك فى جيش صلاح الدين ضد الصليبيين، ثم لعبوا دوراً بارزاً فى تشكيل وقيام دولة المماليك خاصة الأولى منها، وعلى وجه التحديد منذ عهد الخليفة المأمون بن هارون الرشيد فى الدولة العباسية، حتى كانت أساساً فى قيام دولة المماليك[3] .

وإلى جانب هذه العناصر كان هناك عنصر التركمان، والذى يرجع أصلهم إلى قبيلة من الأتراك عاشوا فى المنطقة بين بحر الخزر ونهر جيحون، ثم إنتقلت جموع منهم غرباً ليستقروا شرقى آسيا فى قونية وقيصرية وساقوستا Savosta بالإضافة إلى شمال الشام[4]. وهم من العناصر البعيدة عن السامية التى كونت أقلية ضئيلة وسط أغلبية من العرب فى شمال الشام[5]. وقد تعددت الآراء

(١) Miller, Essays on the latin Orient, p. 537.

(٢) محمد كرد على، خطط الشام، جـ١، ص٨٢ .

(٣) محمد كرد على، خطط الشام، جـ١، ص٨٢-٨٣ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، مادة «الأتراك».

(٥) Les Guides Bleus, p. XLI.

الخاصة حول تفسير معنى لفظ «تركمان» غير أنه بإنتشار الإسلام بين كافة العناصر التركية، وخاصة منذ القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، تغير مفهوم لفظ تركمان، فصار يطلق على جميع الأتراك الذين اسلموا كلمة «ترك» أما تركمان فقد أطلق على أولئك المشتغلين بالرعى من ناحية، والذين عاشوا حياة البداوة من ناحية ثانية. ولكن ليس معنى ذلك أن التركمان انعزلوا إنعزالاً تاماً عن حياة المدن والمشاركة فى أحداثها، بل استطاعوا تكوين دويلات صغيرة فى منطقة الشرق الأدنى من الدولة الإسلامية[1].

وقد ظهر التركمان فى بلاد الشام لأول مرة فى القرنين الخامس والسادس الهجريين / الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين، حتى اضحوا قوة لها نفوذها. ولهذا رأى عماد الدين زنكى الإستفادة منهم فنقل طائفة منهم تسمى التركمان الإيرانية إلى بلاد الشام، وأسكنهم حلب؛ وكلفهم بمحاربة الفرنجة، على أن يكون لهم الحق فى الإستيلاء على كل الأراضى التى ينتزعوها من الفرنجة. وقد سار نور الدين محمود على سياسة أبيه عماد الدين زنكى، فأنزلهم على الحدود بين أملاكه ومناطق نفوذ الصليبيين، حتى أنهم كونوا أكثرية فيها. هذا إلى جانب بعض التركمان الذين فرّوا من وجه التتار، حيث هربت أعداد كبيرة من وسط آسيا إلى بلاد الأناضول، ونزل جانب كبير منهم إلى ديار بكر، والبعض الآخر إلى بلاد الشام؛ أما فى القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى، وعلى أيام المماليك إنخرط التركمان فى جيوش المسلمين بالشام ووصل عددهم عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م، نحو عشرين ألف جندى وثلاثين ألف فارس، كانوا على أهبة الاستعداد للإلتحاق بجيش السلطان الظاهر بيبرس.

---

(١) حامد زيدان، حلب فى العصر المملوكى، ص١٠١-١٠٢ .

ولم ينس التركمان أنهم بدو رحل، فعاشوا عيشة البداوة متمسكين ببعض عاداتهم؛ إذ كانت الأمور فيما بينهم بيد كبيرهم أو شيخهم الذى كانت أوامره بمثابة قانون يعمل به فيما بينهم[1]، كما أدى تحمسهم البالغ للمذهب السنى إلى بغضهم وكرههم لأصحاب المذهب الشيعى، وعزفوا عن الفلسفة أو الجدل فى امور الدين[2]، ويكاد التركمان يختصون بأعمال الدرك، فبنو عساف التركمان، مكلفون بالدرك من حدود أنطلياس على نهر الكلب إلى مغارة الأسد بالشام، فلم يسمحوا بعبور نهر الكلب إلا لمن يحمل «ورقة جواز» من الوالى فى تلك الجهات أو من أمراء الغرب من بنى تنوخ[3] .

العنصر الكردى:

سكن الأكراد منذ القدم جبال ووهاد كردستان، وهم من الشعوب الهندوأوربية[4] وإن كان هناك إختلاف كبير بين المؤرخين فى تحديد أصلهم؛ فمنهم من ذكر أنهم من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان[5]، ومنهم من ذكر أنهم من قبائل العجم، كما زعم الأكراد المروانية أنهم من نسل مروان بن الحكم، وزعم بعض الأكراد الهكارية أنهم من ولد عتبة بن أبى سفيان بن حرب[6]؛ وكل ذلك محاولة من الأكراد للإتصال بالنسب العربى الصريح.

والأكراد قوم إتصفوا بالبأس والخشونة، فهم أهل بادية يقيمون فى الخيام،

---

(١) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٥٣٦هـ.

(٢) احمد أمين، ظهور الإسلام، جـ١، ص٦١-٦٢ .

(٣) ابراهيم طرخان، النظم الإقطاعية، ص١٩٨-١٩٩ .

(٤) ابراهيم طرخان، النظم الإقطاعية، ص١٩٨ .

(٥) أمين زكى، خلاصة تاريخ الكرد، ص٦٠-٦٤ .

(٦) المسعودى، مروج الذهب، جـ٢، ص١٢٢ .

وهم أقل قبولاً للحضارة من الترك، ومقامهم فى الغالب فى كردستان وأرمينيا وأعالى العراق كالموصل وديار بكر[1]. وعاشوا فى بلاد الشام منذ القدم فى شكل جماعات وأقوام رحل، كمل أن البعض منهم سكن المدن أيضاً. ولاسيما شمال الشام[2].

على أن الأكراد لم يكن لهم شأن يذكر فى الإسلام إلا على عهد الدولة الأيوبية التى أسسها صلاح الدين الأيوبى[3]، والذى لم يكن من أصل عربى، ولكنه من الأكراد الروادية أحد بطون الهذبانية من دوين فى أزربيجان[4]، وارتفع شأن الأكراد فى عصر الدولة الأيوبية وتولوا المناصب العليا فى البلاد فى الفترة المذكورة، ما بين وال وأمير فى مصر والشام وكردستان واليمن وخراسان. وانتشرت عشائر كثيرة فى حلب وأطرافها، وفى حارم والمنبج، وعلى شاطئ نهر العاص، وحمص، وطرابلس[5]. وكان معظم جيش صلاح الدين الأيوبى مؤلفاً من كثير من العنصر الكردى، الذين اشتركوا فى حروبه وفتوحاته ومنهم الأكراد الهكارية والمهرانية والحميدية والزرزارية[6]، مما يدل على أن صلاح الدين كان متعصباً لبنى جنسه من الأكراد دون الأتراك والعرب. وإن كان هذا لم يكن تعصباً أعمى، بل كان من إعتماد صلاح الدين على هذا العنصر فى الحرب والقتال إنما قام على أساس موضوعى إذ أن الأكراد اتسموا بالبأس والقوة والحزم ومعرفة فنون القتال بسبب ما فرضته عليهم طبيعة البادية والجبلية. فالتعصب كان فى

(١) المقريزى، السلوك، جـ١، ص٤ ؛ الخطط، جـ٢، ص٢٣١ .

(٢) ابن حوقل، المسالك والممالك، ص٢٧٦ .

(٣) أمين زكى، خلاصة تاريخ الكرد، ص٣٦ .

(٤) جورجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامى، جـ٤، ص٢٠٣ .

(٥) أمين زكى، المرجع السابق، ص٤٣٣ .

(٦) نفسه، نفس المرجع، ص١٥٥-١٥٦ .

محله، وليس لمجرد أنهم من بني جنسه؛ وهو دليل على خبرة وحنكة صلاح الدين نفسه بفنون الحرب والقتال. وهم الذين على أيديهم نجح صلاح الدين الأيوبى فى القضاء على نفوذ اللاتين فى بلاد الشام[1]، ومن الخطأ القول بأن جيش صلاح الدين كان من المصريين الخلص.

وعقب سقوط بغداد، وسقوط الدولة العباسية، اضطر العديد من العنصر الكردى إلى الفرار من وجه المغول، والهجرة إلى بلاد الشام ومصر[2]، وانخرط بعضهم فى صفوف جيوش المماليك فى الشام[3].

ورغم شدة بأس الجندى الكردى فى القتال، وخبرته فى فنون الحرب وشراسته فى المعركة، إلا أنه كان يتحلى بصفات حميدة منها الشجاعة والنجدة[4]، فإنهم إذا وعدو أوفوا بوعدهم، ومن شاركهم فى طعامهم صار آمناً، رغم أنهم اتصفوا بالغدر والخيانة فى أغلب حياتهم[5]، ومنهم من يعتنق الدين المسيحى على مذهب اليعاقبة والنساطرة[6]. وإلى جانب هذا فإن عامل الفرقة والإنقسام كانت من أهم سماتهم كذلك كان من صفاتهم التخاذل والنفور، مما أدى إلى عدم توحيدهم، ولم يستطيعوا إيجاد جبهة مشتركة للدفاع عن أنفسهم كشعب كردى واحد، وهذا هو حالهم حتى الآن، إذ لم يتمكنوا حتى تدوين هذه الموسوعة (٢٠٠٧هـ) من تأسيس دولة خاصة بهم، ولكنهم شتات فى شمال سورية

---

(١) امين زكى، خلاصة تاريخ الكرد، ص١٦٦ .

(٢) Ziadeh, w. urban life in Syrin, p. 45 .

(٣) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص١٤٧ .

(٤) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص١٤٧ .

(٥) امين زكى، خلاصة تاريخ الكرد، ص١٤٩-١٥٠ .

(٦) المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ٢، ص١٢١ .

والعراق وإيران، وجنوب الدولة التركية، وكل تلك الدول مجتمعة ترفض أن يكون للأكراد كيان مستقل بهم على أرض أى من هذه الدول. ويعزو المسعودى سبب فظاظة الأكراد إلى طبيعة سكانهم الجبلية، التى يتميز أهلها بالجفاء والغلظة[1].

ومن عناصر السكان فى الدولة الإسلامية، والتى كان لها دور أساسى فى الدفاع عن الدين الإسلامى تلك التى تعرف باسم: الطوائف الدينية ومذاهبهم من (السنة والشيعة):

قامت الدولة الإسلامية فى بدايتها على أساس كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ، وذلك حسبما جاء على لسان النبى فى حجة الوداع عندما قال: «تركت فيكم من إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً كتاب الله وسنتى». وقد صار الخلفاء الراشدون على غرار سنة النبى ﷺ، وذلك حتى خلافة على بن أبى طالب بدأ الصراع صريحاً بين البيتين الأموى والهاشمى، وظهرت طائفة من المسلمين المتشددين لعلى بن أبى طالب، مطالبينه بالخلافة، وبألا يتركها لأحد غيره، بل إعتبروه أنه أحق بها بعد وفاة النبى مباشرة وأشاروا فى كتاباتهم إلى أن النبى أشار عليه بالخلافة - وقد أوضحنا هذا فى الجزء الثانى من الموسوعة الإسلامية «عصر النبوة». أما الفريق الثانى فهم أولئك الذين تمسكوا بمبدأ الإسلام الأول الذى قام على أساس القرآن والسنة.

على اية حال، بعد سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية فى بغداد وقف أنصار على بن أبى طالب إلى جانب العباسيين من البيت الهاشمى على أساس أن تؤول إليهم (الشيعة) الخلافة، ولكن هذا لم يحدث، وبالتالى عندما

---

(١) Cam. Med. Hist. vol. IV, pp. 302-309 .

قامت الدولة العباسية تنكر العباسيون للشيعة ودورهم فى تأسيس دولتهم مما زاد ذلك من كراهية هؤلاء وكونوا فرقاً وأحزاباً عديدة، وكل جماعة تحمل اسم يختلف عن الأخرى وإن كان هدفهم جميعاً القضاء على الدولة العباسية.

وقبل الحديث عن الشيعة وتفرقهم فى البلاد، ونجاح إحدى طوائفهم (العلويين) من قيام دولة مستقلة لهم فى المغرب ثم مصر هى الدولة الفاطمية، علينا أن نذكر شيئاً عن أهل السنة الذين تمسكوا بسنة النبى محمد ﷺ.

لقد كان يمثل هذا الجانب من المسلمين جماعة الفقهاء الذين تمسكوا بنصوص الوحى والسنة النبوية. وقد كان لهؤلاء الغلبة فى إقليمى فارس وبلاد الشام على وجه لخصوص، كما كان لأهل الحديث الغلبة فى السند، وكانت الجماعتان واتباعهما اصحاب حديث. وظهر فى هذا الجانب مذاهب شتى فى الحديث هم: النابلة والأوزعية والثورية[1]، ولم يكن الحنابلة في ذلك - خلافاً لما صار إليه الحال فيما بعد - يعتبرون من جملة الفقهاء. ففى سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م ذكر أصحاب المذاهب السنية فكانوا: الشافعية والمالكية والثورية، أصحاب سفيان الثورى، والحنفية والداودية[2]. وفى أواخر القرن الرابع كانوا: الحنفية والمالكية والشافعية والداودية[3]. ولم يذكر الحنابلة بين الفقهاء فى هاتين المدتين. ولما توفى محمد بن جرير الطبرى فى سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٣م، دفن فى بيته ليلاً، لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهاراً، وكان ذلك بتأثير الحنابلة، وقد تعصب عليه هؤلاء لأنه جمع كتباً ذكر فيه إختلاف الفقهاء ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فسئل فى ذلك، فقال: «لم يكن فقيهاً وإنما كان محدثا»[4]، ولم ينل

(١) ابن النديم، الفهرست، ص٢٢٥-٢٢٦، المقدسى، ص٣٧ .

(٢) السبكى، طبقات، جـ٢، ص٣٠٧ .

(٣) المقدسى، ص٣٧ .

(٤) ابن الجوزى، المنتظم، أحداث ٣١٠هـ ابن الأثير، الكامل، جـ٨، ص٩٨ .

الحنابلة الإعتراف بأنهم فقهاء إلا متأخراً[1]. اما مذاهب غيرهم من أصحاب الحديث فلم تستطع البقاء ففى القرن الثالث الهجرى غلب المالكية على أصحاب الأوزاعى فى الأندلس[2]، وكان للأوزاعية فى عهد المقدسى مجلس فى مسجد دمشق[3]، ويرى المقدسى أن مذهب الأوزاعى لم ينتشر أكثر من ذلك لأنه متطرفاً. ويعد المقدسى أن مذهب سفيان الثورى من المذاهب المندسرة، بعد أن كان له جلبة فى أصفهان والدينور[4].

وقد أسس داود الأصفهانى، المتوفى سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٢م مذهباً فى إيران عرف بمذهب الطاهرية[5]. وكان الداودية بفارس يتقلدون الأعمال والفقهاء. وكانت لهم الغلبة لأن السلطان عضد الدولة كان يتقلد هذا المذهب[6]. وكانت القاعدة الكبرى التى استندوا إليها هى التمسك بحرفية النصوص تمسكاً دقيقاً. ولكن هذه القاعدة علمية، وسرعان ما أدركوا أن الفقه ليس علماً نظرياً بل هو عمل. ولم يكن الأثر الأكبر لمنهجهم القائم على محو الكبس فى الفقه. بل كان فى المباحث التاريخية واللغوية. وقد أسس أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ المتوفى عام ٣١٠هـ/ ٩٢٣م مذهباً خاصاً، وقد ظل الناس بعد موته عدة شهور يجتمعون للصلاة على قبره ليلاً ونهاراً[7]. وكان للطبرى صاحب يسمى ابن شجرة توفى سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م، وقد ناهز التسعين وهو على مذهب الطبرى،

(١) الطبرى، كتاب إختلاف الفقهاء، ص١٤ .

(٢) نفسه، نفس المصدر، ص١٧ .

(٣) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٣٤٧ .

(٤) المقدسى، ص١٧٩ .

(٥) Goldziher, Zahirien, pp. 110-111.

(٦) المقدسى، ص٤٣٩ .

(٧) الخوارزمى، مفاتيح العلوم، ص٨ .

وقبل موته خرج على مذهب استاذه، ولا يضع لأحد من الأئمة أصلاً، وكان قد تقلد قضاء الكوفة[1]، وهذا دليل على حرية الرأى وعدم التعصب لمذهب بعينه.

وعلى العموم، استقرت المذاهب الفقهية الكبرى فى ذلك العصر، وتوطدت أركانها على النحو الذى نجده اليوم. ولم يبرز مذهب الإمام أحمد خارج العراق إلا فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى[2]. وفى القرن الرابع، ظهر المذهب الشافعى على المذاهب الأخرى، وكان أكبر مراكزه مكة والمدينة[3]. ويقول السبكى: «وأما بلاد الحجاز فلم تبرح أيضاً منذ ظهور مذهب الشافعى وإلى يومنا هذا فى أيدى الشافعية القضاءوالخطابة والإمامة بمكة والمدينة والناس منذ أكثر من نصف قرن يخطبون فى مسجد الرسول ويصلون على مذهب ابن عمه محمد بن ادريس «يقنتون فى الفجر، ويجهرون بالتسمية ويفرضون الإقامة إلى غير ذلك، وهو ﷺ حاضر، يسمع ويبصر، فى ذلك أوضح دليل على أن هذا المذهب صواب عند الله تعالى»[4]. ولم يكن للشافعى اتباع كثيرون فى العراق، وكان الغالب على فقهاء هذا الإقليم وقضاته أصحاب أبى الحنيفة[5]، وإن كان قد ولى قضاء القضاة ببغداد أحد الشافعية سنة ٣٣٨هـ/ ٩٩٤م[6] وقد أفلح الشافعية فى التغلب على الحنفية فى المشرق، وكان أكبر حصن لهم فى مصر والشام[7].

على أن مذهب المالكية كان ينافس الشافعية فى مصر منذ منتصف القدرن

---

(١) المقدسى، ص٤١، الكندى، ملحق القضاة، ص٥٧٧ .

(٢) ياقوت، الإرشاد، جـ٢، ص٢٨ .

(٣) السبكى، طبقات، جـ٢، ص٣٠١، ٣٠٢ .

(٤) السبكى، طبقات، جـ١، ص١٧٤ .

(٥) المقدسى، ص١٢٧ .

(٦) السبكى، المرجع السابق، جـ٢، ص٣٤٤ .

(٧) السيوطى، طبقات المفسرين، ص٣٦، المقدسى، ص٤٦٨ .

الثاني الهجري. وإن كان المذهب المالكي في مصر قد واجه اضطهاداً من قبل الدولة الفاطمية، إذ يروى أن رجلاً ضرب وأنه عثر عنده على كتاب الموطأ لمالك بن أنس. على أن هذا الاضطهاد زال بزوال الدولة الفاطمية وقيام دولة الأيوبيين، وهم من الأكراد الشافعيين، وقد انتشر المذهب المالكي في بلاد المغرب والأندلس إلى جانب إعتناقهم للمذهب الشيعي، وهو مذهب الدولة الفاطمية هناك، وصار جنباً إلى جنب مع مذهب الحانفية السنية، ثم مذهب مالك كما اسلفنا.

أما في بغداد نفسها، فكان الحنابلة دون مذاهب أهل السنة أكبر من أقلق بال الحكومة، ثم أنهم اشتدوا في محاربة الشيعة هناك، وقد بنوا مسجداً ببغداد «وجعلوه طريقاً إلى المشاغبة والفتنة»[1].

الشيعـــة:

كان حزب الخوارج الذي ظهر بعد الخلفاء الثلاث الأوائل أقدم حزب يناوئ الخلافة الرسمية (السُنية)، وقد انتشر هؤلاء في شتى أنحاء الدولة الإسلامية، في شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، يؤلفون جماعات صغيرة لها مذهبها الخاص بها، وكان لهم خروج وحروب لديار ربيعة وعمان وغيرها في أوائل القرن الرابع[2]، ولم تكن لهم قوة مؤثرة إلا في أطراف الدولة الإسلامية مثل سجستان ونواحي هراة[3]. وأيضاً في الغرب في بلاد المغرب الأقصى حيث دخل فيهم البربر المقيمين على شاطئ مضيق جبل طارق[4]. وقد وصل الشيعة المهدية والقرامطة والفاطميون ما كان قد بداه الخوارج في الخروج عن الخلافة الإسلامية سواء

(١) الكندي، ملحق القضاة، ص٥١٨، السبكي، طبقات، جـ٢، ص١٧٤ .

(٢) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ٥، ص٣٢٠ .

(٣) المقدسي، ص٣٢٣ .

(٤) Goldziher, ZDMG, 41, pp. 31-32 .

الأموية فى دمشق أو العباسية فى بغداد، وكان هذا علامة من العلامات التى تنذر بنهاية أو تضارب الأصول الإسلامية الأولى. وذلك أنه من أكبر ما تمتاز به الحركة العقلية آنذاك ظهور مذهب الشيعة يحمل بين ثناياه الكثير من الأفكار الشرقية القديمة ويجعلها مكان بعض الأفكار الإسلامية.

ومن خطأ النظر إلى المذهب الشيعى على أنه رد فعل من جانب العقل الإيرانى يخالف الإسلام وتعاليمه أو بعض تعاليمه[1] خاصة وأن الخوارزمى قد ألمح إلى أن العراق هو الموطن الأول للتشيع[2]. وكانت الكوفة وبها مشهد الحسين أكبر مركز للشيعة حتى ذلك الحين. وكان يقال «ومن أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ (بالكوفة) وليقل رحم الله عثمان بن عفان»[3]. كما امتد نفوذ المذهب الشيعى إلى البصرة وهى المنافس القديم للبصرة وسوادها. وأما الكوفة وسوادها فقد غلب عليها التشيع لعلى بن أبى طالب[4] وفى البصرة أضطر أبو بكر الصولى (المتوفى سنة ٣٣٠هـ/ ٩٤٢م) أن يستتر حتى مات لأنه روى خبراً فى على بن أبى طالب، فطلبته العامة والخاصة لتقتله[5]. وفى القرن الخامس الهجرى مالا يقل عن ثلاثة عشر مكاناً تحى ذكرى على بن أبى طالب[6] يقدسها الشيعة بل كان فى المسجد الكبير فى ذلك الوقت أثر من آثار على يعرض على الناس وهو قطعة من الخشب طولها ثلاثون ذراعاً وعرضها خمسة أشبار وسمكها أربعة أصابع، يقال أن علياً جاء بها من الهند؟![7]. وكانت بلاد الشام تربة غير صالحة

---

(١) رسائل ابى بكر الخوارزمى، طبعة القسطنطينية، ١٢٩٧، ص٤٩ .

(٢) نفسه، نفس المرجع والطبعة والصفحة.

(٣) يقول المقدسى أن أهل الكوفة شيعة إلا الكناسة فإنها سنية ص١٢٦ .

(٤) ثلاث رسائل لأبى عثمان الجاحظ طبعة ليدن، ١٩٠٣م، ص٩ .

(٥) ابن النديم، الفهرست، ص١٥٠ .

(٦) ناصر خسرو، ص٨٧ .

(٧) نفس المصدر والصفحة.

لدعوة العلويين فى بادئ الأمر وذلك لوجود مركز الخلافة الأموية بدمشق ورأس المذهب السنى آنذالك، ويحكى أن أبا عبد الرحمن النسائى (٢١٥ - ٣٠٣هـ) دخل دمشق، وكان يتشيع فسأل عن معاوية وما روى عن فضائله فقال: «إما يرضى معاوية ان يخرج رأساً براس حتى يفضل؟»، وفى رواية أخرى قال: «ما أعرف له فضيلة إلا لا أشبع الله له بطناً، فما زال يدفعونه حتى أخرجوه من المسجد وداسوه ثم حمل إلى الرملة فمات وهو منقول بسبب ذلك الدوس[1]. كذلك قيل أن أهل طبرية ونصف نابلس والقدس وأكثر عمان شيعة. ولا أدرى كيف كان ذلك، ورغم قيام الدولة الفاطمية إلا أن جامعات الشيعة لم يتقدموا إلا قليلاً. وإذا كان ناصر خسرو قد وجد أهل طرابلس وقد اعتنق المذهب الشيعى (٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م)[2] فإن ذلك كان بسبب وجود بنى عمار فى أطراف طرابلس فى شكل جماعات صغيرة، ويبدو أنهم عملوا بمذهب الشيعة وبمقتضى القاعدة التى تقول أن للأمير الحق فى فرض المذهب الذى يريده لنفسه[3] وهى قاعدة لم ينادى بها أحد فى الإسلام، فضلاً عن أن تطبيق هذا المذهب كان تطبيقاً شرعياً وكانت جزيرة العرب شيعة كلها عدا الدول الكبرى مثل مكة والمدينة وتهامة والطائف وقرح، وكان للشيعة الغلبة أيضاً فى بعض المدن مثل عمان وهجر وصعدة[4]، اما فى خوزستان التى تلى العراق كان نصف الأهواز وهى قصبة، على مذهب الشيعة[5]، أما فى فارس فكان الشيعة كثيرين على السواحل التى تتصل إتصالاً وثيقاً بالعراق وخصوصاً بالعرب المتشيعين[6]، أما فى جميع المشرق فكانت الغلبة

(١) ابن خلكان، الوفيات، جـ١، ص٢٧، السبكى، جـ٢، ص٨٤ .

(٢) ناصر خسرو، ص٤٢ .

(٣) نفسه، نفس الصفحة.

(٤) المقدسى، ص٩٦ .

(٥) نفسه، نفسالمصدر، ص٤١٥ .

(٦) المقدسى، ص٤٣٩ .

فى أهل السنة إلا أهل «قُم» فإن أغلبيتهم كانوا من الشيعة وقد تركوا الجامعات وعطلوا الجامع حتى ألزمهم ركن الدولة عمارته ولزومه[1]. والسبب فى تفرد أهل «قم» فى ذلك أن المدينة قد هيمن عليها من قبل أصحاب ابن الأشعث وكان رأيسهم قد أدب أبنه فى الكوفة، وكان غلو أهل «قم» فى موضع كثير من النوادر «... ومن طرائف ما يحكى أنه ولى عليهم وال، وكان من أهل السنة متشددين فبلغه عنهم أنهم لبغضهم للصحابة الكرام لا يوجد من اسم ابو بكر أو عمر، فجمعهم يوماً وقال لرؤسائهم! «بلغنى أنكم تبغضون أصحاب رسول الله ﷺ وأنكم لبغضكم إياهم لا تسمون أولادكم بأسمائهم، وأنا اقسم بالله العظيم لأن لم تجيئونى برجل منكم أسمه ابو بكر أو عمر، ويثبت عندى أنه اسمه، لأفعلن بكم ولأصنعن، فاستمهلوه ثلاثة أيام، وفتشوا مدينتهم، واجتهدوا، فلم يروا إلا رجلاً صعلوقاً حافياً عارياً أحول أقبح خلق الله منظراً اسمه ابو بكر، لأن أباه كان غريباً استوطنها فسماه بذلك، فجاءوا به فشتمهم وقال: جئتمونى بأقبح خلق الله تتنادرون علىّ، وأمر بصفعهم، فقال له بعض رفقائهم: أيها الأمير، اصنع ما شئت فإن هواء قم لا يجئ منه من أسمه ابو بكر احسن صورة من هذا، فغلبه الضحك وعفا عنهم»[2].

وكان فى كم فرقة من الغلاة اسمها «الغرابية» ومذهبهم أن المال كله للبنت، فلما ولى عليهم قاضى حكم للبنت بالنصف هددوه بالقتل «وهم قوم من شر الروافد، يذهبون إلى هذه المقالة لأجل فاطمة ابنة الإمام الثامن «عندهم طبعاً» الرضا لأن «قم» كانت فى ذلك الوقت أحب مكان يدفن الفرس فيه موتاهم بعد

---

(١) الأصفهانى، الأغانى، جـ١٨، ص٤٢ .

(٢) ياقوت، معجم البلدان، طبعة لينبرج سنة ١٩٦٧، جـ٤، ص١٧٦ .

مشهد. أما أصفهان فقد كان فى أهلها بله، وغلو فى معاوية على عهد المقدسى المؤرخ، أنه وصف له رجل بالزهد والتعبد، فقصده لبسالته، فرآه يقول أن معاوية نبى مرسل، فلما أنكر المقدسى عليه ذلك، أصبح يشنع عليه. ولولا أن القافلة أدركته لبطشوا به[1]. وكانت أصفهان تخالف «قم» كل المخالفة. فى عام ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م وقعت بها فتنة كبرى نشأت عن إختلاف المذاهب، وفى أواخر القرن الرابع الهجرى نجد الهمذانى يقول أن خراب نيسابور واضطرابها وما نزل بأهلها من بلاء، كذلك ما نزل بقهستان حتى صارت مالكة الغصص ونجعة الأكدار، كل ذلك لغشو مقالة الشيعة فيهم أو فيهما.

هكذا كان عنصر الشيعة وتفرقهم فى البلاد الإسلامية وكيف أنهم كباقى العناصر الأخرى التى شكلت دوراً مهماً فى الدولة الإسلامية بل كان الشيعة من أكبر عوامل تقويض أركان تلك الدلة وعدم الاستقرار فى معظم جنباتها لخروجهم عن المذهب السنى الصحيح، فوقع بذلك بين أصحاب المذهبين ما فرق بين جماعات المسلمين وسهل بذلك للأعداء أن ينقضوا على تلك الدولة ويحتلوا معظم بلادها بل اسقطوا معاقلها فى بغداد والقاهرة على يد المغول والصليبيين، وصارت الأمور إلى الأسوء لهذا الإختلاف البغيض بسبب تلك الجماعة الخارجة على الأصول الإسلامية.

وقد يتضح ذلك من حيث إختلاف العقيدة والمذهب وذلك أن الشيعة هم ورثة المعتزلة، ولابد أن تكون قلة اعتداد المعتزلة بالأخبار المأثورة مما لائم أغراض الشيعة، ولم يكن للشيعة مذهب كلامى خاص بهم. فنجد مثلاً أن عضد الدولة ، وهو من الأمراء المتشيعيين يعمل على مذهب المعتزلة[2]. ولم يكن هناك مذهب

---

(١) السبكى، الطبقات، جـ٢، ص١٩٤ .

(٢) المقدسى، ص٤٣٩ .

شيعى إلا الفاطميين، ويصرح المقدسى بأنهم يوافقون المعتزلة فى أكثر أصولهم[1]. وعلى العكس من هذا نجد الشيعة الزيدية يرتقون بسند مذهب المعتزلة حتى ينتهى إلى على بن أبى طالب. ويقولون انه واصلاً أخذ عن محمد بن على بن أبى طالب، وأن محمداً أخذ عن أبيه[2] والزيدية يوافقون المعتزلة فى أصولهم كلها إلا فى مسألة الإمامة[3] . ويدل على العلاقة الوثيقة بين المعتزلة والشيعة أن الخليفة القادر بالله جمع بينهما حين نهى فى عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م عن الكلام والمناظرة فى الإعتزال والرفض (أى مذهب الشيعة) والمقالات المخالفة للإسلام[4]، ثم أن الطريق الذى صار عليها ابن بابويه وهو من أبرز علماء الشيعة فى كتابه المسمى «كتاب العلل» تذكرنا بطريقة العلماء المعتزلة الذين كانوا يبحثون عن علل كل شئ. وكان فى مذهب الشيعة كما كان فى مذهب المعتزلة مكان لكل ألوان الزندقة، فنجد أن ابن معاوية منذ القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى يجمع حوله الزنادقة وقد قتل أحد هؤلاء لأنه أنكر البعث. وكان يقول أن الناس كالنبات فى ذلك[5]، وفى سنة ٣٤١هـ/ ٩٥٢م ظفر الوزير المهلبى بقوم من التناسخية فيهم شاب يزعم أن روح على بن أبى طالب انتقلت إليه، وفيهم إمرأة تزعم أن روح فاطمة انتقلت إليها وفيهم آخر يزعم أنه جبريل فضربوا، فالتجأوا إلى أهل البيت فأمر معز الدولة بإطلاقهم لتشيع كان فيه[6] ، ومثل هذه المقالات، وخصوصاً القول بالرجعة وبالتناسخ توجد فى مذاهب

---

(١) نفس المصدر، ص٢٣٨ .

(٢) أحمد بن يحى، كتاب المنيا والأمل، حيدر أباد، ١٣١٦هـ، ص٥ .

(٣) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٣٥٢ .

(٤) ابن الجوزى، المنتظم، ص١٦٥ب.

(٥) نفسه، نفس المصدر، ص١٦٥ب.

(٦) ابى المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٢٣٣، طبعة ليدن.

الغنوسطيين المسيحيين[1]. وكثيراً ما نجد فى العراق حوالى عام ٣٠٠هـ/ ٩١٢م من يقول أن اللاهوتيه اجتمعت فى على بن أبى طالب كما اجتمعت فى عيسى عليه السلام من قبل[2] وكان احد الخطباء من الشيعة ببغداد فى عام ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م[3] يدعو فى خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبى محمد ﷺ فيقول: وعلى أخيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب، مكلم الجمجمة، ومحى الأموات، البشرى الإلهى مكلم فتية أصحاب الكهف، وغير ذلك من الغلو[4].

وكان الشيعة فى أول الأمر يلبسون البياض وكان بعض زعماء الشيعة قد لبس سواداً قال بيض قلبك وإلبس ماشئت أو ما تريد[5]. وكانت أعلام القرامطة بيضاء، وكذلك كان ملابس خلفاء الفاطميين وخطبائهم[6]. أما اللون الأخضر الذى يتميز به العلوييون اليوم، فإن أول من أمر بإتخاذه سلطان مصر شعبان بن حسين المتوفى عام ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م[7].

وربما يكون الشئ الوحيد الجديد فى مذهب الشيعة فى هذا العصر أنهم يرفعون سند كل الأخبار والآثار إلى على وإلى آل بيته، وقد صادف هذا الصنيع أشد الإستنكار من جانب علماء أهل السنة[8]. وكان سنده إلى على لا يجدون فيه حرجاً وكان أشد ما يؤلم نفوس أهل السنة ما أولع وبالغ فيه الشيعة من سب

---

(١) Esay of Friedlander, Za, 23, p. 24.

(٢) انظر الفصل الخاص بالدين.

(٣) ابن الجوزى، المنتظم، ص١٧٨ب.

(٤) ابن بابويه، كتاب العلل، مخطوط برلين رقم ٨٣٢٦، ص١٠٠أ.

(٥) نفسه، نفس المصدر، ص٧٧ب.

(٦) نفسه، نفس المصدر، ص٩٩ب.

(٧) يتيمة الدهر، جـ٢، ص٢٠٦ .

(٨) ابن بابويه، المصدر السابق رقم ٨٣٢٧، ص١٣٥أ.

الصحابة الأولين. وفى سنة ٤٠٢هـ/ ١٠١١م توفى فى بغداد أحد كبار أهل السنة، وكان تقياً ورعاً واحتاز يوماً بالكرخ فسمع سب بعض الصحابة فجعل على نفسه الا يمشى فى الكرخ، وكان يسكن باب الشام، فلم يعبر قنطرة الصراة حتى مات[١]. وكانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب شيعياً لمذهبه لم تذكر اسم على بن أبى طالب بل يجعل سبب العقوبة أنه شتم أبا بكر وعمر بن الخطاب[٢]، وفى عام ٣٥١هـ/ ٩٦٢م كتب عامة الشيعة بأمر معز الدولة على المساجد ماهذا نصه «لعن الله معاوية بن سفيان، ولعن من غصب فاطمة فدكا، ومن منع الحسن أن يدفن عند قبر جده، ومن نفى ابا ذر ... فلما جاء الصباح محاه بعض الناس فأشار الوزير المهلبى على معز الدولة أن يكتب موضع المحو (أى مكانه): «لعن الله الظالمين لآل رسول الله ﷺ ولا يذكر أحداً إلا معاوية» ففعل ذلك[٣].

وقد لجأ كثير من العلويين فى مصر التى لم تكن تربطها بعرش الخلافة العباسية ببغداد رابطة الطاعة، ففى سنة ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م كان المتوكل قد حبس الطالبيين فى سامراء[٤].

وقد بلغت الخصومة بين السنيين والشيعة فى يوم عاشوراء سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م مثلاً مبلغاً كبيراً إذ نشب القتال بين الفريقين (أى بين الجند السنيين من السودان والترك وبين الشيعة)، وكان الجنود يسألون من يجدونه: من خالك؟ فإن لم يقل معاوية بن أبى سفيان ضربوه[٥]. وطاف أحد السودان المتهيجين الطرقات

(١) ابن الجوزى، المنتظم، ص٢٩ب .

(٢) ابو الفداء والمختصر فى أخبارالبشر، جـ٢، ص٤٧٨ .

(٣) الاصفهانى، كتاب الأغانى، جـ١٩، ص١٤١ .

(٤) الكندى، كتاب الولاة والقضاة، ص١٩٨ .

(٥) ياقوت، الإرشاد، جـ١، ص٣١٣ .

وهو يصيح: معاوية خال على، فتابعه العامة. وأصبحت هذه هى صيحة أهل السنة عندما يريدون قتال الشيعة، وقد حاولت الحكومة الحفاظ على النظام قدر المستطاع، لكن الخلافات المذهبية والطائفية كانت أقوى مما ينبغى.

على أن الحكومة الفاطمية قد حاولت التوخى والحذر بوجه عام وإن كانت حريصة على أن تجعل المناصب العليا فى البلاد بأيدى الشيعة وحدهم وإن لم تمنع العامة من الناس عام ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م من الإحتفال بعيد يوم الغدير، وهو اليوم الذى كان فيه النبى ﷺ وأبو بكر فى الغراء مضاهاه للشيعة.

غير أن الخليفة الحاكم بأمر الله عام ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م شذ عن هذه القاعدة وأمرنائبه فى دمشق أن يأتى برجل مغربى فضربه وطيف به على ظهر حمار، ونودى عليه: هذا جزاء من أحب ابا بكر وعمر بن الخطاب، ثم أمر به فضربت عنقه[١].

ومع هذا فإن مذهب الشيعة لم يستطع أن يجذب إليه الناس. فيحدثنا المقدسى أنه لم يجد الشيعة إلا فى أعلى القصبة، وكذلك أهل صندفا[٢]. وكانت فى الغرب بين الحدود بين الجزائر وتونس توجد أيضاً مدينة نفطة، وجميع أهلها شيعة وكانت تسمى الكوفة الصغرى[٣]، على أنه بعد تدهور أحوال الدولة الفاطمة سرعان ما رجعت موجة هذا التقدم حتى لم يبق له أثر.

وكانت بغداد وهى العاصمة الحقيقية للدولة الإسلامية مركزاً لجميع المذاهب والأنصار لكل مذهب ولكن أكبر حزبين كانا بها فى القرن الرابع

(١) ابو المحاسن، طبعة كاليفورنيا، ص٩١ (النجوم الزاهرة).
(٢) يحى بن سعيد، ص١١٦أ، المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٣٤٣ .
(٣) المقريزى، المصدر السابق، جـ٢، ص٤٣٢ .

الهجرى/ العاشر الميلادى هم الحنابلة والشيعة[1] وكان أنصار الشيعة يسكنون بنوع خاص حول سوق الكرخ ولم يتعدوا الجسر الكبير ويحتلون باب الطارق إلا فى أواخر القرن الرابع الهجرى[2] ولم يستطيعوا التعدى إلى القسم الغربى لأن الهاشميين كانوا من أشد أعداء الشيعة[3] وهم يكونوا عصبة قوية هناك بينما كان أهل محلة باب البصرة - بين كرخ بغداد والقبلة - جميعهم سنيين حنابلة وإن كان أهل الكرخ كلهم شيعة إمامية لم يوجد فيهم سنة البتة[4].

وكان الحمدانيون أول أسرة شيعية تدخلت فى امور بغداد، وكان هذا التدخل مثيراً للعجب ذلك لأن ابن حمدان على شدة تشيعه وميله إلى على وأهل بيته سعى فى البيعة لابن المعتز على انحرافه عن على وغلوه فى النصب[5]، ولكن الأحوال تغيرت لما استولى الديلم على بغداد، وكانوا قد دخلوا فى الإسلام حديثاً على يد احد العلويين، فلم يكد معز الدولة يدخل باباً حتى قبض على الخليفة المستكفى وأنزله عن عرشه على صورة مزرية وكان من الأسباب الظاهرة فى ذلك أن المستكفى كان قد قبض على الشافعى رئيس الشيعة (ليس الشافعى الفقيه) المعروف[6]. وفى عام ٣٥١ هـ/ ٩٦٢ م ، قامت فتنة بين العامة ببغداد، وكتب معز الدولة على المساجد، لعن الصحابة، فمحاه الناس أثناء الليل[7].

وهكذا استمرت الفتن والاضطرابات بين المسلمين طوال العصر الأموى

---

(١) المقدسى، ص١٢٦ .

(٢) كتاب الوزارة، ص٣٧١ .

(٣) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص١٤٦ .

(٤) ياقوت، معجم البلدان، بغداد، جـ٤، ص٢٥٥ .

(٥) كتاب الوزراء، ص٤٨٣ .

(٦) مسكويه، جـ٦، ص١٢٣ .

(٧) ابن الجوزى، المنتظم، ص١٨٩، وراجع أيضاً: ابن تغريردى، النجوم الزاهرة، طبعة ليدن، جـ٢، ص٣٥٠ .

والعباسى، وفى زمن الدولة الفاطمية، خاصة بين أهل السنة أصحاب الأصول الإسلامية الصحيحة، وبين أولئك الخارجين على الخلافة الإسلامية؛ وبلغ هذا الشقاق إلى الحد الذى كان فيه سبباً رئيسياً فى إنهيار هذا الكيان الإسلامى الكبير، خاصة الدول الثلاث (الأموية والعباسية والفاطمية). وكانت هذه الطوائف الدينية بإختلافاتها وإختلاف مذاهبها سبباً رئيسياً فى إنكسار الدولة الإسلامية أمام الأعداء المتربصين بها من الشرق والغرب على السواء حتى فى وقتنا الحاضر.

لذا يجب على المسلمين جميعاً، قياداتاً وشعوباً أن يأخذوا من هذا التاريخ العبر والعظات، والدروس المستفادة لمواجهة هذا العدو الذى يتربص بالإسلام والمسلمين من أجل النيل منه بل من أجل القضاء عليه، وهو يستخدم فى ذلك، اسلوب التهديد والوعيد تارة فى حالة التشرزم والتفكك الإسلامى، والتودد والتقرب تارة أخرى عندما يجد إقتراب تلاحم المسلمين، مدعياً أنه يسعى من أجل حرية الإنسان. فهل نتعظ يا قادة الإسلام وشعوب المسلمين.

الفصل الثالث

وسائل التسلية عند المسلمين

لكل شعب من الشعوب وسائل التسلية الخاصة به التى يقبل عليها فى أوقات الفراغ والتى كثيراً ما تتلائم مع عادات أهله وتتشاكل مع أخلاق أمته، ورغم إختلاف هذه الوسائل من حيث الشكل والمضمون وحسب الزمان والمكان إلا انها كانت تتفق عادة من حيث الغرض منها الا وهو تريض العقول والأبدان. وعلى ذلك فلم يكن حظ العرب من وسائل التسلية اقل من غيرهم من الشعوب، إذ تفننوا فى إيجادالوسائل التى شغلوا بها أوقات فراغهم. حقيقة أن بعض هذه الوسائل كان معروف لديهم فى الجاهلية كمجالس الشعر والأدب[1] ومجالس الشراب والطرب[2] والصيد والسباق[3] بيد أنهم أخذوا من الشعوب التى احتكوا بها بعد الفتح الإسلامى العديد من وسائل التسلية الأخرى كاللعب بالكرة والصولجان والرمى بالبندق، واللعب بالنرد والشطرنج ونحوها[4].

والدارس للتاريخ الإسلامى على مر العصور يستطيع أن يميز بسهولة بين أنواع متعددة من المجالس أهمها مجالس الأدب والشعر ومجالس الوعظ والقصص ومجالس الشراب والطرب.

أما عن مجالس الأدب والشعر فقد أقبل الخلفاء عليها لترويح النفس من مشاغل الدولة وخصصوا لها المجالس للإطلاع على آداب العرب وأخبارهم وضموا إليها فحول الشعراء الخاصة بالعصر، ولم تكن هذه المجالس تخلوا من

❖ نقر هنا أن هذه المادة التاريخية الخاصة بالتسلية مأخوذة بشكل يكاد يكون كلياً عن بحث مستخرج من مجلة «ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط» المجلد الثالث، ١٩٨٥م، ص٤٥-١٠٦، للدكتور/ أحمد عبد الرازق مصطفى.

(١) جرجى زيدان، تاريخ التمدن الإسامى، جـ٣، ص٣٢ .

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٣، ص١٨٦، جـ٤، ص١٠٤ .

(٣) جرجى زيدان، المرجع السابق، جـ٥، ص١٥٦ .

(٤) المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت ١٩٧٣، ط١، ص٩٥ .

النوادر والمداعبات من قبل الخلفاء فى الأدب - الأدباء، كما يبدو من المجلس الذى جمع بين الخليفة معاوية بن ابى سفيان وبين ليلى الأخيليلة وغيره من المجالس حتى يزول ما فى نفس الخليفة وينشرح صدره[١]. ورغم مناداة بعض الكتاب بتخصيص اوقات معينة من النهار للهو وقضاء أوقات الفراغ[٢] فقد كانت هذه المجالس تعقد فى بعض الأحيان فى أواسط الليل والناس نيام[٣]. وكان بعض الخلفاء والأمراء يقيمون إناساً يتلون عليهم أعمال القواد والملوك من الروم والفرس وكذا أخبار الدول وحوادث الشجاعة ونحوها بهدف الإستفادة منها والتوسع بأسباب الدهاء وأفانين السياسة[٤]، وتشير المصادر إلى الخلفاء الذين جلسوا من الشعراء وخصصوا لهم المجالس من أمثال يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد بن يزيد، كما تتضمن أيضاً بعض الأسماء من بين أولئك الذين عملوا على إبعاد الشعراء من مجالسهم مثل عمر بن عبد العزيز الذى يروى عنه أنه كان يكره الإستماع إلى الشعراء وكذا منحهم الصلاة لصلاحه وورعه ومثل هشام بن عبد الملك لما اشتهر به من الشح والبخل والوليد بن عبد الملك الذى انشغل عنهم بالفتوحات وإقامة العمائر المختلفة، هذا ويجب ألا ننسى أن بعض مجالس الشراب والطرب قد صرفت بعض الخلفاء من مجالس الشعر والأدب.

وهناك أيضاً مجالس خصصت للوعظ والإرشاد أقبل الناس عليها فى

---

(١) جرجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامى، جـ٥، ص١٣٩، على حسن الخربوطلى، الحضارة العربية الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٠م ص١٣٢ .

(٢) الجاحظ، التاج فى أخلاق الملوك، تحقيق أحمد زكى، القاهرة، ١٩١٤، ص١٥١ .

(٣) المسعودى، مروج الذهب، جـ٢، ص١٦٣ .

(٤) ابن الأثير، الكامل فالتاريخ، القاهرة، ١٣٠٢هـ، جـ٦، ص١١ .

أوقات فراغهم، وكانت اشبه بمدارس شعبية أخذت على عاتقها تثقيف العامة خلال العصور الإسلامية، فقد ظلت المساجد تؤدى هذه الوظيفة حتى أنشئت المدارس خلال القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشرالميلادى، كالمدرسة النظامية فى بغداد سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م[١] ، ومدرسة أبى حنيفة سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م. وكانت هذه المدارس تعج بالناس كافة دون قيد أو شرط وتميزت بالمسائل الدينية والدنيوية، ومن ثم فقد كان لها أثر واضح فى حفظ بعض معالم التراث الإسلامى خاصة ما يتعلق منه بالقيم والمثل الإسلامية العليا[٢]. وكان عمل الواعظ يقتصر فقط على تخويف الناس من عذاب الله ويحثهم على التمسك بأهداب الدين، وكان الناس بدورهم إذا ما أعجبوا بأحد الوعاظ تعصبوا له، واقبلوا على مجالسه، بل كثيراً ما كانوا يقفون إلى جانبه ضد بقيه الوعاظ الذين يخالفونه الرأى فى وعظه او تفسيره حتى ولو اقتضى الأمر إلى استخدام القوة[٣] ولقد ترك لنا الفنان المسلم بعض تصاوير مجالس الوعظ هذه من بينها واحدة ترجع إلى حوالى سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠ م، من مقامات الحريرى المحفوظه بالمتحف البريطانى بلندن، تمثل أبو زيد يعظ فى مسجد سمرقند .

وأرتبط بمجالس الوعظ هذه نوع آخر من المجالس عرف بمجالس القصص، وهى حسب رواية أحد المؤرخين نوعان، قصص العامة، أو قصص الخاصة [٤] وكان القاضى يجلس عادة فى الطرقات [٥] أو فى المقابر[٦] أو فى

(١) ابن الجوزى، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد، ١٣٥٧-١٣٥٩هـ، جـ٨، ص٢٣٨ .

(٢) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والإجتماعى، القاهرة، ١٩٦٤م، جـ٤، ص٦٥٣ .

(٣) الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، القاهرة، ١٩٣١، جـ٢، ص٣٨٩ .

(٤) المقريزى، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار، بولاق، جـ٢، ص٢٥٣ .

(٥) الخطيب البغدادى، المرجع السابق، جـ٣، ص١٢٣ .

(٦) ابن الجوزى، تلبيس إبليس أو نقد العلم والعلماء، محمد الدمشقى، القاهرة، ص١٢٢ .

الجوامع[1] أو فى الأسواق[2] ، ويذكر للناس شيئاً من الآيات و الأحاديث وآخبار السلف[3]، ويقص عليهم الحكايات والسير كسيرتى عنترة و بيبرس اللتان تعدان إلى الآن سلوى الجماهير فى بعض مقاهى الشرق الاسلامى. كما اشتهر ايضاً بعض القصاص بتفسير القرآن ومن ذلك ما يرويه الجاحظ عن موسى الأسوارى الذى كان يجلس فى مجلسه المشهور إبان القرن الثالث الهجرى /التاسع الميلادى، ويقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره، ثم يقرأ الآية من كتاب الله، ويفسرها بالعربية للعرب ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدرى بأى اللسانين هو أبين[4].

وعلى الرغم من آن الخليفة معاوية قد منع قصص العامة، وسمح بقصص الخاصة حيث ولى رجلاً عليه[5] فآن قصاص العامة قد إنتشروا وإستمروا فى مواصلة نشاطهم على مر العصور الأسلامية وأقبل على مجالسهم الرجال والنساء على السواء[6]، وكانو يقضون الأوقات الطوال فى الإستماع إليهم[7].

أما عن الطرق التى كانوا يلجأون إليها للإستحواذ على إنتباه العوام فقد كانت كثيرة و متنوعة منها إنشادهم الأشعار الغزلية فى العشق، أو إظهارهم التواجد والتخاشع[8]، عن طريق طلاء وجوههم بما يجعلها صفراء تشبهاً بالنساك الصائمين، أو عن طريق إتخاذ بعض الوسائل لإسالة دموعهم متى

(١) ابن الجوزى، المنتظم، جـ٨، ص١٠ .

(٢) الخطيب البغدادى، المرجع السابق، جـ٣، ص١٢٣ .

(٣) السبكى، معيد النعم ومبيد النقم، لندن، ١٩٠٨م، ص١١٣ .

(٤) الجاحظ، البيان والتبيان، القاهرة، ١٣٣٢، جـ١، ص١٩٦ .

(٥) الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، جـ٢، ص١٠١، المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٥٣ .

(٦) ابن الجوزى، تلبيس إبليس، ص١٢٢ .

(٧) السيوطى، تحذير الخواص من أكاذيب القصاص، القاهرة، ١٣٥١هـ، ص٥٤ .

(٨) ياقوت الحموى، معجم البلدان، القاهرة ١٩٠٦م، جـ١، ص٢٩٣ .

ارادوا، و منهم من كان يوقع نفسه من على المنابر او يضربها برجله، إيهاماً للناس بشدة إنفعاله، بل عمد بعضهم ايضاً إلى تسلية العامة عن طريق إختراع الأحاديث و نشرها بينهم، وكذا تسوية القصص الدينية وتحويلها إلى أساطير تروى أثناء هذه المجالس(١).

وفى الوقت الذى كانت فيه غاية العامة من حضور هذه قضاء أوقات الفراغ والتلذذ بسماع القصص والأساطير ، كانت غاية آغلب طبقة القصاص هى الحصول على المال. لذلك كثيراً ما تلاعبوا بعواطف الجماهير وإستخفوا بهم. ومن ذلك ماروى عن أم كلثوم بن عمرو العتابى الشاعر، الذى عاش فى أيام الخليفة الرشيد و إبنه المأمون، فقد قيل: أنه كان يأكل يوماً خبزاً على الطريق ببغداد، فرآه عثمان الوراق، فقال له ويحك!! أما تستحى !! فقال له أم كلثوم! أرأيت لو كنا فى دار فيها بقر، كنت تستحى وتحتشم أن تأكل، وهى تزال، فقال! لا، قال فاصبر حتى أعلمك انهم بقر، فقام فوعظ حتى كثر الزحام عليه، ثم قال للناس! روى لنا غير واحد أن من بلغ لسانه ارنبة أنفه لم يدخل النار، فكأنما كان ذلك إشارة منه للناس، فلم يبق إحد منهم إلا وأخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة أنفه، ليرى إن كان يبلغها أم لا(٢) .

والحق أن لغة القصاص السهلة كانت أشد إستهواء للعامة من إسلوب العلماء الجامد، ،من ثم كان هؤلاء القصاص خطراً على الدين والخلق، بل وعلى الثقافة أيضاً، طالما انهم كانوا يسلكون فى سبيل المال وجمعه شتى السبل والوسائل؛ وعلى ذلك فقد كان طبيعياً أن يعمد الحكام إلى اتخاذ بعض

(١) الأصفهانى، الأغانى، جـ١٢، ص٥، متز، الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص١٥٠ .

(٢) الأصفهانى، المرجع السابق، جـ١٢، ص٥، ٦، وراجع: الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، ١٣٢٦هـ، جـ٣، ص٢١٣١ .

الإجـراءات ضـدهم كـمـا حـدث فى سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م، إلى تجـديد هـذا النداء[١]. وتتـحـدث المصـادر أيضـاً عن نداء آخـر فـى سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م عنـدمـا أمـر عـضد الدولة البـويهى بمنع القـصـاص من الجلـوس فى الأماكن المشار إليها واعتبرهم من مثيرى الفتنة المذهبية[٢]؛ كما جمع ابن الأثير بينهم وبين المشعوذين فى عبارة واحدة أثناء القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى[٣]. ومع ذلك فقد كانت طبقـة القصاص أكثر تـقديراً لدى العامة من العلمـاء أنفسهم، وحسبنا دليلاً عن ذلك مـا رواه ابن الجوزى[٤] عن أم أبى حنيـفة من أنهـا احـتـاجت مـرة إلى معـرفة مـسألة من مسائل الشـريعة الإسلامـية فـاستـفسـرت ابنهـا فى ذلك بأجـابهـا؛ بيد أنها لم تقتنـع فذهبت مـعه إلى زرعة القـاضى فلمـا أقـر راى أبى حـنيـفـة إقتنعت الأم[٥].

والنوع الرابع من المجالس هو مجـالس الشـرب والطرب التى كانت تعقد فى البسـاتين والمتنزهات وأبهـاء القـصـور، وتدار فـيهـا كـؤوس الخـمـر، التى حلت مـحل مـاء الورد المذكور فـى قـصـائد العـرب[٦] رغم نهـى القـرآن عـن تناولهـا[٧]. ويفـهـم من المصـادر أن يزيد بن مـعـاوية كـان أول من شـرب المسكر من خلفـاء بنى أمـية[٨]، وفى أيامه ظهـر الغنـاء بمكة والمدينة، واستـعملـت الملاهى وجاهـر الناس بالشـراب، وكان

(١) ابن الجوزى، المنتظم، جـ٥، ص١٧١؛ متز، الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص١٥٠ .

(٢) ابن الجوزى، نفس المصدر، جـ٧، ص٨٧ .

(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ص٣٥ .

(٤) ابن الجوزى، كتاب القصاص، ص١٢٤ .

(٥) الأصفهانى، الأغانى، جـ١٥، ص٨؛ فيليب حتى، تاريخ العرب، جـ٢، ص٢٩٤ .

(٦) الأصفهانى، المرجع السابق، جـ١٥، ٨-٩ .

(٧) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٣، ص١٨٢؛ المسعودى، مروج الذهب، جـ٣، ص٦٧؛ النويرى، نهاية الأرب، جـ٣، ص١٠٨ .

(٨) الجاحظ؛ التاج، ص١٥١؛ فيليب حتى، تاريخ العرب، جـ٢، ص٢٩٤ .

له قرد يكنى بأبى قيس يحضر مجلس منادمته فيلاعبه حتى له يزيد الخمور[1].

أما عبد الملك بن مروان، فكان يسكر فى كل شهر مرة حتى لا يعقل فى السماء أو فى الماء، وكان يبرر تناوله للخمر قائلاً: «إنما أقصد فى هذا إلى إشراق العقل وتقوية منّة الحفظ، وتصفية موضع الفكر» غير أنه كان إذا بلغ آخر هذا السكر أفرغ ما كان فى بدنه حتى لا يبقى فى أعضائه منه شئ فيصبح عفيف البدن، زكى العقل والذهن، نشيط النفس، قوى المنة، ومع هذا فقد كان يسمى بحمامة المسجد لإجتهاده فى العبادة[2]. أما إبنه الوليد فكان يشرب يوماً ويدع يوماً[3]. على حين خصص إبنه هشام يوم الجمعة للشراب وذلك بعد الصلاة. وتتحدث المصادر أيضاً عن يزيد الثانى الذى شغف بإثنتين من القيان، هما سلاَّمَة وحَبَّابة التى قيل أن الأخيرة قد ماتت من حبة عنب أو رمّان إلتهمتها أثناء مداعبته لها، فبلغ من جزعه وحزنه عليها أنه هلك بعدها ببضعة أيام[4]. غير أن إبنه الوليد قد فاق الجميع فى الشراب والتهتك وبعث فى طلب المغنين من شتى البلدان إلى دمشق[5]، رغم أنه القائل «إياكم والغناء، فإنه ينقص الحياء ويزيد فى الشهوة ويهدم المرؤة ويثور على الخمر ويفعل ما يفعل المسكر، فإن كنتم فاعلين فجنبوه النساء فإن الغناء رقية الزنا»[6]. ومع ذلك فإنه قيل عنه أنه إتخذ بركة فى قصره كان يملأها خمراً ثم ينزع ثيابه ويغتسل ويشرب منها، وان يظل

---

(١) النويرى، نهاية الأرب، جـ٤، ص٩٢ .

(٢) فيليب حتى، تاريخ العرب، جـ٢، ص٢٩٥ .

(٣) الأصفهانى، الأغانى، جـ١٣، ص١٢٥ .

(٤) النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ٤، ص٩٢ .

(٥) المسعودى، مروج الذهب فى أخبار من ذهب، جـ٣، ص٢١٣ .

(٦) الأصفهانى، كتاب الأغانى، جـ٦، ص١٣٤ .

هكذا حتى يظهر النقص فى البركة[1]. كما صور لنا كتاب الأغانى، مجلساً من مجالس شرابه سجله شاهد عيان، ووصف فيه ما كان يمارسه هذا الخليفة من التهتك والمجون[2].

والدارس للتاريخ العباسى سوف يلاحظ بوضوح إنتشار مجالس الشراب والطرب، رغم تناقص روايات مؤرخى هذا العصر بصدد إستجازة بعض الخلفاء للخمر وشربهم إياها. ولقد حاول النواجى حصر أسماء كل الخلفاء والوزراء والكتاب الذين أقبلوا على إحتساء الخمر، إلا أنه لم يجد إلى ذلك سبيلاً لكثرة عددهم[3]. ومع ذلك تحدثنا المصادر، أن الخليفة المنصور كان يكره أن يوضع الشراب على مائدته، ويجبر من يطلب شراباً على إحتساء ماء دجله[4]. كذلك كان المهدى لا يشرب الخمر[5] فى الوقت الذى كان يشرب فيه النبيذ من عنده من الجلساء والندماء وغيرهم بالطاسة[6]، أما الهادى فقد أشارت بعض الروايات إلى تناوله الخمر وإلى عيناه الحمراوين من كثرة الشراب والسهر طوال الليل[7]، ويفهم من المصادر أيضاً أن الرشيد كان يتناول نبيذ التمر[8] وإن كان ابن خلدون قد نفى عنه هذه التهمة وأشار إلى أن اجتنابه للخمر كان معروفاً وشائعاً عند بطانته وأهل مائدته[9]، وتتحدث المصادر أيضاً عن الخليفة القاهر الذى أمر فى

(١) النواجى، حلبة الكميت، القاهرة، ١٢٢٩، ص٩٨ .
(٢) الأصفهانى، المرجع السابق، جـ٢، ص٨٢ .
(٣) النواجى، المرجع السابق، ص٢٦ .
(٤) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٩، ص٣٠٩ .
(٥) ابن طباطبا، الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت ١٩٦٠م، ص١٨٥، الطبرى، المرجع السابق جـ١٠، ص٦ .
(٦) الجاحظ، التاج، ص١٥٣، الطبرى، نفس المرجع، جـ١٠، ص٣٩ .
(٧) ابن خلدون، المقدمة، القاهرة ١٣٢٢هـ، ص١٤ .
(٨) نفسه، نفس المرجع ص١٤ .
(٩) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ليدن، ١٨٦٩م، جـ٤، ص٤٢٤ .

سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٢م بتحريم الغناء والخمر رغم أنه كان يشرب المطبوخ ولا يكاد يفيق من شدة السكر[١]. كما تروى أن الخليفة المستكفى كان قد ترك شراب النبيذ فلما أفضت إليه الخلافة عام ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م عاد إلى شربه من جديد[٢].

كذلك كانت مجالس الشراب والطرب من الأمور المألوفة فى العصر الفاطمى حيث أقبل عليه الخلفاء ووجوه القوم وكان معظم المغنيات من الجوارى فيحكى أنه اشتريت من بغداد جارية رائعة الحسن، تجيد الغناء للمعز لدين الله، فغنت له ولجلسائه حتى أطربته، ولم يزل غناؤها يزيده طرباً حتى افرط جداً وقال لها تمن ما شئت، فتمنت أن تغنى ما غنت فى بغداد، فلم يجد الخليفة بداً من الوفاء لها وأرسلها إلى بغداد.

ويروى أيضاً أن الخليفة الحاكم بأمر الله لما آن له أن يعيد العمل بأحكام الشريعة الإسلامية نهى الناس عن شرب المسكر وتشدد فى ذلك حتى استطب فى إحدى المرات أبا يعقوب اسحق بن ابراهيم بن انسطاس فأشار عليه بشرب النبيذ، وذكر له ما فيه من المنافع فأستجاب إلى مشورته وتغاضى عن تحريمه للخمر، وعن منعه إياه بل استدعى بالمغنيين وأصحاب الملاهى إلى مجلسه وشرب على غنائهم وأحسن إليهم، كذلك رجع الناس فى أمر الشراب إلى ما كانوا عليه من قبل إلى أن مات ابن انسطاس فعاد الحاكم من جديد إلى النهى عن الخمر والتشدد فيه حتى وصل به الأمر إلى منع بيع الزبيب والعسل واحرق منهما وغرق فى النيل شيئاً كثيراً للتجار يقدر بمال عظيم، كما كسر الضروف التى

---

(١) المسعودى، مروج الذهب، جـ٨، ص٣٩٠ .

(٢) ابن الجوزى، المنظم، ص١١٤ .

يوضع فيها النبيذ ومنع من عملها[1]. غير أن هذا المنع لم يكن ليستمر طويلاً خاصة وقد حرص اغلب خلفاء هذا العصر على عقد مجالس الشراب والطرب، بدليل أن معظم المنتجات الفنية التى وصلتنا من هذه الفترة تتضمن بعض صور هذه المجالس؛ وحسبنا أن ننوه هنا بمثل تلك الألواح الخشبية التى ترجع إلى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى التى عثر عليها فى مارستان قلاوون والتى يزين بعضها صدر رجال يمسكون فى اليد اليمنى كأس وإلى يسار كل منهم ساقى يقوم بصب الخمر فى الكؤوس، هذا فضلاً عن رسم المطربين والمطربات والعازفين والعازفات والراقصين والراقصات.

ومن الواضح أيضاً أن مجالس الشراب والطرب كانت من الظواهر المألوفة فى المجتمع الأندلسى، وأنها لم تكن محرمة إذ يشير الشقندى أن الوادى الكبير يمتاز عن غيره من الوديان بكونه لا يخلو من مُر وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر وأخفق بعض الولاة المظاهرين للدين فى إزالته[2]. وكان أمراء الأندلس وملوكهم يعقدون مجالس الشراب والطرب فى ظاهر المدن أو فى البساتين والمنيات وأبهاء القصور والمتنزهات ويصف لنا ابن بسام حفلاً أقامه المأمون بن ذى النون فى مجلس خلوته بقصر الناعورة أحضر فيه عدداً من المغنيين وجميع آلات الطرب، وبالغ فى تأنيس الحاضرين بالنبيذ[3] بقوله:

---

(١) المقريزى، خطط، القاهرة، ص٢٨٧، وراجع: جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية فى مصر، القاهرة ١٩٧٤، ص١٧٢ .

(٢) المقرى، نفح الطيب، تحقيق محى الدين عبد الحميد، جـ٤، ص١٩٩ .

(٣) ابن بسام، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، مجلد١، ص١٠٦ .

فكم يوم لهـو قـد أدرنا بأفـقــه

نجـوم كـؤوس بين أقـمـار ندمـان

وللقـضب والأطيـار نلهـى نجـرعـه

فما شئت من رقص على رجع ألحان[1].

ويمكننا أن نتصور بعض هذه المجالس من خلال ما وصلنا من تحف عاجية أندلسية من عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف هناك[2] كعلبة المغيرة بن عبد الرحمن الناصر المؤرخة بسنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م، والمحفوظ حالياً بمتحف اللوفر، إذ نشاهد عليها مجلس شرب وطرب يتألف من رجلين جالسين على وسادة، أمسك أحدهما بمروحة مستديرة على هيئة الوريدة؛ على حين أمسك الثانى فى يده اليسرى بزهرة على هيئة كوز الصنوبر، فى الوقت الذى يحتفظ فيه بقدح أشبه بالقارورة فى يده اليمنى. هذا ويتوسط الرجلين، شخص ثالث حافى القدمين وقد أمسك بعود بين يديه يقوم بالعزف عليه[3].

كذلك شغف كثير من سلاطين المماليك بمجالس الشراب والطرب حتى جرت العادة زمن المؤرخ إبن تغريردى بأن يكون لكل سلطان أو ملك جوقة من المغانى فى داره[4]. كما دفع ذلك ببعض سلاطين المماليك إلى تقريب أرباب الموسيقى والغناء إلى مجالسه، فإذا سمع بمغنى أرسل فى طلبه وكلفه بتعاليم

(١) المقرى، المرجع السابق، جـ٢، ص٢٠٦ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم، صور من المجتمع الأندلسى فى عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة فى علب العاج، الكتاب الذهبى، عدد خاص من مجلة كلية الآثار، القاهرة ١٩٧٨، جـ١، ص١٢٣ .

(٣) أحمد عبد الرازق، «وسائل التسلية عند المسلمين، ندوة التاريخ الإسلامى، ١٩٨٣، جـ٣، ص٥٦ .

(٤) ابن تغريردى، النجوم الزاهرة، طبعة كاليفورنيا، جـ٥، ص١٧٨ .

جواريه الغناء، كما فعل الناصر محمد بن قلاوون مع المغنى كتيلة بن قرنغان(١).

وكان يكره فى مجالس الشراب هذه جلوس الأثنين وحدهما وذلك خوفاً من إنسحاب أحدهما لقضاء حاجته فيصير الآخر واجماً، ومن ثم، فقد كان الثلاثة يعتبرون اتم مجلساً(٢). ولا بأس ان يصل عدد أعضاء مجالس الشراب والطرب إلى خمسة أفراد كما يفهم من قول الشاعر أبى نواس إذ يقول:

ثلاثة فى مجلس طيب

وصاحب الدعوة والضارب

فإذا تجاوزت إلى سادس

آتاك منهم شغب شاغب(٣).

وكان من مستلزمات الشراب والغناء، الرقص الذى كانٍ يسمى بأسماء الموسيقى من خفيف ورمل وهزج وثقيل، أو يسمى بأسماء خاصة من رقص الجمل أو رقص الكرة ونحوها، وكان يقوم بها فى الغالب السميريات(٤). وهن القيان البارعات فى فنون الغواية من غناء ورقص، حتى أنه كانت لهن تماثيل خيلُ مسرجة من الخشب تعرف باسم الكُرَّج(٥)؛ تعلق بأطراف اقبية يلبسونها ويحاكين بها إمتطاء الخيل من كرُ وفر(٦). ويذكر ابن خلدون أن أمثال هذه

(١) ابن حجر، الدر الكامنة فى أعيان المائة الثمانية، حيدر آباد، جـ٣، ص٢٦٥ .

(٢) متز، الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢٤٨ .

(٣) ديوان أبى نواس، ص٣٥٦، ٣٥٨ .

(٤) الأصفهانى، الأغانى، جـ٣، ص١١٦-١١٧، وعبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٢، ص١٣٧ .

(٥) الكرج بضم الكاف وفتح الراء المشددة مضرب كرة بالفارسية، وهو تمثال مُهر من الخشب، انظر تيمور، التصوير عند العرب، القاهرة، ١٩٤٢، ص٨٣ .

(٦) الطبرى، مروج الذهب ،عادن الجوهر، جـ٢، ص٩٧١ .

الراقصات كانت تقدم فى مجالى الفراغ واللهو، وكذا فى الأعراس والأعياد، كما أشار إلى إنتقالها من بغداد وأمصار العراق إلى غيرها من الأقطار[1]. هذا وقد حفظت لنا التحف الإسلامية العديد من مناظر الرقص والراقصات ومن بينها واحدة تزين صحن من الخزف ذى البريق المعدنى تمسك فى يديها بوقين تضربهما ببعضهما، محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة، وينسب إلى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى.

وفى هذه المجالس كان لابد أيضاً من وجود العازفين لمصاحبة المغنى أو المغنية، ولأجل إستثارة همم الراقصين والراقصات. ولم يكن هؤلاء العازفين من الرجال فقط، بل يكونوا أيضاً من النساء. وكانت كل واحدة منهن تشتهر باسم الآلة التى تعزف عليها، كالطبالة والصناجة والعوادة والزمّارة والصنوبرية[2]. كذلك كانت الآلات الموسيقية كثيرة ومتنوعة نذكر منها الدُف والناى والطبل والعود والصنوبر والمعزفة والمزمار والبربط والجنك القضيب[3]؛ وإن اقتصرت أغلب المجالس على أربعة منها فقط هى: الجنك والعود والقانون والمزمار[4].

وكان من مستلزمات هذه المجالس أيضاً، المضحكون وغيرهم من المجالون[5] الذى وصلنا بعض أسمائهم كأشعب من دولة بنى أمية، وابو دلامة[6] مضحك السفاح الذى بلغ من مجونه أنه خصص قصيدة لبغلته، وأبو الحسن الخليع

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص٣٣٩ .

(٢) الازدى، حكاية أبى القاسم البغدادى، هيدلبرج، ١٩٠٢، ٥٠ .

(٣) ابن سيدة، المخصص، جـ١٣، ص١١-١٥ .

(٤) متز، الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢٤٩ .

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص١٣ .

(٦) النويرى، نهاية الأرب، جـ٤، ص٣٦ .

الدمشقى، وابن أبى مريم المدنى[1] مضحك الرشيد، وأبو العبر مضحك المتوكل، وإبراهيم المعروف بالهفتى مضحك المعتصم قبل أن يتقلد أمور الخلافة[2] وغيرهم كثيرون مثل عزيز مضحك السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وولى الدين أبى اليمن مضحك السلطان برسباى[3]. وكانوا إذا عقدت مجالس الشراب ودارت الأقداح وطرب الخليفة ارتدوا ملابس مضحكة يقلدون بها بعض الحيوانات كالددبة أو القرود كما كانوا يعقلون فى أعناقهم الجلاجل والأجراس مما يضحك الثكلى، ويفهم من المصادر أن بعض الخلفاء كانوا إذا استخفهم الطرب، كلفوا هؤلاء المضحكين ما لا يطاق من ضروب العذاب وهم يتلذذون بعذابهم، إذ يروى أن المتوكل كان إذا طرب أمر بأبى العبر المجان أن يرمى به من المجنيق إلى الماء وعليه قميص حرير فإذا علا فى الهواء صاح الطريق الصريق، ثم يقع فى الماء فتخرجه السباح، وكان يجلس فى أحيان أخرى فوق زلاقة ثم ينحدر عليها بسرعة حتى يقع فى البركة، وبعدها يقوم الخليفة بطرح الشبكة ويخرجه من الماء كما يخرج السمك[4]. كذلك كان الأمين (الخليفة) إذا طرب صاح فى ندمائه وجلاسه: «من يكون منكم حمارى» وبالطبع كان يحظى بأكثر من رد، فيركب الواحد منهم ويصله[5]. ويبدو أن هذا التقليد قد إستمر حتى العهد العثمانى، بدليل أنه وصلتنا تصويرة من مخطوط المهرجان «سورنامة» محفوظ فى متحف طوبقا بوسراى، تمثل السلطان أحمد الثالث فى مجلس طرب وأنس يحضره بعض المضحكين الذين يبدون فى أسفل الصورة وهم

(١) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ١٠، ص١١٤-١١٥ .

(٢) نفسه، نفس المصدر، جـ١٠، ص٣١٢ .

(٣) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ٢، ص١٥٦ .

(٤) الأصفهانى، كتاب الأغانى، جـ٢٠، ص٩٢ .

(٥) نفسه، نفس المصدر، جـ٦، ص٢٠٣ .

يقومون ببعض الحركات المضحكة.

ومن وسائل التسلية أيضاً اللعب بالخيال، أو ما كان يسمى وقتئذ بشخوص خيال الظل، أو ظل الخيال، أو طيف الخيال أو مسرح الدمى[1]. وهى لعبة معروفة تتخذ شخوصها من جلود وتحرك بعض من وراء ثوب أبيض مشدود فيظهر خيالها فيه، ويرجح أن أصلها من لعب الهند فى العصور القديمة[2]، وأنها ظهرت للمرة الأولى فى العصر العباسى إذ جاء فى أحد المصادر، أنه كان لأحد طهاة الخليفة المأمون ابن يسمى عبادة، كان من أطيب الناس وأخفهم روحاً وأحضرهم نادرة، فقال له دعبل يوماً: والله لأهجرنك، قال: والله لو فعلت لأخرجن أمك فى الخيال[3]. كذلك عرفت فى العصر الفاطمى بمصر أن كان الناس يخرجون فى بعض الأعياد، ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات[4]. كما أشارت بعض المصادر على أن صلاح الدين الأيوبى أخرج من قصورهم من يعانى خيال الظل ليريه للقاضى الفاضل، فرأى فيه موعظة عظيمة، ودولاً تمضى، ودولاً تأتى[5]. وكان لسلاطين المماليك ولع شديد بهذه اللعبة أيضاً، فقد روت المصادر المعاصرة أن السلطان الأشرف شعبان حمله معه لما حج فى سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م، مع ما حمله من الملاهى الأخرى[6]، لاسيما وأن خيال الظل كان تسلية عامة لجميع طبقات المجتمع، ومع ذلك فقد أمر السلطان الظاهر فى سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م؛ بإبطال اللعب به وأحرق شخوصه، وكتب على اللاعبين العهود بأن لا

(١) أحمد تيمور، خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عند العرب، ص١٧ .

(٢) أحمد تيمور، التصوير عند العرب، ص٨٥ .

(٣) عبد المنعم ماجد، الحضارة الإسلامية، ص١٤٤ .

(٤) الشابشتى، كتاب الديارات، ص١٨١، متز، الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢٦٥ .

(٥) المقريزى، الخطط، جـ١، ص٢٠٧ .

(٦) الغزولى، مطالع البدور فى منازل السرور، القاهرة، ١٣٠٠هـ، جـ١. ص٧٨

يعودوا إليه، لما كان يقع فى مجتمعاته من المفاسد[1]. بيد أن هذا المنع لم يستمر طويلاً، إذ يحدثنا المؤرخ ابن إياس بأن السلطان قنصوة الغورى كان يخرج إلى بر الجيزة ومعه خيال الظل وجوق المغانى للتسلية[2]؛ كما يروى أيضاً فى حوادث سنة ٨٢٣هـ/ ١٥١٧م، بأن السلطان سليم العثمانى أحضر فى بعض الليالى بمقياس النيل بجزيرة الروضة خيال الظل حيث صنع المخايل صفة باب زويلة وصفة السلطان طومان باى لما اشتق عليه، وقطع به الحبل مرتين «فانشرح السلطان سليم لذلك، وأنعم على المخايل فى تلك الليلة بثمانين ديناراً، وخلع عليه قفطاناً مذهباً، وقال له: إذا سافرنا إلى اسطنبول أمضى معنا حتى يتفرج ابنى على ذلك»[3].

كذلك وصلتنا بعض الرسوم التى كانت مستعملة فى تمثيليات خيال الظل هذه من بينها واحدة من الجلد محفوظة بالقسم الإسلامى من متاحف الدولة ببرلين(؟!) وتنسب إلى العصر المملوكى، عبارة عن سفينة عليها نوتية ومحاربون وهناك أيضاً رسم آخر محفوظ فى نفس المتحف عبارة عن فارس ممن يصيدون بالصقر مصنوع من الجلد المخرم حتى يمكن تحريكه منها حسب الحوار[4].

ومن وسائل التسلية أيضاً اللعب بالطيور، والمقصود هنا بالطيور الحمام الذى يألف السكنى فى البيوت. إذ أصبح الإعتناء به وتربيته من الهوايات المحببة لدى كثير من الناس، تملأ عليهم فراغهم، وتشعرهم بلذة خاصة؛ وهذه الطيور كانت على أشكال وأنواع متعددة[5]؛ وكانت لها أسواق خاصة مثل سوق الموازين

(١) ابن إياس، بدائع الدهور فى وقائع الدهور، بولاق، ١٨٨٦م، جـ٢، ص٣٣ .

(٢) نفسه، نفس المصدر، والجزء، ص٣٤٧.

(٣) احمد تيمور، التصوير عندالعرب، ص٨٥ .

(٤) سعيد عاشور، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص١٠٦ .

(٥) الدميرى، حياة الحيوان الكبرى، القاهرة، ١٩٥٦م، جـ١، ص٣٢٧ .

والدجاجين بالقاهرة[١] وسوق الطيور بدمشق[٢] وآخر بالجانب الشرقى لبغداد يتردد عليها أهل الهواية لشراء الطيور أو بيعها[٣]، ويبدو أنهم كانوا من الكثرة بحيث وصفوا ذات يوم بأنهم «قد إجتمعوا يركب بعضهم بعضاً»[٤].

والحق أن اللعب بالطيور لم يكن قاصراً على طبقة دون غيرها، فقد شارك فيه الناس على إختلاف مستوياتهم الإجتماعية والثقافية والإقتصادية[٥]. حيث كان محبو هذه الهواية يبذلون فى سبيلها الأموال الطائلة. فقد أشارت بعض المصادر إلى أن الحمامة قد تباع بسبعمائة دينار، وأن ذلك كان مألوفاً بالنسبة لسوق الطيور ببغداد والبصرة[٦] وأنه كان عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب[٧]. وكان أكثر الناس شغفاً بهذه الطيور فئة الخصيان[٨]، علاوة على بقية الناس؛ كذلك شغف الخلفاء بلعب الحمام شأنهم فى ذلك شأن العامة، فالخليفة الناصر لدين الله شغف بلعب الحمام شغفاً عظيماً[٩]. حتى حكى عنه أنه لما دخلت التتار وتملكت البلاد من وراء النهر إلى العراق، وقتلوا الناس وهدموا الدور دخل عليه الوزير، فقال له يوماً: مولانا إن التتار قد ملكت .. وقتلت المسلمين، فقال الناصر لدين الله: دعنى أنا فى شئ أهم من ذلك، طيرتى البلقاء

(١) المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣٧٥، جـ٢، ص٩٦ .

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ٢، ص٦١ .

(٣) مجهول، مناقب بغداد، تحقيق محمد بهجت الأثرى، بغداد، ١٣٤٢هـ، ص٢٦ .

(٤) الجاحظ، كتاب الحيوان، القاهرة، ١٩٦٥م، جـ١، ص١١٨ .

(٥) بدرى محمد فهد، العامة ببغداد، ص٢٠٠ .

(٦) الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، القاهرة ١٩٣١م، جـ٤، ص٢٦٤ .

(٧) الغزولى، مطالع البدور، جـ٢، ص٢٦٠ .

(٨) نفسه، نفس المرجع والجزء والصفحة.

(٩) السيوطى، تاريخ الخلفاء، القاهرة، ١٩٥٢م، ص٤٥١ .

لى ثلاثة أيام ما رايتها[1]. كما شغف بالحمام وباللعب به كل من الخليفة المعتصم بالله آخر خلفاء بنى العباس ببغداد، والخليفة المتوكل على الله[2]. وتتحدث المصادر أيضاً عن الخليفة العزيز بالله الفاطمى الذى سابق بين طائر له وطائر لوزيره يعقوب بن كلس، فسبق طائر الوزير طائره، فشق ذلك على العزيز بالله، ووجد أعداء الوزير سبيلاً إلى الطعن فيه، فكتبوا إلى العزيز أن الوزير قد إختار من كل صنف أعلاه ولم يترك الخليفة إلا أدناه حتى الحمام، فكتب إبن كلس إلى العزيز قائلاً:

قل لأمير المؤمنين الذى ... له العلى والمثل الثاقب

طائرك السابق لكنه ... لم يأت الأوله حاجب

فأعجب الخليفة ذلك وأعرض عما وشى به[3].

كذلك شغف بعض سلاطين المماليك باللعب بالحمام وتغالوا فى ذلك. فقد روى عن السلطان الكامل شعبان أنه كان يعشق اللعب بالحمام وأنه «قرب من يكون من أرباب هذا الشأن بل أمر بأن ينادى فى القاهرة، بألا يعارض أحد لعب الحمام أو غيرهم من أرباب الملاعب»[4].

لذلك كان من الطبيعى ألا يستنكر بعض الفقهاء اللعب بالحمام، وأن تلجأ بعض الحكومات إلى محاربته[5]، كما حدث فى أيام الخليفة عبد العزيز الذى أمر بذبح الحمام الطيار وترك المقق منه[6]، وربما لأن بعض الطيوريين كانوا

(١) ابن تغريردى، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٢٦١-٢٦٢ .

(٢) السيوطى، المرجع السابق، ص٤٨٩ .

(٣) المقريزى، خطط، جـ٢، ص٦، متز؛ الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢٦٠ .

(٤) المقريز، السلوك. جـ٢، ص٦٨٢، ٦٩٥، ٦٩٧ .

(٥) ابن تغريردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص١٥٦ .

(٦) المقريزى، المرجع السابق، جـ٢، ص٧٢٩-٧٤٠ .

يتخذون من هذه التسلية وسيلة للمتفرج على نساء الجيران[1]، وربما أيضاً بسبب ما كان يرافق تدريب الطيور على الطيران من صياح وهرج أو رمى بالأحجار على الطيور التى تقع على سطح المنازل المجاورة، مما يؤدى إلى إيذاء الجيران[2]. كما أن المراهنات على إطلاق الطيور من مسافات بعيدة كثيراً ما أثارت جدلاً بين الفقهاء[3]. حيث اعتبرها البعض نوعاً من القمار يجب إستنكاره وتحريمه[4].

وإلى جانب الولع بالطيور كان البعض مولعاً بتربية أنواع أخرى من أجل الاستمتاع بها والتفرج عليها، كالديوك والسمان والقبج[5]، والكباش والكلاب[6]، وكانوا إذا أرادوا مهارشتها، جاءوا بإثنين من كل نوع، وجعلوا الواحد مقابل الآخر فتبدأ هذه الحيوانات بالمهارشة (المبارزة) ويجد الناس عندئذ مجالاً للتسلية، وقضاء أوقات الفراغ، وحسبنا أن نشير هنا إلى صحن من الخزف ذى البريق المعدنى محفوظ فى مجموعة شريف صبرى بالقاهرة يمثل مبارزة الديكة[7]، وينسب إلى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى. ويعد هذا الرسم من حيث القيمة الفنية، تحفة رائعة، وذلك لما فيه من تعبير صادق عن الأحاسيس، وتمثيل الحركة، وملاحظة قوية للطبيعة والواقع. حيث يتضمن رسماً لشيخ مندفع غير هياب، يبدو على وجهه تعبير تحد صريح، وقد قدم ديكه بيديه بجرأة بالغة، فى حين جلس قبالته شاب حريص حذر، ضم إليه ديكه منتظراً لحظة البداية.

---

(١) ابن الجوزى، المنتظم، جـ٨، ص٢٩٤، ٣٠٨ .

(٢) الدميرى، حياة الحيوان، جـ١، ص٣٢٧ .

(٣) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، جـ٤، ص٦٥٥ .

(٤) البيهقى، المحاسن، ص٥٧٠ .

(٥) القزوينى، عجائب المخلوقات، ص٢٥٥، وهو طائر جبلى يصارع زميله من أجل الأنثى.

(٦) ابن طيفور، بغداد، تحقيق عزت العطار، ص٣٨ .

(٧) حسن الباشا، فن التصوير فى مصر الإسلامية، جـ٢، ص٧٠ .

ويروى أيضاً أن سبكتكين، قائد جيوش معز الدولة كان لديه كبش قوى النطاح، أشار إليه الحجاج فى شعره متمنياً لو ترك لينطح زوجاً كريه الصورة لمغنية كان يعشقها[١]. كما أشار إبن فضل الله العمرى إلى أن الخليفة الواثق بالله كان شغوفاً بشراء الكباش والديوك للمناقرة[٢]. كما يحدثنا إبراهيم ابن صابر مقدم دولة المماليك البحرية على مائتى كبش للنطاح[٣].

وغالباً ما كان يؤدى التحمس اثناء هذه المناوشات إلى المعارك بين أصحاب هذه الطيور والحيوانات، وربما يفضى أيضاً إلى العداوات ومن ثم؛ فلا عجب أن عمدت بعض الحكومات إلى تحريم مثل هذه الوسائل للتسلية، كما حدث فى سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٤م، عندما رسم الأمير الحاج آل مالك الجوكندار نائب السلطنة المملوكية بإبطال جميع أرباب الملعوب من المناطحين بالكباش والمناقرين وغيرهم، رغم ما كان يتحصل منها للدولة من مال كثير[٤]. بيد أن هذا المنع لم يكن ليستمر طويلاً، وسرعان ما تعود أصناف الملاعيب إلى سابق عهدها، وربما أشد مما كانت عليه[٥].

وتلهى الناس أيضاً بألعاب الدببة، والقردة[٦] والحواة والبهلوانات، وكانت لهم مناطق معينة، يجتمعون فيها لعرض ألعابهم، حيث «ينحشر هنالك من الخلائق للفرجة .. مالا ينحصر كثرة». والحديث عن الحواة يذكرنا بجعفر بن الفضل بن الفرات وزير مصر المعروف بابن خنزابة، الذى كان يهوى النظر إلى

---

(١) متز الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢٦٠ .

(٢) السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص٤٨٩ .

(٣) المقريزى، السلوك، جـ٢، ص٥٦٥ .

(٤) المقريزى، السلوك، جـ٢، ص٦٤٢ .

(٥) نفسه، نفس المصدر، والجزء، ص٦٧٩ .

(٦) سيرة الظاهر بيبرس، القاهرة، ١٩٢٦م، جـ٢، ص٤١ .

الأفاعى والحيّات والعقارب، وما كان يجرى مجراها من الحشرات، ويقال أنه كان فى داره لطيفة مرخمة فيها سلل الحيّات، ولهم قيم فراش حاو من الحواة، ومعه مستخدمون؛ وكان كل حاو فى مصر وأعمالها يصيد له ما يقدر عليه، وكان الوزير يثيبهم ويبذل لهم الجزيل حتى يجتهدوا فى تحصيلها؛ وذات يوم إنساب إلى دار بن المدير الكاتب، وكان يسكن إلى جوار الوزير، الحية البتراء وذات القرنين الكبرى، والعقربان الكبير، وأبو صوفة، فكتب يأمر حاشيته وصيته بصون ما يوجد منها، إلى أن ينفذ الحواة لأخذها، فلما وقف ابن المدير على ما فى الخطاب قلبه وكتب فى ذيله: «أتانى أمر مولانا الوزير، أدام الله نعمته، وحرس مدته بما أشار به من أمر الحشرات، والذى يعتمد عليه فى ذلك، أن الطلاق يلزمنى ثلاثاً، أن بت انا أو أحد من أولادى فى الدار والسلام»[1]. والخلاصة أن حواة هذا العصر كانوا يمارسون اللعب بالحيّات والأفاعى، مما لا يزال بعضه باقياً فى عصرنا الحديث.

أما عن البهلوانات وألعابهم التى كان الناس ينسلون بها فى العصور الوسطى الإسلامية، فلا ندرى عنها شيئاً خاصة بالنسبة للعصور المبكرة، وكل ما لدينا من هذه الفئة يرجع إلى فترة متأخرة من العصور المملوكية، إذ تحدثنا المصادر المعاصرة بأنه فى سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م، قام رجل من مسالمة الفرنج بنصب حبل من أعلى مدرسة السلطان تحت القلعة، ومده حتى ربطه بأعلى المدرسة الأشرفية من قلعة الجبل، ومسافة ذلك تقدر برمية سهم أو أزيد، فى إرتفاع ينيف على مائة ذراع فى السماء، ثم برز من رأس المئذنة ومشى على هذا الحبل حتى وصل إلى المدرسة الأشرفية، وهو يبدى فى مشيه أنواعاً من اللعب، وقد جلس

(١) المقريزى، خـ، جـ٢، ص٣١٩، وراجع: ياقوت، الإرشاد، جـ٢، ص٤٠٩-٤١٠، ومتز، الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢٦٥ .

السلطان الأشرف برسباى لرؤيته، وحشر الناس من أقطار المدينة، وقد عدّ فعله هذا من النوادر التى لو لم تشاهدها لما صدقت».

ويبدو أن ما قام به هذا البهلوان من سير فوق الحبل قد أثار هِمم شباب أهل البلد، حيث نصب أحدهم حبل فى داره، وقام بالسير عليه، ولما علم من نفسه القدرة على ذلك، صعد إلى رأس نخلة، ومدّ منها حبلاً إلى نخلة أخرى، وأعاد التجربة وبعدها أشهر نفسه، ونصب حبلاً على رأس مأذنة المدرسة الظاهرية برقوق ومده إلى رأس مأذنة المدرسة المنصورية بين القصرين، وأرخى من وسط هذا الحبل حبلاً آخر، وواعد الناس حتى ينظروا ما يفعله، فجاءوا من كل جهة، وخرج إليهم من رأس مأذنة المدرسة المنصورية، ومسافة ذلك نحو مائة ذراع فى إرتفاع أكثر من ذلك، ثم نام على الحبل وتمدد، ثم قام ومشى حتى وقف على الحبل الذى أرخاه فى وسط الحبل الذى هو قائم عليه؛ ونزل عليه حتى آخره، ثم صعد عليه، وهو يبدى فنوناً تذهب العين رؤيتها، «ولولا ضرورة الحس لما صدقت».

ويبدو أنه لم يكتف بذلك أيضاً، بل قام بنصب حبل من مأذنة السلطان حسن إلى الأشرفية بالقلعة كما فعل الرجل الأول، حيث جلس السلطان الأشرف برسباى لمشاهدته كما أقبل الناس من كل صوب وحدب، وقد هبت رياح كادت تقلع الأشجار وتلقى الدور، فخرج عليهم بهذا البهلوان الشاب ومشى على قدميه حتى وصل إلى حبل كان قد أرخاه فى الوسط، وأدلى برأسه، ونزل عليه منكوساً، رأسه أسفل ورجلاه أعلاه، إلى أن وصل إلى آخره، ثم صعد حتى وقف على الحبل الممتد، ومشى قائماً عليه حتى وصل إلى قبة المدرسة الأشرفية، فنزل من الحبل وصعد القبة وهو يجرى فى صعوده جرياً قوياً فوق هيئة كرسى من رصاص أملس، حتى وقف بأعلاه والرياح عمالة فى طول ذلك بحيث لا يثبت لها طير

السماء، ولا يقدر على المرور لشدة هبوبها، والشباب رغم ذلك يروح ويجئ شاقاً لها ومارا عليها، كأنما خلق من ريح، فكان على حد تعبير أحد المؤرخين «شيئاً عجباً، لاسيما ولم يتقدم له أدمان فى ذلك، ولا دربه فيه معلم، وإنما تاقت إليه نفسه فامتحنها، فإذا هى متأنية له فيما أراد، فبرز وأبدى ما يعجز عنه سواه»[1]. نخرج من هذا بأن اللعب على الحبل والسير عليه، ليس من إبتداع السيرك فى العصر الحديث، وإنما هو قديم بدليل ظهوره زمن سلاطين المماليك.

ووصلنا من هذا العصر أيضاً تصويره من مقامات الحريرى المحفوظة بالمكتبة الأهلية فى فيينا، تنسب إلى مصر حوالى سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٤م[2]. تمثل صورة فى مجلس شراب وطرب وتسلية حيث يوجد أسفل منه رسم لشخص يقوم ببعض الحركات البهلوانية مما يعطينا صورة واضحة عن بعض ألعاب هذا العصر.

وقد كان رفع الأثقال يدخل ضمن هذا النوع من الألعاب الرياضية التى كانت تتسم بطابع التلهى والتسلية المعالجة، إذ يحدثنا المقريزى فى خططه بأن الأمير علاء الدين على حفيد بيبرس الحاجب كان مشهوراً بالعلاج، وأنه كان يعالج بمائة وعشرة رطلاً[3]، والمثاقفة من الثقاف، وهو الخاصم والجلاد والطعان بالرمح، والملاكمة والمشابكة، والمصارعة التى عرفها العرب قبل الإسلام، وبعده، فقد روى أن الرسول ﷺ دعا إلى الإسلام ركانة بن عبد يزيد بن هشام، وكان ركانه معروف بقوته الفائقة، وبأنه لم يصارع أحداً إلا صرعه، ولكن ركانة طلب معجزة

---

(١) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ٤، ص٧١٣-٧١٤ .

(٢) ايتنجهاوزن، التصوير عند العرب، ترجمة عيسى سليمان، ص١٤٨-١٤٩ .

(٣) المقريزى، المصدر السابق، جـ٢، ص٥٥ .

واضحة من الرسول ليقبل دعوته، فقال محمد: «أرأيت إن صرعتك؟»، قال ركانة: «أؤمن»، وتصارعا فصرعه الرسول، فتعجب ركانة وطلب الإقالة والعودة، فصرعه الرسول ثانية وثالثة، فأسلم وحسن إسلامه[1]. واستمرت هذه اللعبة على مرّ العصور الإسلامية كوسيلة من وسائل التسلية، وقضاء أوقات الفراغ، إذ وصلنا من العصر الفاطمى صحن من الخزف ذى البريق المعدنى ينسب إلى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة، قوام زخرفته رسوم تمثل صراع بين إثنين ملتحيين، ويرتدى كل منهما سروال طويل فقط يحيط بهما جمهور المتفرجين، حيث يغلب على بعضهما الحماس الذى يتجلى من خلال إيماءات الأذرع؛ مما يشير إلى أن هذه اللعبة أصبحت من الأهمية بمكان بدليل أنها استحقت أن تكون موضوعاً تصويرياً على إناء يستعمل بكثرة فى المنازل وغيرها[2].

وتروى المصادر المملوكية أيضاً بأن السلطان المظفر حاجى كان يمارس المصارعة بنفسه مع العوام، حيث كان يلبس تبان جلد، أى سراويل قصيرة، ويتعرى من جميع ثيابه ويصارعهم[3]. لذلك كان من الطبيعى أن تشتمل مخطوطات الفروسية التى وصلتنا من هذا العصر على بعض التصاوير التى توضح طريقة ممارسة هذه اللعبة، من بينها تصوير من مخطوط محفوظ فى متحف طوبقاسراى باسطنبول[4]. تمثل أربع أوضاع مختلفة للتدريب على هذه اللعبة.

(١) عبد الحى الكتانى، التراتيب الإدارية، جـ٢، ص١٤٧ .

(٢) انتنجهاوزن، التصوير عند العرب، ص٥٦ .

(٣) متز، الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢٦٣ .

(٤) ابن تغريردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص١٦٨ .

وكثر فى هذا العصر أيضاً جرى السعاة، أى مسابقات الجرى بين المشهورين بسرعة العدو[1] وعن الجرى حدثتنا كتب السيرة النبوية بأن النبى محمد ﷺ كان يسابق زوجته السيدة عائشة، إذ جاء على لسانها ما نصه: «سابقنى رسول الله ﷺ فسبقته، ثم عاد وسابقنى بعد أن أرهقنى اللحم فسبقنى، فقال هذه بتلك»[2].

ومن الألعاب التى تلهى بها العرب فى أوقات فراغهم لعبة اللبخة[3] التى عرفت بعدة أسماء متعددة منها التحطيب والمطرق الجريد وغيرها[4]، والتى فسرها لنا الشعرانى فى طبقاته الكبرى، فذكر فى ترجمة عثمان الحطاب أنه «كان شجاعاً يلعب اللبخة، فيخرج له عشرة من الشطار يهجمون عليه بالضرب فيمسك عصاه من وسطها فيرد الجميع فلا تصبه واحدة». ويبدو أن هذه اللعبة كانت من الأهمية بمكان بدليل أنها سجلت على آنية من الخزف ذى البريق المعدنى، تنسب إلى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة، نشاهد عليها رسم لرجلين يتبارزان بالعصى، أحدهما قد رسم جانباً بينما يبدو الآخر فى وضعه ثلاثية الأرباع، ويذكرنا هذا المشهد ببعض التصاوير التى وصلتنا من عصر المماليك الجراكسة ضمن مخطوط فى ألعاب الفروسية من بينها رسم محفوظ بمتحف الفن الإسلامى أيضاً ينسب إلى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى يمثل مبارزة بين رجلين[5].

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ٢، ص٦٥٦، ٦٩٥-٦٩٧ .

(٢) احمد شلبى، موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، والحياة الإجتماعية، جـ٥، ص٢١٥ .

(٣) المقريزى، المصدر السابق، جـ٢، ص٧٠٣ .

(٤) احمد تيمور، لعب العرب، القاهرة ١٩٤٨م، ص٥٧ .

(٥) زكى حسن، اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية، ص٢٦ .

ووصلتنا أيضاً إشارات عن ألعاب أخرى أقبل المسلمون عليها كوسيلة من وسائل التسلية فى أوقات فراغهم، نذكر منها على سبيل المثال لعبة القراح التى شبهها البعض بلعبة الكريكيت (الكاريكتية) الحالية[١]. ولعبة الطبطاب، التى قيل أن هارون الرشيد كان يمارسها[٢]؛ والتى رجّح فيليب حتى أنها كانت تمثل لعبة التنس الحالية ولكن فى شكلها البدائى[٣]. على حين زعم البعض الآخر أنه ربما كان المقصود بها لعبة الكرة أو الصولجان[٤]. التى سنشير إليها فى الصفحات التالية. والحق أن قلة المعلومات التى وصلتنا عن هاتين اللعبتين، كانت السبب الرئيسى فى عدم إلقاء الضوء الكافى عليها.

وعلى العكس من ذلك، إذا أفاضت المصادر بصدد لعبتى الكرة والقبق، أما الكرة أو الأكرة، فقد عرفت بأسماء متعددة، أغلبها فارسى، مثل الصوالجة مفرد صولجان[٥] أو الجوكان[٦] نسبة إلى العصا التى تلعب به، وهى عبارة عن كرة كانت تصنع من مادة خفيفة كالفلين ونحوه، وتلقى فى أرض الميدان، فيتسابق الفرسان إلى إلتقاطها بالصولجان، أو الجوكان حيث يرسلون الكرة به فى الهواء، وهم على ظهور الخيل ويرجح أنها ظهرت للمرة الأولى فى بلاط الفرس حوالى القرن الرابع قبل الميلاد[٧]؛ حيث إنتقلت منه إلى بلاد العرب[٨]؛ بيد اننا لم نسمع عنها

(١) محمد مصطفى زيادة، مخطوط مصور فى تعليم فنون القتال والفروسية ص١٢ .

(٢) حسن الباشا، التصوير الإسلامى، ص١٧٨ .

(٣) حسن ابراهيم، تاريخ الإسلام، جـ٢، ص٤٤٦ .

(٤) المسعودى، مروج الذهب، جـ٤، ص٢٣٥ .

(٥) الصولجان هو العصا الذى تضرب به الكرة وهو معكوف فى جزئه.

(٦) والجوكان فهو المحجن الذى تضرب به الكرة ويعبر عنه خطأ بالصولجان.

(٧) الأصفهانى، الأغانى، جـ٣، ص١٠١ .

(٨) Mercier, La chasse, pp. 223-224 .

فى بلاط بنى أمية[١]، فى الوقت الذى يحدثنا فيه المسعودى، بأن هارون الرشيد هو أول من لعبها من خلفاء بنى العباس[٢]؛ كذلك كان الخليفة المعتصم شديد الرغبة فيها.

كذلك أقبل أمراء بنى طولون على ممارسة هذه اللعبة وشغفوا بها، إذا شيد لها أحمد بن طولون ميداناً خاصاً، خارج فسطاط مصر، على نمط الميدان الذى ألحقه الخليفة المعتصم بقصر الخلافة بمدينة سامراء[٣]؛ كما شغف بها خلفاء الدولة الفاطمية ووزرائهم. فقد ذكر ابن ميسر فى تاريخه بأن الخليفة العزيز كان أول خلفاء هذه الدولة وأكثرهم إقبالاً على لعب الكرة[٤]، على حين أشار المقريزى بأن الوزير شاور كان من أجل أمراء هذه الدولة وأجودهم لعباً بالكرة[٥].

وشغف أيضاً ملوك بنو أيوب بلعب الكرة مثل نور الدين زنكى الذى إعتبرها نوعاً من رياضة النفس والبدن[٦]، والذى بلغ من شغفه بها أن لعبها بالليل مثل النهار[٧]. وكا نجم الدين أيوب الذى إعتقد من رآه أنه سوف يصطدم يوماً بالأرض من شدة عدوه بالخيل أثناء ممارسته لها[٨]. ويفهم أيضاً من المصادر المعاصرة أن إبنه صلاح الدين كان يفوق الناس جميعاً فى لعب الكرة، ومن أجل هذا قربه نور

---

(١) ابن شاهين، زبدة كشف المالك، بيروت، ١٩٥٠م، ص١٤٠ .

(٢) المسعودى، مروج الذهب، جـ٤، ص٣٤٨ .

(٣) حسن بن عبد الله البعاس، آثار الأول فى ترتيب الدول، ص١٣٠ .

(٤) ابن ميسر، أخبار مصر، تحقيق مارسية، القاهرة ١٩١٩م، جـ٢، ص٥٢ .

(٥) المقريزى، خطط، جـ٢، ص١٢ .

(٦) أبو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ١، ص٨ .

(٧) نفسه، نفس المصدر والجزء، ص٢٢٨ .

(٨) ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، جـ١، ص٤١ .

الدين محمود إليه، وألحقه بخواصه وكان لا يفارقه فى سفر ولا حضر[1]. أما السلطان الصالح نجم الدين، فقد فاق جميع أمراء هذه الأسرة شغفاً بلعبة الكرة فشيد برسمها ميداناً بأراضى اللوق من جهة الخليج الغربى (البر الغربى للخليج) وجعل فيه مناظر جليلة تشرف على النيل، وصار يركب إليه ويلعب فيه بالكرة[2] بل ذهب أبعد من ذلك حين نصح إبنه توران شاه بألا يدخل فى بلاطه أحداً لا يجيد على الأقل هذه اللعبة[3]. ولقد بلغ من إهتمام هذا السلطان بلعبة الكرة أن أمر صناع التحف بنقش بعض صورها على الأوانى التى كانت تصنع خصيصاً له وبرسمه، إذ وصلنا من عصره طست من النحاس المكفت بالذهب والفضة يزينه رسوم تمثل لعبة الكرة، تتألف من أربعة فرسان، بأيدى كل منهم عصا طويلة تشير إلى الجوكان يتقاذفون بها الكرة فى الهواء[4]، من فوق ظهور الخيل التى تبدو فى حالة ركض، كذلك يحتفظ متحف الفن الإسامى بالقاهرة بطست آخر يحمل اسم السلطان نفسه، من النحاس المكفت بالفضة، ويزينه أيضاً بعض الرسوم التى تشير إلى هذه اللعبة[5]، حيث نشاهد عليها مناظر لفارس يمسك فى يده اليسرى بعصا طويلة ترمز إلى الجوكان، وداخل جامة مفصصة، فوق أرضية من الزخرف النباتية.

كذلك شغف سلاطين المماليك بهذه اللعبة، وأنشأوا لها الميادين كالميدان الظاهرى الذى شيده السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى بعدما إنحسر ماء

(١) أبو شامة، الروضتين، ص١٠٠ .

(٢) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص١٩٦ .

(٣) النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ٢٦، ورقم ١٨٧ب .

(٤) د. أحمد عبد الرازق، «وسائل التسلية» بحث مستخرج من ندوة التاريخ الإسلامى ص٧٨ .

(٥) نفسه، نفس الصفحة.

(٦) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص١٩٨ .

النيل، وبعد عن الميدان الصالحى وجعله برسم لعبة الكرة[١]، حيث ظل كذلك حتى سنة ٧١٤هـ/ ١٣١٤م، فهدمه السلطان الناصر محمد بن قلاون، وشيد مكانه الميدان الناصرى فيما بين مدينة مصر والقاهرة. وخصصه أيضاً لهذه اللعبة، وكان يركب إليه دائماً يوم السبت فى شدة الحر. بعد وفاء النيل مدة شهرين من السنة[١]. ويفهم أيضاً من المصادر المعاصرة أن هذا السلطان انشأ عدة ميادين أخرى برسم لعبة الكرة، نذكر منها ميدان القلعة الذى إبتدأ فى عمارته سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م فوق بقايا الميدان الطولونى، وجعله فسيح المدى يسافر النظر فى أرجائه، ولما إكتمل نزل إليه ولعب فيه الكرة مع أمرائه، واستمر يلعب فيه يومى السبت والثلاثاء من كل اسبوع[٢] وميدان المهارى الذى شيده سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م، بالقرب من قناطر السباع فى بر الخليج الغربى، ولعب فيه بالكرة مع الخاصكية[٣]، وكذا ميدان سرياقوس الذى شيده بالقرب من خانقاته سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م، والذى كان يتوجه إليه فى كل سنة، ويقيم به الأيام، ويلعب بالكرة وقد ظل هذا التقليد مستمراً بعد وفاته، إلى أن أبطله السلطان الظاهر برقوق فى سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٧م[٤].

كذلك أعد سلاطين المماليك لهذه اللعبة ما يلزمها من خيول وأدوات[٥]، بل وخصصوا لها موظفين من المماليك يشرفون عليها يسمى الواحد منهم چوكندار، أى الذى يحمل الچوكان[٦]، وجعلوا ركنه عصوين، كما اعتادوا عند الخروج للعب بالكرة أن يفرقوا حوائص من ذهب على بعض الأمراء المقدمين[٧].

(١) نفسه، نفس المصدر، جـ٢، ص٢٠٠ .

(٢) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٢٦-٢٢٧ .

(٣) نفسه، نفس المصدر، جـ٢، ص١٩٧، السلوك، جـ٢، ص٥٢٥ .

(٤) نفسه، نفس المصدر والصفحة والجزء.

(٥) القلقشندى، صبح الأعشى فى صنعة الإنشاء، جـ٤، ص٥٤ .

(٦) نفسه، نفس المصدر، جـ٥، ص٤٥٨ .

(٧) نفسه، نفس المصدر والجزء والصفحة.

وشهد الرحالة تافور الذى زار مصر زمن المماليك الجراكسة أحد سلاطين المماليك وأمراءه، يلعبون الكرة، فذكر أن الميدان الفسيح الذى لعبوا فيه كان مقسماً ومخططاً بخطوط بيضاء وعلى جانبى الميدان عدد كبير من فرسان المماليك، بيد كل منهم عصا طويلة وفى وسط الميدان كرة، ويكون اللعب بأن يحاول كل جانب إجتذاب الكرة إلى جانبه، والذى ينجح فى ذلك تكون له الغلبة[1].

وكان اللاعبون بعد الفراغ من لعبهم يدخلون الحمام الساخن ويدلكون[2]. ومن شروط إجادة اللعب أن يضرب اللاعب الكرة ضربة خلسة، ويكون ضربه متشازراً مترفقاً مترسلاً، وأن يتوخى الضرب للكرة تحت مخزم الدابة فى رفق؛ وأن يستعين بصوت يؤثر فى الأرض بالصولجان أو يكسره، أو يعقر قوائم دابته، وعليه أن يحترس أيضاً من إيذاء من جرى معه فى الميدان، وأن يحس الكف للدابة فى شدة جريانه، متوقياً من الصرعة والصدمة فى تلك الحال، وأن يجانب الغضب، ويتحفظ من إلقاء الكرة على ظهر بيت، وأن يتجنب طرد النظارة والجالسين على حيطان الميدان، لأن عرض الميدان إنما جعل ستين ذراعاً لئلا يحال ولا يصال من جلس على الحائط الخاص به[3]. وجرت العادة أن يقوم المهزوم فى اللعب بعمل مهم حافل، أو وليمة كبيرة، وربما وصلت تكاليف هذه الوليمة إلى مائتى ألف درهم نظراً لما كان يذبح فيها من مئات المواشى والخيول والطيور عدا الحلوى والمشروبات[4]. وفى بعض الأحيان كان السلطان يتحمل

(1) P. Tafur, travel and adventures, London, 1920, p. 80.

(٢) تاريخ الطبرى، جـ٣، ص١٣٢٧، متز، الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢٦٢ .

(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ص١٦٦-١٦٧ .

(٤) المقريزى، السلوك، جـ٢، ص٧٤٢، ٧٨٥ .

نفقات هذا - رغم أنه الغالب - وذلك تخفيفاً على المغلوب[1].

وقد حفظت لنا روائع التحف المملوكية أيضاً بعض مناظر هذه اللعبة زمن سلاطين المماليك، إذ على بعض فنانى هذا العصر عنى بتسجيلها فوق منتجاتهم الفنية، مثال ذلك طست من النحاس المكفت بالذهب والفضة، باسم فاطمة إبنة الأمير سنقر الأعسر، ينسب إلى أواخر القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، ومحفوظ بمتحف بانكى بأثينا[2]. يزينه زخارف متنوعة من بينها ثلاث جامات دائرية الشكل يضم كل منها نقش لفارس فى رصعه ثلاثية الأرباع، الأول يحمل كرة فى يده اليسرى، فى الوقت الذى إرتفعت فيه اليد اليمنى ممسكة بالجوكمان خلف رأسه، أما اللاعب الثانى، فقد رفع العصا بيده اليمنى على حين استعد اللاعب الثالث لقذف الكرة بالمحجن، الذى يوجد فى يده اليسرى. ووصلنا أيضاً قارورة من الزجاج المموه بالميناء المتعددة الألوان، محفوظة بمتحف الفن الإسلامى ببرلين، وتنسب إلى نفس الفترة تقريباً[3] قوام زخرفتها مجموعة من اللاعبين، فوق ظهور الخيل، وقد أمسك بعضهم بمحجن طويل فى يده اليمنى، وأخذ وضعه إستعداداً لقذف الكرة التى توجد اسفل المحجن.

ومن الألعاب الرياضية التى أقبل المسلمون عليها، ومارسوها فى أوقات فراغهم، لعبة القبق، وهى كلمة تركية تعنى القرع العسلى، والأصل فيها، هو إتقان علم ركوب الخيل وحبس رؤوسها باللجم، والتدريب عليها فى الكرّ والفرّ،

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ٣ .

(٢) Wiet. Materiaux pour un corpus inscription Arabic. p. 199

(٣) طيبغا الأشرفى، كتاب بغية المرام وغاية الغرام فى الرمى بالنشاب، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٩٣ فروسية، ورقة١٨ب.

حتى يتعودها الفارس، ويصير له فى ذلك عادة[1]. وتفصيل ذلك، هو أن يجعل الميدان حبل معترض مرتفع على خشبتين، ويجعل القبق فى موضع متوسط بين الخشبتين، ويكون سوق الرماة عند الرمى من تحت الحبل، فى بعض الأحيان كان يستعاض عن الحبل برسم دائرة اتساعها عشر باعات، ويكون القبق فى مركزها، ثم يرمى اللاعبون إلى السماء لإصابته[2]. وقد ينصب أيضاً خشبة عالية فى ميدان اللعب، ويعمل فى أعلاها شكل قرعة عسلية من ذهب أو فضة ويكون فيها طير حمام؛ ثم يأتى اللاعبون للماراة فى رمى الهدف بالنشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل، فمن أصاب القرعة العسلية أو أطار الحمام حاز السبق وأخذ القرعة المعدنية[3]. وقد حذرت كتب الفروسية الرماة على القبق من لطمة الفرس واصطدامها فى خشبة القبق، وأوصتهم بأن يختبروا الخيل قبل الرمى عليها، وذلك بترويضها على الجرى والدخول نحو الخشبة والعلامة مرات عديدة، حتى يرى الفرس ذلك ويعرفه، قبل البدء فى الرمى[4].

وقد شاعت هذه اللعبة بصفة خاصة زمن سلاطين المماليك الجراكسة، الذين أقبلوا على ممارستها، ليس فقط فى الأيام العادية بل أيضاً فى شتى المناسبات إظهاراً لشعورهم، كما حدث فى سنة ٦٩٢هـ/ ١٣٩٣م، عندما أمر السلطان الأشرف خليل بلعب القبق، وذلك بسبب ظهور أخيه الناصر محمد بن قلاوون، وكذا ظهور ابن أخيه الأمير مظفر الدين كوسى بن الملك الصالح علاء الدين على بن قلاوون، فنصب القبق تحت القلعة مما يلى باب النصر، وفرقت

(١) طيبغا الأشرفى، بغية المرام، ورقة ٢١ب.

(٢) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص١١١، ابن تغريردى، النجوم، جـ٨، ص٢٦ .

(٣) طيبغا الأشرفى، المرجع السابق، ورقة ٢١ب .

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٢، ص٣٣٢ .

الأمـوال والخلع على من أصـاب رميـه[1]. وتروى المصـادر المعـاصـرة أن الأمـيـر بدر الدين بيسرى، قد رماه مالم يرمه غير قبله، إذ اقترح له سراجاً وطئ الردافة جداً، ثم سار نحو صارى القبق، والمادة جارية، أن الرامى لا يرميه إلا إذا صار بجانب الصارى، بيد أن الأمير بدر الدين ساق إلى أن تعدى الصارى، فأعتقد الناس أنه قد فاته الرمى، إلا أنه إستلقى على ظهر فرسه، حتى صار رأسه على كفل الفرس ورماه وهو كذلك بعد أن تعداه، فأصاب القرعة العسلية وكسرها، فصرخ الناس لذلك واستعظموه، وظهرت للسلطان فائدة السرج، فأنعم عليه بخمسة وثلاثين ألف درهم وعظم فى صدور الناس «وعلموا عجزهم بما أتى به وفعل ما فعل»[2].

وبلغ من إهتمام سلاطين المماليك بلعبة القبق أن شيد لها السلطان بيبرس البندقدارى ميداناً خاصاً خارج القاهرة من شرقيها عرف بميدان القبق، وبميدان العيد، وبالميدان الأسود، وبالميدان الأخضر، وأيضاً بميدان السباق[3]، وصار ينزل إليه كل يوم من الظهر إلى عشاء الآخرة، وهو يرمى ويحرض الناى على الرمى والنضال والرهان. فما بقى أمير ولا مملوك إلا وهذا شغله، وتوفر الناس على لعب الرمح ورمى النشاب. وما برح هذا الميدان، فضاء من قلعة الجبل إلى قبة النصر ليس فيه بنيان إلى أن كانت سلطنة الناصر محمد بن قلاوون، فترك النزول إليه وبنى مصطبة برسم طعم طيور الصيد بالقرب من بركة الحبش وصار ينزل هناك. ثم ترك تلك المصطبة فى سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م، وعاد إلى ميدان القبق «إلى أن بنيت فيه الترب شيئاً بعد شئ حتى إنسدت طريقه، واتصلت المبانى من ميدان القبق إلى تربة الروضة خارج باب البرقية، وبطل السباق منه، ورمى

(١) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص٧٥٨ .

(٢) النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، مخطوط بدار الكتب، جـ٢٩، ص٣٠٤ .

(٣) ابن تغريردى، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص١٨٧-١٨٨ .

القبق فيه من آخر أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون،[1].

بقى أن نشير إلى أن مخطوطات الفروسية التى تنسب إلى هذا العصر، قد إشتملت على بعض التصاوير التى توضح طريقة الرمى على القبق وكيفية الدخول فيه، من بينها تصويره محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس[2] تنسب إلى عصر السلطان الأشرف قايتباى سنة ٨٧٥هـ/ ١٤٧١م، تمثل فارسان متواجهان يعدوان بجواديهما فى وضعة ثلاثية الأرباع، حيث يحاول كل منهما إصابة هدف على هيئة قرعة، مرفوع فوق صارى طويل عن طريق إطلاق سهم من قوس فى يده.

وكانت السباحة أيضاً من أهم أنواع التسلية عند المسلمين، فقد أشارت المصادر العربية إلى إقبال شباب بغداد على عهد الخليفة المستكفى بالله على تعلم المصارعة والسباحة، حتى صار الواحد منهم يسبح على يده كانون، وفوقه قدر، ويستمر فى سباحته حتى ينضج اللحم[3]. ويقرأ أيضاً عن السلطان المملوكى الظاهر بيبرس البندقدارى الذى عرف بولعه الشديد بالسباحة لمسافات طويلة، أنه سبح مرة فى النيل، وهو يرتدى ملابس الحرب، ويسحب خلفه بعض أمرائه جالسين على عوّامة مسطحة[4].

ومن وسائل التسلية التى حظيت بعناية الخلفاء وإهتماماتهم لما عرف عن الرسول ﷺ «سباق الخيل» حبه لها، حتى قيل أنه كان يمسح فرسه بثوبه، ويجرى

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ٢، ص٥٤٠؛ خطط، جـ٢، ص١١٢ .

(٢) De Slane Catalogue de manuscrits arabes, Paris, 1883-1895, p. 508, No 2824 .

(٣) السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص٣٩٧ .

(٤) المقريزى، السلوك، جـ١، ص٦٠٨ .

الخيل ويسابق بها، بل ويراهن عليها أيضاً[١]؛ لما فى ذلك من فوائد «على التمرن على القتال والحزف فيه ورياضة الأعضاء»[٢]. ويروى أيضاً أن الخليفة عمر بن الطاب قد أمر بالسباق فى الكوفة[٣]. كذلك عنى بنو أمية بسباق الخيل، وأقاموا الحلبات للسباق مثل الوليد بن عبد الملك[٤]، وأخوه سليمان الذى ذكر عنه أنه أعد العدة لسباق عظيم تشترفيه خيول الأمة. ولكنه مات قبل أن تجرى الحلبة[٥]. أما أخوهما هشام فقد إجتمع له فى إحدى الحلبات من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس، ولم يعرف ذلك فى الجاهلية، ولا الإسلام لأحد من الناس[٦]. وكانت أحب بناته إليه ولوعة مثله بإقتناء الخيل للسباق[٧]. ويفهم أيضاً من المصادر التاريخية أن الوليد الثانى كان مغرماً بالخيل وجمعها وكذلك إقامة الحلبة؛ حتى اجتمع له فيها ألف قارح، كما أنه جمع بين الفرس المعروف بالزائد والفرس المعروف بالسندى، وكانا قد برزا فى الجرى على خيول زمانهما[٨].

وكان سباق الخيل أيضاً من أجمع وأمتع أنواع التسلية عند خلفاء بنى العباس وأمرائهم ووزرائهم، لدرجة أنهم تنافسوا فيما بينهم على تربية خيل السباق، إذ يحدثنا الجهشيارى، بأن الخليفة هارون الرشيد أمر جعفر بن يحى البرمكى أن يتخذ خيلاً يجريها فى الحلبة، فأجرى جعفر خيله يوماً بالرقة

---

(١) ابن هذيل، كتاب حلبة الفرسان وشعار الشجعان، ص١٤١ .

(٢) السخاوى، القول التام فى الرمى بالسهام، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم٢، ص٢٤ .

(٣) ابن هذيل، المرجع السابق، ص١٤٣ .

(٤) المسعودى، مروج الذهب، جـ٦، ص١٣-١٧ .

(٥) ابن الجوزى، سيرة عمر، ص٥٦، فيليب حتى، تاريخ العرب، جـ٢، ص٢٩٦ .

(٦) المسعودى، مروج الذهب، جـ٣، ص٢٠٥ .

(٧) كتاب العيون والحدائق فى أخبار الحقائق، ليدن، ١٨٧١، ص٦٩ .

(٨)

فسبقت خيل الرشيد[1]. وأنه كان من عادة هذا الخليفة أن يسير إلى مجلسه فى صدر الميدان المخصص للسباق، حيث تتوافد عليه الخيل، وأن خيله كانت تتميز عادة من خيل إبنه المأمون، حيث اشتهر منها فرس له إسمه الريذ كان يسر به كثيرا[2].

كذلك عنى أحمد بن طولون بحلبات السباق. فبنى مكاناً لعرض الخيل، سماه المنظر، وإعتبره القضاعى أحد عجائب الإسلامى الأربعة[3]. ذلك ان حلبة السباق عند الطولونيين لاسيما فى أيام خمارويه، كانت بمثابة الأعياد لما يصحبها من إقامة معالم الزينة، وركوب الغلمان والعساكر على كثرتهم بالعدد الكاملة والأسلحة التامة[4]. وجرت العادة فى مثل هذه الحلبات ان يجلس الناس لمشاهدة السباق حيث تطلق الخيل على غايتها، فتمر متفاوته، يقدم بعضها بعضاً حتى نهاية الشوط، بل بلغ من شغف الناس بسباق الخيل وتقديرهم له أن السابق كان يستولى على الحصان المسبوق فى بعض الأحيان[5].

وشرع الأخشيد أيضاً فى إجراء حلبة السباق فى سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م؛ على رسم أحمد بن طولون[6]. كما أصبح عرض الخيل جزءاً من رسوم الخلافة الفاطمية[7]؛ فكان يخصص يوم قبل قيام الموكب الرسمى لعرض الخيل، يحضره الخليفة وكبار رجال الدولة. فنجد السلطان بيبرس مثلاً (العصر المملوكى) كان

---

(١) المسعودى، المرجع السابق، جـ٣، ص٢١٧-٢١٩ .

(٢) الجهشيارى، كتاب الوزراء، القاهرة، ص٢٠٧ .

(٣) المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣١٨-٣١٩ .

(٤) متز، الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢٥٩ .

(٥) حسن ابراهيم، تاريخ الإسام، جـ٣، ص٤٦ .

(٦) ابن سعيد، المغرب فى حله المغرب والمشرق، ص١٨ .

(٧) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص٥٠٤-٥٠٥ .

يأمر العسكر بالركوب إلى الميدان الأسود تحت قلعة الجبل فى أحسن زى للتريض على ظهور الخيل، حيث يزدحم الناس بالميدان للفرجة عليهم على مدى خمسة أيام[1]. ويبدو أن هذا التقليد قد استمر إلى أيام السلطان قلاوون (الناصر محمد) وكذلك من قبل إلى السلطان المنصور قلاوون وإلى ابنه الأشرف خليل.

ويعتبر الصيد والقنص أيضاً من أهم أنواع التسلية عند المسلمين، كما فى ذلك من تمرين النفوس على إكتساب التأييد، وحصول المسرة بكل ظفر جديد،[2]؛ ولهذا الغرض إهتم العرب بالصيد فى الجاهلية وفى الإسلام حيث اتخذوا الجوارح من الطير وهى الباز والشاهين والعقاب والصقر يعلمونها صيد الطيور[3]، وغالوا فى إقتناء الكلاب والفهود[4] ونحوها للإستعانة بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحش وغيرها، وكان يزيد بن معاوية من أشد الأمويين كلفاً بالصيد؛ حتى قيل أنه كان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب، والجلاجل المسنوجة منه.

وكان العباسيون يتسلون أيضاً بالصيد، حيث تفننوا فى تربية الجوارح والكلاب والفهود وغالوا فى إنتقائها، بل وأقاموا عليها إناساً ينظرون فى شئونها كالبيازرة والجمالون والفهادون، وأصحاب الصقر والكلاب، وأطلقوا لهم الأرزاق الجليلة، وأقطعوهم الإقطاعات السنية، ومن ثم فقد تسابق الشعراء فى وصف هذه الجوارح وسرعتها وخصالها[5].

(١) ابن تغربردى، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٦٤-١٦٥ .

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١١، ص١١٦ .

(٣) سعاد ماهر، البيزرة فى التاريخ والآثار، مجلة الدارة، العدد١، ص٩٢ .

(٤) ابن طباطبا، الفخرى، ص٧٦ .

(٥) المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣١٨ .

كذلك اولع خمارويه صاحب مصر زمن الطولونيين بالصيد ولعاً شديداً، حيث كان يخرج إلى الأهرام وغيرها بحثاً عن السباه، وأنه «لا يكاد يسمع بسبع إلا قصده ومعه رجال عليهم لبود، فيدخلون إلى الأسد، ويتناولونه بأيديهم».

كذلك كان خلفاء الدولة، ونخص منهم بالذكر الخليفة العزيز بالله، الذى اعتاد الخروج إلى الصيد، وفى رفقته عشرون جملاً عليها محامل فيها كلاب الصيد، وحتى عرف بالخليفة الصياد[1]. وضرب المثل أيضاً بمهارة السلطان السلجوقى ملكشاه، الذى بلغ مجموع ما اصطاده فى إحدى الجولات عشرة آلاف طير، تصد عنها بعشرة آلاف دينار»؟![2]. بل بلغ من شغفه بالصيد أنه أمر بأن يحفظ بسجل خاص لكل ما كان يصيده[3].

واشتهر أيضاً بنو أيوب والمماليك بولعهم الشديد بالصيد حيث أعدوا لها الأحواض فى مختلف أقاليم الديار المصرية وزودوها بالشباك والصيادين[4]. كما إهتم ملوك الدولتين بطيور الصيد وكلابها على إختلاف أنواعها، فأنشأوا لها المطاعم وعينوا لها البازدارية والكلابزية يشرفون عليها تحت رقابتهم، حتى وصل إقطاع بعضهم زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قرابة الألف دينار[5].

والحق أن إهتمام الخلفاء والسلاطين والأمراء وكبار رجال الدولة بالصيد وولعهم به قد تجلى بوضوح من خلال روائع التحف الإسلامية التى وصلت إلى أيدينا، إذ حرص الفنان المسلم على على تسجيل بعض صور هذه الرياضة المحببة

(١) ابن شاهين، زبدة الكشف (كشف الممالك) ص١٢٨ .

(٢) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٨٥ .

(٣) نفسه، نفس المصدر والجزء، ص٥٣٠-٥٣١ .

(٤) نفسه، نفس المصدر، ص٥١١-٥١٢ .

(٥) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٥، ص٤٦٩ .

على منتجاته الفنية إلا أن كثرة هذه التحف يجعل من الصعب علينا التعرف على أغلبها.

والحديث عن الصيد كإحدى وسائل التسلية يحتم علينا الإشارة إلى الرمى بالبندق، الذى كان يستعمل فى الرمى على الطيور وغيرها[1]. وهو عبارة عن كرات كانت تصنع من الطين أو الحجارة، وأحياناً من الرصاص أو الفضة، بل وأيضاً من الذهب؟![2]. وكان لرمى البندق شأن عظيم فى العصور الوسطى الإسلامية، حيث يرجح أن العرب أخذوه عن الفرس زمن الخليفة عثمان بن عفان، ومن ثم عدوا ظهوره فى المدينة منكرا[3]، بيد أنهم سرعان ما ألفوا اللعب به حتى قيل أن الخليفة هارون الرشيد كان عنده فرقة تعرف بالنمل، كانت تسير بين يديه للرمى بالبندق على من يقف فى طريق الموكب. وكان رماة البندق يؤلفون أبناء هذا العصر طائفة كبيرة كانت تخرج إلى ضواحى المدن للتسابق على رمى الطير ونحره[4] اتخذت لنفسها زى خاص عرف بسراويل الفتوة. وقد جعل الخليفة الناصر لدين الله العباسى رمى البندق فناً لا يتعاطاه إلا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها، وكتب فى نسة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م، إلى ملوك الأطراف الذين يعترفون بخلافته أن يشربوا له كأس الفتوة، ويلبسوا سراويلها، وأن ينتسبوا إليه برمى البندق، وعلى من أراد الإنتظام فى سلك هذه الطائفة أن يأتى إلى بغداد ليلبسه الخليفة السراويل بنفسه. وقد أجابه الناس فى العراق وغيره إلا شخص يدعى «ابن السفت» هرب من بغداد للشام قائلاً: «يكفينى فخراً

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ٣، ص٣٤٢ .

(٢) ابن العباس، آثار الأول، ص١٣٠ .

(٣) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٣، ص٩٠ .

(٤) ابو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، جـ٣، ص١١٣-١٤٣ .

انه ليس فى الدنيا أحد لا يرمى للخليفة إلا انا»[1].

ولقد أصبح من رسوم دار الخلافة ببغداد، انه إذا جلس الخليفة جلوساً عاماً حمل خادم بيده قوس البندق ليرمى به كل غراب أو طير يقع قريباً من الموضع الذى يجلس فيه الخليفة ويحدث أصواتها[2]، ويبدو أن إستعمال البندق أصبح من الكثرة بحيث دخل فى أمثال العوام فقالوا «من كثرت بنادقه رمى طير الماء»[3]. ولذلك ليس بعجيب أن يصير لرمى البندق شأن كبير بمختلف البلاد الإسلامية، ومنها مصر، حيث أفرد لصناعة أقراصه حى خاص بالقاهرة عرف بخط البندقانيين كانت تباع فيه أيكا الأقواس الخاصة برمى البندق[4]، والتى عرفت باسم الجلاهق[5].

ومن وسائل التسلية التى أقبل المسلمون عليها فى العصور الوسطى - ولازالوا - ألعاب الورق والنرد - الطاولة - والشطرنج - التى لا شك أنهم أخذوها عن غيرهم من الشعوب التى إحتكوا بها بعد الفتوحات الإسلامية، والتى كانت تجرى والقوم جلوس بعضهم إلى جانب بعض، وذلك على النقيض من عادات العرب، إذ أن العربى كان يشعر بما فى ذلك من غرابة عن طباعه[6].

والنرد لعبة فارسية الأصل، تعرف بنرد شير، وضعها أردشير بن بابك[7]، ويستعمل فى اللعب به ثلاثين حجراً، وفصان على رقعة رسم عليها أثنا عشر

(١) ابن خلدون، المبتدأ والخبر، جـ٣، ص٥٣٥ .

(٢) الصابى، رسوم الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، بغداد ١٩٦٤، ص٨٢ .

(٣) بدرى محمد فهد، العامة ببغداد فى القرن ٥هـ، ص٢٠٧ .

(٤) المقريزى، السلوك، جـ١، ص١٧٢ .

(٥) ابن طيفور، تاريخ بغداد، ص١٢ .

(٦) متز، الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢٥٨ .

(٧) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٢، ص١٤١-١٤٣ .

منزلاً، وفى بعض الأحيان أربعة وعشرين منزلاً. ومن المعروف أن أساس هذه اللعبة كان يقوم على الصدفة والإتفاق. لذا يقول أبو نواس فيها:[1].

ومأمورة بالأمر تأتى بغيره

ولم تتبع فى ذاك غياً ولا رشداً

إذا قلت لم تفعل وليست مطيعة

وافعل ما قالت فصرت لها عبداً

ولقد شبه بعض الحكماء رقعة النرد هذه بالأرض الممهدة لسكانها، ومنازل الرقعة، بساعات النهار وسواد الليل، وبيادتها أى أحجارها بعدد أيام الشهر، وما يخرج من الفصين إذا رمى بها بالقضاء الجارى على العباد. ولذا فقد حرمه رسول الله ﷺ، إذ قال: «من لعب بالنرد فكأنما صبغ يده فى لحم خنزير ودمه» كما قال: «من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله»[2]. كما اعتبره البعض «من عمل الشيطان»[3]. لما كان يقصد به إبتغاء الكسب والمقامرة؛ ومع هذا فقد شاع اللعب بالنرد، حيث أقبل عليه الخلفاء والأمراء وغيرهم، حتى قيل أن هارون الرشيد قدم الألعاب به وأجرى الأرزاق عليه[4]؛ وأن الأمير طغانشاه بن إلب أرسلان، حاكم هراة لعب بالنرد مع البديهى الشاعر على عشرة آلاف دينار، ولما أوشك اللعب على الإنتهاء «كان عند الأمير حجران فى بيت الشيش، ولأحمد البديهى حجران فى بيت إليك، واللعب للأمير فإحتاط كثيراً، ثم رمى ليأتى

(١) المسعودى، مروج الذهب، جـ١، ص٩٥، جـ٤، ص٢٣٦ .

(٢) متز، الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢٥٨-٢٥٩ .

(٣) احمد شلبى، موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، جـ٥، ص٢١٨ .

(٤) المسعودى، مروج الذهب، جـ٤، ص٢٢٥ .

بالدش، فجاء الزهر هيبك، فغضب الأمير غضباً شديداً، وخرج عن طبعه واشتد به الغضب، فكان يمسك بالسيف فى كل لحظة، وارتعدت فرائص الندماء؛ فقد كان أميراً حدثاً، وقد كان أميراً حدثاً ومقموراً ومحرجاً[1].

أما الشطرنج، فيبدو أنها كانت معروفة عند قدماء المصريين، وعند حكماء الهند، حيث رسموا لها رقعة مربعة تتألف من ثمانى خانات طولاً وعرضاً، ورسموا عليها أربعة وستين مربعاً بالتساوى، وجعلوا فيها ثمانى قطع ومثلها من البيادن وطلوها بلونين منكلا الطرفين، وأجلسوا الملك والوزير فى القلب وأوقفوا فيلين على الميمنة والميسرة، ووضعوا فى جانب الفيلين حصانين من الجانبين للمباراة. ثم تطورت هذه اللعبة على أيدى الفرس الذين جعلوها قائمة على اصول رياضية لاسيما زمن «بزر جمهر» الذى أحضر رقعة مستطيلة ورسم عليها أربعة وستين مربعاً بالتساوى طولها ستة عشر مربعاً، وعرضها أربعة مربعات، كما جعل عدد أدوات اللعب ستة عشرة أداة أيضاً[2].

ويبدو أنه إنتقل منهم إلى العرب حيث ظهر فى زمن الصحابة الذين إختلفوا فى شأنه ابن عمر بأنه «شر من النرد» على حين اعتبره على بن أبى طالب نوعاً من الميسر. وعلى هذا فقد كان طبيعياً الا يزوج أهل المدينة لاعب الشطرنج. كما زعموا أن سبب وضع العجم له، أنهم كانوا إذا اجتمعوا تلاحظوا تلاحظ البقر، ومن ثم فقد جعلوا من الشطرنج مشغلة لهم[3]. ومع هذا فقد أباحه عدد جم من الصحابة والتابعين شريطة خلوه من القمار، لأنه مبنى على

---

(١) فطامى عروضى، چهازر مقالة، الترجمة العربية، ص٥١-٥٢ .

(٢) الراوندى، راحة الصدور وآية السرور، ص٥٦٧-٥٧٠ .

(٣) متز، الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢٥٨ .

أعمال الفكر ورياضة الذهن[1]. على النقيض من النرد الذى كان يبنى دائماً على الحظ؛ كما أجازوا لعبه فى أوقات الفراغ، بشرط أن يحفظ اللاعب لسانه من الفحش وردئ الكلام أثناء اللعب وإلا اعتبر حراماً[2]. وتجمع الكتب القديمة على أن هارون الرشيد يعتبر أول خليفة إسلامى لعب به ودعا إلى لعبه[3]. وأنه أرسل شطرنجاً رائعاً من الهدايا إلى شارلمان ملك الفرنجة بأوربا[4]. كما يروى أن الخليفة المأمون إشتهى لعب الشطرنج بعد قدومه من خراسان وإرتقائه عرش الخلافة، فاستحضر كبار أهله، فكانوا يتوقرون بين يديه، حتى ضاق بذلك، وقال: «إن الشطرنج لا يلعب مع الهيبة، قولوا ما تقولون إذ خلوتم»[5].

كما ظهر فى زمن الخليفة المعتضد أواخر القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، نوع جديد يسمى الجوارحية، وهى عبارة عن سبعة أبيات فى ثمانية، وأمثلتها إثنا عشر فى كل جهة منها ستة، كل واحد من الستة يسمى باسم جارحة من جوارح الإنسان الذى بها يميز، وينطق ويسمع ويبصر ويبطش ويسعى، وهى سائر الحواس، والحاس المشترك هو الذى من القلب[6].

ويبدو ولع المسلمين بالشطرنج من خلال لعب الحجاج بن يوسف الثقفى به للتسلية، وهم فى طريقهم إلى الحج على ظهور الشقاديف. لذلك، لاعجب أن أمر الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى يمنع اللعب به، بل وضرب جماعة بسبب

---

(١) المسعودى، المروج الذهبى، جـ٤، ص٢٣٧ .

(٢) يوسف القرضاوى، الحلال والحرام فى الرسلام، ص٢١٧ .

(٣) المسعودى، المرجع السابق، جـ٤، ص١٦٣ .

(٤) عبد المنعم ماجد، الحضارة الإسلامية، ص١٣٨ .

(٥) المسعودى، الرجع السابق، جـ١، ص٥٢٢ .

(٦) ابن تيفور، تاريخ بغداد، ص٢٩٣ .

اللعب بالشطرنج، وأحرق ما وجد منه[1] فى محاولة منه للتخفيف من شدة الإقبال عليه لما ترتب عليه من ضياع الوقت.

كذلك، أقبل سلاطين الأيوبيين والمماليك على الشطرنج، وعلى اللعب به مع المقربين إليهم من الأمراء والعلماء والأدباء[2]. بل حرص بعضهم إذا خرج فى أسفاره أن يحمل معه كعبة من العاج برسم خرط الشطرنج، حتى إذا لعب السلطان بشطرنج مرة أخذه بعد ذلك أرباب النوبة، وجدد غيره للسطان[3]. وجرت العادة أيضاً بأن تصنع أدوات الشطرنج من سائر أنواع الجوهر والذهب؛ والفضة والأبنوس، برقاع الحرير المذهب[4]. كما صنعت من البللور الصخرى، عند أواخر العصر الفاطمى[5]. لهذا كان من الطبيعى أن تعتبر لعبة الشطرنج من الألعاب الأرستقراطية الخاصة بالملوك والأمراء «لا الفقراء والأراذل» وقالوا فى ذلك أيضاً «مثل الفقير الذى يلعب الشطرنج، كمثل أعمى ينظر فى النجوم من حوله[6]. ورغم هذا فقد شاع الشطرنج بين مختلف الطبقات حيث لعبه السلاطين والأمراء والتجار والفقهاء والفقراء[7]. بل كما نسب فى هذه اللعبة بعض الأشخاص إليه؛ كذلك صنفت فى هذه اللعبة أيضاً العديد من المؤلفات[8].

أما عن لعبة الورق، فالحق أننا لا ندرى عنها شيئاً فيما عدا أسمها، خاصة

---

(١) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٨٩، ٣٤٣ .

(٢) ابن تغربردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص١٠١ .

(٣) سعيد عاشور، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص٦٧ .

(٤) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٤١٥ .

(٥) زكى حسن، كنوز الفاطميين، لقاهرة ١٩٣٧م، ص١٩٣ .

(٦) ابن حجر، الدر الكامنة، جـ٣، ص٩٦ .

(٧) السخاوى، التبر المسبوك فى ذيل السلوك، ص٢٣٠ .

(٨) احمد بن محمد الشطرنجى، الدرر الكامنة، جـ١، ص٢٥٣ .

وأن المصادر التى تحت أيدينا وغيرها من الكتب القديمة لم تتعرض لها فى شئ من التفصيل، وربما كان المقصود بها تلك اللعبة التى أشار إليها الأدفوى[1] فى عصر متأخر، أثناء ترجمته لمحمد بن إسماعيل السفطى، وملخصها أن يجلس جماعة ويكتبون أوراقاً فى بعضها صورة شخص صاحب متاع، وفيالبعض الآخر صورة لص، فإذا حصلت الورقة التى فيها المتاع لأحدهم قال: «يا جماعة ضاع لى كذا وكذا، وأريد فلاناً يحضر لى اللص ..»[2].

وإلى جانب هذه الألعاب التى ذكرناها، هناك ألعاب أخرى تتعلق بالصبيان، منها: الآسن، والقيرى، والتدبيج، والخدروف، والكبكب والدورياكة[3]. وغيرها كثير لم نتعرض لها لصعوبة تفسيرها. وعلى هذا فقد بات واضحاً أن ألعاب التسلية عند المسلمين كانت على ثلاثة طرق (ضروب): الضرب الأول: يمثله المجالس بأنواعها المختلفة من قصص ووعظ وشراب وطرب، والضرب الثانى: يمثله الألعاب الرياضية بشتى أنواعها من رقص وقنص وغيرها. أما الضرب الثالث والأخير فهو يختص بالألعاب الهادئة التى اصطلح على تسميتها بالألعاب المنزلية كالنرد والشطرنج والورق ونحوها.

---

(١) الأدفوى، الطالع السعيد الجامع لجميع نجباء الصعيد، ص١٦٧ .

(٢) احمد تيمور، لعب العرب، ص١٠-٥٦ .

(٣) نفسه، نفس المرجع، ص٢٧٨ .

الفصل الرابع

الفنون والعمارة والآداب

الفنــون:

كان ظهور الإسلام فى شبه جزيرة العرب قبل منتصف القرن السابع الميلادى، فى أرض صحراء جرداء، يسودها الفساد والذل والفقر، وكذلك عادات الجاهلية الأولى فعندما سادها الإسلام حولها واستبدل أهلها عزاً بعد ذلل، وصلاحاً بعد فساد.

غير أن هذه الأرض الصحراوية كانت خالية تماماً من أى مظهر من مظاهر الفنون بإستثناء بيت الله الحرام «الكعبة» الذى رفع قواعده إبراهيم عليه السلام وإبنه إسماعيل. ماعدا ذلك كانت الأرض جرداء «واد غير ذى زرع» ودوراً مشيدة باللبن والآجر أو الحجارة بغير نظام أو طرز واضحة المعالم، ولكنها كانت خيام تنصب ثم تنفض بنهاية مقومات الحياة فيها. ولم يكن فيها كما ذكرنا أثراً ومعلماً بارزاً غير بيت الله العتيق.

ومن خلال قراءتنا للقرآن وتدبرنا له، وقفنا على حقيقة مؤداها أن إبراهيم - جد الأنبياء - بعث فى «كلدة» وكان أبوه مثالاً ينحت تماثيل المعبودات ويعرضها للبيع فى الأسواق، وكان إبراهيم يقوم بنفسه ببيع هذه التماثيل، وكان يقول: «يامن يشترى ما لا ينفع ولا يضر» مستخفاً بعقائد أبيه وقومه.

وعندما هاجر إبراهيم إلى أرض جزيرة العرب واستقر عند البيت العتيق، وكانت قواعده تحت الأرض، أمره ربه أن يرفع هذه القواعد ومعه إبنه إسماعيل فقام برفعها وصارت معالمه واضحة للعيان.

وعندما هاجر النبى محمد ﷺ من مكة إلى المدينة بأمر الله أيضاً، وبعد أن اشتد عليه ضغط الكفار والمشركين، قام النبى ببناء أول مسجد للإسلام بالمدينة،

وعرف بمسجد «قباء» أو مسجد النبى، وكان بناؤه مجرداً من الزينة، بل كان مجرد ارض مستطيلة محاطة بأربعة حوائط مرتفعة قليلاً، وترك نصفه مكشوفاً والنصف الأخرى مغطى بسعف النخيل، ولم يكن به مئذنة أو محراب، أو ما إلى ذلك مما نراه اليوم فى المساجد، وظل هكذا حتى جدده الأمراء والخلفاء المسلمين، حتى صار مسجداً له معالمه المحددة.

وبعد وفاة النبى ﷺ، وكان قد أشار على المسلمين بالفتوحات الإسلامية خارج جزيرة العرب، لأنه لم يبعث فى أهل الجزيرة العربية فقط، بل أن الله ارسله للناس كافة، فقال عز وجل: ﴿إنا أرسلناك للعالمين بشيراً ونذيراً﴾، ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾، ﴿إنا أرسلناك للناس كافة﴾ وغيرها كثير. فكانت الفتوحات الإسلامية ضرورة حتمية وعبء يتحمله الخلفاء المسلمين بخاصة والشعوب الإسلامية بعامة. ومن هنا فتح الله على المسلمين بلداناً كثيرة فى الشرق والغرب، وضمت شعوباً وقبائل مختلفة فى الجنس واللغة والدين، وإن كانت قد دخلت معظمها فى دين الله افواجاً. وإقتضت الحال أو الأحوال ضرورة بناء المساجد، دور عبادة المسلمين، فشيد عمر بن الخطاب قبة الصخرة على مقربة من المسجد الذى اقيم ببيت المقدس، فى بلاد الشام (فلسطين). وأقام عمرو بن العاص مسجده بالفسطاط وأقيم المسجد الجامع بدمشق فى العصر الأموى، ومساجد الكوفة فى العصر العباسى، والمسجد الكبير بالأندلس فى العصر الأموى المستقل عن الدولة العباسية، ومساجد أخرى كثيرة فى القيروان وإيران وفى كل مكان.

وكان الفن الإسلامى وزخرفة المساجد تستمد من روح ووحى الدين الإسلامى مخالفة بذلك ما كان يجرى فى المعابد اليهودية والكنائس المسيحية،

خاصة تلك التى كانت تزين بالصور والأشكال التى لا تتمشى مع أية عقيدة سماوية.

ولم تقف المساجد الإسلامية فى أى مكان على نمط واحد، بل كان لكل عصر من العصور الإسلامية مساجده ومآذنه التى تميزه عن غيره، حتى صارت المساجد اليوم، وكأنها قطعة فن تجذب المصلين وغيرهم وتلفت إنتباه من هم على غير دين الإسلام بما أدخل عليها من روعة الفن الإسلامى.

وفى الحقيقة أن هذا الفن المعمارى الذى لوحظ فى المساجد إنما جاء بما ألفه المسلمون وما صادفوه من تقاليد العمارة فى البلاد المفتوحة. ذلك الذى استنبطه الفنان المسلم من العمارة السورية أوالمصرية أو الإيرانية الفارسية أو حتى الأندلسية.

وفى سبيل إخراج المسجد على نحو جيد، فلم يكن هناك غضاضة فى استعمال الفنانين والبنائين من غير المسلمين إذا كانت هناك ضرورة لذلك، وليس شرطاً أن يكون البناء أوالنقاش مسلماً، بل الحرص على الإبداع فى بناء المساجد وزخرفتها لا يتقيد ولا يشترط أن يكون القائم عليه مسلماً.

والواقع أن نشأة الفن الإسلامى تبقى مقترنة بالمساجد. وقد بدأت العمارات والأبنية الدينية بسيطة وبغير زينات تجميلية، ثم أخذت الوحدات الفنية تأخذ فى الظهور على مرّ الأيام. وإضافة أجزاء جديدة للمسجد مثل المأذنة أو المنبر أو غيرها إنما حدث بمرور الوقت، ولم يكن مع بداية ظهور الإسلام.

فالمنبر مثلاً كان محاولة من قبل عمرو بن العاص وذلك بقيام سلم مدرج بجوار موقف الإمام الذى يؤم المصلين ولكن الخليفة لما سمع بذلك أمره بإزالته،

وأرسل إليه يقول: «أما بحسبك أن تقول قائماً والمسلمون تحت عقبيك» فأزاله عمرو بن العاص، أما ظهور المآذن فكان فى القرن السابع الميلادى/ الثانى الهجرى، ثم أظهر المحراب بعد ذلك.

وكانت الحاضرة الإسلامية، خاصة منذ عهد الخلافة العباسية تقام على أساس تخطيط ورسم معمارى وفنى يناسب متطلبات المسلمين فى تلك العصور المتقدمة. بمعنى عند تخطيط المدينة كان المسجد هو أول بناء يقام فى القلب (أى مركز المدينة) ثم تخطيط الشوارع من المسجد إلى أطرافها بحيث تؤدى أوتصب جميع الشوارع داخل المسجد من جميع الإتجاهات، ويسهل بذلك الوصول إلى المسجد من أقصى أطراف المدينة. وكانت «بغداد» أول حاضرة إسلامية للدولة العباسية توضع على نحو ما ذكرنا.

وعندما إختط أبو جعفر المنصور - المؤسس الحقيقى للدولة العباسية - حاضرته «بغداد» فى العراق، إستجلب إليها أمر البنائين والفنانين والرسامين والنقاشين من شتى بقاع الأرض فأخرجوا مدينة غاية فى الروعة والجمال. ثم كثر بعد ذلك بناء المساجد والقصور التى إقترنت بالزينة والزخرف؛ حتى إعتبر العصر العباسى بحق عصر تجديد فى شتى مجالات الفنون والعمارة.

ورغم سقوط الدولة الأموية على أيدى العباسيين إلا أن أحدهم ويدعى عبد الرحمن الناصر (الداخل) تمكن من الهروب إلى الأندلس وإحياء أمجاد أجداده، وذلك بقيام دولة أموية فى الأندلس بعيداً عن إضطهادات العباسيين، وانشأ فيها المساجد والقصور على الطراز الأموى فى بلاد الشام، فجاءت أعماله وأحفاده من بعده فى مجال الفنون، تحفة نادرة لزالت سماتها شامخة حتى

اليوم فى الأندلس، وكان للمسلمين هناك الفضل فى إدخال صناعة الورق، وأثرت جهودهم فى خلق بيئة فنية أنتجت بدافع من فن العمارة وفن النقش والزخرفة. وثمة هجرات أندلسية خارج بلادهم فى بلاد أوربا وحوض المتوسط ومنطقة الشمال الأفريقى، كانت قد اصطحبت معها خبرات كبيرة فى مجال الفن والعمارة إلى تلك الجهات كما أن الفن الإسلامى فى بلاد الأندلس إنتقل إلى أوروبا خلال الهجرات إلى الخارج بسبب الحروب المتواصلة من جهة، وسقوط الأندلس على يد «شارل مارتل» فتأثر الفنان المسيحى الغربى بذلك الفن الإسلامى الذى شهده فى العمارة من مساجد وقصور وغيرها. فقام الفنان المسيحى الغربى بتزيين الكنائس على غرار ما شاهده من فنون وزخرفة فى المساجد، بل استعان ملوك وأباطرة أوربا بالفنانين المسلمين، مثلما كان الحال عندما استعان أبو جعفر من قبل بفنانين أجانب فى بلاد بغداد. وتعتبر بناء «القصور» على وجه الخصوص فى البلدان الإسلامية أو الأوربية، إنما هو فن إسلامى خالص، ثم تأثر به الأوروبيون فيما بعد.

وكان الفن الإسلامى ينتقل إلى البلدان المفتوحة مع الفاتحين من المسلمين، إذ كانت البلدان المفتوحة فى حاجة إلى إدخال أبنية جديدة تحمل أشكالاً وأنماطاً فنية وزخرفية مختلفة. وقد تأثر بها الأوروبيون بشكل ملموس خاصة الزخارف والكتابة العربية إذ عثر على صليب من القرن التاسع الميلادى / الثالث الهجرى مكتوب عليه «باسم الله» كذلك عندما تعرضت إيطاليا وبلاد حوض البحر المتوسط للغزو النومانى، عثر هؤلاء على نماذج من الفنون والزخرفة، الإسلامية، تمكنوا من نقلها إلى منطقة الشمال الأوربى وفى بلادهم الأصلية.

أما عن العمارة الإسلامية:

فقد كان لها طابعها الخاص والمميز الذى تعرفه العين بمجرد النظر إليها، إذ أن الرسوم والزخارف والعناصر التى صممها الفنان السلم ذات طابع يحمل سمات إسلامية ليست على شكل الفنون الأخرى.

فقد تميز الفنان والمهندس المسلم فى أعماله الهندسية، حيث وضع الرسوم والفنون والتفصيلات الدقيقة اللازمة للتنفيذ فى شكل إبداعى كبيرة، كما وضع النماذج المجسمة إلى جانب المقايسات الإبتدائية، ولاشك أن هذا يحتاج منه إلى التعمق فى الفكر خاصة فى علوم الهندسة والرياضية والميكانيكا، وقد وضعت مؤلفات عديدة فى تلك العلوم، وانشأت لذلك مدارس للتعليم كما سجل التاريخ أسماء العديد من مشاهير ونوابغ المهندسين العرب الذين وضعوا تصميمات المبانى الإسلامية العظيمة.

وفى طليعة العمارة الإسلامية نذكر المساجد التى أصبحت لها نظام لا تخرج عنه، مستمد فى أساسه من المسجد الأول الذى أقامه لنبى محمد ﷺ، فى «المدينة» والتى كانت أول حاضرة إسلامية. وجاء تصميم المسجد على النحو التالى: بناء من أربعة حوائط مسقف، يتوسطه جزء يسمى بالصحن، هدفه توفير الإضاءة والتهوية للمسجد، إذ هو حالياً عبارة عن قبة تكثر بها الفتحات الدائرية أو المستطيلة حسب بناء المسجد. ثم توجد فى المسجد القبلة والتى يقف فيها الإمام ويوجه إليها المصلين وجوههم وهى تشير بشكل دقيق إلى الكعبة «قبلة المسلمين» فى بيت الله الحرام بمكة ﴿أينما تولوا وجوهكم فثم وجه الله﴾؛ وتعرف القبلة فى المسجد بالمحراب، وعلى يمينه المنبر. ويحمل السقف عقود

تقوم على أعمدة من الرخام أو الحجر أو على أكتاف من البناء، وقد استخدمت المساجد فى العصور القديمة كمراكز للتعليم ليس فقط العلوم الدينية، بل أيضاً العلوم الدنيوية، فقد كان النبى يعلم المسلمين فيها علوم الدين وعلوم الدنيا، ثم صار على منهجه الخلفاء من بعده.

ومن أهم المساحد الإسلامية التى أقامها الأمويون ولا تزال قائمة حتى اليوم شامخة هو المسجد الجامع فى دمشق، بناه الخليفة الوليد بن عبد الملك بين عامى ٨٨هـ/ ٩٦م، واستقدم له الصناع والعمال البنائين من شتى البلدان الإسلامية. ويتألف المسجد من صحن كبير مستطيل الشكل، تحيط به الأروقة من أربع جهات، وتحد هذه الأروقة أقواس محمولة على دعائم، وفوق هذه الأقواس أو العقود صف من النوافذ تقع كل نافذين على عقد من العقود وفوق الأروقة الشمالية والجانبية سقف خشبى منحدر. أما إيوان القبلة، فيتكون من ثلاثة صفوف من الأروقة، رواق مستعرض يقسم رواق القبلة إلى قسمين، ويكون عمودياً على المحراب ويعرف باسم المجاز.

وكانت المآذن من أهم العناصر المعمارية التى تعطى للمسجد شخصية متميزة.

ولم يكن للمساجد الأولى التى أنشئت فى عهد النبى محمد ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده مآذن، واقدم نموذج للمآذن، الأبراج التى كانت قائمة فى المسجد الأموى بدمشق، وكانت على شكل أبراج مربعة. وقد إنتقل هذا الطراز إلى شمال أفريقية وسائر البلاد الإسلامية. واقدم المآذن القائمة الآن هى صومعة جامع سيد عقبه بالقيروان، التى شيدت فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك

سنة ٢٤٧هـ/ ٧٢٨م، وهى على شكل برج يبلغ إرتفاعه نحو ٣١متراً، ومكونة من ثلاثة طوابق، كل طابق أصغر من الطابق الذى هو تحته، وينتهى الطابق العلوى بقبة.

وفى الحقيقة إختلفت المساجد والمآذن بإختلاف العصور الإسلامية المختلفة، إذ كان لكل عصر سماته المعمارية التى تميزه عن العصر الآخر. فالمآذن مخروطية الشكل فى بلاد فارس، ومربعة فى الأندلس وشمال افريقية، واسطوانية ذات مطفأة فى أعلاها فى تركية، ومتنوعة الشكل فى كل طبقة منها بمصر، أو بمعنى أدق، تجمع مصر فى مآذنها كافة العصور الإسلامية المختلفة حتى الحلزونية منه والتى بناها أحمد بن طولون موجودة فى مصر. وتعتبر هذه المآذن من أهم الآثار الإسلامية التى تشير إلى عصر الدولة التى قامت فى مصر أو أى مكان آخر فى الشرق أو الغرب.

ولم يكن هدف المآذن - كما يعتقد البعض - بناء زخرفى إضافى للمسجد فقط، على خلاف المعابد اليهودية أو الكنائس المسيحية، ولكن أقامها المسلمون فى المساجد بهدف تبليغ المسلمين صوت المؤذن للصلاة القائمة، حيث كان المسلمون يحرصون على أن تكون المأذنة تمثل أعلى مكان فى المدينة حتى يمكن للمؤذن من تبليغ صوته إلى جميع المسلمين فيهرعوا إلى الصلاة. وإن كانت هذه الغاية لم يعد لها قيمة بعد إكتشاف مكبرات الصوت، ومع هذا فإن المأذنة صارت من أهم أجزاء المسجد الذى لا يمكن الإستغناء عنها خاصة فى المساجد الكبيرة.

لقد أصبحت عمارة المسجد أو المساجد فى الدولة الإسلامية لا تقتصر على كونها مجرد مبنى لأداء الصلاة وفقط، بل بلغت من الروعة والجمال ما أذهلت

غير المسلمين، فالمآذن مثلاً، خاصة فى مصر، لاسيما مئذنة قايتباى فى القاهرة، من العجائب، ولا شئ أدل على دقة العرب وذوقهم الرفيع فى قدرتهم على تحويل البروج البسيطة إلى مآذن تناطح السحاب، بلغت فى مصر ٧٢متراً أو أكثر وأخذت أشكالاً مسدسة ومثمنة تتخللها فتحات طويلة أشبه بالشبابيك، وذلك لمواجهة الرياح الشديدة ولحماية المأذنة من التصدع أو الإنهيار حتى قامت المآذن فى بدلان أخرى مثل تركيا وبرز فيها تفوق الذوق العربى[1].

وتعتبر القاهرة متحفاً للمآذن ذات الأشكال المختلفة، وكما ذكرنا، تعتبر مئذنة أحمد بن طولون فريدة فى نوعها لانظير لها فى مصر.

ولم يكن للمسلمين طراز خاص موحد، فى بداية الأمر، إذ كانت الأعمدة الرومانية هى السائدة فى الفترة الأولى، ثم حدث تطور فى العمارة الإسلامية بأن أخذ العمود شكل تيجان أوذات تيجان ناقوسية أو رومانية، ثم ابتكرت أعمدة أخرى ذات أضلع حلزونية مزينة فى كثير من الأحيان بالزخارف النباتية الدقيقة.

وكثيراً ما استعملت الأكتاف فى العصر العباسى والطولونى فى مصر، ثم فى بعض المساجد فى العصر الفاطمى.

أما التيجان، فقد ابتكر المسلمون منها أنواعاً مختلفة، منها الدائرى، أو المثمن أو المسدس أو على شكل هرم مقلوب، أو ناقوس، وزخرفت تاج العمود إما بصف من الورقيات أو الدلايات أو المقرنصات كما فى قصر الحمراء بغرناطة.

ومن الفنون المعمارية للمسجد، استعمل الفنانون المسلمون أنواعاً مختلفة من العقود تبعاً للأقاليم الإسلامية، وكانت فى بداية الأمر عقوداً نصف دائرية، ثم عقوداً مدببة، والتى ظهرت فى المسجد الأموى بدمشق.

---

(١) جورستاف لبون، خضارة العرب، ص١٧٤ .

وكان العرب لا يفضلون المقرنصات المتدليات، الملساء التى كانت على غرار الأغريق، ولكنهم ابتكروا كوات صغيرة مثلثة تسمى دليّات بعضها فوق بعض، تتدلى بشكل هندسى تدريجى دقيق، أشبه إلى حد كبير بخلايا النحل، وذلك لما نرى من رغبتهم فى ملئ زوايا الجدر القائمة، وفى وصل القباب المستديرة بما تقوم عليه من الرداة المربعة وصلاً غير محسوس. وقد استعملت المتدليات فى صقلية منذ القرن العاشر والحادى عشر الميلاديين. وما كاد القرن الثانى عشر من الميلاد يحل حتى كان أمرها شاملاً فى جميع البلدان الإسلامية، وقد استخدمها العرب والمسلمون فى ربط أطناف آروقية المآذن بأوجهها القائمة، وفى ملئ قباب المساجد، وفى وصلها بالجدر القائمة عليها .... إلخ.

ويمتاز الفن والعمارة الإسلامية بمميزات تبرز طابعه وشخصيته، وهى تقسيم السقف إلى أشكال هندسية مختلفة؛ وداخل هذه الأشكال توجد الوحدات الزخرفية المستمدة من العناصر النباتية أو الأشكال الهندسية أو الحيوانية أو الخطية، وقد يجتمع فى المساحة الواحدة كل أنواع الزخارف.

والزخارف النباتية من أوضح المظاهر التى توضح أبعاد الفنان المسلم من نقل الطبيعة نقلاً حرفياً، فهى فى أكثر الأحيان عناصر زخرفية مجردة كل التجريد، فلا نكاد نتبين من الفروع والأوراق إلا خطوطاً منحنية أو ملتفة يتصل بعضها ببعض، فتكون أشكالاً حدودها منحنية. وقد يظهر بينها زهو ووريقات لها فص أو فصان أو ثلاثة أو أكثر، وقد تخرج تلك الغصون من جذع شجرة أو ساق أو إناء، أو من أغصان أخرى، وتمتد على هيئة أقواس أو إلتواءات فى تتابع أو تشابك.

وظلت الزخارف النباتية تنمو إلى أن وصلت إلى أقصى إزدهار لها فى القرن الثالث عشر الميلادى. السابع الهجرى، وقد إنتشر استعمال هذا النوع من الزخارف فى التحف المختلفة، سواء أكانت من الخشب أو المعدن أو الزجاج أو الخزف.

وتعتبر زخارف الفسيفساء من أقدم الزخارف التى برع فيها الفنان المسلم فى ظل طراز معمارى إسلامى. والفسيفساء هى قطع صغيرة من الحجارة أو الرخام أو الزخرف الخشبى أو الزجاج الملون، ومنها الشفاف أو المعتم، وتثبت هذه القطع فوق طبقة من الجص أوالأسمنت تغطى السطح المراد تغطيته.

واستخدمت زخارف الفسيفساء من الزخارف التى تحتاج إلى درجة عالية من الدقة والمهارة. هذا بالإضافة إلى أن هذه الزخارف تمتاز بقوتها وصلابتها ومواجهتها بشتى المؤثرات الطبيعية من رياح وشمس ومطر وحرارة وبرودة، وأن الآثار المتبقية منها لأكبر دليل على ذلك. وإن دلّ هذا على شئ فهو يدل على عمق التفكير وبراعة الفنان المسلم، ولهذا لم يستطع إتقانها إلا الفنان المسلم ثاقب النظر والتأمل.

فن النحت الخشبى:

من الفنون البارزة فى تاريخ الدولة الإسلامية صناعة وتشكيل وزخرفة الخشب بشتى ألوانه، إذ سجل لنا التاريخ تطور الفن الإسلامى فى عنصر الخشب شأنه شأن الفنون الأخرى، من حجارة ومعدن وزجاج وجص وغيره. فإذا كانت هناك بعض المؤثرات القديمة من جانب الحضارة اليونانية أو الساسانية فى الفنون الإسلامية، فإنه منذ العصر العباسى الأول خاصة منذ إنشاء «بغداد»

و«سامراء» فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، بدأت الفنون والعمارة الإسلامية تأخذ طابعاً إسلامياً متميزاً، يشبه إلى حد كبير اسلوب الزخارف الجصة، التى عرفت فى تاريخ الفنون باسم «الأرابيسك» أو «فن الأرابيسك» نسبة إلى حكمة العرب. وقوام هذا الاسلوب من الفن هو زخارف نباتية محورة محصورة فى أشكال هندسية؛ وهو الذى يعرف الآن بالفن التجريدى، أما التحف الخشبية المصنوعة فى مصر فى العصر الفاطمى، فقد زادت الدقة فى الحفر تدريجياً حتى بلغت غايتها فى القرن الخامس الهجرى، كما بدأ يظهر فى الزخارف الرسوم الآدمية والحيوانية إلى جانب زخارف «الأرابيسك».

وازدهرت أيضاً أساليب أخرى فى زخرفة الخشب كتطعيم الحشو بالعاج والصدف والأبنوس، كما إزدهرت فى عصر المماليك صناعة جديدة هى صناعة الشبكيات من الخشب المخروط وهى ما يطلق عليها سم «المشربية».

وتجدر الإشارة هنا إلى أن زخارف الخشب فى أول عهدها قد تأثرت بالتقاليد المحلية فى كل إقليم، ثم أخذت تكتسب بالتدريج الشخصية الذاتية للإقليم فى إطار الطابع الإسلامى العام.

وأما ما يتعلق بعملية زخرفة الخشب عن طريق الحفر فيرجع إلى العصر الأموى والعصر العباسى، وكانت قليلة إلى حد ما، وكانت الزخرفة الخشبية فى العصر الأموى تتميز بإستعمال أوراق العنب وتعريقاته وكيزان الصنوبر. أما العصر العباسى فكان يتميز الحفر الخشبى فيه بطريقة مائلة أو مشطوفة بعيداً عن التأثر بالطبيعة.

أما موضوع عملية زخرفة الخشب فى مصر، فيرجع إلى القرنين الثانى

والثالث الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين، وأساس الزخارف فيها الورديات ذات المركز الواحد، والأشكال المجنحة والوريقات ذات الفصوص الثلاثة وبعض رسوم الطيور والحيونات بين الأوراق.

وفى عهد أحمد بن طولون ظهرت أساليب جديدة فى الحفر فى الخشب، إمتزجت بالتدريج بالأساليب المحلية، وكانت الزخارف تحفر بطريقة الشطف المستديرة، وأغلب الأوقات تقسم القطع المطلوب زخرفتها إلى مساحات على اشكال هندسية منها المعين والمستطيل وغيرها، وأحياناً نرى طيوراً محفورة بالأسلوب نفسه.

ويضم المتحف الإسلامى مجموعة ممتازة من الألواح الخشبية من عهد الفاطميين، عليها زخارف محفورة تمثل مناظر صيد ورقص وطرب وموسيقيين وطيور وحيوانات، داخل مناطق تفصلها زخارف متشابكة على أرضية من تعريقات الأوراق والأزهار حفرت أكثر عمقاً من حفر الأشكال الآدمية، وقد أعطى هذا التقسيم ودرجات البروز لهذا العمل شخصية تشكيلية متميزة.

ويوجد فى المتحف الإسلامى بالقاهرة ثلاث محاريب خشبية أبدعها وأروعها محراب السيدة نفيسة، وتزين جوانبه عناصر نباتية وأشرطة هندسية تكون أشكالاً متعددة الأضلاع، وله إطار مزين بالخط الكوفى المزخرف، جمع بين اسلوبين فى وحدة واحدة هما اسلوب هندسى، والآخر أرابيسك.

أما فى عصر المماليك فقد تمكن النجارين «نجارى الموبيليا» من إخراج زخارف حفرت فى الخشب غاية فى الإبداع والجمال وأصبح أهم مظهر لهذه الزخارف تجميعها على شكل أطباق، طعمت بالعظم والسن، واستعملت لها

أخشاب ذات ألوان طبيعية مختلفة. وقد توصل نجار الموبيليا فى العصر الحاضر إلى الزخرفة الخشبية بشكل أذهل العالم الخارجى وليس الإسلامى فقط؛ وزاعت شهرة دمياط إلى درجة العالمية، حتى ان ميناء دمياط الحالى نال شهرة غير مسبوقة فى تزيين وصناعة الخشب بشكل اثار دهشة العالم وغزت الصناعات الخشبية الدمياطية جميع أسواق العالم تميزها الفنون والطرز الإسلامية.

أما صناعة الخشب المخروط، فهى صناعة قديمة، صنعت خصيصاً للحصول على تأثيرها الجمالى، وبدأت بكثرة فى بعض قطع الأثاث فى مصر فى العصر الإسلامى الأيوبى ثم المملوكى وأخيراً العثمانى، وقد تطورت هذه الصناعة ووصلت إلى درجة الأناقة فى صورة المشربيات والحواجز الخشبية للمقصورات فى المساجد، وأيضاً المنابر الرائعة. ولعل مساجد مصر مثل مسجد محمد على فى القلعة والأزهر والسيدة زينب والسيدة نفسية والحسين والشافعى وغيرها كثير أفضل نماذج لهذه الصناعة الفريدة فى نوعها.

أما عن إستخدام العاج فإن المسلمين قد اتقنوه مثلما اتقنوا حفر الخشب وغيره، فحفروا العاج بشكل نادر، كما تشهد بذلك القطع الكثيرة النفيسة، كالصندوق العاجى الصغير الذى صنع لأحد ملوك أشبيليه فى بلاد الأندلس فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، يعرف بصندوق سان إيزيدور من ليون، وصندوق كاتدرائية «بايو» العاجى الذى صنع فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، وكان بمصر ولكنه سرق ونقل إلى إيطاليا فى أيام الحروب الصليبية، وقد طرّز بالفضة.

هكذا كانت إبداعات الفنان المسلم فى كل العمارة والفنون والزخرفة سواء النحت أو الحفر الخشبى وأيضاً مثله كان فى العاج أيضاً.

فن صناعة الزجاج والنقش عليه:

ومن الفنون التى ابدع فيها الفنان المسلم إلى جانب ما أسلفنا، ما يتمثل فى الرسم والنقش على الزجاج، والتى كانت تأخذ شكل أقراصاً ورسوم حيوانات أو كتابة كوفية بآلة تشبه الملقاط، أو أختام عليها نقوش محفورة، كما استخدم الصانع اسلوب الزخرفة بالأقراص والخيوط المضافة إلى أسطح الأوانى، وهذه الخطوط إما متعرجة، أو على هيئة أشرطة متموجة أو أقراص أو نقاط بلون الإناء نفسه، أو بلون مختلف، وكانت الخيوط الزجاجية تسحب وهى ساخنة فى أتجاه واحد، أو إتجاهين متضادين فتتكون منها أشكالاً عديدة مختلفة كأسنان منشار الخشب.

وابتكر الفنان المسلم طريقة الطلاء بالمينا، وكانوا يضعون الزخارف الذهبية على التحف بواسطة الريشة عند رسم الخطوط الخارجية، وبالفرشاة فى المساحات الكبيرة، وبعد أن يحرق الصانع الإناء فى الفرن للمرة الأولى، يحدد موضوع الرسم باللون الأحمر، ثم يطلى بالمينا مختلفة الألوان. وكان طلاء المينا نصف الشفاف يتكون من ذائب الرصاص ثم يلون بالأكاسيد المعدنية فإذا أريد اللون الأخضر أضيف إلى الزجاج أكسيد النحاس، وبإضافة أكسيد الحديد يحصل على اللون الأحمر، أما الأصفر فمن حامض الأنتيمون، والأبيض من أكسيد القصدير، والأزرق بإضافة مسحوق الآزورد.

وإزدهرت صناعة البلور فى مصر أيام الفاطميين، وحجر البلور حجر طبيعى، وله شفافية جذابة، ويوجد على ساحل البحر الأحمر، وقد إتخذت منه القوارير والمكاحل والدوارق والكؤوس، وإمتدح الرحالة ناصر خسرو الأوانى

الزجاجية التى رآها عند زيارته لسوق القناديل على مقربة من جامع عمرو بن العاص، ووصفها بالجمال والإبداع، فضلاً عن صلابتها ومنظرها الجميل الرائع.

وتعتبر المسكاوات الزجاجية المموهة بالمينا فى العصر المملوكى فى مصر وسورية فخر صناعة الزجاج؛ وقد أقبل سلاطين المماليك على إقتنائها، وتزيين المساجد بها. وزجاج المشكاوات أبيض مائل إلى الصفرة القاتمة، أما المينا التى زخرف بها فحمراء وزرقاء وخضراء وبيضاء، وتتألف زخارفها من كتابات داخل مساحات أو مناطق.

ومعظم التحف المصنوعة من البلور إنتقلت إلى قصور أوربا أو كنائسها حيث أعجب بها الأوروبيون، وأقبلوا على إقتنائها، ولازالت محفوظة فى كاتدرائية سان ماركو بالبندقية، وقوام زخرفتها رسم أسدين بينهما شجرة وبين رقبة الإبريق وبدنه كتابة كوفية نصها «بركة من الله للإمام العزيز بالله». وهناك تحفة أخرى على شكل هلال فى متحف نورمبرج بألمانيا وعليها كتابة كوفية «لله الدين كله - الظاهر لإعزاز دين الله أمير المؤمنين».

وتحفة ثالثة بكتدرائية مدينة برمو بإيطاليا على بدنها زخرفة من طائرتين متواجهين، بينهما فروع نباتية غاية فى الدقة والإتقان؛ وفوق الرسم شريط من الكتابة الكوفية بها عبارة «بركة وسرور للملك المنصور أى الحاكم بأمر الله أبو على المنصور».

هذا بالإضافة إلى تحف أخرى فى متحف اللوفر وفيكتوريا وألبرت بلندن وفى قصر بيتى بفلورنسا وغيرها.

الصناعات الخزفية وزخرفتها:

من أبرز معالم الفن الإسلامى ما امتاز به الفنان المسلم فى صناعة الخزف الإسلامى، بأشكال مختلفة من حيث الشكل وأساليب الصناعة. كما اشتهر الخزاف المسلم فى طلاء الخزف بالمينا ذات الألوان المتعددة، وفى صناعة لوحات من القشانى، كانت تغطى بها جدران المساجد والقصور. وقد تشابهت الأساليب الفنية فى صناعة الخزف بحيث أصبح من الصعب فى كثير من الأحيان تمييز منتجات إقليم عن آخر من أقاليم العالم الإسلامى. وقد قسم مؤرخو الفنون أسباب إنتشار الخزف، بأنه أغنى المسلمين عن إستخدام الأوانى الذهبية والفضية، التى كان فقهاء الإسلام يحرمون إستخدامها، لما يدل عليه من ترف وإسراف مما شجع المسلمين فى كل مكان على الإقبال على صناعة الخزف ذى البريق المعدنى.

واستخدام الخزف المطلى بالمينا الملون قديم جداً، وقد وجدت منه فى بقايا القصور الفارسية القديمة؛ ولم يلبث العرب أن استخدموه بدلاً من الفسيفساء، لما يتطلبه صنع الفسيفساء من إنقضاء زمن أطول من الزمن الذى يتطلبه ذلك. ويوجد فى المساجد القديمة مثل مسجد قرطبة ومسجد القيروان نماذج شتى للخزف المطلى بالمينا.

وقد اتقن العرب المسلمون صناعة الخزف بشكل إبداعى فى بلاد الأندلس على الخصوص، قطعاً مبتكرة رائعة ومتقنة لم يسبقهم إليها أحد فى كمالها وجمالها.

وترجع صناعة المسلمين للخزف المطلى بالميناء فى بلاد الأندلس إلى القرن

الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، وقد كان لهم فيها مصانع شهيرة تبيع مصنوعاتها فى جميع أنحاء العالم، وقد شاهدنا فى قصر الحمراء الواحاً رائعة مستورة بالخزف المطلى بالمينا ذى الإنعكاس المعدنى ومصنوعة فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، ومتشابهة هى والمصنوعات الإيطالية، التى عرفت مؤخراً بالمصنوعات الماچوليكية، تشابهاً يستوقف النظر. وأن كلمة «ماچوليكية» مشتقة من كلمة ميورقة التى كان بها مصنع عربى لصنع الخزف الإيطالى مطلى بالمينا، وهى دليل على أن طرق الإيطاليين فى صنعه مقتبسة من الصناعات الخزفية العربية.

وأشهر نموذج لصناعة الخزف المطلى بالمينا الإسلامى هو الإناء الذى وجد فى قصر الحمراء، والذى يبلغ إرتفاعه متراً وخمسة وثلاثين سنتيمتراً، وهو مكسو برسوم زرق ذهبية (على أساس أبيض ضارب إلى صفرة) وبنقوش عربية، وكتابات وصور حيوانات خيالية تذكرنا بالوعل، وهو حائز شكلاً لطابع الإبداع الخاص بجميع آثار العرب.

وكانت أهم المراكز العربية لصناعة الخزف المطلى بالمينا فى بلنسة ومالقة؛ قال الرحالة العربى ابن بطوطة مشيراً إلى مالقة سنة ١٣٥٠م/ ٧٤٣هـ. «وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب، ويجذب منها إلى أقاصى البلاد».

ومن أهم معامل صناعة الخزف وأشهرها، معمل جزيرة ميورقة الذى يظهر أنه قديم جداً لإفتتاح النصارى لها سنة ١٢٣٠م/ ٦٥٢هـ.

وعندما تم إجلاء العرب عن اسبانيا، هبطت فيها صناعة القيشانى، وجميع الصناعات قد تراجعت بسرعة؛ قال مسيو دو سوميرار: «إن درجة الإنتاج فى

أسبانيا صفر، واليوم لا تصنع معاملها سوى الأوانى المنزلية الغليظة».

وقد أكتشفت قطع من القيشانى فى صقلية، وافترض بسببها وجود مصانع إسلامية للقيشانى فيها سابقاً، غير أن نماذج تلك القطع التى وجدت، كانت أقرب إلى الفن الفارسى منها إلى الفن العربى. ومن المحتمل ان تكون قد أدخلت إلى صقلية عن طريق التجارة من قبل؛ ويشتمل متحف كولونى (كلونى) على مجموعة نفيسة من القيشانى الذى يفترض أنه صقلى عربى.

وتشتمل المتاحف الأوربية على كثير من الأوانى الخزفية التى صنعت تقليداً لأوانى عرب الأندلس، ويتأكد ذلك من خلال جود كتابات عربية ممزوجة بالزخارف، قد حرّف «زيف» صانعوا الخزف من الأجانب هذه الكتابات التى اخذوها أساساً للزينة حين اقتباسها.

ولا يزال يرى فى بلاد العرب وفى أهم مدن الشرق مصنوعات من الخزف الصينى المزين بالكتابات العربية المذهبة على أساس اللون الأزرق أو الأبيض، ولا ريب فى أن عمالاً من مسلمى الصين هم الذين قاموا بصناعتها وزخرفتها.

الصناعات المعدنية والأحجار الكريمة:

لقد لعب العرب دوراً بارزاً فى تقدم الصناعات المعدنية من صياغة وصناعة الحلى والترصيع والتكفيت، وبلغوا فيه شأواً بعيداً، يصعب الوصول إلى مثله فى زماننا، وكانت آنيتهم وأسلحتهم مكفتة بالفضة ومموهة بالمينا ومرصعة بالحجارة الكريمة، وكان يقاس تقدم العرب بتعاملهم مع نوع المعدن وكيفية تطويعه وتشكيله، فمادة مثلاً كالبلور وهى شديدة الصلابة، كانت تقطع قطعاً كبيرة وتغطى بالصور والحكم، (أى لافتات عليها عبارات تعبر عن آراء حكيمة)

مما يصعب صناعته فى الزمن الحاضر. ومن ذلك الإبريق البلورى الذى صنع فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، وهو موجود فى متحف اللوفر مع صور نماذج كبيرة وكثيرة لمصنوعات عربية من المعدن والحجارة الكريمة.

وتجلت روح الإبداع العربية والإسلامية فى ترصيع المعادن الصالحة لصناعة الأسلحة والآنية والأباريق وكفاف الموازين وأدوات المنازل وما إليها. واطلق اسم الدمشقى على طريقة العرب، اشتقاقاً من اسم المدينة «دمشق» التى زاولته على الخصوص، وكانت دمشق والموصل أهم مراكز هذه الصناعة، ولا تزال هذه الصناعة رائجة فى دمشق، ولكنها فى تراجع بسبب استيلاء تيمورلنك على دمشق فى سنة ١٣٩٩م/ ٦٤٨هـ ونقله لجميع صانعى أسلحتها إلى سمرقند وخراسان.

وكان استعمال الألوان فى الفن الإسلامى ليس مجرد هواية ولكنها وظيفة، قام أصحابها باستعمال الألوان الزرقاء والخضراء والذهبية بكثرة، إلى جانب مساحات محدودة من الألوان الحمراء والصفراء والبنية .. رغم أن الإسلام (القرآن) حث على استخدام اللون الأصفر الفاقع، وأنه من الألوان التى تسر الناظر إليها ﴿بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين﴾. ويشاهد فى التحف الزجاجية والخزفية والقيشانية اللون الأخضر والأزرق، وألوان السماء والماء والسهل الخصيب، وهى ألوان باردة كما أنها ألوان الفضاء وهى تعطى إحساساً بلانهاية.

وقد أخذ بعض الفنانين المحدثين إستعمال الألوان استعمالاً جمالياً. ومن هؤلاء الفنان الفرنسى «ماثيو Matthew» الذى تأثر بالألوان الإسلامية عند زيارته

لشمال افريقية.

أما اللون الذهبى .. فقد استعمل بسخاء فى الفن الإسلامى، لون له بريق سحرى من شأنه أن يخرج الإنسان من الواقع الأرضى ويرفعه إلى السماء أو الجنة، وهى غاية الغايات فى العقيدة الإسلامية.

واستعمل الفنان المسلم ألوان الخامات الطبيعية استعمالاً جمالياً نتيجة إبراز جمال لون الخامة أو المزاوجة بين هذه الخامات ذات الألوان المختلفة، كالخشب بألوانه وخاماته والأبنوس والعظم والعاج والرخام والبرونز والذهب والفضة ... وهكذا.

وقد اثبت الأستاذ كريزويل[1] ان الفنان المسلم قام بتزيين جدران المساجد والقصور منذ العهد الأول للإسلام، وقد أشار إلى تزيين «قصيرعمرا» فى بادية الشام، وهو الذى أنشئ عام ٧١٢م.

ومن الصور التى تزين جدران المسجد الأموى بدمشق والذى إنشئ عام ٧١٤م صور الفسيفساء التى تمثل المناظر الطبيعية لمدينة دمشق وقت إنشاء المسجد، وهى من صنع فنانين سوريين أيضاً.

وازدهرت الصور الجدرانية فى العصر الفاطمى فى مصر، وقد تم كشف صور لفتيان وفتيات ملونة باللون الأحمر ومحددة باللون الأسود فى حمام جهة (أبو السعود) بالقاهرة. ويلاحظ فيها الإهتمام بإبراز الملابس وتحديد تقاطيع الوجوه، والإعتماد على الحظ، وهو الاسلوب ذاته الذى استخدم فى مدينة

(١) توجد بالجامعة الأمريكية بالقاهرة قاعة تحمل اسم هذا المؤرخ الفنان «قاعة كريزويل» كنت اتردد عليها بشكل دائم أثناء إعدادي لدرجتي الماجستير والكدتوراه، وهي ثرية جداً بشتي فروع المعروفة الإنسانية والعلمية. المؤلف.

سامراء بالعراق.

وقد روى لنا المؤرخ المقريزى عن تنافس بين الفنانين كان موجوداً خاصة أولئك الذين يصورون على الجدران، ومنها قصة العصر الفاطمى عن المنافسة بين «قصير» المصرى، وابن عزيز العراقى.

وعنى الأندلسيون بالفنون الجميلة أيضاً، وقد طبعت عماراتهم بطابع خاص يحمل طابع الفنون الشرقية. وآثارهم وجوامعهم الباقية فى جميع مدن الأندلس تدل على عظمة ذوقهم فى قرطبة وغرناطة وطليطلة وغيرها.

وقد قام عبد الرحمن الناصر لجاريته «الزهراء» مدينة سماها بإسمها، وجعلها منتزهاً ومسكناً له ولحاشيته، ونقش صورتها على الباب؛ وكان الأندلسيون يجلبون الصور والتماثيل من البلاد الأخرى كالقسطنطينية. وروى بعض المؤرخين، أن ثلاثة أعمدة فى مسجد قرطبة، كانت عليها نقوش وصور، على إحداها صورة عصا موسى، وعلى الثانية صورة أهل الكهف، وعلى الثالثة غراب نوح[1].

وفى قاعة العدل بقصر الحمراء بغرناطة نجد مجموعات من الصور تزين السقف، منها صورة تمثل عشر أشخاص فى ملابس عربية فضفاضة، جالسين متكئين على سيوفهم؛ والتكوين يعتمد على تنظيم العناصر داخل شكل بيضاوى فى طرفيه رسم أسود صغيرة متواجهة تشبه اسود نافورة «حوش السباع».

(١) احمد امين، ظهور الإسلام، جـ٣، ص٥٧ .

أما عن الفن الإسلامى فى الأندلس:

فإنه يمكن القول أن العرب عندما نزلوا بلاد الأندلس (أسبانيا الحالية)، استخدموا مهندسين من الروم، ولم يلبثوا أن استبدلوهم بمهندسين عرب، تفوقوا عليهم فى الفن والمهارة؛ وبلغ إيحاؤهم فى أمور الزينة شأواً كبيراً، صار يتعذر معه على أقل الناس دقة أن يخلط مبانيهم بالمبانى البيزنطية.

ولم يلبث العرب فى أسبانيا أن تحرروا من السيطرة البيزنطية مثل المصريين، فاستبدلوا النقوش العربية الممزوجة بالكتابة والزخرفة الذهبية، واكثروا من المتدليات المؤلفة من الأقواس الصغيرة التى يعلوا بعضها بعضاً على شكل خلايا النحل فيكون منظرها خلاباً حينما يزين بها القباب من الداخل كما فى الحمراء.

وجامع قرطبة هو اقدم مبانى العرب فى بلاد الأندلس، وأقيم جامع قرطبة يجمع بين الفن الإسلامى والبيزنطى، وليس البيزنطى وحده، وذلك لأننا لم نجد من بناء بيزنطى يشابهه. ولكن جامع قرطبة يختلف عن المبانى البيزنطية بما فيه من الزينة بالخط الكوفى، وبأقواسه المصنوعة على شكل نعل الفرس، والقائم بعضها فوق بعض مع بعض زخارفه. ويكتسب جامع قرطبة بهذا طابعاً يتميز به عن أى بناء بيزنطى، وما قضت به الحال عند صنعه مع ضرورة ما كان عند القوم عندئذ من العمد لينال به علواً مناسباً لعرضه؛ كل ذلك اكسب صحونه منظراً لا تجده فى أى بناء سابق.

وتعتبر المبانى والعمارة العربية فى طليطلة هى أقدم آثارهم فى بلاد الأندلس خلا ما فى قرطبة. وأهم الآثار العربية الإسلامية فى طليطلة هى: باب

بيزغرة (باب شقرة) الذى تم بناؤه فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى؛ وباب الشمس الذى أقيم فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، وغيره. ويمكن للباحث فى طليطلة أن يتبين مراحل تطور الفن الإسلامى.

وفى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى تم بناء قصر أشبيليه، ثم أصلح فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، ثم أعيد ترميمه فى زمن شارل وفيليب الثانى، وأنشئت وجهته فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى؛ ويعد بهو الدمى وبهو السفراء وغيرهما من مشتملاته آثاراً قديمة باقية حتى اليوم.

ولا يلاحظ فى القصر الاشبيلى، وأقسامه الأولى ما فى قصر الحمراء من فيض الزخارف والقباب ذات النقوش المتدلية، ومع ذلك فكلا القصرين متقارب، ولا يختلفان فى غير الدقائق. ويكثر فى القصر الأشبيلى، ماندر وجوده فى قصر الحمراء من الأقواس المجاورة المصنوعة على شكل نعل الفرس، وفيه من السقوف ذات التقاطع الملونة الذهبية المحفورة ما يشبه سقوف قصور القاهرة ودمشق القديمة.

بينما بلغ الفن العربى الإسلامى ذروته فى قصر الحمراء الذى إنشئ فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، وعلى ما فيه من غلو فى الزخرف، نجد هذا الغلو وليد ذوق رفيع.

وأهم ما يميز قصر الحمراء عن القصر الأشبيلى ما يأتى: أن جدره المغطاة بقطع ملونة مصنوعة من القوالب، وعمده الخلفية الأفقية الخطوط الحاملة تيجاناً منقوشة على شكل الأغصان المتشابكة؛ ونوافذه المؤلفة من الأقواس

والمنقوشات على شكل الأزهار.

أما أعظم قصور المسلمين على الإطلاق فهو قصر الحمراء بغرناطة الذى يعود إنشاؤه إلى يوسف الأول ١٣٣٣-١٣٥٣م/ ٧٦٢-٧٨٢هـ، ومحمد الخامس ١٣٥٣-١٣٩١م/ ٧٨٢-٨٢٠هـ، وينقسم هذا القصر إلى ثلاثة أقسام، الأول يسمى المشور، وهو المكان المخصص فى القصر للموظفين الذين يعاونون السلطان فى إدارة الأعمال؛ وقد تحولت القاعة الكبرى فى هذا القسم إلى كنيسة فى القرن الحادى عشر الهجرى/ السابع عشر الميلادى. أما القسم الثانى ويعرف بالديوان، وهو المخصص للإستقبالات الرسمية، وكان يشتمل على ساحة البركة وقاعة البركة وقاعة العرش أو قاعة السفراء كما كانت تسمى أحياناً. وهذا القسم أكثر أقسام القصر إحتفاظاً بمظهره حتى الآن. وأما القسم الثالث فهو المخصص للسكن، ويعتبر صحن السباع أشهر ما فى هذا القسم، وفى وسطه فسقية رخامية أكبر أحواضها يحمله إثنى عشر تمثالاً من الاسود، وتحيط بالصحن «بواكى» ذات عقود مستديره تحملها أعمدة مزدوجة، أو ثلاثية أو رباعية، والأعمدة مغطاة بزخرفة كثيفة لا نظير لها. ومن أفخم وأروع ما فى القصر، قاعة السفراء ذات القبة الخشبية المنقوشة والمذهبة.

ولا تعود أهمية قصر الحمراء إلى التخطيط أو إلى طريقة البناء، بقدر ما تعود إلى طريقة توزيع المسطحات الزخرفية والمهارة فى السيطرة على المادة الجصية، مع توزيع الزخارف توزيعاً مدروساً فى إطارات وأشرطة وأفاريز وحشوات لتبدو متماسكة غير مبعثرة.

وقد استعمل بكثرة شعار «لا غالب إلا الله» كما استعمل النسخ والكوفى

متحداً مع الزخارف الهندسية والنباتية.

وجاءت النهضة الأوروبية فاقتبست من العمارة الإسلامية العقود والأعمدة.

أما ما يتعلق بالفن الإسلامى المصرى والمساجد المصرية:

فمنذ ما يقرب من الف وثلثمائة وخمسة وستين عاماً، اى منذ أن بنى عمرو بن العاص جامعه فى سنة ٦٤٢م/ ٧١هـ إلى أن بنى جامع قايتباى سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٦٨م، نرى الفن البيزنطى حينئذ بيزنطى النزعة فى بداية الأمر، ثم ما لبث أن تحرر من كل تأثير أجنبى، وأنه إنتهى إلى أشكال مبتكرة تماماً.

ففى جامع عمرو بن العاص كانت الأقواس مصنوعة على شكل نعل الفرس، ولا نرى غير المأذنة البسيطة، التى لم يعد منها غير رواق واحد ولا نرى فيه نقوش وزخارف كالتى اتصف بها الفن العربى الإسلامى فيما بعد،

أما فى مسجد ابن طولون الذى أنشئ فى سنة ٢٤٣هـ/ ٨٨٦م نجده بدأ الخلاص من المؤثرات الخارجية البيزنطية. وكانت أقواسه قائمة على دعائم مؤلفة من أعمدة مرصعة فى الزوايا.

وترى فى جامع ابن طولون نقوش الأزهار والأغصان الصالحة للزينة والمصنوعة على طراز جديد قريب من الطراز والنقوش العربية ولم تبد المتدليات فيه بعد.

وجامع بن طولون (٢٤٣هـ/ ٨٧٦م) على الطراز البسيط، وإن كان أكثر زخرفاً من جامع عمرو بن العاص، فشكله العام مثل جامع عمرو بن العاص ومؤلف من ساحة مربعة تحيط بها الأقواس من كل جانب والمصنوع اسفلها على شكل نعل

الفرس بما هو أبرز من جامع عمرو، على أركان قوية تلتصق بزواياها أعمدة ذات تيجان منقوشة على الطراز البيزنطى. وذلك بدلاً من أن تقوم على أعمدة كما فى جامع عمرو.

وباطن سقف ابن طولون (جامع) المستند إلى تلك الأقواس مصنوع من الخشب، كما فى جامع عمرو أيضاً، ولا ترى فيه زخارف ونقوشاً متدلية؛ وما فى أطنانه ونوافذه واسفل حناياه من الأزهار والأغصان المصنوعة يذكرنا بالطراز البيزنطى مبشراً بظهور فن الزينة العربى الإسلامى.

وتقرأ على أطناف باطن ذلك السقف خطوط كوفية منقورة فى الخشب وتتألف مئذنته من ثلاث طبقات لكل طبقة شكل خاص فالأولى مربعة والثانية اسطوانية والثالثة مثمنة، وهكذا كانت مئذنة قلاوون، عدت أقواسه مثالاً بارزاً لبلوغ الأقواس العربية الإسلامية ذروة التقدم.

أما الجامع الأزهر، فقد أنشئ عام (٣٥٩هـ/ ٩٧٠م) وهو أرقى زخرفاً من جامع ابن طولون، ولكنه يجب على من يدرسه أن يذكر أن كثيراً من دقائقه تم بعد إنشائه بزمن طويل من بناء جامع ابن طولون.

ويتمتع الجامع الأزهر، الذى بدأ بعمله كجامعة منذ سنة ٣٧٥هـ بشهرة واسعة بين المساجد الإسلامية، وللجامع الأزهر الآن تأثير كبير فى بلاد الإسلام، والطلاب يقصدونه أفراداً وجماعات من جميع أنحاء البلاد الإسلامية، وكان وقت إنشائه مكوناً من ثلاث إيوانات حول الصحن؛ الشرقى منها مكون من خمسة أروقة، وبكل من الجانبين القبلى والبحرى ثلاثة أروقة، وكانت الأروقة المطلة على الصحن قائمة على أكتاف مبنية، بينما تقوم أروقة إيوان القبلة على أعمدة

رخامية من طراز مختلف، وجميع العقود موازية لحائط القلبه.

ويشطر الإيوان الشرقى مجاز ارتفع سقفه وارتفعت عقوده عن مستوى إرتفاع الإيوان كله؛ وهذا المجاز الأول من نوعه فى مساجد القاهرة، يلاحظ أن عقود المجاز هى القديمة فى الإيوان كله، وحليت حافات عقود المجاز بآيات قرآنية بالخط الكوفى، كما حليت واجهات عقوده بالزخارف النباتية المورقة. وفى منتصف الضلع الغربى كان الباب العمومى، وكانت تقوم عليه المنارة القديمة.

وفتحت أعلى الجدران شبابيك جصية، مفرغة بأشكال هندسية مزخرفة أحيطت بأفريز مكتوب بالخط الكوفى المزخرف بآيات من القرآن الكريم، ولاتزال بقايا هذه الشبابيك موجودة فى إيوان القبلة.

وقد زادت مساحة الجامع على مرّ العصور، كما أضيفت إليه أجزاء كبيرة كثيرة. وفى مكان الباب القديم أنشأ السلطان قايتباى عام ١٤٦٨م باباً جديداً وعلى يمينه منارة من أكثر المنارات رشاقة فى مصر. وعندما تدخل إلى الصحن تجد صفاً من العقود أضيف فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، وتجد الأكتاف القديمة تقع خلفه وفى وسط الإضافة من ناحية حرم المسجد تجد قبة زينت بالزخارف والكتابات، وخلف المحراب القديم أربعة أروقة من عمل عبد الرحمن كتخدا، وفى النهاية الشرقية للجزء البحرى المدرسة الجوهرية التى انشأها جوهر القنقبائى سنة ١٤٤٠م.

وللأزهر الآن منبر واحد وأربعة محاريب وثمانية أبواب وخمسة مآذن منها ثلاث فى الواجهة، وهى منارة السلطان الغورى ذات الرأسين ومنارة السلطان قايتباى ومنارة المدرسة.

أما عن العمارة الأيوبية فى مصر:

أولاً - قلعة الجبل:

بعد أن استتب الأمر لصلاح الدين فى مصر، رأى ضرورة بناء قلعة حصينة بالقاهرة للدفاع عن البلاد ضد الأخطار الخارجية - وهى ما يطلق عليها خطأ بقلعة محمد على - ولا سيما الخطر الصليبى، إذ أدرك صلاح الدين وهو بالشام ما قامت به القلاع من دور فاصل فى المعارك الحربية بين المسلمين والصليبيين؛ فقد تسقط المدينة وتبقى القلعة وتظل على المقاومة، حيث ييأس المحاصرون لها، ويرفعون عنها الحصار، وقد قرر صلاح الدين تشييد قلعته فوق جبل المقطعم، وقد وفق فى إختيار مكان القلعة، إذ أنها بوضعها الحالى المرتفع حققت الإشراف على القاهرة ومصر إشرافاً تاماً بحيث كانت حاميتها تستطيع أن تقوم بعمليتين حربيتين فى وقت واحد هما: إحكام الجبهة الداخلية وقطع دابر من يخرج منها عن طاعة السلطان، ومقاومة ما عساه يقع من محاولات خارجية للإستيلاء على القاهرة.

بدأ صلاح الدين فى تشييد قلعته سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م، وجلب لها أحجار البناء من منطقة الجيزة بالأهرامات، وعهد إلى وزيره بهاء الدين قراقوش بالإشراف على أعمال البناء، فسخر قراقوش أسرى الفرنج فى العمل على بنائها، وللقلعة أربعة أضلاع، الغربى منها يوجد به الباب المدرج وفوقه كتابة تاريخية كتبت بعد البدء فى إنشاء القلعة بست سنوات تقريباً، ولا تزال موجودة حتى اليوم وهذا نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهرة التى جمعت نفعاً وتحسيناً، مولانا الملك الناصر صلاح

الدنيا والدين، أبو المظفر يوسف بن أيوب محى دولة الأمير - أمير المؤمنين - فى نظر أخيه وولى عهده الملك العادل سيف الدين أبى بكر، محمد خليل أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الله الملكى الناصرى فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة (٥٧٩هـ/ ١١٨٣م). وترجع أهمية هذا النص من الوجهة التاريخية فى أنه حدد وأكد أن الجانب الكبير من القلعة لم يتم إنشاءه حتى ذلك التاريخ المذكور، إذ المعروف أن صلاح الدين غادر مصر إلى الشام لجهاد الصليبيين سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، ولم يرجع بعد إلى مصر مرة أخرى، والغالب أن القلعة كانت فى سنة ٥٧٨هـ عند مغادرة صلاح الدين القاهرة قد أوشكت على التمام، ولكن صلاح الدين لم يتمكن من إستخدامها كموقع لسكناه، فترك أخيه العادل أبى بكر بإتمامها، وتمكن من إتمام بعض أجزائها فعلاً وسجل التاريخ ذلك منه سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م.

ولم يبق من منشآت صلاح الدين بالقلعة سوى بعض أجزاء السور والأبواب، ذلك أنه أدخلت عليها كثير من التغييرات الإضافية فى العصور التالية. فقد شيد الملك الكامل محمد قصور القلعة وأبراجها الرئيسية سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٨م وأقام بها.

ومن المعالم المعمارية التى ترجع إلى عصر صلاح الدين الأيوبى فى داخل قلعة الجبل ما يعرف بـ «بئر يوسف» التى تقع فى الساحة الجنوبية من القلعة، وعمق هذه البئر (٨٩متر) تقريباً. وتنسب الأساطير الشعبية هذه البئر إلى سيدنا يوسف عليه السلام، وليس هناك أساس علمى لهذه التسمية، وقد أشرف على حفر هذه البئر فى الصخر بهاء الدين قراقوش لتكون مصدراً للماء فى القلعة وقت الحصار، وتتألف من طابقين عمق الأول نحو خمسين متراً والآخر نحو

أربعين متراً، ولكل طابق منهما ساقية ترفع الماء منها بواسطة الدواب؛ ويقال أن هذه البئر كانت متصلة بالنيل مباشرة بواسطة سرداب تنفذ منه مياه النيل إلى القلعة.

ثانياً- قبة الإمام الشافعى:

انشأ صلاح الدين المدرسة الصلاحية سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م، وأنشأ بجوارها ضريحاً للإمام الشافعى، وهو مصنوع من خشب الساج الهندى، ومقسم إلى حشوات هندسية منقوشة نقشاً غاية فى الإتقان ومكتوب عليه آيات قرآنية، وترجمة حياة الشافعى واسم الصانع الذى قام بصناعته وذلك بالخط الكوفى والنسخى.

وبجوار قبر الإمام الشافعى دفنت الأميرة شمس زوج صلاح الدين الأيوبى، والملك العزيز عثمان ابنه ووالده والملك الصالح. لذا شيد ولده للكامل فى جمادى الأولى سنة ٦٠٨هـ/ اكتوبر ١٢١١م، قبة ضمت قبر الشافعى، وبعض أفراد الأسرة الأيوبية، وتمتاز هذه القبة التى ترتفع سبعة وعشرين متراً فوق أرضية الضريح بما فيها من نقوش وزخارف، وكانت القبة من طبقتين طبقة داخلية خشبية وطبقة خارجية من الرصاص، ويوجد فوق القبة من الخارج فى مكان الهلال مركب صغير من النحاس يقال أنها تسع من الحب (الحبوب) نصف أردب لإطعام الطيور، ثم انشأ الكامل محمد تابوتاً من الخشب فوق مدفن والده، لا يقل دقة عن تابوت الشافعى، ولا تزال هذه القبة الجميلة قائمة إلى اليوم تعلوا قبر الإمام الشافعى المجاور لمسجده بشارع الإمام الشافعى بالقرافة (المقابر).

ثالثاً- ضريح الصالح نجم الدين أيوب:

قامت شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب بتشييد ضريحاً لزوجها سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، بشارع مابين القصرين بجوار المدرسة الصالحية، التى كان الصالح قد أنشأها سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م. ويشغل الضريح مربعاً طول كل ضلع فيه من الداخل أحد عشر ضلعاً اقيمت على جدرانه قبة ترتفع فوق أرضية الضريح ٢٢متر، ولهذا الضريح محراب كبير مجوف، وقد كسيت مسطحات المحراب بلوحات من الخام المختلف الألوان والزخرفة.

رابعاً- قبة شجرة الدر:

يرى بعض المؤرخين وعلى رأسهم الدكتور أحمد فكرى أن تاريخ بناء هذه القبة غير معروف، ولكن يمتد داخلها أزار من نقش كتابى ذكر فيه اسم شجرة الدر مصحوباً بلقب «عصمة الدنيا والدين» و«أم الملك المنصور خليل»؛ مما يؤكد أن هذا النص التاريخى نقشت فى المدة التى مرت بين موت الملك المعظم توران شاه فى ١٩ محرم سنة ٦٤٨هـ/ الثالث من مايو سنة ١٢٥٠م وبين إرتقاء الملك المعز أيبك عرش السلطنة فى ٢٩ ربيع الثانى سنة ٦٤٨هـ/ ١١ من يوليو سنة ١٢٥٠م، وهو ما يؤكد على أن بناء القبة قد بدأ واكتمل قبل نقش هذا الأزار، وبالتالى قبل موت الملك توران شاه.

أما منشأت المماليك فى مصر:

أولاً- المدرسة الظاهرية فى عصر الظاهر بيبرس:

لقد اتخذ الظاهر بيبرس من قلعة الجبل مقراً لحكمه، وسار على نفس سياسة من سبقوه من سلاطين مصر فى تجميل القاهرة فأسس بها مدرسة سنة

٦٦٠هـ/ ١٢٦١م، بجوار مقبرة سيده الصالح نجم الدين أيوب بشارع بين القصرين، وقد تهدمت بسبب فتح شارع بيت القاضى وقد زودها بالكتب فى سائر العلوم والمعارف، ووقف عليها أوقافاً وأمر بألا يستخدم فى عمارتها عامل بغير أجرة، وألا ينقص مرتب من يقوم بتشييدها؛ ولما فرغ من بنائها سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، دعى العلماء والفقهاء والقراء للإجتماع بها فجلس لإتباع المذهب الشافعى بالإيوان القبلى والحنفية بالإيوان البحرى وأهل الحديث بالإيوان الشرقى والقراء بالإيوان الغربى، وعين لكل فريق من هؤلاء مدرساً؛ وعندما اكتمل جمعهم تناظروا فى شتى المسائل، ثم مدت لهم الأسمطة وقام بعض الشعراء فأنشدوا شعراً أشادوا فيه بذكر هذه المدرسة ومؤسسها الملك الظاهر، ولم يكتف بيبرس بإنشاء هذه المدرسة؛ بل بنى بجوارها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى، وقرر لمن فيه الخبز لكل مقيم والكسوة فى فصلى الشتاء والصيف.

ثانياً- جامع الظاهر:

شرع الظاهر بيبرس فى بناء الجامع الظاهرى سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م وكان الفراغ منه سنة ٦٦٧هـ/ ٦٨-١٢٦٩م، ولما شرع فى بنائه أرسل الأتابك فارس الدين أقطاى والصاحب فخر الدين بن حنا ومعهما بعض المهندسين للبحث عن مكان يليق بأن يقوم، أو يقام عليه مسجد بجهة الحسينية فوق إختيارهم على مناخ الجمال السلطانية (أى المكان المخصص، كالإصطبلات السلطانية) ولم يلق هذا الإختيار قبولاً لدى الملك الظاهر وقال: «لا والله لا جعلت الجامع مكان الجمال، وأولى ما جعلته ميدانى الذى ألعب فيه بالكرة، وهو نزهتى» ثم ركب إلى ميدان قراقوش، واقرّ رايه على أن يبنى الجامع على جزء منه، وأن يوقف بقيته عليه - أى على المسجد - ثم شرع فى إستحضار الرخام والأخشاب وأدوات البناء من سائر الولايات.

ولم تتوقف أعمال بيبرس لهذا الجامع عند هذا الحد؛ بل إنه عندما استولى على يافا وهدم قلعتها، شحن مركباً من رخامها وأخشابها إلى القاهرة، وأمر بأن يبنى من هذا الخشب مقصورة الجامع الظاهرى، ولما إنتهت عمارته سار إليه سنة ٦٦٧هـ، وعين له خطيباً حنفى المذهب، وخلع الخلع على من تولى الإشراف على بنائه.

ويبلغ طول الجامع الظاهرى ١٠٨متر وعرضه ١٠٥متر، ويتكون من صحن يحيط به أربع أواوين: القبلى ويتكون من ستة أروقة وكل من الإيوانين الشرقى والغربى ويتكون من ثلاثة أروقة. أما الإيوان البحرى فيتكون من رواقين وجميع عقود الجامع محمولة على أعمدة من الرخام، ماعدا عقوده المشرفة على الصحن، وعقود الرواق الثالث محمولة على اكتاف، وواجهات الجامع الأربعة مبنية بالحجر، أما من الداخل فالبناء جميعه بالآجر، والقبة الموجودة أعلى المحراب أكبر من قبة أقيمت فوق المحراب وتمتاز عن غيرها من القباب بأنها محمولة على حجر وليست على دعائم أو أعمدة؛ وتمتاز عمارة المسجد الظاهر بميزات لم يسبقه إليها جامع آخر من ذلك الأبراج الأربعة القائمة خارج واجهتيه الشرقية والغربية والأبواب الثلاثة البارزة واستعمال مداميك الحجر الأبيض والأحمر على التوالى؛ كما كان هذا الجامع حافلاً من الداخل بالزخارف الجصية والرخام الملون بالوزرات والبقايا المخلفة من الشبابيك الداخلية. والكتابات الكوفية المحيطة بها وبالقبة تدل على ما كان عليه من فخامة وبهاء.

وقد هدم الفرنسيون فى أثناء إحتلالهم مصر المنارة التى كانت تعلو الباب البحرى، كما هدموا مآذن ومساجد وبنايات أخرى بالقاهرة وسكنه بعض جنودهم، فتخرب كثير من أجزائه، وحوّله محمد على إلى مصنع للصابون؛ ثم

إنتهك الإنجليز حرمته فى الحرب العالمية، فأحالوه إلى مذبح، ثم استعادته لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٩١٨م فرسمت بعض أجزائه.

ثالثاً- قنطرة السباع:

وإلى جانب ما شيده الظاهر بيبرس من مدارس ومساجد، شيد أيضاً قنطرة أطلق عليه اسم قنطرة السباع، وذلك لأنه نصبت عليها سباعاً من الحجارة، لأن شعاره كان على شكل سبع، وكانت موجودة على الخليج المصرى، وكانت تعرف أيضاً باسم فنطرة السيدة زينب. وقد إختفت هذه القنطرة بعد ردم الجزء الأوسط من الخليج تحت ميدان السيدة زينب؛ وقد كانت هذه القناطر تتكون من قنطرتين، أحدهما: توصل بين شارعى الكومى والسدّ والثانية بين شارعى الكومى ومر اسينا.

كذلك شيد الظاهر بيبرس قناطر أبى المنجا شمال القاهرة ولا تزال بقية من عقود قناطر أبى المنجا باقية إلى اليوم. كذلك بنى برجاً بقلعة الجبل، وأصلح ما تهدم من كل من منارتى رشيد والإسكندرية، كما جدد أسوار الإسكندرية.

أما فى عصر قلاوون فقد إزدهرت العمارة أيضاً على النحو التالى:

أولاً- بيمارستان و مدرسة وقبة قلاوون:

يرجع إهتمام السلطان المنصور قلاوون بإنشاء البيمارستانات إلى مرضه أثناء إحدى غزواته بالشام، ولم يجد العلاج الناجع له، إلا الذى استحضره من بيمارستان نور الدين محمود، فنذر أن ينشئ مارستان فى مصر مثل مارستان نور الدين محمود لعلاج المرضى المسلمين وغير المسلمين وكذلك العرب وغيرهم،

المهم ممن يقيمون داخل مملكته. فلما آل إليه عرش مصر وفىّ بنذره وأنشأ هذا المارستان وزاد عليه مدرسة وقبة يدفن فيها. وحرص على أن يقيم هذه المنشأة تجاه قبر سيده الصالح نجم الدين أيوب، ومدرسة سلفه الظاهر بيبرس الملاصقة لقبر الصالح. وتنفيذاً لخطته استولى على قصر الأميرة مؤنسة القطبية الأيوبية، وكان يقع فى المكان الذى تخيره لإنشاء البيمارستان عليه، وعوض عنه بمبلغ كبير من المال، وعهد إلى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى أن يشرف على بنائه، فحشد خلقاً كثيراً من الأسرى والصناع والمماليك وتمكن هؤلاء من إتمام المبنى فى خلال عامين فقط.

ويقع هذا البيمارستان فى شارع بين القصرين، ولم يبق منه الآن غير جزئين من القاعتين الشرقية والغربية، وجانب كبير من القاعة القبلية، ويشغل مساحة كبيرة منه فى الوقت الحالى مستشفى قلاوون للرمد. ويذكر المؤرخون أنه كان مكوناً من جملة أجنحة يختص كل جناح منها بعلاج مرض من الأمراض، وأنه كانت تشرف عليه هيئة طبية منظمة. كما كانت توجد به غرفة للمطالعة، ومعامل كيميائية وصيدلية وحمامات ومطبخ، بل كانت توجد به فرقة موسيقية تخفف من آلام المرضى بما تعزفه لهم من ألحان. كذلك كان هناك خمسون من قارئى القرآن يرتلون القرآن الكريم، وكان هناك أمين مكتبة يساعد أتباعه على مناولة الكتب الطبية والمدنية، وغيرها لمن يرغبون فى المطالعة. وعلاوة على ذلك كان هناك مكتب لتعليم القراءة والكتابة لعدد من أطفال المسلمين اليتامى.

وينقسم البناء إلى قسمين، قبلى وهو واجهة المدرسة وبحرى وهو واجهة المقبرة التى تعلوها القبة، وتوجد المئذنة فى نهاية القسم البحرى، وهى مكونة من ثلاثة أدوار، الأسفل والأوسط منها مربعان والثالث مستدير؛ وقد جدده

الناصر محمد قلاوون سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م عقب زلزال هده هذا الجزء وبين هذين القسمين يوجد الباب الرئيسى المحلى بالرخام والأبواب الخاصة به مكسوة بالنحاس المقسم تقسيماً هندسياً بديعاً، ويؤدى إلى دهليز طويل، وللقبة بابان مفتوحان على الدهليز يدخل من أولهما إليه مباشرة، ومن الثانى إلى البهو الذى أمامها.

وتكون الواجهة فى مجملها منظراً من أروع مناظر العمارة الإسلامية بالقاهرة، فحناياها المحمولة على عمد رخامية تحتضن شبابيك ذات أشكال هندسية بديعة، ويحلى الواجهة جميعاً طراز مشحون بآيات قرآنية وغيرها من الكتابات المثبتة بتاريخ البناء.

ويعلو مقبرة السلطان قلاوون قبة مخرمة على أربعة أكتاف وهى مربعة الشكل ذات أشكال مكسوة بالفسيفساء الرخام الدقيقة البديعة. ويتوسط هذه الأكتاف الأربعة أربعة أزواج من الأعمدة الجرانيتية، تيجانها مذهبة، وتحمل ثمانية عقود. والجدران مكسوة بفسيفساء من الرخام الدقيق. كذلك المحراب تزينه حطات من الفسيفساء البديعة والشبابيك ملونة بألوان براقة جميلة، ويتوسط القبة، التربة (المقبرة) وقد دفن بها المنصور قلاوون وإبنه الناصر محمد، وعليها تابوت من الخشب البديع، وحول المدخل الغربى للقبة زخارف جصية هندسية مورقة مصنوعة باليد تسترعى الإنتباه وتثير الدهشة والإعجاب.

وأمام القبة وقاعتها توجد المدرسة بمحرابها البديع وبقايا زخارفها الجصية المتقنة الصنع.

ثالثاً- منشآت الناصر محمد بن قلاوون:

وهى عبارة عن مسجد (جامع) ومدرسة؛ فأما المسجد فقد شيده الناصر محمد بالقلعة إلى جانب القصر والإيوان، وهو فى الحقيقة لم يشيده من أساسه، ولكنه هدم مسجداً صغيراً وبنى فوقه مسجداً كبيراً، أدخل فيه بعض الأبنية الأخرى، لكى يجعله واسع الأطراف، ويتناسب فى إتساعه وعظمته مع عظم الدولة على عهده، ومن هنا جاء آية فى الإبداع. وقد خالف فى تخطيطه نظام الأواوين المتعامدة الذى كان سائداً فى عصر المماليك وإقامه على النظام القديم من أربعة أواوين تحيط بالصحن المكشوف وأكبر تلك الأواوين إيوان القبلة؛ ويوجد أمام محراب هذا المسجد قبة كبيرة حملت على أعمدة ضخمة من الجرانيت الأحمر.

ويحيط بالجامع من أعلاه، نوافذ كانت مغطاة من الداخل والخارج بشبابيك من الجص، وكانت الجدران مغطاة بوزرة من الرخام أيضاً إلى إرتفاع خمسة أمتار نصف، كما كانت أرضيته مفروشة من الرخام الأملس المموه؛ وله مئذنتان وبابان، أحدهما غربى تجاوره المئذنة الأولى، وهى اسطوانية الشكل، والباب الآخر بالواجهة البحرية، وفى نهايتها المئذنة الثانية، وهى مربعة القاعدة ويغطى القيشانى قبة المئذنة الأولى. كما يغطى الدورة الثالثة المئذنة الثانية.

وقد تم بناء الجامع سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م ثم أعيد بنائه سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م، وعندما تم بناء المسجد، جلس الناصر محمد فيه واستدعى جميع مؤذنى القاهرة ومصر وجميع القراء والخطباء وعرضوا بين يديه واستمع إلى آذانهم وخطباتهم وقراءتهم فأختار منهم عشرين مؤذناً رتبهم فيه، وقرر فيه درس فقه،

وقارئاً فى المصحف، وجعل عليه أوقافاً تكفيه وتفيض عن حاجته.

أما المدرسة، فقد شيدها الناصر محمد ملاصقة لقبة السلطان قلاوون وبدأ فى إنشائها السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى، فوضع أساسها وإرتفع ببنائها إلى الطراز المكتوب بواجهتها، وذلك فى سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٥م، ثم خلع من المُلك قبل إتمامها، فلما عاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى ملك مصر للمرة الثانية اشترى هذه المدرسة، وبنى بها قبة، فكملت فى سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م، وعين بها المدرسين لتدريس المذاهب الأربعة، وألحق بها مكتبة كبيرة، ثم نقل إلى القبة رفات والدته. كما دفن بها إبنه أنوك المتوفى فى ١٧ ربيع الأول سنة ٧٤١هـ/ ١٣١٤م ولم يبق منها سوى الإيوان الشرقى وبه محراب حصى نادر المثال والإيوان الغربى وبه شباك من الجص غاية فى الدقة.

ولهذه المدرسة واجهة جميلة حافلة بالزخارف والكتابات الكبيرة؛ وتوجد المنارة فوق الباب، وهى موشاة بالزخارف الجصية الدقيقة، ويوجد بداخل القبة طراز من الخشب المنقوش يحيط بجدرانها وبين القبة والمسجد طرقة بها سقف من الخشب مزين بالزخارف والألوان المذهبة.

أما عن منشآت السلطان حسن بن الناصر بن قلاوون:

فهى مسجد وأيضاً مدرسة فى نفس الوقت. ويقع هذا المسجد بميدان صلاح الدين تجاه القلعة فى الجهة الغربية البحرية منه. أنشأه السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون، وقد بدأ فى إنشائه سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م، واستمر العمل به لحين وفاته فى جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م.

وتبلغ مساحة هذا المسجد ٧٩٠٦م٢ وطوله ١٥٠م وعرضه ٦٨م وإرتفاعه عند

بابه ٣٧,٧م، وواجهته البحرية وهى الواجهة الأصلية مشرفة على شارع القلعة، وواجهتاه الجنوبية والشرقية مشرفتان على ميدان صلاح الدين.

وتخطيط هذا المسجد متفق مع الطراز المملوكى ذى الأربعة أواوين المتعامدة التى يتوسطها الصحن، فتكون معه ما يشبه الصليب فهو مكون من صحن مكشوف مساحته ٣٢× ٢٤,٦م٢ تتوسطه ميضأة تعلوها قبة محمولة على ثمانية أعمدة من الرخام، ويقطع الصحن محوران متعامدان فى نهاية كل منها إيوان، وفى كل زاوية من زوايا الأواوين الأربعة ما يوصل إلى إحدى المدارس الأربع المخصصة لدراسة المذاهب الإسلامية الأربعة، الشافعية، المالكية، الحنفية، وابن حنبل.

أما عن الأدب:

فيمثل جانباً هاماً من حياة العرب قبل وبعد الإسلام؛ فكان الشعر والنثر، هما أكبر فضيلة للعرب قبل الإسلام، وقد فاقوا فى ذلك جميع الشعوب، فكان من كل قبيلة خطباء إلى جانب الشعراء يساوونهم فى المكانة، فالخطابة مثلاً كانت اشبه بملكة خارقة حتى نشأ الإعتقاد فى بعض القبائل أنه لا ينشأ فيها خطيب قط إلا مات من كان قبل[1] وكانت ملكة الخطابة تعتبر شيئاً آخر مخالفاً للملكة الشعرية إلى درجة أن المؤرخين يذكرون بالإعجاب من يكون إلى جانب الإحسان فى الشعر مُجيداً فى الرسائل والخطب[2]. وقد بلغ من شدة تقدير الناس للفظ الحسن أنه أصاب أهل مكة سنة ٢٠٨هـ/ ٨٢٣م، سيل مات بسببه خلق كثير، فكتب والى المدينة إلى الخليفة المأمون طالباً عطفه ومعونته لمن جرف السيل أموالهم، وهدم بنيانهم، فأنفذ إلى أهل مكة أموالاً كثيرة، وكتب مع ذلك كتاباً بأحسن العبارة، فكان كتابه «أسرَّ إلى أهل مكة من الأموال التى أنفذها إليهم»[3].

وأول ما ظهر من الإهتمام من جانب الأدباء بما يحيط بهم من دراسة أخلاق عامة. فمثلاً ألف أبو عقال الكاتب كتاباً فى أخلاق العوام، وصف فيه أخلاقهم وشيمهم ومخاطبتهم وسماه «الملهى»[4]. وكذلك ألف القاضى محمد بن اسحاق الصيرفى، قاضى صير، المتوفى سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م، كتاب «مساوئ العوام وأخبار السفلة والأغنام»[5] وكذلك كان وصف حياة المدن من الموضوعات التى أحب

---

(١) الأغانى للأصفهانى، جـ١٨، ص١٧٣، المسعودى، مروج الذهب، جـ٧، ص٣٤٨ .

(٢) الأصفهانى، المرجع السابق، جـ١٨، ص٢٠، ٣٥ .

(٣) البيهقى، كتاب المحاسن والمساوئ، ص٤٧٥-٤٧٦ .

(٤) المسعودى. مروج الذهب، جـ٦، ص٤٠١-٤٠٣ .

(٥) ياقوت، الإرشاد، جـ٦، ص٤٠١-٤٠٣ .

الجاحظ معالجتها[1]، وهذا الأديب المتوفى سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م والذى يحكى الكثير من الحكايات الطريفة عن دمائة خلقه - كانت عيناه جاحظتين، وكان جده اسود[2] - هو أبو النثر العربى الجديد، ويعتبره الثعالبى أعظم كتاب النثر على الإطلاق[3]. وكان من عادة الوزير بن العميد، أكبر كُتاب الرسائل الديوانية، إذا ورد حضرته أحد من من تحلى العلم، وأراد إمتحان عقله سأله عن بغداد وعن الجاحظ[4]، ولذلك دعى ابن العميد الجاحظ الأخير[5]، ويحكى عن ثابت بن قرة العالم المشهور، أنه قال: ما أحسد هذه الأمة الإسلامية إلا على ثلاثة أنفس: أولهم عمر بن الخطاب، والثانى: الحسن البصرى، والثالث: أبو عثمان الجاحظ[6]. وقد صنف أبو حيان التوحيدى - الذى ربما كان أعظم كتاب النثر على الإطلاق - كتاباً فى تقريظ الجاحظ، وبلغ من مزيد إهتمامه بذلك أنه ذكر العلماء الذين كانوا يفضلون الجاحظ، وبيّن عظم مكانتهم[7]، وبلغ من تقديره للجاحظ أنه كان يسلك مسلكه فى تصانيفه، ويشتهى أن ينتظم فى سلكه[8]، وقد كتب الجاحظ فى كل شئ من الكتابة فى المعلمين[9] إلى الكلام عن بنى هاشم[10] ومن ذكر اللصوص[11] إلى الكلام عن الضباب، ومن الكلام فى صفات الله إلى

(١) شهاب الدين الخفاجى، طراز المجالس، طبعة مصر ١٢٨٤هـ، ص٦٧-٦٨ .

(٢) ياقت، المرجع السابق، جـ٦، ص٥٦ .

(٣) يتيمة الدهر، جـ٢، ص٢٣٨ .

(٤) الثعالبى، لطائف المعارف، طبعة أوربا، ص١٠٥ .

(٥) يتيمة الدهر، جـ٣، ص٢ .

(٦) ياقوت، الإرشاد، جـ٦، ص٦٩-٧٠ .

(٧) نفسه، نفس المرجع، جـ٥، ص٢٨٢ .

(٨) نفسه، نفس المرجع، جـ٥، ص٢٨٠ .

(٩) المستطرف، جـ٢، ص٢٧٨-٢٧٩ .

(١٠) الحصرى، زهرة الآداب، العقد الفردى، جـ١، ص٥٦-٥٧ .

(١١) التنوخى، الفرج بعد الشدة، جـ٢، ص١٠٦ .

الكلام فى قبائح ما ما يحكى فى كيد النساء، وكان اسلوب الجاحظ مستحدثاً، ولم يكن النثر قد تكون بعد. فكان الجاحظ من هذه الناحية مبتكراً لأسلوبه على غير أساس من تجربة سابقة؛ وكثيراً ما يشوب طريقته فى الكتابة الثرثرة والاستطراد وخلط موضوعات الكلام بعضها ببعض، ولكن هذا يعينه هو ما كان موضع سرور المعجبين بالجاحظ. وكانوا يشعرون بأنه إنقاط لهم من طريقة العلماء الذين كانت لهم السيطرة إلى ذلك الحين. والذين كانت كتاباتهم ثقيلة لكثرة ما فيها من الجد وإظهار العلم. وكان المعجبون بالجاحظ يعتبرون الثرثرة فى المسائل الفكاهية فناً تعمد الجاحظ أن يعالجه. وقد قدر المسعودى حوالى عام ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م، قدرة الجاحظ على التنسيق، ومدح متانة بناء تأليفه بقوله: «وكان إذا تخوف ملل القارئ وسأمه السامع خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة» ويذكر المسعودى كتب، فيبدأ بالبيان والتبين، ويقول أنه أشرف كتب الجاحظ، لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم وغُرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لأكتفى به»[١]، ويشبه المسعودى المصنف بأنه خاطب ليل لأنه يذكر فى تصنيفه من كل نوع[٢].

ثم إن التصوصف الذى جاء فى أوائل القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، على أثر إضمحلال الروح العربية ونضوب قوتها ساعد كثيراً على نشر الأدب. والكتب بين الجماهير، وصبغها بصبغتهم، وساعد مساعدات كبيرة على نشاء المذهب الواقعى، - كما فعل ذلك أيضاً فى الآداب الأخرى - وكان أهل التصوف يشنعون على العلماء ويعتمدون فى الغالب على أوساط الناس، وكان التصوف بمثابة وعظ للعامة، ودعوة لهم إلى معرفة الدين، وقد نظم حياتهم

(١) المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ٨، ص٣٤ .

(٢) نفسه، نفس المصدر، جـ٤، ص٧٥ .

ولاءم حاجتهم وتأثر بكلامهم ولغتهم وأساليبهم. وأخيراً فإنه كان من أثر إضمحلال التقاليد العربية القديمة ظهور السجع فى البلاغة فى ذلك العصر.

وكان لا يزال فى مأثور العرب قليل من النثر الوثنى المسجوع، وكان المسلمون ينفرون من هذا السجع نفور المسيحيين فى الإمبراطورية الرومانية من الأوزان اليونانية والرومانية، ويبين لنا الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م، علة كراهية الأسجاع، فيقول: «وكان الذى كره الأسجاع بعينها، وإن كانت دون الشعر فى التكلف والصنعة والصفحة، أن كهّان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم، وكانوا يدعون الكهانة .. كانوا يتكهنون، ويحكمون بالأسجاع ... قالوا فوقع النهى فى ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية، ولبقيتها فيهم، وفى صدور كثير منهم، فلما زالت العلة زال التحريم»[1]. ثم أن المسيحيين الذين دخلوا فى الإسلام وكان لهم الشأن الأكبر فى ذلك العهد، كانوا قد ألفوا استعمال السجع فى مواعظهم الدينية، وكذلك يظهر أنه «حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى، دخل السجع عند المسلمين فى الخطب الرسمية، ونجد كثيراً منه وجهه الخليفة للمسلمين وإن لم يكن كله مسجوعاً»[2].

وكانت كتابات الرسائل مجالاً للتمرين على إظهار صور البلاغة وأساليبها، وكان بين الأدباء من لا يأبه للإعتبارات الدينية فى كراهية السجع، فيكتب سجعاً كالسجع العربى القديم الذى كان لا يزال موضع إعجابك ويحدثنا الجاحظ أن عامة أهل بغداد كانوا يحفظون رسالة إبراهيم بن سيابة إلى يحى بن خالد البرمكى[3]، وكان فى هذه الرسالة شئ من السجع؛ على أن الرسائل الديوانية كانت

(١) كتاب البيان والتبين، جـ١، ص١١٣ .

(٢) نفس المصدر، جـ٢، ص١١٤ .

(٣) البيان والتبين، جـ٢، ص١١٤-١١٥ .

هى مقياس الرسائل والعرف اللغوى العام، ونجد وزير الخليفة المأمون حوالى عام ٢٠٠هـ/ ٨١٧م، يكتب كتابة مرسلة لا سجع فيها[١]. وقد إنتهى إلينا لابن ثوابة، وكان هذا الكاتب معروفاً بالتكلف فى كتاباته[٢]، وكذلك نجد الكتاب الذى دوّن للعن الأمويين، وكان يراد قراءته على جميع المنابر ببغداد سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م، نثراً مرسلاً، وإن كان لا يخلو من أثر طفيف للسجع[٣]. وحوالى هذا الوقت كان المنشئ للديوان (فى الديوان) يكتب من غير سجع[٤]. على أن السجع قد أصبح حوالى عام ٣٠٠هـ، هو الطريقة الجديدة المستحدثة عند كبراء بغداد. فنجد الخليفة المقتدر يكتب إلى عمال البلاد سجعاً[٥]. وكذلك كان الوزير على بن عيسى يحلى كتبه بالسجع الكثير[٦]، ولكن أمر السجع لم يصل فى سائر أجزاء الدولة الإسلامية إلى ما وصل إليه ببغداد، فكانت رسائل الوزير ابن خاقان المسجوعة تقع لدى عمال الولايات موقع الشئ الغريب[٧]؛ وكان أصحاب الدواوين فى البلاد يكتبون على الطريقة القديمة من غير سجع[٨] ثم انتشر السجع، قال ابن خفاجة: «من كُتّاب المحدثين من كان يستعمل السجع ولا يكاد يخل به وهو ابو إسحاق إبراهيم بن الصابى، وأبو الفرج المعروف بالببغاء، ومنهم من كان يتركه ويتجنبه وهو أبو الفضل محمد بن الحسين العميد، وطريقة غير هؤلاء استعماله مرة ورفضه أخرى، بحسب ما يوجد من السهولة والتيسير والإكراه والتكلف»[٩].

(١) الكندى، ص٤٤٥-٤٤٦، التوحيدى، رسالة فى الصداقة، ص٥٤ .

(٢) ياقوت، الإرشاد، جـ٢، ص٣٧ .

(٣) الطبرى، تاريخ، جـ٣، ص٢١٦٦ وما بعدها.

(٤) ياقوت ، المرجع السابق، جـ٦، ص٣٦٤ .

(٥) كتاب الوزارة، ص٣٣٧ وما بعدها.

(٦) ياقوت، المرجع السابق، جـ٦، ص٢٨٠، كتاب الوزارة، ص٢٧٧ .

(٧) كتاب الوزارة، ص٢٧٧-٢٧٨ .

(٨) كتاب صاحب الأخبار إلى بغداد من بلدة الدينور، عريب ص٣٩-٤٠ .

(٩) ابن خفاجة فى مقدمة كتاب الخطط لابن نباته، ص١٦ .

ويحكى عن الوزير بن عباد، وزير البويهيين إنه كان ولوعاً بالسجع إلى حد الإفراط فيه؛ ويقول التوحيدى عن هذاالوزير: «وكان كلفه بالسجع فى الكلام والقلم عند الجد والهزل، يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد».

أما عن أجمل آيات السجع، كانت فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، خاصة فيما يتعلق ومادتها أنفس ما إشتغل به الفنانون وهى اللغة، ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التى صنعتها أيد الفنانين فى ذلك العهد من الزجاج والمعادن؛ ولو لم تصل إلينا هذه المادة، لاستطعنا أن نرى فى هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للجمال الرقيق، وإمتلاكهم لناصية البيان فى أصعب صورة. وليس من محض الإتفاق أن يكون كثير من وزراء ذلك العهد أساتذة البيان وأعلامه، ولذلك استطاعت رسائلهم أن تنال من التقدير ما جعلها خليقة أن تنشر كتباً للناس. وكان من أولئك الوزراء، الخصيبى، وابن مقلة[1] والمهلبى[2] وابن العميد، والصاحب بن عباد والإسكافى وزير السامانيين. ويحكى أن الاسكافى كان أكتب الناس فى السلطانيات؛ فإذا تعاطى الإخوانيات كان قصير الباع[3]. وهذا يدل على التمييز الدقيق بين نوعى الرسائل. كانت الرسائل المهمة مثل كتب تولية العمال ونحوها تكتب فى ديوان خاص يسمى ديوان الرسائل، ولم تخل منه حكومة ما، وقد بلغ من العناية بهذا الديوان أنه قلد ببغداد لإبراهيم بن هلال الصابى المتوفى سنة ٣٨٤هـ، وكان اكبر المنشئين فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى، مع أن الصابى كان يعتنق دين الصابئة، ويصر عليه، وقد عرضت عليه الوزارة إن اسلم، فأبى[4]. ولما مات ألف نقيب العلويين، مع علو منزلته فى

(١) ياقوت، الإرشاد، جـ٢، ص٢٩١ .

(٢) المعجب فى أخبار المغرب للمراكشى طبعة مصر، ص١٠٤ .

(٣) ياقوت، الإرشاد، جـ٥، ص٣٣١، يتيمة الدهر، جـ٣، ص١١٩ .

(٤) ياقوت، المرجع السابق، جـ١، ص٣٢٤ .

الدين قصيدة فى رثاء هذا الكافر؛ وهذا يدل على أن قيمة الإنشاء الجيد أعظم فى نظرهم من صحة قيمة العقيدة.

وتنقسم رسائل الصابى كلها إلى قسمين، فى الجزء الأول إجمال للخطاب الذى تراد الإجابة عنه، وفى هذا القسم إظهار للأدب فى الثناء على المرسل وإمتداحه والدعاء له؛ فمثلاً كتب الصابى عن الوزير ابن بقية إلى قاضى القضاة، فقال فى أول الكتاب: «وصل كتاب قاضى القضاة بالألفاظ التى لو مازجت البحر لأعذبته، والمعانى التى لو واجهت دجى الليل لأزاحته وأذهبته»[1]. ثم يمضى فى الإجابة عن الكتاب مبتدأ بقوله: «وفهمته ... ولا تزال رسائل الصابى إلى اليوم مع لذة يحس بها القارئ وإعجاب بإمتلاكه عنان البيان. وهى تلبس موضوعها ثوباً من الجمال. ولو كان الكتاب يتناول مسألة عملية رسمية ليس من شأنها أن تستثير ملكة البيان. وكان الصابى يدبج رسائله بعبارات جميلة مسهبة مسجوعة فى أولها وآخرها، مليئة بضروب المجازات والاستعارات وأنواع الجناس، ومع هذا لا يختفى المعنى بين ضغط الفاظ ولا يطغى عليه جمال الألفاظ وموسيقى السجع، بحيث يستطيع القارئ أن يفهم المراد من غير تلك المشقة التى يعانيها الإنسان فى فهم رسائل من جاء بعده. وحتى لو ترجمت هذه الرسائل، وجردت من كل ما تتحلى به، وعرضت على صورة تفقدها الكثير من جمالها، فإنها لا تزال حقيقة بالقراءة، ولنذكر من أمثلة الرسائل الديوانية التى كتبها الصابى كتاباً عن عز الدولة إلى ابن عمه عضد الدولة كتاباً عن جواب عضد الدولة الذى أخبره فيه بفتح جبال القفص والبلوص سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م.

«.... وصل كتاب سيدى الأمير عضد الدولة أدام الله عزه بما سهله الله على

(١) رسائل الصابى، طبعة لبنان، ١٨٩٨، ص٨ .

يده، ويسره بيمينه وبركته من فاح جبال القفص والبلوص وما بلغه أدام الله علوه من أهلها المعادين كانوا للملله، العادلين عن سبيل الله، حتى استنزلهم عن معقل بعد معقل .. واستباح حماتهم وأفنى كماتهم، وأباد خضراءهم وغبراءهم، وعفى معالمهم وآثارهم ..»[١].

ثم إنتقل استعمال الأساليب المحلاة بالسجع من الرسائل السلطانية إلى الرسائل الإخوانية، على أنه فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى كتب الأمير الشاعر بن المعتز إلى الأمير الشاعر عبيد الله بن عبد الله بن طاهر رسالة تعزية عن وفاة زوجته؛ وقد رد عبيد الله على ابن المعتز شاكراً، وكلتا الرسالتين نثر ولا سجع فيها[٢]. وقد عظم شأن هذا الفن فى كتابة الرسائل الجيدة، فى أواخر القرن الرابع حتى كان الناس يستطيعون أن يعيشوا من هذه الصناعة، كما عاش الشعراء قديماً من التكسب بالشعر؛ وكان أشهر كتاب الرسائل الإخوانية أبو بكر الخوارزمى المتوفى عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م، وقد ظل زماناً طويلاً أكبر كتاب العرب، كان أصله من طبرستان، ومولده ومنشؤه بخوارزم، وقد تقلب فى البلاد شرقاً وغرباً، واتصل بجميع الأمراء تقريباً خاصة فى شرق الدولة الإسلامية، فدخل بخارى، ونيسابور، وهراق، وأصفهان وشيزر وغيرها[٣]. وكانت رسائله توجه للأمراء والوزراء والقضاة والعمال والعلماء واللغويين، وكان موضوعها ما يرد فى الرسائل عادة من التهنئة بالأعياد، وبإرتفاع المنصب، وبالتخلص من الشر، وبالتعزية فى الوفاة، والكتابة بعد نكبة أو محنة أو خلع، والكتابة بمناسبة المرصد أو الخروج لحرب، أو لشكر على هدية؛ ومن رسائله رسالة كتبها إلى صاحب ديوان الخراج

---

(١) رسائل الصابى ص٥٦-٥٨ .

(٢) كتاب الديارات، للشابشتى، ص٤٦ وما بعدها.

(٣) رسائل الخوارزمى، ص٨١، يتيمة الدهر، جـ٤، ص١٢٣ .

جاء فيها «حيث صرت الزم خراجاً إلتزم بنو المدبر اضعافه للبحترى، وأضايق فى ضيعة، وهب امثالها محمد بن الهيثم الغنوى لأبى تمام الطائى ... وقد عرف الشيخ انى لا أقيم على الخسف، ولا أحلى إلا خطة النصف، فإن رأى الا يضجع خراسان بلسانها، ولا يخليها من سيفها وسنانها فعل، فوضع صاحب الخراج خراج سنة[1]. ويظهر أن صيت الخوارزمى جذب إليه كثيراً من التلاميذ، وخصوصاً من الفقهاء وجد فى رسائله الكثير موجهاً إلى تلاميذه الجدد أو القدماء، ومنها رسالة شكر فيها رجلاً من إصطناعه فقيهاً من تلاميذه[2]. ومن أمثلة ما كتبه لبعض تلاميذه: «كتبك يا ولدى عندى تحف وشمامات وأنوار، وباكورات، أفرح بأولها، وأنتظر ورود ثانيها، وأشكرك على ماضيها وأعد الأيام والليالى على باقيها، فكثر على سوادها، ووفر على أعدادها وأعلم انى أحبك حباً مستكناً وبادياً».

«وإنى آنس بك حافراً وأشتاق إليك غائباً شوقاً لو عرفته لتكبرت على الورى، ولم تقم وزناً لأهل الدنيا، وكنت لأنتظر إليهم إلا بمؤخر عينك، ولا تكلمهم إلا ببعض شفتيك»[3]. ولو قارنا بين رسائل الخوارزمى ورسائل الصابى لوجدنا هذه أكثر إتزاناً، وأقل مبالغة وأقرب إلى الواقع. وبين هذا الاسلوب والاسلوب العربى القديم كثير من وجوه الشبه من شغف بالألفاظ الجزلة ذات الجرس، والتشبيهات الحسنة وقلق نفس الكاتب، غير أن كانت تنطوى عليه، الفروسية قديماً من نبل العاطفة، قد تغير وصار موضع سخرية، وهذه هى الصورة الوحيدة التى أتيحت له فى مجتمعات المدن. أما الصفات الرئيسية التى إتصف بها اسلوب الخوارزمى، فهى أيضاً صفات الإسلوب الساخر: وهى المبالغة والتكرار، وهو يعمد إليهما

---

(١) رسائل الخوارزمى، ص٨١-٨٢ .

(٢) نفس المصدر، ص١١٩ .

(٣) رسائل الخوارزمى، ص٧٦-٧٧ .

باعتبارهما طريقة فنية فى الكتابة، يقول الهمذانى فى إحدى رسائله: «فلان أبطأ على، فليت شعرى الريح قلعته ام الأرض إبتلعته، ام الأفعى نهشته، ام السباع إفترسته، ام الغول اغوته، ام الشياطين استهوته، ام اصابته بائقة، ام رفسته الجمال، ام إغتاله الجمال، إنتكس على ظهر جمل، ام تدحرج من راس جبل، أم وقع فى بير، ام أنهار عليه جرف شفير، أم جفت يداه، ام قعدت رجلاه، أم ضربه الجذام، ام أصابه البرسام، أم جمس غلاماً فقتله، ام تاه فى البر، أم أغرق فى البحر، أم مات من الحر أم به سال سيل زاعب، أم وقع فيه سهم من سهام الآجال صائب، ام عمل عمل أهل لوط، فأرسلت عليه حجارة من طين منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد»[1]. وكتب إلى رجل طلب نسخة من رسائله: «...ولو قدرت جعلت الورق من جلدى، بل من صحن خدى والقلم من بنانى، والمداد من أجفانى»[2]. وقد تؤتينا مبالغته فى كثير من الأحيان مجموعة نافعة تحصى لنا ما يمكن أن يعرض فى ذلك العصر من تغير أحوال الناس.

على أن الخوارزمى كان فى نظر معاصره الهمزانى (وكان ها أصغر سناً من الأول) لا يحسن من الكتابة «إلا هذه الطريقة الساذجة، وهذا النوع الواحد المتداول بكل قلم المتناول لكل يد وفم»[3].

وكان أبو الفضل الهمذانى زعيم الطريقة الجديدة والمحامى لها، إرتفع مقداره عند الملوك والرؤساء، فعندما مات الخوارزمى خلا الجو للهمذانى، وتصرفت به أحوال جميلة.

---

(١) رسائل الخوارزمى، ص٨٨-٨٩ .

(٢) نفس المصدر، ص١٠٦ .

(٣) رسائل الهمذانى، طبعة بيروت، ص٧٦-٧٧ .

لقد كان مشهوراً بذكاء القريحة، وقوة الحفظ، وكان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط، وهى أكثر من خمسين بيتاً، فيحفظها كلها، ويؤديها من أولها إلى اخرها، لا يخرم حرفاً، ولا يخل بمعنى[1]. وكان الهمذانى يعتبر أعلى درجات القدرة على الإنشاء فى ذلك العصر.

وقد خرج شئ جديد تجاوز اسلوب الرسائل، وهو الميل إلى القصص والحكاية؛ فنجد الأدباء يذكرون فى سياق رسائلهم بين حين وآخر حكايات طويلة أو قصيرة على سبيل التمثيل؛ فمثلاً يشبه الهمذانى فى إحدى رسائله حال الطامع الذى يذهب به الأمل والطمع بعيداً والخبر منه قريب، بحال الرجل البخارى الذى ضاع منه حماره؛ يقول الهمذانى: «... ثم لم يكن مثلى معه إلا مثل البخارى الذى ضاع حماره، وخرج فى طلبه حتى عبر جيحون بسببه، يطلبه فى كل منهلة، وينشده فى كل مرحلة، وهو لا يجده، حتى جاوز خراسان، وإنتهى إلى طبرستان، وأتى العراق، وطاف الأسواق، فلما لم يجده، وآيس عاد، وقد طالت أسفاره ولم يحصل على حماره، حتى إذا حصل فى بلده بين أهله وولده، أحب الله أن يلطف به لطفاً ليعتبر به، فنظر ذات يوم إلى اصطبله، فإذا الحمار بسرجه ولجامه وثغره وحزامه قائماً على المعلف ينش ...»[2]، وهو يقول مدللاً على أن الإنسان يظل هواه دائماً مع وطنه: «إن الإبل على غلظ أكبادها لتحن إلى بلادها، وأن الطير لتقطع عرض البحر إلى مظانها، وكثير من رسائل الهمذانى المصحوبة بالحكايات والقصص والروايات الطريفة.

وإذا كنا نجد عند الهمذانى ميلاً إلى القصص والحكاية، فقد كان أيضاً عند

---

(١) يتيمة الدهر، جـ٤، ص١٦٧ .

(٢) رسائل الهمذانى، ص٣٩٣-٣٩٥ .

الصاحب بن عباد ومن يتصل به إهتمام خاص شديد بالجوالين المكدّين وحكاياتهم ومخاطراتهم. وكان الصاحب بن عباد نفسه يحفظ وفور حظه منها، وكانا يتجاذبان أهدابها، وكان أبو دلف هذا شاعراً كثير الملح والطرف «أخلق التسعين فى الأطراف والإغتراب وركوب الأسفار الصعاب وضرب صفحة المحراب بالجراب فى خدمة العلوم والآداب». وقد دوخ البلاد، فطاف بالهند والصين. «وكان ينتاب حضرة الصاحب ابن عباد، ويكثر المقام عنده ... ويتزود كتبه فى أسفاره، فتجرى مجرى السفاتج فى قضاء أوطاره»[1]. ولم تقتصر دقة ملاحظته بالعين والأذن على أحوال البلاد الأجنبية، بل شملت أدنى طبقات أمته، وهى الطبقة التى يجهلها المثقفون فى العادة جهلهم لما لبس فى بلادهم. وقد تميز الهمذانى فى هذا الميدان وذلك بنزعة خاصة إلى الحكايات والقصص والتمثيليات القصيرة التى تغلب عليها الصبغة البلاغية، وكانت ثمرة ذلك مجموعة من المقامات منها واحدة تسمى الرصافية، وهى معرض تجتمع فيه الإصطلاحات المتعلقة بالمكدين.

أما أبو العلاء المعرى (٣٦٣-٤٤٩هـ/ ٩٧٣-١٠٥٧م) وكان اكبر كتّاب النثر فى عصره، ويقول ناصر خسرو، الرحالة الفارسى الذى ورد المعرّة سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م: «وقد اتفقت كلمة أدباء الشام والعراق والمغرب على أنه لم يبلغ أحد فى هذا القرن درجة المعرى، ولن يبلغها أحد». وقد أشاد الرحالة الفارسى ناصر خسرو إشادة خاصة بوصف كتاب لأبى العلاء المعرى «ذكر فيه من العبارات الفصيحة العجيبة مالا يستطيع الإنسان أن يفهم إلا بعضه، وما لابد له من إلتماس تفسيره عند أبى العلاء نفسه»[2]. وكان هذا هو المثل الأعلى للنثر الجيد فى ذلك العصر.

---

(١) يتيمة الدهر، جـ٣، ص١٧٤-١٧٥ .

(٢) ناصر خسرو، ص١١، طبعة شيفر.

هذه النماذج التى عرضنا لها تؤكد على زخارف كثيرة جعلت اللغة سلسة القياد قوية التعبير، وزادتها تنظيفاً رغم الإختصار. وهى الطريقة التى لجأ إليها كل الذين كانوا يريدون التعبير عما فى نفوسهم مراعين فى ذلك غاية ما أرادوا من الإيجاز والقوة والحرية فى التعبير.

وآخر مظهر لضعف الذوق العربى الأصيل أنه منذ القرن الثالث الهجرى بدأت قصص السمر الأجنبية المطولة تحتل مكاناً كبيراً فى الأدب العربى[١]. وكانت الإسرائيليات وقصص البحرين تقوم حتى ذلك الحين، بحاجة من يريد التسلية. أما منذ القرن الثالث الهجرى فقد أضيف إلى ذلك ما ترجم من قصص الهندى والفرس، وكان أهمها فى ذاك العصر حكايات ألف ليلة وليلة أو «هزار أخسان» أى (ألف خرافة) وهو أسمها الفارسى. وكانت هذه الحكايات دون المائتى سمر موزعة على ألف ليلة[٢]. ولكنها كانت قصص قائمة بذاتها على تفاوت فى طولها، وكذلك كان يعرف أنها من كتب الهند[٣]، وكان كتاب السندباد من كتب الحكايات المحبوبة التى يميل إليها الناس ميلاً خاصاً، ويقال أن مؤلفه طبيب هندى يسمى سندباد، وهو يحتوى على كتاب الوزراء السبعة، والمعلم والغلام، وإمرأة الملك[٤].

ولم تكن تروق الأدباء الذين يؤثرون قراءة النثر الفنى الذى بهر أرجاء النفس البشرية والذى لا يخلو أيضاً من زخرفة، فكانوا يرون أيضاً أن هذه القصص (كتاب غث بارد الحديث)[٥]. وكذلك نجد أبا العلاء الفنان الكبير يتكلم

---

(١) جاء فى أخبار العرب ان أحسن الناس جواباً وأحضرهم، قريش ثم العرب، وأن الموالى تأتى أجوبتها بعد فكرة وروية، أمالى المرتضى، جـ١، ص١٩٧ .

(٢) المسعودى، مروج الذهب، جـ٤، ص٩٠ .

(٣) ابن النديم، الفهرست، ص٣٠٥ .

(٤) الصولى، مخطوط باريس ص٩ .

(٥) الفهرست لابن النديم، ص٣٠٤ .

عن كتـاب «كليلة ودمنة» من لم نجده أهلاً للإهتمام، فيقول أنه لم يقتن هذا الكتاب، ولم يتمكن علمه بما فيه ولم يستكمله سماعاً[1]. ولكن روح ذلك العصر الجديدة التى خرجت عن النزعة العربية الأولى كانت تتجه إلى ما هو أجنبى فى الاسلوب والموضوع. على أننا نجد من العلماء المشهورين، من لم يجد غضاضة على كرامته العلمية أن يؤلف أسماراً من النثر السهل، غايتها مجرد التسلية، فمثلا ابتدأ أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجيشيارى، صاحب تاريخ الوزراء بتأليف كتاب على نسق كتاب الف ليلة وليلة، فأختار الف سمر من أسمار العرب وغيرهم، وكتب منها أربعمائة وثمانية سمراً، ولكن المنية عاجلته قبل تتمة الألف سمر. وكان إهتمام الجشهيارى أن جعل كل سمر قائماً بذاته ويكفى لليلة واحدة[2]. ومن هذا النوع الكتب المسلية التى ألفها القاضى التنوخى المتوفى سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م؛ وأخيراً جاء المؤلف الكبير مسكويه المتوفى حوالى عام ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م، وكان أكبر مؤرخى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، فألف كتاب «أنس الفريد» وهو أحسن كتاب صنف فى الحكايات القصار والفوائد اللطاف[3]. وهذه القصص الجديدة هى من نوع يغاير بشكل جذرى القصص القديمة التى ألفها ابن قتيبة مثلاً، وصاحب العقد. ففيها نجد لأول مرة الأسلوب القصصى الإسلامى، أعنى طريقة القصص التى ليست عربية خالصة؛ وإلى جانبها إنتشرت كتب شعبية كثيرة لا يعرف مؤلفها، منها قصص فى الفروسية، كالتى تحكى عن عروة بن عبد الله، وأبى عمر الأعرج وكتب فى النوادر والحكايات، مثل حكاية «جحا» وحكايات

(١) رسائل ابى العلاء المعرى، طبعة مرجيلوت، ص١٠٢ .

(٢) ابن النديم، الفهرست ص٣٠٤ .

(٣) القفطى، تاريخ الحكماء، ص٣٣١-٣٣٢ من الطبعة الأوروبية.

بن المعاملى المغنى المشهور، وكتب هزلية مثل قصة عاشق البقرة والسنور والفأر[1]. وكتاب ذات الطيب. ثم مجموعة كبيرة ذات القصص الغرامية، وخصوصاً حكايات الشعراء المشهورين، وأهل الدهاء من النساء العاشقات. وكذلك شغلت قصص الحب بين الآدميين وبين الجن مكاناً كبيراً[2]. وقد ذكر المؤرخ حمزة الأصفهانى فى كتابه الأغانى حوالى عام ٣٥٠هـ/ ٩٦١م، أنه كان فى عصره من كتب السمر التى تتداولها الأيدى ما يقرب من سبعين كتاباً[3]. وكان من بين هذه الكتب القصص التى كان يؤثرها أهل الطبقة الراقية والتى يغلب عليها الوله واللذة بسفح الدموع، وكان يثير ويذهب بعقل العشاق ما روى عن بنى عذرة من أن أحدهم يموت إذا عشق؛ وعن أبطال القصص الغرامية الذين يموتون من شدة الفقد، وتتضعضع أعضاؤهم من شدة الوجد[4].

أما الشعر:

فهو المظهر الثانى من مظاهر الأدب العربى وأعلاه قدراً عندهم، ذلك أن الأدب العربى قد بدأ حوالى ٢٠٠هـ يخرج عن هدوئه المعهود، وأصبح تقصيد القصائد الطوال - التى جرت عادة شعراء العرب القدماء أن يسيروا عليها فى التغنى، بما أثارته حياة البداوة فيهم من شعور - شاقاً فى الجيل الجديد، وكره هذا الجيل الذى دخل فى الإسلام ما أولع به القدماء من تعظيم شأن القصيدة، حتى فقدت هذه ما كانت تتمتع به من تفرد بالسيادة. وقد عمل أهل المدن بعد أن صاروا هم الطبقة الممتازة على تأخير القصائد وما يتصل بها من شعر البطولة ولغتها إلى المحل الثانى؛ وإضطرت الأساليب البدوية الخشنة إلى إفساح المجال

(١) الصولى، الأوراق، مخطوط باريس، ص٩ .
(٢) ابن النديم، الفهرست، ص٣٠٨ .
(٣) الأصفهانى، كتاب سنى ملوك الأرض والأنبياء عليهم السلام، ص٤١-٤٢ .
(٤) الموشى للوشاء، طبعة ليدن، ١٣٠٢هـ، ص٦٤-٦٥ .

للعبارات اللينة، وبالغ الناس فى الميل إلى الأوزان القصيرة.

وأصبح ميل الشعراء إلى أن يبعثوا فى النفوس ما يرفعها إلى آفاق الحياة القوية أقل من ميلهم إلى التأثير فى الناس بمادة جديدة للأدب، وبمعان دقيقة وعبارات وأخيلة جميلة. ويتيقظ فى الناس ميل إلى الطرائف المستحدثة - وهو أخطر شئ على شعر البطولة بجميع أنواعه - وعاد الأدب مرة أخرى إلى كشف ما يحيط بالإنسان فى حاضره، وأصبح يلذ له البحث فيما حوله من حياة متشعبة النواحى، وإن لم تكن حياة سامية. وبدأ يصبح للعامة - وخصوصاً عامة المدن من غير المتعلمين - شأن فى الأدب. ولم يكن الشعر وحده هو الذى يصور الأشياء كما يراها العامة، ويتغنى بها على أوزانهم الشعبية، بل الكلام المرسل أيضاً أصبح يستعمل فى ذلك، فكان ذلك الطريق إلى النثر الذى عرضنا له فى الصفحات السالفة.

وإذا حاولنا أن نعرض للشعر العربى منذ بداية القرن الثالث الهجرى، نجد مدن العراق الكبرى كانت هى المهد لشعر المحدثى، أما قائدهم فيعتبر بشار بن برد الذى نشأ بالبصرة، وتوفى عام ١٦٨هـ/ ٧٨٤م[١]، أى قبل بداية القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، وكان أبوه طياناً يضرب اللبن[٢]، أى الطوب اللبن. وقد ولد بشار أعمى، وكان ضخماً طويلاً عظيم الخلق والوجه، وقد سخر منه رجل بأن قا له: كأنك فيل عرضك أثقل من طول؛، وذلك عندما روى له قول بشار:

فى حلتى جسم فتى ناحل

لو هبت الريح به طاحا[٣].

(١) الفهرست، ص١٣٢، يتيمة الدهر، جـ٣، ص٢٣٥ .

(٢) الأصفهانى، الأغانى، جـ٣، ص٢٠ .

(٣) نفسه، نفس المصدر، جـ٣، ص٢٢، ٦٥ .

وكان إذا أراد أن ينشد شعراً صفق بيديه، وتنحنح، وبصق عن يمينه وشماله، ثم ينشد، فيأتى بالعجيب[1]. ويحكى عن رجل انه قال: «عهد بالبصرة وليس فيها غزل ولا غزلة الا يروى من شعر بشار ولا نائحة، ولا مغنية إلا تتكسب به، ولا ذو شرف إلا وهو يهابه ويخشى معرة لسنه[2]، على أن بشاراً قصد بغداد وأنشد قصائده أمام الخليفة المهدى، ويقال أنه ألف إثنى عشر ألف قصيدة من الشعر، وهو من أحسن ما يوثر[3].

وكانت لغة هذا الشعر هى اللغة العربية الخالصة، ويذكر أنه كان ينزل بظاهر البصرة قوم من أعراب قيس عيلان، وكان فيهم بيان وفصاحة، فكان بشار يأتيهم وينشدهم أشعاره[4]، كأنما هو أحد الشعراء القدماء. كان بشار عليماً بأسرار اللغة حتى اعتبره اللغويون حجة، ولكن هذا كله كان على الطريقة القديمة. فلم يبتكر الشعراء المحدثون صوراً جديدة، ولاهم إكتشفوا مادة جديدة إلا نادراً. وإن كانوا قد افتتحوا قصائدهم بذكر الورد والنيلوفر وما أشبههما من أزهار الرياض والبساتين، على حين كان أهل البادية يفتتحون قصائدهم بذكر الخزامى والبهار والعرار ونحوهما من زهر البرية[5]. وإن كانوا أيضاً تركوا وصف حمار وحشى إلى وصف البهام؛ كما فعل القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف الكاتب الذى كان يتولى ديوان الرسائل للمأمون[6]. أو إلى وصف القطط المنزلية؛

(١) ياقوت، الإرشاد، جـ٦، ص٤٠٤ .

(٢) الأصفهانى، كتاب الأغانى، جـ٣، ص٢٦ .

(٣) نفسه، نفس المصدر، جـ٣، ص٧١-٧٢ .

(٤) نفسه، نفس المصدر، جـ٣، ص٥٢ .

(٥) ابن رشيق، العمدة، ص١٥٠، طبعة مصر ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٦م.

(٦) الأصفهانى، المرجع السابق، جـ٢٠، ص٥٦ .

كما فعل ابن العلاف المتوفى عام ٣١٨هـ/ ٩٣٠م[١]، ولكن كان هناك شئ واحد جديد، وهو البحث عن الطرائف البديعة التى تخالف المألوف. وهو أثر من آثار تدهور المدينة التى دخلت فى الشعر العربى حينما آلت الرياسة إلى الأخلاط الذين سكنوا المدن. وحدث فى الشعر ما حدث فى النثر؛ ذلك أن الميل إلى الطرائف والمسليات قتل فى الناس الميل إلى شعر البطولة القديم؛ وقد امتدح الجاحظ لأنه كان مؤسس الطريقة الجديدة التى تجمع بين الجد والهزل، وكذلك نال بشار - قائد الشعراء المحدثين - إعجاب أبى زيد اللغوى والأصمعى. وأول ما أعجبها فيه أنه كان يجد ويهزل، على حين أن منافسيه من المتمسكين بمذهب الأوائل لم يحسنوا إلا واحداً من هذين[٢]. كذلك أعجب الأصمعى فى بشار أنه كان أكثر الناس تصرفاً فى فنون الشعر، وأغزر وأوسع بديعاً من غيره[٣]. أما إسحاق الموصلى الذى كان يتحمس لمذهب القدماء، فقد كان لا يعتد بشعر بشار، ويقول هو كثير التخليط فى شعره، وأشعاره مختلفة لا يشبه بشار بعضاً؛ فمنها المتناهى فى الجودة ومنها غير الجيد. وذكر لبشار هذين البيتين:

إنما عظم سليمى حبتى　　　قصب السكر لاعظم الجمل

وإذا أدنيت منها بصلا　　　غلب المسك على ريح البصل

ويقول أن هذا يزرى بشعره، مهما كان فيه من الجيد[٤]. ولم يكن تلمس المستطرفات البديعة من المذاهب الحقيقية بالطلب عند الشعراء القدماء، ولكن ذلك إنتشر عند المحدثين. وكانت الكلمة الجارية فى وصف الشعر الحسن فى

(١) الدميرى، جـ٢، ص٣٢١ .

(٢) الأصفهانى، الأغانى، جـ٣، ص٢٥ .

(٣) نفسه، نفس المصدر، جـ٣، ص٣٤ .

(٤) نفسه، نفس المصدر، جـ٣، ص٣٨ .

القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، هى «البديع» أى الطريف المستحدث[1]. وقد كتب ابن المعتز المتوفى عام ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م، وهو من أكبر الشعراء كتاباً خاصاً بهذا المعنى. وقد تبوأت المعانى المقام الأول، كما هو الحال فى كل شعر غايته الجرى وراء المستطرفات، وكان الشعراء يتلمسون المعانى الدقيقة والتشبيهات المتنوعة فى تأليف الأبيات الشعرية، وفى تصوير الفكرة التى تتضمنها. ومن هنا جاءت المعاين التى زادها بشار بن برد وأصحابه، ذلك أنهم أتوا «بمعان ما مرت قط بخاطر جاهلى ولا حضرمى ولا إسلامى»[2]. وقيل لبشار: «لأتى لم أقبل كل ما تورده فى قريحتى، ويناجينى به طبعى، ويبعث به فكرى، ونظرت إلى مغارس الفطن، ومعادن الحقائق، ولطائف التشبيهات، فسرت إليها بفكر جديد، وغريزة قوية، فأحكمت سبرها، وإلتقت حرها، وكشفت عن حقائقها واحترزت عن متكلفها»[3].

ومن شعر بشار الذى يعتبر مثالاً للمعانى المبتكرة والشعر الجيد نقتبس هذين البيتين:

ياقوم أذنى لبعض الحى عاشقة　　　والأذن تعشق قبل العين أحياناً

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم　　　الأذن كالعين توفى القلب ما كان

وكانت عادة الشعراء فيما سلف أنهم كانوا يشبهون الخدود بالورد، أما اليوم فإن الورد صار يشبه بالخدود، وقد انشد أحد الشعراء أمام رجل هذا البيت:

عشية حياتى بورد كأنه　　　خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

---

(١) وتتصل كلمة «بديع» من حيث الاشتقاق بمعنى ما هو فريد فى بابه، أو غريب أو مستحدث.

(٢) الأصفهانى، كتاب الأغانى، جـ٣، ص٢٨ .

(٣) نفسه، نفس المصدر، جـ٣، ص٦٧، العمدة، جـ٢، ص١٨٨ .

فأعجب السامع حتى زحف إلى المنشد وطلب الزيادة[1].

وقد نال أعظم الإعجاب قول ابن الرومى المتوفى سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م

يجذب من نقرته طرة إلى مدى يقصر عن نيلـه

فوجهه يأخذ من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله

وهو يشير بالليل والنهار إلى لون الشاعر الأسود وجمال بياض جلد الرأس[2]. وكان ابن الرومى هذا متطرفاً فى حكمه على الشعراء المحدثين، حتى كان يزعم أن بشاراً أشعر الناس جميعاً ممن تقدم وتأخر[3]، وهو حكم كان يقف له شعر الأدباء واللغويين فى ذلك العصر. على أن بن رشيق، ناقد الشعر المعروف، والمتوفى سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م، قرر بعد ذلك بمائتى عام أن ابن الرومى نفسه أكبر الشعراء المحدثين، وهو يروى له البيت المتقدم ويقدمه بقوله: «فقال ابن الرومى وأحسن ما شاء»[4]. وهذه الطريقة الجديدة قوت ما عند الشعراء الموهوبين من ميل إلى النظر المستقل وإلى الإبتكار فى التعبير تقوية كبيرة، وأصبح لا يحمد لهم أن يسيروا على المناهج السهلة المطروقة. ولهذه الطريقة الجديدة الفضل فى الملاحة الطبيعية التى تشبه الكحل من غير تكمل، والتى نجدها مثلاً فى رثاء بشار لبنية صغيرة كانت له[5] فيقول:

---

(١) كتاب الديارات؛ ص٥ب. وقد كان عمر بن ابى ربيعة هو صاحب طريقة قالوا وقلت فى شعر الغزل.

(٢) العمدة، جـ٢، ص١٨٨ .

(٣) الأصفهانى، ديوان ابى نواس، طبعة القاهرة، ١٨٩٨، ص١٠ .

(٤) العمدة، جـ٢، ص١٨٨، ١٩٤ .

(٥) الأصفهانى، كتاب الأغانى، جـ٣، ص٦٣ .

يابنت من لم يك يهــوى بنتــا ... مــا كنت إلا خمسـة أو سـتـا

حتى حللت فى الحشى وحتى ... فتنت قبلى من جوى فانفتا

لأنـت خيــر مــن غـلام بتـــا ... يصبـح سكران ويمسى بهتاً

وفى هذا الموضوع من الأدب العربى والإسلامى وما فيه من معان جديدة يتمشى فى الشعر العربى بطول القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى. وهو قد أيقظ جميع حواس الشاعر ونبهها تنبيهاً كبيراً، ليستخرج أعمق ما فى بطن الأشياء من أسرار، وليكشف عن أغرب خصائصها. وأول ما نلاحظه أن الشعر لم يكن له بد من أن يقوم مقام الفن التصويرى، فالكثير مما يعبر عنه الشعر ما هو إلا تصوير تجيش به نفس الشاعر، ويضطر إلى إبرازه فى صورة من الألفاظ. وقد قويت فى الشعراء رغبة عظيمة للنظر بأعينهم، وقامت فى نفوسهم حاجة إلى النظر فى الأشياء نظرة فنية، وإلى الإبانة عنها إبانة واضحة. وهذا مالم يعرفه العرب الأولون، فقد كان فنهم فناً لغوياً أداته الألفاظ. وقد إتصل العرب - كما ذكرنا - بشعوب أخرى غير عربية بسبب الفتوحات الإسلامية وعمليات التجارة التى كانت قبل الإسلام، وتختلف هذه الشعوب عنهم إختلافاً بيناً؛ وربما كان لهذه الشعوب فنون غير الفنون الكلامية، ولكن العرب لما غلبوا عليهم علموهم الكلام لا التصوير. أى أنهم وضعوا فى أيديهم القلم بدلاً من ريشة الرسام المصور. ولما آل الأمر إلى هذه الشعوب وأصبحت هى القابضة على زمام الفن والأدب و زاد الشعر التصويرى زيادة كبيرة، بعد أن لم يجد أبو تمام ما يصلح للإختيار فى باب الصفات حتى يذكره فى ديوان الحماسة إلا بضعة عشر بيتاً. وخصوصاً فى وصف الأيام المطرة المدجنة، التى كان يحلو لهم فيها الشراب عادة فيقول ابن الرومى مثلاً:

يوماً للتديم يوم سرور والتذاذ ونعمة وإبتهاج

ويقول المهلبى ايضاً:

يـــوم كـــان سمـــــاءه شبه الحصان الأبرص

وكأن زهـرة روضـــــة فرشت بأحسن مفـرش

فسماؤه ركن الخزوز وأرضه حصـر الوشـــى

وكـان العـرب القـدمـاء يفـضلون الشـراب فـى الليل أو عند طلوع الفـجـر فى الوقت الذى قال فيه ابن المعتز[1] :

حان ركوع إبريق لكأس ونادى الديك حى على الصبوح

وكذلك قال ابن النواس فى قصيدتين له شيئاً من هذا فمن ذلك[2]:

قد هتك الصبح سطور الدجى فانحصرت أثوابه الجؤن

فأصبـــح ندامــك سخاميـــة اتــى لهــا فــى دنهـا حين

وبعد ذلك بنحو قرن تقريباً تجد ابن المعز قد جاء فى هذا بالكثير المتنوع، ومن ذلك قوله[3]:

قم يا نديمى نصطبح بسواد قد كاد الصبح أو هو باد

وأرى الثريا فى السمآد كأنها قدم تبدت فى ثياب حداد

على أنه فى عصر ابن المعز نفسه بدأ الناس ينصرفون عن الشراب فى هذا

---

(١) الديوان، جـ٢، ص٣٦ .

(٢) ديوان أبو نواس، ص٣٣٩ .

(٣) ديوان ابن المعتز، جـ٢، ص٣٧ .

الوقت الغريب، وابن المعتز يصفه أحياناً بعدم الملائمة فمن ذلك قوله[1]:

إذا أردت الشرب عند الفجر والنجم فى لجة ليل يسرى

وكـان برد بالنسيم يرتعـد وريقه على الثنايا قد جمد

وعن ابن المعتز مفيه، نجد الشعور بجمال الطبيعة والتمتع به يظهر قوياً فى الخمريات. فقد بدأ أصحاب الشراب يتمتعون بجمال الجنان والأشجار، ويشربون بين الورد والنرجس والجلنار والأقحوان وغناء الطيور، وذلك كله فى الربيع وموسم الحياة[2]. وفى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى نبغ شاعران شاميان وكانا صديقين فأنشئا قصائد تغنيا فيها بالبساتين وما لها من جمال دانى القطوف متنوع النواحى يخلب الألباب، ويلغا بذلك الشعر أعلى مكان.

اما أولهما فهو ابو بكر محمد بن أحمد الصنوبرى[3]، ولد هذا الشاعر بأنطاكيا وكان أميناً على خزانة كُتب سيف الدولة[4]. ويدل لقبه الصنوبرى على أنه أو أباه كان يعمل بقطع خشب الصنوبر التى تشتهر به سوريا ولبنان[5]. ولما كان المخروط الشكل يسمى الصنوبرى تشبيهاً له بهذا اللقب على سبيل الإشارة إلى صفته وصورته، وله لقب آخر هو الصينى، وليس فى هذا ما يدعونا إلى الظن بأنه ذهب إلى الصين؛ فقد كان بالكوفة مثلاً رجل يسمى الصينى لأنه كان يتجر إلى

---

(١) نفسه، نفس المصدر، جـ٢، ص١١٠ .

(٢) ديوان ابن المعتز، جـ٢، ص٣٤، ٥١، ١١٠ - ١١١ .

(٣) ابو المحاسن، النجوم، جـ٢، ص٣١٢، الفهرست، ص١٦٨ .

(٤) ياقوت، جـ٢، ص٣١١، الكتبى، جـ١، ص٦١ .

(٥) الغزولى، مطالع البدور، جـ٢، ص١٧٦ .

الصين فنسب إليها[١]. وقد مات الصنوبرى عام ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م[٢]، وهو يناهز الخمسين على التقريب[٣]. ونعرف من حياته أنه كان صديقاً للشاعر كشاجم، وأن كشاجم وصفه بأنه «بحر ماله شط»[٤]، وأنه طلب يد ابنته[٥]. وعزاه عن فقد ابنه أخرى له توفيت بكرا[٦].

وقد تغنى كثير بذكر حلب والرقة، وهما أكبر بلدين كان يقيم بهما سيف الدولة على أنه سكن الرها وكان يجتمع فى دكان وراق يقال له سعد بكثير من أدباء الشام ومصر والعراق[٧]. وكانت له بمدينة حلب حديقة بها قصر فخم حوله الغروس والرياحين وشجر النارنج[٨] ولذلك سمى الحلبى. وكان الصنوبرى صغيراً فلم ينل مكاناً فى كتاب الأغانى، وكان مسناً فلم ينل مكاناً يتيمة الدهر، ولذلك بقيت ديوانه مفرقاً ولم يوجد منه إلا أجزاء صغيرة، وإن كان الصولى قد رتبه على حروف الهجاء وجمعه على مائتى ورقة[٩]. فلابد أن تجمع بقاياه من كل ناحية.

وزهرة النرجس عند الصنوبرى أعظم الأزهار، بل يعتبر نفسه ملكاً لها فمن قوله[١٠]:

---

(١) ابن حوقل، ص١٢١، الأدريسى، نزهة المشتاق ص٢٣ .

(٢) الخوارزمى، مفاتيح العلوم، ص٢٠٧ .

(٣) ياقوت، معجم البلدان، جـ٣، ص٤٤٤ .

(٤) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٣١٢ .

(٥) ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص٦٦٥ .

(٦) ديوان كشاجم، طبعة بيروت، ١٢١٣هـ، ص١١٦ .

(٧) ياقوت، الإرشاد، جـ٢، ص٢٢ .

(٨) ديوان كشاجم، ص٧٤ .

(٩) الفهرست، ص١٦٨ .

(١٠) رحلة ناصر خسرو (سفرنامة)، ص٣٩ .

أرأيت أحسن من عيون النرجس   أم من تلاحظهن وسط المجلس

درر تشقق عن يواقيت على   قضب الزمرد فوق بسط السندس

ولما كان الصنوبرى وهو أول شاعر للطبيعة فى الأدب العربى يجمع إلى ذلك ولوعاً بالسماء والضياء والهواء مع التطلع إلى أسرارها الجميلة فهو يقول فى إحدى أغانى الربيع(١):

إذا كان فى الصيف ريحان وفاكهة

والأرض مستوقد والجو تنور

وإن يكن فى الخريف النخل مخترقاً

فالأرض عريانة والجو مقرور

كما أنه كان أول من تغنى بالقصائد الثلجيات ومن ذلك قوله(٢):

ذهب كؤسك يا غلا   م فإنه يوم مفضض

والجو يجلى فى البيا   ض وفى حلى الدر يعرض

أتظن ذا ثلجاً وذا   ورد على الأغصان ينفض

ورد الربيع ملون   والورد فى كانون أبيض

وقد ترك الصنوبرى أثراً قوياً فى الأدب العربى، وقد ظهر أول أثر له عند كشاجم(٣) مواطنه وصديقه الحميم، وقد عبر كشاجم عن هذه الصداقة بقوله(٤):

---

(١) فوات الوفيات، جـ١، ص٦١ .

(٢) الثعالبى، نثر النظم، طبعة دمشق، ١٣٠٠هـ، ص١٣٧ .

(٣) ديوان يتيمة الدهر، جـ٤، ص١٥٢ .

(٤) ديوان كشاجم، ص٧٤ .

اتنسى زمناً كنا بــه كالمــاء فــى الخمـــر
اليفيــن حليفيــن علــى الأيســار والعســر
مكبين علــى اللــذا ت فى الصحو وفى السكر
نــرى فــى فلك الآدا ب كالشمـس وكـالبـــدر

وقد سار كشاجم فى شعره على الطريقة التى رسمها صديقه الصنوبرى فاقتدى به فى التغنى بملذات العين ومن ذلك قوله(١):

اقبلت فى غلالة زرقــاء زرقـــة لقيت بجــرى المــاء
فتأملت فى الغلالة نهباً جسد النور فى قميص الهواء
هى بدر وإن أحسن لـون ظهـر البدر فيه لون السمـاء

كما أنه يقول فى وصف نيل مصر(٢):

كأن النيل حين أتى بمصر وفاض بها وكثرت التُراع
وأحدق بالقرب من كل وجه سمـاوات كواكبها ضياع

وكان كشاجم يلقب فى منتصف القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى «ريحانة أهل الأدب» فى بلاد الموصل، وكان الخالديان أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم شاعرين كبيرين فى الموصل، وكان بهذه المدينة من الشعراء الثرى بن احمد الكندى المعروف بالرفاء، وكلهم - رغم ما كان بينهم من تنابذ وعداوة وكيد - كانوا يسيرون فى طريق كشاجم وينهجون منهجه.

---

(١) نفس المصدر، ص٦ .
(٢) كتاب الديارات، ص١١٥أ.

وفى هذا القرن كان بعض الوزراء شعراء وإن كانوا لا يرقون إلى أعلى مراتب الشعراء ولكنهم كانوا - بعضهم - أرقى من مرتبة الطبقة الوسطى من الشعراء، أمثال المهلبى الذى أنشأ مجلساً حافلاً للأدباء، وكان يحب شعر الصنوبرى فى الخمر، وفى وصف الطبيعة، وقد نشره ببغداد، ويحدثنا الصاحب بن عباد فى كتاب الروزنامة أن الوزير المهلبى كان كثير الإنشاد لشعر الصنوبرى الشاعر[1]. بل نجد الوزير المهلبى ينسج على منوال استاذه فيصف الثلج وهو من الأعاجيب ببغداد فيقول[2]:

الورد بين مضمخ ومضرج　　　والزهر بين مكلل ومتوج

والثلج يهبط كالنيثار فقم بنا　　　نلتذ بابنه كرمة لم تمزج

غير أن أبا بكر الخوارزمى لاحظ أن هذه الأبيات ومثلها من الشعر «شعر الثلجيات» كلها عيال على قول الصنوبرى[3].

وكان الشريف أبو الحسن العقيلى بمصر حوالى ٤٠٠هـ يمثل طريقة الصنوبرى فى الوصف، وكان من أكبر المبرزين فى هذا الباب «وكان له متنزهات بجزيرة الفسطاط، ولم يكن يشتغل بخدمة سلطان، ولا يمدح أحداً»[4]. ومن شعره[5]:

ونهر من الأنهار ألقت يد الصبا　　　عليه شقيقاً ناره تتضرم

كأن أبيضاض الماء تحت احمراره　　　صفيحة سيف قد جرى فوقها الدم

(١) يتيمة الدهر، جـ٢، ص٢٠، الثعالبى، من غاب، طبعة بيروت، ص٤٨ .

(٢) ياقوت، الإرشاد، جـ٥، ص٣٣٨ .

(٣) يتيمة الدهر، جـ٤، ص١١٣ .

(٤) ابن سعيد، المغرب، ص٧٨ .

(٥) يتيمة الدهر، جـ٢، ص١٧٨-١٧٩ .

وقد أهمل وصف المسموعات إهمالاً شديداً؛ فمثلاً وصف السلامى الشاعر المتوفى عام ٣٩٤هـ/ ١٠٠٤م السكر المبنى بشيراز من غير أن يذكر شيئاً عن خرير المياه أو صوتها[١]، ولم أجد من هذا القبيل إلا مثالاً فى شعر للأمير البويهى عز الدولة وهو قوله فى سياق قصيدة له[٢]:

والماء مابين الغصون مصفق   مثل القيان رقصن حول الزامر

وفى أواخر القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى أولع الأدباء بوصف جميع الأشياء على إختلافها، فقد وصف المأمونى الشاعر جميع أصناف الأطعمة ببنمارى من جبن وزيتون وسمك مشوى وماء الخردل والبيض المقلى والهريسة وغيرها كثيرة[٣].

وقال عبد الوهاب بن حسن بن جعفر الحاجب الشاعر المصرى المتوفى سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م فى وصف الهرمين[٤]:

انظر إلى الهرمين إذ برزا   للعين فى علو وفى صعد

وكأنما الأرض العريضة قد   طمئت لطول حرارة الكبد

حسرت عن الثديين بارزة   تدعو الإله لفرقة الولد

فأجابها بالنيل بشعبها   رياً وينقذها من الكمد

ومما هو عظيم الدلالة أننا لا نجد فى الشعر العربى مكاناً للمكدين الطوافين قبل القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى فمن ذلك قول الأحنف

(١) نفس المصدر، جـ٢، ص٥ .

(٢) نفس المصدر، جـ٢، ص٥-٦ .

(٣) يتيمة الدهر، جـ٤، ص٩٤-١١٢ .

(٤) المقريزى، الخطط، جـ١، ص١٢١ .

العكبرى مفتخرا[1]:

على أنى بحمد اللـه | فى بيت من المجد
بإخوانى بنى ساسـا | ن أهل الجد والجد
لهم أرض خراســـا | ن فقاشان إلى الهند
إلى الروم إلى الزنج | إلى البلغار والسند
إذا ما أعوذ الطـرق | على الطراق والجند
حذاراً من أعاديهـم | من الأعراب والكرد
قطعنا ذلك النهـج | بلا سيف ولا غمد
ومن خاف أعاديـه | بنا فى الروع يستعدى

وقد جاء فى قصائد المكدين شعر عاطفى طريف مزهر الألفاظ لا تكلف فيه ولا تقيد. وأكبر شعراء المكدين وظريفهم هو الأحنف العكبرى من مدينة عكبرى بالعراق، وهو لم يعبأ فى خمرياته بوصف شئ من جمال الطبيعة الذى يتلذذ منه الشعراء فمن قوله[2]:

شربـــــت بماخـــــور | علـى دف وطنبـــور
وصـــوت الطبـل كـروم | وصوت الناى طلير
فصرنا من حمى البيت | كأنـــا وسط طنـور

ولا نجد فى هذا الشعر صناعة لفظية ولا زخرفة ولا عبارات من التى تجرى

(١) يتيمة الدهر، جـ٢، ص٢٨٥-٢٨٦ .
(٢) يتيمة الدهر، جـ٢، ص٢٨٧ .

مجرى الأمثال أو الحكم. وهذا هوالأسلوب الذى جرى عليه الأدب الفرنسى فى عهد فيلون Villon إلى عهد فرلين Verlaine، وقد جرى على هذه الطريقة أيضاً الشاعر محمد بن عبد العزيز السوسى، أحد شياطين الإنس، فقد قال فى قصيدة تربو على أربعمائة بيت وصف فيها حاله وتنقله فى الأديان والمذاهب والصناعات، وقد افتتحها بقوله:

الحمد لله ليس لى بخت　　　ولا ثياب يضمها تخت[1].

وإلى جانب هذا الشاعر نجد الشعراء الشعبيين الذين ظهروا فى مدن العراق الكبرى مثل أبى الحسن محمد بن لنكك البصرى، وابن سكره الذى كان شاعراً متسع الباع، إذ يقال أن ديوانه يربو على خمسين ألف بيت منها أكثر من عشرة آلاف بيت قالها فى قنية سوداء يقال لها خمرة[2]. وكان أكبر هؤلاء الشعراء الشعبيين غير مدافع بن الحجاج الذى كان ببغداد وتوفى سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠١م وكان نحيفاً هزيلاً ، وفى ذلك يقول[3]:

لا تخافى على دقة كشحى　　　لا تكال الرجال بالقفزان

وكان ابن الحجاج لسخفه وردائة لسانه مقضى الحاجة مقبول الشفاعة، ولم يزل أمره متزايداً حتى حصل الأموال وصار من أهل الجاه، وقد قال ابن الحجاج نفسه لبعض الرؤساء حين كتب إليه يذكر أن سخفه جاوز التناهى قال:

سيدى سخفى الذى قد　　　صار يأتى بالدواهى

أنت تدرى أنه يد　　　فع عن مالى وجاهى(٤).

---

(١) نفس المصدر، جـ٣، ص٢٢٧ حيث توجد القصيدة كاملة.

(٢) نفس المصدر، جـ٢، ص١٨٨ .

(٣) يتيمة الدهر، جـ٢، ص٢٢٨ .

(٤) ديوان ابن الحجاج، مخطوط بغداد، ص٢٥٨ .

وكان ابن الحجاج من أولاد العمال، واشتغل بالكتابة فى أول أمره ثم ضمن فرائض الصدقات بسقى الفرات وصار أخيراً محتسباً على مدينة بغداد، ولشد ما حسده ابن سكره زميله فى المذهب الشعرى لأنه كان أقل نجاحاً من ابن الحجاج[1]. وكان ابن الحجاج يستعمل فى قصائده عبارات المكدين وأهل الشطارة[2]، وقد أباح هو وأمثاله فرصة لظهور الفحش المستبشع فى المدن الشرقية فرفع هذا الفحش رأسه بعد أن كانت قد أخمدته الروح العربية، وأخرجته من الأدب العربى لأن الذى كان يسيطر على النزعة الأدبية هم البدو الذين هم أكثر عفة وإعتدالا[3].

ولهذا فقد جاء فى كتاب الحبة لمؤلف متأخر ما يقضى بمنع الصبيان عن حفظ أشعار ابن الحجاج والنظر فيها ويضربهم على ذلك[4]. ولكن يبدو أن معاصرى ابن الحجاج قلما لاموه لذكره للمقاذر وإفصاحه عن السخف والفحش والمجون.

ولكن نرى بين حين وآخر من خلال هذا الضباب الذى يتكون من السخف والمجون معانى وألفاظ مثل كواكب الليل، ومن هنا نستطيع أن ندرك لماذا كان معاصروه (معاصروا هذا الماجن) يعدونه شاعراً كبيراً.

ونجد المتنبى الذى يرجع أصله إلى العراق والذى نشأ فى الشام يتمسك بطريقة العرب القدماء خلافاً لهؤلاء الشعراء.

كان أولئك الشعراء واقعيين فى نزعتهم الشعرية، فكانوا يتغنون بالذى

---

(١) نفس المصدر، جـ١٠، ص٢٤٠، كتاب الوزراء، ص٤٣٠ .

(٢) يتيمة الدهر، جـ٢، ص٢١١ .

(٣) مجلة الشرق، السنة العاشرة، ص١٠٨٥ .

(٤) يتيمة الدهر، جـ٢، ص٢١٤، مجلة الشرق، نفس العدد، ص١٠٨٥ .

يشعرون به. أما المتنبى فهو مثال للأستاذ العالم الذى يستهويه المعنى الكلى، وكان كثير الأخذ من ابن المعتز على تركه الإقرار بالنظر فى شعر المحدثين[1]. وقد عاداه شعراء العراق كأبن سكره، وابن لنكك[2]، وابن الحجاج[3]، وعملوا علىَ ثلبه والتماجن به والتنادر عليه، وقد انتهى إلينا وصف محاورة جرت بينه بين أحد الشعراء عندما جاء المتنبى إلى مدينة السلام وتدل هذه المحاورة على سوء ما وقع بين المتنبى شاعر الملوك وبين أدباء بغداد، ذلك أن المتنبى قد قدم إلى مدينة السلام، وقد إلتحف ردائه الكبر وصغر خده، فذهب إليه الحاتمى الشاعر فوجده يلبس سبعة أقبية كل قباء منها لون مع أن الوقت كان آخر أيام الصيف وأخلقها بتحفيف الثياب، فأعرض المتنبى عنه وتجاهله ولم يسأله عن قصده ثم كلمه الحاتمى وأغلظ له القول[4].

وكذلك كان أبو فراس الشاعر الشامى المتوفى عام ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م ينسج على منوال القدماء لم يحد عن ذلك قط، وأغرب ما نراه فيه تعرضه فى قصائده أو بالأحرى أنه لم يرد أن يتعرض فى قصائده لذكر الحروب الشعواء التى كانت ناشبة فى غرب الدولة الإسلامية؛ ونظراً لأنه ابن خال سيف الدولة الأمير الحمدانى فلابد أن يكون قد ذاق الكثير من أثر حوادث ذلك العصر، وإن كان الكثير من شعره فى الفخر ليس إلا خيالاً لا حقيقة وراءه. وقد يستحيل علىَ من لم يكن ملماً بحوادث ذلك العصر أن يستنبط من قصائده أن الروم والمسلمين والنصارى كانوا يتحاربون بجيوش جرارة مسلحين بأكمل سلاح حربى عرفه ذلك

(١) اليتمية، جـ١، ص٩٨ .

(٢) نفس المصدر، جـ١، ص٨٥-٨٦ .

(٣) ديوان ابن الحجاج، مخطوط بغداد، ص٢٧٠ .

(٤) ياقوت، الإرشاد، جـ٦، ص٥٠٥، اليتمية، جـ١، ص٨٥ .

العصر، ولا يزيد وصفه لهذه الحروب الكثيرة فى شعره عما يمكن أن يقال فى وصف قتال بين قبيلتين من البدو، ولا أرى من يبالغ فى إمتداحها من المؤلفين كالصاحب والثعالبى «خاصة تلك القصائد التى قالها وهو فى سجنه بلاد الروم إلا أنها نثر مسجوع، وإن دل هذا على شئ فهو يدل على أنه برهان جديد على ضعف الفارق بين الكاتب والشاعر.

ولقد ولد الشريف الرضى عام ٣٦١هـ/ ٩٧٠م ببغداد وكان فى الثلاثين من عمره لما مات ابن الحجاج، وكان الرضى شاعراً عظيماً، وقد اختار من شعر ابن الحجاج كتاباً سماه «الحسن من شعر الحسين»[1]. وكان الشريف الرضى سيداً كبيراً انحدر من شجرة عظيمة عريقة النسب، فلم يستطيع مخالفة التقاليد، والنزول إلى ما نزل إليه ابن الحجاج من إسفاف ومعالجة لنواحى الحياة التى لا تليق بالرضى، فقد كان أبوه نقيباً للعلويين جميعاً، فلما مات فى سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م تولى الرضى منصب أبيه وجميع ما كان يتقلده ويعهد به إليه، وإن لم يكن الشريف أكبر اخوته، وكانت داره مثال الأبهة فى المظهر، وقد اتخذ داراً لطلبة العلم سماها «دارالعلم» وهيأ لهم فيها ما يحتاجون إليه[2]. وكان الرضى مشهوراً بأنه لا يقبل من أحد شيئاً، وقد رفض مرة هدية من وزير[3]. وكان ينسب إلى الإفراط فى معالجة الجانى (معاقبته) من أهله وله فى ذلك حكايات مشهور منها: أن إمرأة علوية شكت إليه زوجها وأنه يقامر بما يتحصل له من حرفة يعانيها وأن له أطفال وهو ذو عيلة وحاجة، وشهد لها من حضر بالصدق فيما ذكرت، فاستحضر الرجل وأمر به فبطح وأمر بضربه فمازال يضربه والمرأة تنتظر

(١) ديوان الرضى، طبعة بيروت، ١٣٠٧هـ، ص٢ .

(٢) نفس المصدر، ص٢ .

(٣) نفس المصدر، ص٢-٣ .

أن يكف والأمر يزيد حتى بلغ ضربه مائة خشبة فصاحت المرأة «وأيتم أولادى، كيف تكون صورتنا إذا مات، فكلمها الشريف بكلام فظ وقال: «ظننتى تشكينه إلى المعلم؟»[1]. وكان الشريف الرضى أول عظيم من عظماء العلويين ألقى السلاح وغير لباس السواد بلباس أبيض على الرسم العباسى للعمال ورجال الخلافة تاركاً الشعار الذى كان يلبسه آباؤه بكبرياء يوازى ما كانوا يشعرون به من حزن، وهو يشير فى بعض شعره إلى ما يشير إلى الحزن والكآبة والهم الذى إنطوت عليه نفسه،فهو يقول مثلاً[2]:

أروم انتصافى من رجال أباعد ونفسى أعدى لى من الناس أجمع

وفى الحقيقة لم يخرج من فم الشريف الرضى كلمة يتلفظ بها من الكلمات القبيحة التى يلفظ بها العامة، والتى نرى مثلها عند إبراهيم الصابى صاحب ديوان الرسائل، وعند الوزير المهلبى، وعند الوزير ابن عباد، وإذا كان غيره قد استباحوا لأنفسهم فى الذم كل قبيح، فإننا لا نجد للشريف الرضى فى باب الهجاء أقوى من ذمه لمُغَنٍ بارد قبيح الوجه وهو[3]:

تغضى بمنظره العيون إذا بدا وتقئ عند غنائه الأسماع

أشهى إلينا فى غنائك مسمعاً زجل الضراغم بينهن قراع

وهكذا نجد أن الأدب العربى والإسلامى كانا مرآة لذلك العصر وإنعكاساً للصورة والحياة الإجتماعية، وكذلك السياسية والحربية والإقتصادية والدينية بما لا يقل عن الجوانب المذكورة من تعبير صادق عن المجتمع الإسلامى وعلاقاته بالمجتمعات الأجنبية الأخرى المجاورة له من قريب أو بعيد.

(١) ديوان الشريف الرضى، ص٣، ص٩٢٩ .

(٢) ديوان الشريف الرضى، جـ٢، ص٣٠٨ .

(٣) نفس المصدر، ص٥٤١، ص٥٦٤ .

الفصل الخامس

العلم والعلماء فى الإسـلام

مذهب الرسول فى الإهتمام بالعلم:

لاشئ أفعل فى السمو بالنفس، والتحليق فى آفاق العالم الروحانى من إستضافة المسلم ساحة الرسول العظيم محمد ﷺ، حيث ينزل على مدد روحى لا ينفذ، وغذاء روحى لا ينضب.

وقد عنيت بهذه الساحة الشريفة أحاديثه الكريمة التى احتوتها بطون الكُتّاب والكتب الصحاح، ووعاها التاريخ الإسلامى على أنها أغلى نفائسه، وأعظم مفاخره.

إن أكرم الساعات علىّ، وأحب أوقات الزمن إلىّ هى الأوقات التى أخلو فيها إلى كتاب الله وأحاديث النبى محمد ﷺ، وأمضى معها الزمن الطويل، أجتلى معانيها، وأتفهم مقاصدها وخصائصها وأحاول الغوص إلى أعمق أسرارها، وأمنّى النفس بالوصول إلى مغزى مراميها، والوقوف على كريم معانيها، فى هذه الساعات المباركات تشرق النفس، وتنسجم الروح، ويخفق القلب، تذرف العين الدمع وتمحى حدود الزمان، وتتسع معالم المكان، ولا يبقى إلا ما كان ذا صلة وثيقة بصاحب الوحى، وإنسان عين الوجود، محمد بن عبد الله ﷺ، فتحاول المخيلة أن ترسم صورة ذهنية له تستمدها مما وعته فى وصفه النقول، وما رأته رؤيا حق فى بعض سويعات الرضا، ولمح من أويقات القبول.

لقد كان نبينا الكريم محمد ﷺ حريص أشد الحرص على طلب العلم، حتى أنه جعله فريضة على كل مسلم ومسلمة وأخذ فى إهتمامه بالعلم مذهباً لا عهد للعالم به، ولا عرف الزمن شبيه له، لا من قبل الرسول ولا من بعده، فهو مذهب فريد فى قوته، وحيد فى عظمته، رائع فى اسلوبه آخاذ فى توجيهه، وهذا هو الدليل.

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذلك لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدث فى الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الخيلاء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة قائمة، تقتفى آثارهم ويقتدى بأفعالهم، وينتهى إلى آرائهم، ترغب الملائكة فى خلتهم - أى مصاحبتهم - وأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الإبصار من الظلم، يبلغ العبد من العلم منازل الأخيار، والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء»[1].

هذا هو مذهب الرسول فى العلم والإهتمام به والحث عليه. وإذا كان هذا الحديث المطول هو منهج النبى فى مجال العلم، فإنه لم يكن هو الحديث الوحيد، بل هناك أحاديث كثيرة فى هذا المعنى منها: عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ «يجاء بالعالم والعابد يوم القيامة، فيقال للعابد أدخل الجنة ويقال للعالم قف حتى تشفع للناس» رواه الأصبهانى وغيره.

والناظر فى هذين الحديثين يرى أنهما قد جمع كل مفاخر الدنيا والآخرة فى العلم، وجعلا طلبه عبادة، وعظماً من شأنه حتى دانت لهذه العظمة الملائكة فى عليائها، والسباع فى آجامها، والحيتان فى مائها، وكل شئ خلقه الله، سواء

(١) هذا الحديث رواه بن عبد البر النمرى فى كتاب العلم.

كان ذا روح أو كان جماداً أصم؛ وفى هذا يقول رسول الله ﷺ ... ويستغفر لهم - أى تطلبه - كل رطب ويابس.

وانظر إلى وصف الرسول للعلم بأنه: السلاح على الأعداء فإنك ترى أن النبى ﷺ، قد سبق العصر الحاضر بما يقر من أربع عشر قرناً فى وصف العلم، بأنه مصدر القوة ومرجع التفوق. وهذا الوصف لم يجر على الألسنة فى العصور الأخيرة، إلا بعد أن نهض العلم فعلاً نهضته الكبيرة، فأصبح وصفه بأنه «السلاح على الأعداء» تطبيقاً للواقع وتسمية للشئ بمقتضى ماله من آثار، فأما على عهده ﷺ فلم يكن هناك من الشواهد أو الملابسات القائمة ما يطوع لهذا الوصف إنما كان السر فى هذا الإشراق النبوى راجعاً إلى خصوصية إلهية فيه، تهديه إلى الحقائق، وتنير بصيرته حتى تستوعب عظمائه .. وما ينطق عن الهوى.

وظاهر أحاديث الرسول ﷺ فى فضل العلم يوحى بأن المقصود من العلم هو علم الكتاب والسنة والتفقه فى الدين، وينسحب أيضاً على العلوم الأخرى، الإنسانية منها، والطبيعية. إذ العلم فضيلة حيث كان، وفى أى فرع من فروع الحياة قام. ويحضرنا فى هذا المقام توجيه تقدم به الرسول ﷺ، إلى بعض أصحابه أن يتعلموا اللغة العبرية بعد هجرته إلى المدينة، وتعاهده مع يهودها. فقد خشى أن يعمد اليهود إلى ما عرف عنهم من الدس والكيد، فيثبتوا فى نسخة المعاهدة المكتوبة باللغة العبرية غير ما هو وارد فى نسختها باللغة العربية، ومن أجل ذلك كلف بعض الصحابة أن يدرسوا العبرية.

وليس من شك فى أن الباحث والباعث على هذا الضرب من العلوم، وهو دراسة اللغات ليس دينياً بحتاً، مثل العبادة المفروضة كالصلاة، وإنما هو باعث يمت إلى السياسة أكثر مما يمت إلى العبادة البحتة، أو هو باعث يسمى بلغة

العصر الحاضر «بسلامة الدولة».

وهذا يدفعنا إلى القول بأن ضرورة نشر اللغة العربية فى دول الغرب الأوروبى أمر لا محيد عنه لنشر الدين الإسلامى بين أولئك الغربيين. إذ أن اللغة العربية هى السبيل الوحيد لتفهم تلك الشعوب حقيقة الدين الإسلامى، لو أنهم قرأوا وتدبروا القرآن الكريم باللغة العربية لأن القرآن نزل باللغة العربية، ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً﴾ وأية لغة أخرى غير العربية لا يمكن لها أن تؤدى الغاية المرجوة من آياته الكريمة.

ومن التدابير الباهرة التى أنشأها الرسول ﷺ فى سبيل نشر العلم ما تعمده إثر غزوة بدر إلى تكليف فقراء الأسرى من قريش الذين عجزوا عن دفع الفدية أن يعلم كل واحد منهم عشرة من الصبيان القراءة والكتابة فدية له من الأسر، مع العلم بأن فدية الأسير فى هذه الواقعة كانت محددة بأربعة آلاف درهم، فكأن تعليم الصبى الواحد رصد له أربعة آلاف درهم، وكان الدرهم آنذاك ذا بال.

والإسلام فى صورته العامة يدعو إلى العلم، إذ كانت أولى آيات القرآن الكريم هى ﴿إقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم﴾.

ثم تتابع نزول القرآن على النبى وقد وردت فيه آيات كثيرة تدعو إلى العلم وتكرم أهله، وترفعهم إلى الدرجات العليا فى الدنيا والآخرة.

﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولوا الألباب﴾[1]. ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات﴾. ﴿نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم﴾. ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

(١) القرآن الكريم، سورة الزمر، آية ٩ .

واخبر الملائكة أنه اختار آدم ليكون خليفة الله فى الأرض يعمرها، ويكشف أسرارها، ويسخر لخدمته جميع ما فيها لهذه الخلافة بالعلم.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) ﴾[١].

ولما كان القرآن الكريم هو المصدر الأول والأساسى للإسلام والمسلمين «الناس جميعاً» ﴿إنا أنزلناك للناس كافة﴾ ثم يليه أحاديث النبى محمد ﷺ، فإننا سوف نعوّل فى هذا الفصل على هذا المصدر الذى لا يعتريه شك، خاصة من قبل المغرضين المضلين.

فكان فى تقدير العليم الحكيم، أن تكون الأرض مستقراً للإنسان، يستخلفه عليها فى أولاه، ومستودعاً يغادرها بعد حين إلى آخره، قال تعالى: ﴿ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾[٢]. ﴿وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع﴾[٣]. ﴿وإن الآخرة هى دار القرار﴾[٤].

فالإنسان مستصلح للدارين، أوجده الله فى الأولى ليؤدى مهمة فاستخلفه على الأرض ليعمرها، وابتلاه فى هذا الإستخلاف ليستصلحه للدار الآخرة، قال

(١) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآيات من ٣٠ إلى ٣٣ .

(٢) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ٣٦ .

(٣) نفسه، سورة الأنعام، آية ٩٨ .

(٤) سورة غافر، آية ٣٩ .

تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾[1]. ﴿وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم﴾[2]. ﴿هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض فمن كفر فعليه كفره﴾[3]. ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾[4]. وآيات كثيرة توضح الهدف من خلق الكون والإنسان، وما بينهما من علاقة تقوم أساساً على العلم والعمل به.

والإبتداء والإستخلاف هما خير وسيلة لأشرف غاية، ذلك أن كفاح الإنسان فى الحياة هو بوتقة التجربة والمعاناة، تتصارع فى نفسه خلالها نوازع الخير والشر، وفى هذا الصراع تكتمل الشخصية الإنسانية ذاتيتها المستقلة. فالنفس التى تتعرض لمختلف مشكلات الحياة فتعالجها بما ينبغى لها من حلول على هدى المثل العليا وأحكام الدين، والتى تعان الألم والمرض والأسى، فتبصر وتثبت وتطمئن وتسكن، إنما تتعلم وتتطهر وتتدرج فى طريق السمو الروحى، فتخرج من التجربة إن إجتازتها بنجاح، أكثر علماً وأوسع آفاقاً وأزكى عنصراً، وأطهر معدناً؛ على عكس النفس الغافلة المترفة الجزوع المتردية فى الجهالة والضلالة.

وهذا الناموس الإلهى، ناموس الإستخلاف فى الدنيا ثم الجزاء على قدر العمل فى الآخرة، إن خيراً فخيراً، وإن شراً فشر، هو الميزان الحق الذى يستقيم به الأمر فى الدنيا، دار الإستخلاف والعناء، والذى به تستكمل الشخصية الإنسانية ذاتيتها، وتتأهل للمرتبة التى تستحقها فى الآخرة، دار الجزاء والبقاء، ﴿يؤمئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل

---

(١) سورة البقرة، آية ٣٠ .

(٢) سورة الأنعام، آية ١٦٥ .

(٣) سورة فاطر، اية ٣٩ .

(٤) سورة الكهف، آية ٧ .

مثقال ذرة شراً يره﴾[1].

وتأمل قوله تعالى: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً، وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا، وليعلمن الكاذبين. أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقون، ساء ما يحكمون، من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم. ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه، إن الله لغنى عن العالمين، والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون﴾[2].

وكان من رحمة الله بالناس أن هداهم بالفطرة السليمة التى ركزها فيهم بالرسل، من حين إلى حين، كلما إنطمست فيهم البصيرة قال تعالى: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾[3].

وتتابعت الرسل والرسالات وسايرت التطور فى البشرية؛ فكان النبى محمد ﷺ قد بعث إلى الناس جميعاً بعدما كان الرسل قد نزلوا فى أقوامهم من قبل ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾، ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾، ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا﴾، ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا﴾، ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه﴾؛ ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآيتنا إلى فرعون وملئه﴾، ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم﴾.

أقول، لما تطورت البشرية فى بوتقة الصقل والإعداد فبلغت الدرجة التى تؤهلها لإستقبال النظام الكامل الذى ينظم الشئون الدنيوية والشئون الدينية

---

(١) القرآم الكريم، سورة الزلزلة، آية ٨٦ .

(٢) القرآن الكريم، سورة العنكبوت، الآيات من ٢-٤ .

(٣) سورة الشمس، آيتا ٩، ١٠ .

معاً، بعث الله محمداً بدين الإسلام، هدى ورحمة للعالمين ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[1]. ﴿قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً﴾[2]. ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾[3]. فهو دين يرد الناس إلى حظيرة التوحيد، بعد أن اختلت العقيدة، وحرَّف الناس الرسالة، أو عبدوا الرسول ﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾.

دين يحقق الأخوة البشرية، ويحقق الكرامة الآدمية، ويحطم التمييز العنصرى، «فلا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى»، ويقول تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[4]. دين يجمع بين القوة والسلام، والعلم والعمل، والدنيا والدين.

دين للبشر كافة، فى معاشهم ومعادهم، مؤمنهم وكافرهم، دين يقول عنه الدكتور/ نظمى لوقا (النصرانى) فى كتابه «محمد الرسالة والرسول» لقد تمت فكرة التوحيد، وتم خطاب العقل، وتم البلاغ إلى الناس كافة، أحمرهم وأسودهم، وتمت فيه كرامة الإنسان وصلته بربه ودنياه، وتركت لهم مصالحهم المرسلة يعالجونها على ذلك، حسبما يستجد لهم من أمور. فكل رسالة بعد ذلك قول معاد، ليس فيه جديد يستفاد. وبسبب طبيعة الرسالة وحاجة الناس الطبيعية إليها، كان من الطبيعى أن يكون هذا الرسول هو الخاتم، لأن رسالته هى خاتم الرسالات».

---

(١) سورة الأنبياء، آية ١٠٧ .

(٢) سورة الأعراف، آية ١٥٨ .

(٣) سورة الفتح، آية ٢٨ .

(٤) القرآن الكريم، سورة الحجرات، آية ١٣ .

قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[1].

وكان من الطبيعى ألا يحتكم هذا الدين الخالد إلا إلى العقل والمنطق والعلم، لإثبات صدق رسالة النبى محمد، وتحقيق أهدافها، ولا يعتمد هذا الدين على خوارق الطبيعة من المعجزات كما كان الحال بالنسبة إلى ما سبق من رسالات، وذلك من خلال طريقين أو سبيلين: السبيل الأول هو العلم، الذى هو نور يهدى إلى الإيمان، ثم يثبته ويقويه. والثانى أنه يدعو إلى السلام من منطق القوة، أو من منطلق القوة التى تنشر السلام وتؤدى إلى العمران، لا القوة التى تدمر وتحرق وتفنى. وهكذا، فالإسلام نظام يجمع بين القوة والسلام والدنيا والدين.

والعلم يخدم تلك الأغراض جميعاً بقوة، ومن هنا كانت مكانة العلم والعلماء من المنظور القرآنى، فحفل بالآيات التى تعلى من شأن العلماء، فيقول الله تعالى مؤكداً على ذلك ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[2]. وأيضاً ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾[3]، ﴿قل كفى بالله بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾[4]، ﴿ولكن الراسخون فى العلم منهم، والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك﴾[5]، ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[6]، ﴿إن الذين أوتو العلم من قبله

(١) نفس المصدر، سورة المائدة، آية٣ .
(٢) القرآن الكريم، سورة الزمر، آية ٩ .
(٣) نفسه، سورة العنكبوت، آية ٤٣ .
(٤) نفسه، سورة الرعد، آية ٣ .
(٥) سورة النساء، آية ١٦٢ .
(٦) سورة فاطر، آية ٢٨ .

إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾[١]، ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا له﴾[٢]، ﴿ويرى الذين اتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد﴾[٣]، ﴿بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم﴾[٤]، ﴿ويرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[٥]، ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم﴾[٦]، ﴿إقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم﴾[٧]، ﴿وقل ربى زدنى علماً﴾[٨]. وقال رسول الله ﷺ فى فضل العلم «فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى»[٩]. «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»[١٠]. «اطلبوا العلم ولو بالصين»[١١]. «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين، إنما أنا قاسم والله يعطى»[١٢]. «لا حسد إلا فى اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل اتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها»[١٣]. «لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير من أن تصلى مائة ركعة»[١٤]. «لا

(١) سورة الإسراء، آية ١٠٧ .
(٢) سورة الحج، آية ٦٤ .
(٣) سورة سبأ، آية ٦ .
(٤) سورة العنكبوت، آية٩ .
(٥) القرآن الكريم، سورة المجادلة، آية ١١ .
(٦) نفسه، سورة آل عمران، آية ١١٨ .
(٧) نفسه، سورة القلم، الآيات ١:٣ .
(٨) سورة طه، الآية ١١٤ .
(٩) الماوردى، الإحياء لأدب الدنيا والدين.
(١٠) البخارى ومسلم عن معاوية.
(١١) الماوردى، المرجع السابق.
(١٢) نفسه، نفس المصدر.
(١٣) نفس المصدر.
(١٤) نفسه، نفس المصدر.

ينبغى لجاهل أن يسكت على جهله، ولا عالم أن يسكت على علمه»[١]. «من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحى به الإسلام، فبينه وبين الأنبياء فى الجنة درجة واحدة»[٢]. «أفضل الناس المؤمن العالم الذى إن احتيج إليه نفع، وإن استغنى عنه أغنى نفسه»[٣]. «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد، أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل. وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل»[٤]. «العلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم»[٥]، «لكل شئ فطرة فمن كانت فطرته إلى العلم نجا»[٦]. «إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً، وترفع العبد المملوك حتى يجلس مجالس الملوك»[٧]، «كونوا علماء صالحين، فإن لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء، واسمعوا علماً يدلكم على الهدى، ويردكم عن الردى»[٨]. «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يطلب»[٩]. «إسترذل عبداً حظر علة العلم»[١٠].

وبنور العلم والعقل وقف سقراط على عتبة التوحيد، إذ يقول: «إن كل جزء من أجزاء هذا الكون يتجه نحو غاية، وتلك الغاية تتجه نحو غاية أعلى منها حتى يتم الوصول إلى نهاية مفردة وحيدة، وليس من الممكن أن يحفل ذلك على

(١) الماوردى، الإحياء لأدب الدنيا والدين.

(٢) نفسه، نفس المصدر.

(٣) نفسه، نفس المصدر.

(٤) الماوردى، الإحياء لأدب الدنيا والدين.

(٥) نفسه، نفس المصدر.

(٦) نفسه، نفس المصدر.

(٧) الماوردى، المرجع السابق.

(٨) نفسه، نفس المرجع.

(٩) نفسه، نفس المرجع.

(١٠) الماوردى، الإحياء لأدب الدنيا والدين.

سبيل المصادفة».

وكان سقراط رجلاً عالماً يستعمل عقله فى أوسع نطاق، حتى فى الشك ليصل إلى الحق. ومع ذلك كان يسمع لصوت غير صوت العقل أسماه الإشارة الإلهية. ففسر الحياة تفسيراً دينياً فقال: «إنها ليست النهاية» وفسر الموت فقال: «إنه دفن الجسد وحده، أما الروح فلها الخلود، آمن بربوبية قادرة، تدعو الناس إلى معرفة الحق وفعل الخير».

وانظر إلى الدكتور كورنين الإنجليزى، الذى آمن بالكون ونظامه، وأن نظام الكون وضع على أساس علمى سليم وقوى. هذا العالم الإنجليزى بدأ حياته ملحداً ثم إهتدى بالعلم، فهو يقول: «إذا تأملنا هذا الكون وأسراره وعجائبه ونظامه، ودقته وضخامته وروعته، لابد أن تفكر فى الله خالقه؛ من ذا الذى يتطلع إلى السماء فى ليلة صيف صافية، ويرى النجوم اللانهائية تتألق بعيدة عنه، فإنه يؤمن بأن هذا الكون لا يمكن أن يكون وليد المصادفة العمياء. وعالمنا هذا وهو يدور فى الفضاء فى حركة دقيقة منتظمة وفى فصول متتابعة، لا يمكن أن يكون مجرد كرة من المادة خالية من الدلالة، ألقيت فى الفضاء بلا معنى وبدون سبب؛ فلا شئ يخرج من لاشئ.

وانظر إلى العالم الفرنسى «لابلاس LaBlace» الفلكى إذ يقول: «إن القدرة التى شكلت الأجرام السماوية، وحددت كثافتها وأقطارها، ومداراتها بنظام مستمر إلى الأبد، لايمكن أن تنسب إلى المصادفة».

وهناك عالم إنجليزى آخر هو «آرثر كومبتون» أحد حائزى جائزة نوبل فى الفيزياء للكشوف الذرية يقول: «إننى فى معملى لا أعنى بإثبات الحقيقة بعد

الموت، ولكنى أصادف كل يوم قوى عاقلة تجعلنى أحس بإيذائها بأنه يجب علىّ أن أركع ساجداً إحتراماً لها.

وكذلك العالم «آدنجتون Adngetoun» إذ يقول: «إن وراء هذا الكون عدلاً مدبراً حكيماً، وهو العقل الأعظم، وروح سام وهى الروح الأعظم، هو الله سبحانه وتعالى.

وانظر إلى آينشتين أعلم علماء الأرض فى الكون وظواهره - حتى وقتنا الحاضر - يقول: «إن أعظم جائشة من جائشات النفس وأجهلها تلك التى تستشعرها النفس عند الوقوف فى روعة أمام هذا الفضاء الكونى؛ إن الذى لا تجيش نفسه لهذا، ولا تتحرك عاطفته هو حى كميت، إنه فضاء لا تستطيع أن تشق حجبه وأستاره، وظلام لا تستطيع أن تطلع فجره، ومع هذا، فتحرك لأن وراءه شيئاً هو الحكمة. أحكم ما تكون؛ وتحس أن وراءه شيئاً هو الجمال، أجمل ما يكون. وهى حكمة وهو جمال لا تسطيع أن تحركه عقولنا القاصرة: إلا فى صور لهما (الحكمة والجمال) بدائية وأولية، وهذا الإدراك للحكمة، وهذا الإحساس بالجمال فى روعته هو جوهر التعبد عند الخالق. ويقول اينشتين أيضاً: «إن دينى هو إعجابى فى تواضع بتلك الروح السامية التى لا حد لها. تلك التى تتراءى فى التفاصيل الصغيرة القليلة التى تستطيع إدراكها عقولنا الضعيفة العاجزة، وهو إيمانى العاطفى بوجود قدرة عاقلةٍ مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا فى هذا الكون المعجز للإفهام. إن هذا الإيمان يؤلف عندى معنى «الله»[1].

وهناك عالم إنجليزى آخر، يبين كيف إنحصرت موجة الإلحاد المادى التى طغت فى القرن الماضى فيقول: «أما الآن فالآراء متفقة إلى حد كبير فى الجانب

---

(١) دكتور/ أحمد زكى، كتاب مع الله فى السماء، حيث عرض لفكرة اينشتين.

الطبيعى من العلوم (العلم) يكاد يقرّ به بالإجماع، على أن تمر المعرفة بمبدأ يتجه نحو الحقيقة الغير مادية وغير آلية، وقد بدأ الكون يلوح أكثر شبهاً بفكرة عظيمة منه بآلة عظيمة.

والعالم الأمريكى الذى ذكر فى كتابه الذى سماه «الإنسان لا يقوم وحده» ذلك العالم الأمريكى «كريس موريسون» وقد ترجم هذا الكتاب محمود صالح الفلكى بعنوان «العلم يدعو للإيمان» انظر إليه إذ يدلل من واقع مختلف الحقائق العلمية، أن الله بادئ هذا الكون، وخالق كل شئ.

انظر إلى هذا العالم الأمريكى «كريس موريسون» المؤمن بالله إذ يختتم كتابه بقوله: «إن كون الإنسان فى كل مكان، منذ بدأ الخليقة حتى الآن، قد شعر بحافز يحفزه إلى أن يستنجد بمن هو أسمى منه وأقوى وأعظم، يدل على أن الدين فطرى فيه ويجب لأن يقرّ العلم بذلك. ويجب أن تأخذنا الروعة والدهشة والإجلال لإجماع البشر فى شتى أنحاء العالم على البحث عن الخالق والإيمان بوجوده، أوليست روح الإنسان هى التى تشعر بإتصالها بالله؟

ثم انظر إلى المرحوم الدكتور/ على مصطفى مشرفة فى كتابه «العلم والحياة» إذ يقول عن إرتباط العلم بالدين «وعندى أن ما وصل إليه الإنسان من العلم، وما يترتب على ذلك من قدرة وإكتشاف، إنما جاء على قدر الإنسان من العلم، وما يترتب على ذلك من قدرة وإكتشاف أيضاً، إنما جاء قدر طلبه الحقيقى، شغفه بالحق. كما أن حب الحق وحب الخير يتفرعان من حب الجمال. فالحق والخير جميلان. ذلك الجمال الذى يدركه طالب الحقيقة العلمية، فى ذلك التناسق البديع بين أجزاء الكون حتى أن «السير چيمس جينز» ليصفه بأنه فكرة عظيمة، أو إن شئت فقل إنها فكرة جميلة. ومن الخطأ الفاحش، أن يصور

العلم على أنه شئ مادى يعنى بالأجسام والمسافات والأبعاد وما إلى ذلك فقط. أو أن يقال أن العلماء يقفون عند المظاهر المادية العامة، إذ ببحثهم عن الحقيقة يسمون بعقولهم إلى المنتهى، وهم إذ يكشفون عن أسرار الكون، وتمتزج عندئذ نفوسهم بالحق والجمال.

ويقول فى موضع آخر من كتابه «إننا إذا نظرنا إلى حقائق الحياة وجدناها تدفعنا دفعاً إلى الإيمان بالقيم الروحية. بل إن العلم نفسه يقوم على إحدى القيم الروحية الأساسية، ألا وهى الحب والحق والجمال، والشغف بالحقيقة. فالعلم إذ ينظر إلى الحياة شغوف بأن يصورها تصويراً حقيقياً، وهو إذ يفعل ذلك، يقدم للإنسان أجل خدمة.

وليس من المنصف أن يصور علماء القرن الماضى وفلاسفته الحياة على أنها صراع بين القوى والضعيف، وتكلموا عن مبدأ بقاء الأصلح، - ويعنوا به الأقوى - وهذا تصوير خاطئ لا يرتكز على أساس علمى، بل الحياة تتدرج نحو السمو ونحو النور. وقد حدث فى تاريخ البشرية أن تغلبت القوى المادية على المدنية الروحية. ومن الأمثلة على ذلك ماحدث عند إنهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية؛ والدولة العباسية فى الشرق؛ إلا أن مثل هذه الإنتصارات كانت إنتصارات مؤقتة، ساعد عليها إنحطاط رجال الأمم المغلوبة وإبتعادهم عن المثل العليا الروحية؛ واليوم وقد إمتزج العلم بحياة الأمم والشعوب، فقد صار لزاماً على رجال العلم أن يرفعوا المثل العليا، وأن يبتعدوا عن الفلسفة المادية فى جميع صورها وأشكالها، كما صار لزاماً على الشعوب يثقلوا رسالة العلم، وأن يستعينوا بها على محاربة الشر.

إن حرصى على هذه التقدمة التى ربما تكون فى نظر البعض قد خرجت

عن النص، إلا أنها فى الواقع كانت ضرورية لإبراز قيمة العلم فى الإسلام، وكيف أن العلم والعلماء يشكل جانباً هاماً فى الحضارة الإسلامية.

فالإسلام دين القوة والحياة، يدعو المؤمنين إلى الأخذ بأسبابها، ومن هنا كانت حكمة الحديث الشريف: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شئ فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان».

والإسلام لا يرضى للإنسان أن يسلك مسلك الرهبانية والتبتل، لما فى ذلك من تعطل يتنافى مع عمران الأرض التى استخلفه عليها؛ كما يأبى الإسلام تكالب الإنسان على الجمع لنفسه، لما فيه من أثرة وطغيان مادى، وإنما يقيم نظامه على الإعتدال فى القصد بين الدين والدنيا، إلى الحد الذى يوفق بين حاجة الجسد المعتدلة وبين حاجة الروح، بلا إفراط ولا تفريط.

وليس كالعلم قوة تحقق هذه الغاية، فالعلم وحده يكشف أسرار الكون ويسخرها لمنفعة الإنسان، ويستخرج كنوز الأرض ويستغلها لخير البشرية؛ وبحكمة العلم تستقيم السياسة فتتجه وجهة الخير، والعلم يحفظ على الصناعة قوتها وشبابها. والعلم وحده هو السلاح بل أمضى سلاح فى محاربة اللعنات الثلاث، المرض، الجهل، الفقر.

من أجل ذلك كله حث القرآن الكريم على العلم، ووجه النظر إلى البحث فى الكائنات والتعرف على خصائصها وأسرارها والإنتفاع بها فى بناء الحياة السليمة.

وقد ربط القرآن فى الوقت ذاته بين العلم والعبادة التى من أجلها خلق الله الجن والإنس، وغنى عن القول، أن عبادة الله تحقيق إرادته فى عمارة أرضه، وإظهار أسراره الدالة على عظمته ووحدانيته، وإستحقاقه وحده للعبادة، والإحسان فى هذا كله إنما هو شكر لله على نعمائه، وهو خير عبادة يتقرب بها العبد الشاكر إلى الله. أما إذا تنكب الجادة وسخر علمه فيما يحقق لنفسه الطغيان على بنى جنسه، كان كافراً بنعمة الله.

ومثل الأول كمثل سليمان عليه السلام، وهب الله له حكماً وعلماً وسخر له الريح والجن، وعلمه منطق الطير والحيوان، قال تعالى: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾[1]، ﴿ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره﴾[2]، ﴿وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير﴾[3]، ﴿قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر﴾، وقال الله تعالى: ﴿ربى أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾[4].

ومثله كذلك كمثل ذى القرنين مكن له لله فى الأرض، وآتاه من كل شئ سبباً فاتبع سبباً، أقام العدل فى أرض الله، وحارب الفساد والمفسدين، واستخدم علمه فى إقامة السد، ليمنع القوم المستضعفين من شرّ يأجوج ومأجوج، ولم يقبل خرجاً على علمه شكراً له على ما مكنه فيه.

وللعلم فى القرآن منهج يقوم على أساس النظر والإستقراء ثم الإستنباط والتحليل، وهذه الأركان فيحد ذاتها هى أساس المنهج العلمى السليم الذى استقر

(١) القرآن الكريم، سورة النمل، آية ١٥ .

(٢) نفسه، سورة الأنبياء، آية ٨١ .

(٣) سورة النمل، آية ١٦ .

(٤) سورة النمل، آية ١٩ .

عليه العلماء، سواء فى العلوم الإنسانية أو العلوم التجريبية التى تقوم على أساس التجربة والاستنتاج.

وهذا المنهج العلمى فى القرآن يقوم على المشاهدة والبرهان الحسى والتفكير المنظم المبنى على الواقع. ويحدثنا الدكتور المصرى على مصطفى مشرفة «أن الغرب يزعم أن الفضل فى صياغة هذا المنهج المستحدث يرجع إلى العالم الإنجليزى السير «فرنسيس بيكون» الذى ألف كتاباً باللاتينية عام ١٦٣٠م، "Novum Orgnnum" «أى الأداة الجديدة» وقوام هذا المنهج المشاهدة والتجريب واختبار المقدمات وتمحيصها وسلوك سبيل الحس والمشاهدة والعناية بالحقيقة الخارجية وإطراح التقاليد والإذعان.

والقرآن الكريم حافل بالآيات التى تأمرنا بالنظر فى الظواهر المحيطة بنا، وتحضنا على استخدام العقل والحواس معاً، والتأمل فى ملكوت الله، وقد سفه الله التقليد والإذعان وجرى الخلف وراء السلف دونما نظر أو برهان. يقول تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[١]. ولذلك فإن الإسلام يحث المسلمين على البحث والتأمل والتفكر وإعمال العقل، وحظر إتباع الظن وجعل البرهان والحجة أساس الإيمان. يقول تعالى: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، إن تتبعون إلا الظن، وإن أنتم إلا تخرصون﴾[٢]. ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً﴾[٣]. ﴿وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا

(١) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ١٧٠ .

(٢) نفسه، سورة الأنعام، آية

(٣) نفسه، سورة يونس، آية ٣٦ .

يغنى من الحق شيئاً﴾[1]. ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾[2].

وآيات النظر والتدبر فى القرآن كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض﴾[3]. ﴿افلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من خروج، فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا﴾[4]. ﴿فلينظر الإنسان مما خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر﴾[5]. ﴿افلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾[6]. ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحى الأرض بعد موتها﴾[7]. ﴿انظر إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾[8]. ﴿قل أنظروا ماذا فى السموات والأرض﴾[9]. ﴿قل سيروا فى الأرض فأنظروا كيف بدأ الخلق﴾[10].

فالقرآن يأمر باستخدام العقل وسائر الحواس إستخداماً أساسه المشاهدة ثم التأمل فالإستنتاج، وهو منهج علمى سليم قامت على أساسه تجارب العلماء فى مجال العلوم الإنسانية والطبيعية وتوصلوا إلى نتائج مبهرة فى الكون وفى أنفسهم. ذلك أن مثل هذا المنهج فيه رؤيا للعين، وسمع للأذن، وتدبر بالعقل،

---

(١) سورة النجم، آية ٢٨ .

(٢) سورة الإسراء، آية ٣٦ .

(٣) القرآن الكريم، الأعراف، آية ١٨٥ .

(٤) نفسه، سورة عبس، آية

(٥) نفسه، سورة الطارق، آية

(٦) القرآن الكريم، سورة الغاشية، آية

(٧) نفسه، سورة الروم، آية٥٠ .

(٨) نفسه، سورة الأنعام، آية ٩٩ .

(٩) القرآن الكريم، سورة يونس، آية ١٠١ .

(١٠) نفسه، سورة العنكبوت، آية ٢٠ .

فهذا هو منهج الإستقراء ومنهج العلم الصحيح الذى أمر الله به فى قرآنه المجيد، وقد نبه القرآن إلى هذه الحواس، ودل على نعمة الله على الإنسان إذ منحه إياها ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلم تشكرون﴾[١]. ﴿ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتيين وهديناه النجدين﴾[٢].

كما نبه القرآن إلى ما سمى فى العلم الحديث بالمنطق الرياضى، وهو غير المنطق العادى، بل هو أعمق منه غوراً، وأبعد اثراً، وقواعده مبنية على البديهيات الأولية التى أصبحت نظريات رياضية، يعرفه كل من يعمل فى مجال الرياضيات ويستخدمها فى إستنتاجاته، فيستخرج المجهول من المعلوم عن طريق الرموز، مستعيناً بالبديهيات فى علوم الجبر والهندسة والرياضيات عموماً. ولعل هذا هو أعجب ملكات الإنسان، فهو يدرس رموزاً لا يهمه معناها، ويستنتج بواسطة منطقه الرياضى وبالقلم والقرطاس نظريات للعمل بهذه الرموز، ويصنفها أسفاراً فى الرياضة البحتة، حتى إذا جاء بعده مهندس كهربائى مثلاً استعمل هذه النظريات فى تصميم شبكات التوصيل، ومحطات التوليد؛ وهو ضامن للنتيجة التى يصل إليها قلمه كما يضمن مثل هذه النتيجة الصحيحة عالم الفلك أيضاً إذا استعمل هذه النظريات فى حساب أوقات الكسوف والخسوف قبل أن تحدث. وبهذا المنطق الرياضى وبالقرطاس والقلم، صنف «ماكسويل» قوانين الكهرباء المغناطيسية؛ ومنها استنتج أن الذبذبات فى المجال المغناطيسى تنتقل بسرعة الضوء، وهى ١٨٠ ألف ميل فى الثانية فى كل أجزاء الكون، واعتمد العالم «هارتز» ومن بعده «ماركونى» على ذلك فى الإكتشافات اللاسلكية، وفى إرسال هذه

---

(١) القرآن الكريم، سورة النحل، آية ٧٨ .

(٢) نفسه، سورة البلد، آية

التموجات إلى كافة أنحاء العالم، وهذا العلم الحديث، علم اللاسلكى إنما نبه عليه قلم (ماكويل) فى القرن التاسع عشر.

وبالقلم والقرطاس صنف «آينشتين» معتمداً على المنطق الرياضى، قوانين النسبية؛ ومنها أن إستنتاج المادة التى يمكن تحويلها إلى طاقة وبالعكس يمكن لوحدة المادة أن تعطى مربع سرعة الضوء من الطاقة. واعتمد الرياضيون على معادلاته فى فتق الذرة، وتحويل المادة إلى طاقة، رفعت الجبال، ودكت الحصون وسيرت السفن، وحفرت الأنفاق، وأزالت المدن من الوجود[1].

إذا علمت هذا، فتدبر قول الله تعالى: ﴿الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم﴾ وهى أول سور القرآن نزل بها الوحى على نبينا محمد ﷺ، وتدبر كذلك قوله: ﴿والقلم وما يسطرون﴾ فأقسم عز جل بالقلم والقرطاس. وما كان هذا القسم العظيم إلا لعلم الله بما أودعه إياهما من أسرار ستكون بالغة الأثر فى مستقبل البشرية ... ألا نحنى الرأس بعد ذلك إجلالاً لإعجاز القرآن فى هذا الشأن. وألم يكن ذلك هو أكبر الأثر على الحضارة الغربية فى مجال التقدم العلمى، بل أفضل من هذا دخول علماء ومفكرين كثيرين فى الإسلام، فأى حضارة اسمى من تلك الحضارة الإسلامية العظيمة.

أما عن مجال العلم فى القرآن الكريم، فهى كثيرة ومتنوعة، ذلك أن إعجاز القرآن الكريم يعتبر علماً شاملاً، لا يختص بعصر دون عصر، ولا يقوم دون قوم، ولئن أنزله الله فى قوم النبى محمد (جماعة الأميين) وهم أرباب الفصاحة والبيان، بعربية معجزة بهرتهم وبهتتهم، إنه كان أساساً كتاب نور وهدى وعلم وإرشاد إحتوى على المبادئ السامية والمثل العليا ما تصح به النفس البشرية

(١) انظر كتاب صلاح خشبة، العلم والإيمان.

وتتطهر وتتزكى، وتبلغ القمة فى السمو الروحى، كما إحتوى من الأصول الكلية ما يصلح الناس ويصلح لهم فى كل مكان وزمان، وإحتوى من الآيات الكونية ما ينبه الأذهان ويوجه النظر فى البحث والتنقيب واستكناه لحقائق الأشياء، واستكشاف أسرار الكون وتطبيقها فيما ينفع الناس، وإستغلال ثروات الأرض وما أودعها الله من كنوز وقوى كونية، قال تعالى: ﴿ما فرطنا فى الكتاب من شئ﴾[1]. ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾[2]. ﴿ولقد ضربنا فى هذا القرآن من كل مثل﴾[3]. ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾[4]. ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[5]. ﴿بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم﴾[6].

فالعلم فى القرآن الكريم، كل أنواع المعرفة ومجالاتها التى تتصل بكل ما ينفع الناس، فى دينهم ودنياهم، فى معاشهم وفى ميعادهم فى أجسامهم وفى أرواحهم .. وهذا أمر طبيعى، بإعتباره نظاماً كاملاً خالداً للبشرية كافة ينظم شئون الدين والدنيا معاً، وليس أبلغ فى مجال العلم بعد القرآن الكريم من قول صاحب الرسالة محمد ﷺ عندما يقول: «إن الله أنزل علىّ القرآن آمراً وزاجراً، وسنة خالية، مثلاً مضروباً فيه نبؤكم وخبر ما كان قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلقه طول الرد، ولا تنقض عجائبه، هو الحق ليس بالهزل، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فلج، ومن سلم به أقسط، ومن عمل

(١) القرآن الكريم، سورة الأنعام، اية ٣٨ .

(٢) نفسه، سورة النحل، اية ٨٩ .

(٣) نفسه، سورة الروم، آية ٥٩ والزمر ٣٧ .

(٤) القرآن الكريم، سورة الإسراء، اية ٨٢ .

(٥) نفسه، سورة الأعراف، اية ٥٢ .

(٦) القرآن الكريم، سورة العنكبوت، آية ٤٩ .

به أجر، ومن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم؛ ومن طلب الهدى من غيره أضله الله، ومن حكم بغيره قسمه الله، هو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، وحبل الله المتين، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه لا عوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقض عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد»[1]. وفى الحديث القدسى؛ قال الله تعالى لمحمد ﷺ: (إنى منزل عليك توراة حديثه تفتح بها أعين عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً وفيها ينابيع العلم، وفهم الحكمة وربيع القلوب﴾[2].

ويقول عز وجل فى سورة البينة ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة، فيها كتب قيمة﴾ فما الكتب القيمة إلا ينابيع العلم وفهم الحكمة وربيع القلوب كما بين الرسول ﷺ، فليس إعجاز القرآن مقصوراً على حسن تأليفه، وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة لعادة العرب، مع ما خصّوا به من البلاغة والفصاحة وعلى صورة نظمه العجيب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها وسجعها ورجزها وهزجها وقريضها ومبسوطها ومقبوضها، كما قال الوليد بن المغيرة لقريش عن إجتماعهم، ولا على ما إنطوى من الأخبار بالمغيبات فوقع، ولا على ما أنبأ به من القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع المندرسة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا من مارس العلوم من أهل الكتاب وإطلع على الكتب المنزلة القديمة، ولا على الروعة التى تلحق قلوب سامعيه عند سماعه والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته.

قال تعالى: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم

---

(١) النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ١٨، ص٣٠٨ .

(٢) نفسه، نفس المصدر والجزء، ص٣٠٨-٣٠٩ .

وقلوبهم إلى ذكر الله﴾[1]. وقال عز وجل: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾. ولا على كونه آية باقية للتقدم ما بقيت الدنيا، وقد تكفل الله بحفظه فقال: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[2]. ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾[3]. وسائر معجزات الأنبياء إنقضت بإنقضاء أوقاتها، فلم يبق إلا خبرها. ولا على أن قارئه لا يمل قراءته، وسامعه لا تمجه مسامعه، بل الإكباب على تلاوته وترديده يزدى حلاوة وعزوبة ومحبة، ولا على أن الله تعالى يسّر حفظه لمتعلميه وقربه إلى متحفظيه، بل أمر تدبره وتأمله، قال تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾[4]. ولا على مشاكلة بعض أجزائه بعضاً وحسن إئتلاف أنواعها وإلتئام أقسامها وحسن التخلص من قصة إلى أخرى، والخروج من باب إلى غيره على إختلاف معانيه، بل إعجازه يشمل مع كل هذا، جمعه لعلوم ومعارف لم يعهدها العرب ولا علماء أهل الكتاب، ولم يشتمل عليها كتاب من كتبهم، فاحتوى حقائق الأشياء وكان أصلاً لسائر العلوم[5].

وليس المقصود من ذلك أنه اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلاً بالأسلوب التعليمي المعروف، وإنما المقصود أنه أتى بأصول عامة لكل ما يهم الإنسان معرفته لإصلاح دينه ودنياه، ولبلوغه درجة الكمال جسداً وروحاً؛ وترك لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ليبينوا للناس جزئياتها.

---

(١) القرآن الكريم، سورة الزمر، آية ٢٣ .

(٢) نفسه، سورة الحجر، آية ٩ .

(٣) نفسه، سورة فصلت، آية ١٣ .

(٤) القرآن الكريم، سورة القمر، آية

(٥) النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ١٨، ص٣٠٢ وما بعدها.

ويقول الدكتور/ عبد العزيز إسماعيل فى كتابه (الإسلام والطب الحديث) «أن القرآن ليس بكتاب طب أو هندسة أو فلك، ولكنه يشير أحياناً إلى سنن طبيعية ترجع إلى هذه العلوم، وبما أنه صادر من واضع السنن كلها، كان جميع ما جاء فيه حقاً لا شبهة فيه. وإن لم يكن مدركاً وقت نزوله إلا عن طريق الإجمال والتأويل لعدم إستبحار العلوم وقتذاك، ولكن مع الترقى فى العلوم، قلما كان يعمد إلى تأويله، وكثر ما وجب أخذه على ظاهره فى ذلك العهد.

ولذلك ظهرت جهود محمودة فى هذا الميدان «ميدان العلم والعلماء» منها ما قام به الدكتور/ صلاح الدين خشبة فى رسالته «العلم والإيمان» والأستاذ/ محمد محمود إبراهيم فى رسالته «إعجاز القرآن فى علم طبقات الأرض» وجهود الاستاذ/ عبد الرازق نوفل فى كتابه «الله والعلم الحديث»، «الإسلام والعلم الحديث، «القرآن والعلم الحديث»، وكذلك ما نبه إليه الدكتوران/ محمد جمال الأفندى، ومحمد يوسف حسن فى كتابهما «قصة السموات والأرض» وفى الأيام الأخيرة ما قام به الدكتور/ مصطفى محمود من نشر مجموعة من الكتب التى تتصل بالقرآن والدين الإسلامى والله عز وجل، وربط بين هذه الكتب والعلم الحديث وأكد الدكتور مصطفى محمود فى كُتبه وبرامجه المرئية فى الفضائيات على أن ما تم إكتشافه ويجرى إكتشافه وما سيتم فى المستقبل من إكتشافات على الأرض أو فى أعماق البحار أو فى المحيطات أو حتى فى الفضاء الخارجى حتى عنان السماء، إنما هو أمر ليس بجديد بل هو إكتشاف لما هو كائن بالفعل، وأن العلم هو السبيل إلى إظهار ما غمض حسبما أخبرنا الله فى كتابه الكريم[1].

(١) ذكرنا فى كتاب لنا تحت عنوان «مفكرون غربيون ... لماذا اسلموا: أن العلم هو السبيل الوحيد لهداية العالم بعدما منع الله نزول أنبياء أو رسل بعد وفاة سيد البشرية محمد بن عبد الله. وكان من أهم النتائج التى توصلت إليها فى الكتاب هذا، أنه لا دين غير= =

ومن أهم كتبه فى هذا المجال كتاب «رأيت الله»، «القرآن كائن حى»، و «العلم والإيمان» وغيرها كثير. هذا بالإضافة إلى ما يقوم به الآن العالم الجليل الدكتور/ زغلول النجار عالم الفلك، والذى اسلم على يده العديد من علماء الغرب ممن تفهموا حقيقة الدين الإسلامى من خلال لقاءات وشروحات من قبل هذا العالم المصرى لهؤلاء الأجانب من العلماء. وإذ نحمد الله لجهد هؤلاء جميعاً، وهم على سبيل الذكر لا الحصر لأن علماء المسلمين فى كل بقاع الأرض يؤدون واجبهم على وجه حسن.

لقد اشتمل القرآن الكريم فى مجال العلم، أو بمعنى أدق فى مجال العلوم الطبيعية على ٧٥٠ آية كونية من جملة آيات القرآن التى بلغت ٦٢٣٦ آية قرآنية، إحتوت الآيات الكونية على ما يتصل بحقائق علمية فى مجال الفلك والطبيعة والرياضيات، والأحياء وعلم النبات والحيوان وطبقات الأرض والأجنة والوراثة والصحة العامة والصحة الوقائية والتعدين والصناعة والتجارة والمال والإقتصاد .. إلخ. واحتوت باقى الآيات على الأصول والأحكام فى المعاملات وعلاقات الأمم والشعوب فى السلم والحرب وفى السياسة والحكم، والعدالة الإجتماعية والتضامن الإجتماعى وكل ما يتصل ببناء المجتمعات؛ وفى رسم القرآن صور لشخصية المسلم المتكامل[1] خلقاً وعلماً وأدباً. وفيما يجب أن يحتذيه من المثل العليا، وما يتحلى به من كلام الأخلاق.

وهذا كله بخلاف العبادات والعقائد والتكاليف، وبخلاف القصص وما

الدين الإسلامى نزل من السماء إلى الأرض؛ وأن العلم هو الرسول الوحيد بعد خاتم الأنبياء لهداية البشرية، خاصة على أيدى غير المسلمين ليهتدوا. المؤلف.

(١) د. عبد اللطيف عبد الهادى السيد، موسوعة التاريخ الإسلامى، جـ٢، الفصل الأخير.

إحتواه من المواعظ والإعتبار والأمثال، غير ذلك فى مختلف مناحى الحياة مما كان محلاً للدراسة والإستنتاج والتخريج والتأصيل والبحث والتنقيب وكان أساساً لعلوم الفقه والتفسير والحديث والأصول والأخلاق والإجتماع والبلاغة والأدب وغيرها. سواء أكانت عقلية أونقلية وكانت معانيه واضحة دائماً كالماء الصافى الزلال فى بللورى الإناء؛ ومهما تشكل الماء بلون الإناء بحسب الزمان والمكان، فهو نفس الماء الذى لا يتغير لونه، ولا ينضب معينه، ولا تنقص عجائبه ولا يخلقه طول الرد، كما قال الرسول ﷺ؛فهو من العمق والإتساع والعموم والشمول بما يمكن البشر تفهمه، أياً كان مبلغهم من العلم. وفيه أيضاً ما يفى بحاجتهم فى كل عصر. يتجاوب فى يسر مع أهل البداوة لأنه لا يلتوى على الإفهام، ويبهر فى عمقه أهل المدنية الذين صعدوا فى سلم الرقى، وبرعوا فى فنون العلم والمعرفة لأنه يزخر كما يزخر البحر، وفى قاعة الدرر واللآلئ لمن استطاع الغوص إليها فى الأعماق، أليس هو من عند الله؟ ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾.

أما عن العلوم الدينية:

فقد قامت فى الأساس على تفسير القرآن وأحاديث النبى ﷺ، وهو ما عرف بالفقه الإسلامى أو العقائد الإسلامية أو ما عرف بعلم الكلام الإسلامى؛ وكانت جميع كتب الكلام عند جمهور الأمة الإسلامية تتناول بعض الموضوعات الفقهية، وقد تحررت من الفقه فى القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى. ومرجع الفضل فى حدوث هذا التغيير يرجع إلى المعتزلة الذين كانوا طول القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى يعالجون مسائل كلامية محضة؛ وهم فى القرن الرابع

الهجرى يضطرون خصومهم إلى الإجابة عن هذه المسائل. وكانوا أول فرقة إسلامية تحررت من نزعات الفقهاء كلها، فكانوا هم الفرقة «الكلامية» الوحيدة[1] التى تعالج الكلام وحده بين الفرق الخمس الكبرى التى كان المسلمون منقسمون إليها آنذاك وهى، أهل السنة والمعتزلة والمرجئة والشيعة والخوارج[2]. وقالوا إن كل مجتهد مصيب فى الفروع[3]؛ وكان منهم رجال فى جميع المذاهب الفقهية حتى بين الحديث وأصحابه الذين يعتبرون ألدّ أعداء المتكلمين[4] عادة. ومن جهة أخرى كان الصوفية خصوماً ألداء لجميع الفقهاء ولم يقنعوا قط من التشنيع عليهم. وقد عبروا عن إحتقارهم لعلم الفقه الذى يسمونه علم الدنيا تعبيراً قاسياً. ومن أمثلة ذلك ما يقوله «المكى» المتوفى سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م أخذاً عن السيد المسيح عليه السلام، فهو يقول: «وروينا عن عيسى عليه السلام: مثل علماء السوء مثل صخرة وقعت على فم النهر، لا هى تشرب الماء، ولا تترك الماء يخلص إلى الزرع» وكذلك علماء الدنيا، قعدوا على طريق الآخرة، فلا هم نفذوا ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله عز وجل، قال: ومثل علماء السوء كمثل قناة الحش، ظاهرها حسن وباطنها نتن، ومثل القبور المشيدة ظاهرها عامر، وباطنها عظام الموتى[5].

وقد إنتصر الصوفية فى هذا الباب. ففى القرن التالى جاء الغزالى أمام جمهور المسلمين المتأخرين، فجاهر بأن علم الفقه دنيوى لا دينى[6]. ونجد بين

---

(١) المقدسى، ص٣٧ .

(٢) ابن حزم مثلاً، جـ٢، ص١١١ .

(٣) ابن المرتضى، المعتزلة، ص٦٣، المقدسى، ص٣٨ .

(٤) المقدسى، ص٤٣٩ .

(٥) ابو طالب المكى، قوت القلوب، جـ١، ص١٤١، طبعة مصر ١٢١٠هـ.

(٦) Goldziher. Zahirifen, pp. 181-182.

الصوفية طوائف كثيرة ترفض العلوم جملة، حتى أنه يروى عن أبى عبد الله بن خفيف المتوفى عام ٣٧١هـ/ ٩٨١م أنه كان يوصى الناس بأن يشتغلوا بالعلم ولا يغتروا بكلام الصوفية. ويقال أنه كان يخبئ المحبرة والورق فى ثيابه، ويذهب إلى أهل العلم خفية، فإذا علم به الصوفية خاصموه وقالوا: «لا تفلح»[1]. وقد فرّق الصوفية مرة أخرى بين المعرفة (أى علم الحقائق) وبين العلم (أى العلوم المألوفة للناس). يقول الحلاج المتوفى عام ٣٠٩هـ/ ٩٢٢م مستهزئاً بالعلم: «يا عجباً ممن لا يعرف شعره فى بدنه كيف تنبت سوداء أم بيضاء، كيف يعرف مكنون الأشياء، من لا يعرف المجمل والمفصل، ولا يعرف الآخر والأول والتصاريف والعلل، والحقائق والحيل لا تصح له معرفة من لم يزل».

ويحكى الحلاج فى موضع آخر: «رأيت طيراً من طيور الصوفية عليه جناحان وأنكر شأنى حين بقى على الطيران، فسألنى عن الصفا، فقلت له: «إقطع جناحك بمقارض الفناء، وإلا فلا تتبعنى فقال: بجناح أطير فقلت له: ويحك ليس كمثله شئ وهو السميع البصير. فوقع فى بحر الفهم وغرق»[2]. لكن نجد قوماً آخرين كالجنيد المتوفى سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م، يصرحون بأن العلم أرفع من المعرفة وأتم وأشمل[3]. ونجد بين العلماء كالشافعية مثلاً كثيراً من الصوفية، وهذه حقيقة واقعة. وكانت علوم الصوفية الدينية أهم العلوم وأكثرها نجاحاً. فقد كانت هى الحركة العلمية التى ضمت أعظم القوى الدينية فى ذلك العهد. والحركة الصوفية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين أوجدت فى الإسلام ثلاثة مبادئ أثرت فيه تأثيراً كبيراً وهى: ثقة وطيدة

---

(١) Amedroz, notes on some suffilires. JRAS, p. 566

(٢) الحلاج، كتاب الطواسين، طبعة باريس ١٩١٣م، ص٣٠، ٧٢ .

(٣) نفسه، نفس المصدر، ص١٩٥ .

كاملة بالله تعالى، والإعتقاد بالأولياء وإجلال النبى محمد ﷺ. ولا تزال هذه المبادئ الثلاثة أهم العوامل وأقواها تأثيراً فى الحياة الإسلامية[١]. وقد زاد الإقبال على دراسة القرآن والحديث لأن ذلك واجب من أول الواجبات المفروضة على كل مسلم ومسلمة[٢]. ولكن نشأ فى القرن الرابع رسم جديد، وهو الذى يجيز للإنسان رواية الحديث من غير لقاء رجاله، ومن غير إجازة مكتوبه تخوله حق الرواية[٣]. وبهذا حلت دراسة الكتب محل الأسفار التى كان يقوم بها طلاب الحديث من قبل للقاء رجاله (أى متخصصيه). وقد استطاع ابن يونس الصفدى المتوفى عام ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م أن يكون إماماً متيقظاً حافظاً للحديث، وإن كان لم يرحل ولا سمع بغير مصر[٤]. وكان مثل العالم الذى يطلب الحديث مثل التاجر أو عامل السلطان فى كثرة غشيانه للخانات التى يأوى إليها المسافرون أو فى طوافه فى السكك. وهكذا بقى شأنه فى الحركة والتجوال زمناً طويلاً. وفى سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م، توفى ابن منده «خاتمة الرحالين» الذين رحلوا لسماع الحديث، وقد جمع ألفاً وسبعمائة حديث. ورجع إلى وطنه ومعه أربعون وقراً من الكتب[٥]. ويقول أبو حاتم السمرقندى المتوفى سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م، لعلنا كتبنا عن ألف شيخ ما بين الشاش والإسكندرية[٦]. ويروى عن أبى يعقوب القراب السرخسى المتوفى سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م، أنه طلب الحديث فأكثر حتى زاد عدد شيوخه على ألف ومائتى شيخ[٧]. على أن الغزالى على شهرته، ومع أنه صار أكبر حجة للعلم عند أهل

(١) انظر الفصل بالمذاهب فى الإسلام.

(٢) السمرقندى، بستان العارفين على هامش تنبيه الغافلين، ص٣ .

(٣) السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٦٤ .

(٤) الزرقانى، جـ١، ص٢٣٠ .

(٥) Goldziher, Muh. Studien, II, p. 180

(٦) السبكى، جـ٢، ص١٤١ .

(٧) نفس المصدر، جـ٣، ص١١٤ .

القرون التى جاءت بعده، لم يسافر فى طلب العلم إلا قليلاً: فقد خرج من بلدة طوس وسمع بجرجان فى الشمال، ودرس فى نيسابور، وكانت أكبر مدينة علمية فى بلاده، وهذا كل ما عرف من أسفار لطلب العلم. وقد بين صاحب بستان العارفين[1] فى القرن الرابع إختلاف الآراء فى هذا الباب أوضح بيان. ومن أمثلة النقد الذى وجه للمتحدثين، أن التوبختى يصف أبا الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الأغانى، والمتوفى عام ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م، وهو الذى سمع منه الدارقطنى المحدث المشهور بأنه أكذب الناس لأنه: «كان يدخل سوق الوراقين، وهى عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب فيشترى شيئاً كثيراً من الصحف، ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها»[2]. على أن المحدثين كانوا يعتبرونه أكبر العلماء شأناً. وكانوا يعدونه من أعظم رجال الإسلام، ولا يفوت المؤرخين ذكر وفاتهم إلى جانب القليلين الذين يختارون ذكرهم؛ ويقصون من الحكايات العجيبة التى تدل على مقدرتهم فى الحفظ. فيحكى أن عبد الله بن سليمان بن الأشعث المتوفى سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م كان محدث العراق، وكان يحدث فى دار الوزير على بن عيسى، وقد نصب له السلطان منبراً حدث عليه، وقد خرج إلى سجستان، فسأله أهلها أن يحدثهم فقال: «ما معى أصل، فقالوا: ابن أبى داود وأصول فأملى عليهم من حفظه ثلاثين ألف حديث. فلما قدم بغداد قال البغداديون «مضى ابن ابى داود إلى سجستان ولعب بالناس، ثم أرسلوا وفداً بستة دنانير إلى سجستان ليكتب لهم النسخة فكتب وجئ بها، وعرضت على الحفاظ فخطأوه فى ستة أحاديث، لم يكن أخطأ إلا فى ثلاثة منها[3].

---

(١) السمرقندى، بستان العارفين ص٢٨-٢٩ .

(٢) تاريخ بغداد، طبعة كرنكر، انظر: . JRAS. 1912, p. 71

(٣) Goldziher, Mum. Studens. II, p. 200

وكان قاضى الموصل يحفظ مائتى ألف حديث عن ظهر قلب[1]. وقد توفى عام ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م. وفى سنة ٤٠١هـ/ ١٠١٠م مات بمصر الحافظ بن ميسر، وكان عنده درج طويل طوله سبع وثمانين ذراعاً مملوء الوجهين فيه أوائل ما يحفظه من الأحاديث[2].

أما من حيث السرعة فى تعلم الحديث، فنستطيع معرفة ما روى عن الخطيب البغدادى أنه قرأ صحيح البخارى على كريمة بنت أحمد المروزى فى خمسة أيام[3]. وكان أكبر محدثى القرن الرابع هما أبو الحسن على الدارقطنى المتوفى سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م، والحاكم النيسابورى المتوفى عام ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م، وقد خلفهما فى القرن الخامس أبو بكر الخطيب البغدادى المتوفى عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م. وقد وجدوا من كتب الحديث التى جمعت فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى موضوعاً لبحثهم بما كان فى هذه الكتب من تبويب وما كان فيها من تناقض. ولذلك قاموا بتأليف كتب جديدة فى الحديث، فمثلاً ألف الدارقطنى كتاباً فى السنة. وقد استدعاه الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات من بغداد وبره بمال كثير، وأنفق عليه نفقة واسعة وخرج له المسند، وكان لهذا الوزير مجالس إملاء كتبها الدارقطنى وآخر معه وخرجاها[4]؛ أو قاموا بتأليف الإستدراكات أو المستدركات كما فعل الدارقطنى والحاكم، لإعتقادها أن كثيراً من الحديث الصحيح قد فات جامعية الأولين.

---

(١) سكردان، السلطان على هامش المخلاة، ص١٨٨ .

(٢) السبكى، طبقات، جـ٣، ص٦٦-٦٧ .

(٣) ياقوت، الإرشاد، جـ١، ص٢٤٧ .

(٤) ياقوت، الإرشاد، جـ٢، ص٤٠٨ .

كما ظهرت كتب جديدة فى القرن الرابع الهجرى، تعالج تصحيفات الحديث ومنها كتب للخطيب البغدادى والدارقطنى[1]. وقد إعتنى نقاد الحديث فى أول الأمر بمعرفة رجال الحديث وضبط أسمائهم، والحكم عليهم بأنهم ثقاة أو ضعفاء؛ ثم نظروا فى الأساس الذى ينبنى عليه هذا الحكم؛ أعنى الصفات الواجب توافرها فى المحدث الثقة، وهو ما يعرف بالجرح والتعديل. ويقال إن أول من ألف فى هذا الباب يحى بن كتان المتوفى سنة ١٩٨هـ/ ٩١٤م[2]. وبعد أن اشتغل العلماء بتأليف كتب الحديث الكبرى المعتمد عليها، بداوا فى الفحص عن الرجال المذكورين فيها وألف الكتب من رواة الصحيحين وهكذا. وقد أدت بهم حاجتهم إلى السند المتصل[3]؛ أن يتجاوزوا البحث عن حياة الرواة والحكم عليهم إلى عمل تاريخ كامل لهم. وهكذا وجدت «تواريخ» القرن الثالث الهجرى، مثل تاريخ البخارى المتوفى سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م والطبقات الكبرى لابن سعد، المتوفى عام ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م، وكذلك تواريخ المدن، وهى المؤلفات التى ظهرت فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، وتمثل كمالها فى تاريخ نيسابور الذى ألفه النيسابورى المتوفى عام ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م، والذى يرى السبكى أنه يشتمل على تراجم أوفى وأكمل من تراجم الخطيب البغدادى[4]. وفى تاريخ أصفهان لأبى نعيم المتوفى سنة ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م وفى تاريخ بغداد للخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م؛ ويدلنا على مقدار الدقة التى أظهرها العلماء فى طريقة النقد، ما ذكر عن الخطيب من أنه ألف كتاباً فى «رواية الآباء عن الأبناء» وآخر فى «رواية الصحابة عن التابعين»

(١) السبكى، طبقات، جـ٢، ص٩٧-٩٨ .

(٢) النووى فى شرحه على مسلم، جـ١، ص١٧٧ تلاميذ الدارقطنى.

(٣) ترجمة مارسيه للنووى. JA. 1900, 16, 321

(٤) ياقوت، الإرشاد، جـ١، ص٣٤٨ .

وكانت هذه المعارف المتعلقة برجال الحديث تنال أعظم التقدير فى ذلك الوقت. ويحكى عن القاضى أبى حامد بن بشر المروزى المتوفى عام ٦٣٢هـ/ ٩٧٢م، والمشهور بأنه استاذ أبى حيان التوحيدى الكاتب الكبير أنه كان بحراً يتدفق حفظاً للسير وقياماً بالأخبار «وكان يزعم أن السير بحر الفتيا وخزانة القضاء، وعلى قدر إطلاع الفقيه عليها يكون إستنباطه واستنتاجه»[١].

أما الدور الثانى فى الناحية العلمية الدينية، فقد قام به مقرئو القرآن. ونجد أن المقدسى مثلاً لا يغفل فى كلامه عن البلاد التى وصفها عن ذكر أصحاب القراءات فيها، وإن كان قد أبان عدم محبته للمقرئين بأن وصفهم بأنهم لا ينفكون من الطمع وسوء السمعة[٢]. وقد وضع ابن مجاهد حوالى سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م، أصول هذه الناحية[٣]. وقد قامت حوالى ذلك الوقت خلافات شديدة حول قراءة القرآن، وتدخلت الحكومة، فإضطهدت بعض أصحاب القراءات. فمثلاً ضرب الوزير أبو على بن مقلة ابن شنبوذ المتوفى سنة ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م، بالسوط، واضطره أن يتبرأ من القراءات التى قرأ بها، وأخذ يحضه بالتوبة عنها، فكتب: «يقول محمد بن أحمد بن أيوب: قد كنت أقرأ حروفاً تخالف مصحف عثمان المجمع عليه، والذى إتفق أصحاب الرسول ﷺ على قراءته، ثم بان لى أن ذلك خطأ، وأنا منه تائب، وعنه مقلع، وإلى الله جل اسمه منه برئ، إذ كان مصحف عثمان هو الحق الذى لا يجوز خلافة ولا يقرأ غيره»[٤]. وفى سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م، توفى أبو بكر العطار المقرئ وكان قد قرأ بحروف تخالف الإجماع، واستخرج لها

---

(١) السبكى، جـ٢، ص٨٢-٨٣ .

(٢) المقدسى، ص٤١ .

(٣) ابن الجوزى، المنتظم، ص١٥٦.

(٤) الفهرست لابن العديم، ص٣١-٣٢، الأوراق للصولى، ص٨٢ .

وجوهاً من اللغة ذكرها فى كتابه «الإحتجاج للقراء» وشاعت عنه القراءات الغريبة، فأنكرها أهل العلم، ووصل الأمر إلى السلطان، فأحضره واستتابه بحضرة القراء والفقهاء فأذعن للتوبة، بعد أن كان قد استغوى أصاغر المسلمين من أهل الغفوة والغباوة[1]. وفى سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م، أظهر بعض الشيعة مصحفاً ذكروا أنه مصحف ابن مسعود، وكان مخالفاً للمصاحف، فأشار الفقهاء والقضاة بإحراقه وأحرق بمحضرهم، ثم ورد إلى الخليفة، كتاب بأن رجلاً من أهل النهروان حضر المشهد ليلة النصف من شعبان، ودعا على من أحرق المصحف وسبه فقتل[2]. وكما أن المذاهب الفقهية الأربعة حلت محل غيرها، وكذلك حلت الحروف السبعة الشرعية المتفق عليها محل القراءات الشاذة فى القرن الرابع الهجرى[3]. وفى هذا القرن أيضاً ظهرت كتب تسمى بالقراءات الثمانى[4].

على أن جواز تفسير القرآن لم يكن أمراً مسلماً به فى القرن الرابع أو قبله، وكان ذلك موضع نظر، فيحكى لنا الطبرى: أن الشعبى مرّ على السدى وهو يفسر القرآن فقال: «لأن يضرب على أستك بالطبل خير لك من مجلسك هذا»[5].

ويخبرنا السمرقندى: «أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى فى يد رجل مصحفاً، وقد كتب عند كل آية تفسيرها، فدعى بمقراض فقرضه»[6]. ونقل السيوطى عن الأصمعى مثلاً، أنه كان شديد التأله، فإنه كان لا يفسر شيئاً من

(١) السيوطى، طبقات المفسرين، ابن الجوزى، المنتظم، ص١٩٨.

(٢) ابن الجوزى، المنتظم، ص١٥٢ب، طبقات السبكى، جـ٣، ص٢٦ .

(٣) ابن النديم، الفهرست، ص٣١-٣٣ .

(٤) السيوطى، حسن المحاضرة، جـ١، ص٢٣٢-٢٣٣ .

(٥) تفسير الطبرى، جـ١، ص٣٠ طبعة المطبعة الميمنية بمصر.

(٦) السمرقندى، بستان العارفين، ص٧٤-٧٥ .

القرآن، ولا شيئاً من اللغة له نظير واشتقاق فى القرآن وكذلك الحديث تحرجاً[1]. على أن الطبرى قد ذكر أمثلة تدل على أن الصحابة وخصوصاً ابن عباس كانوا يفسرون القرآن تفسيراً محموداً[2]، ولكن نقده الطبرى[3] يدل على أن الفريق الذى كان يحجم عن تفسير القرآن كان قوياً جداً. وقد روى عن النبى ﷺ حديث من شأنه أن يوفق بين الفريقين، وهو قوله: «من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» فكل تفسير يجب أن يسند إلى أثره وارد عن النبى، ولا يجوز أن يعتمد فيه على الرأى، ولا يكون القول بالرأى إلا فى التفسير اللغوى للألفاظ[4]. على أننا نجد فى تفسير الطبرى نفسه دليلاً على أن المفسر يستطيع رغم هذه القيود أن يقول فى تفسيره بحذق ومهارة أشياء كثيرة ينبغى الا تقال فى التفسير[5]. هذا مع العلم بأن العلماء يقولون عن تفسير الطبرى أنه لم يؤلف مثله، لأن صاحبه جمع فيه الرواية والدراية، ولم يشاركه فى ذلك أحد لا قبله ولا بعده[6]. غير أن السمرقندى مع حريته فى الرأى، ومع كونه حنفياً قد تكلم بلا لبس فى هذه المسألة، ومنع كل تفسير بالرأى، وكل ما أجاز هو أن يحكى المفسر ما سمعه من بعض الأئمة على سبيل الحكاية، وإذا أراد أن يستخرج حكماً من الآية فلا بأس أن يقول المراد من الآية كذا وكذا. أعنى أن التفسير عند السمرقندى يكون على صورة الفصول المتعلقة بتفسير القرآن عند البخارى ومسلم. وهو ما

(١) السيوطى، المزهر، جـ٢: ص٢٠٤ .

(٢) السيوطى، المزهر، جـ٢، ص٢٠٤، Goldziher, swa.Bd. p30

(٣) نفسه، نفس المصدر، ص٢٦-٣٠ .

(٤) تفسير الطبرى، جـ١، ص٢٧ .

(٥) مثلاً جـ١، ص٥٨ عند الكلام عن القدر.

(٦) السيوطى، طبقات المفسرين، طبعة Mursing، ص٣٠

يفعله الفريق الثانى من مسنده مورداً فيها أقوال الصحابة والتابعين بالإسناد[1]. ثم أن السمرقندى يسمح بأن تستنبط التفاسير الفلسفية والآراء الفقهية فى الأحكام والأوامر من ذلك[2].

والجديد الذى نلاحظه فى هذا القرن، وفى القرن الذى سبقه، هو تعاون المعتزلة وإجتهادهم فى تفسير القرآن. وممن ألف فى التفسير منهم أبو على الجبائى، ويقول الأشعرى تلميذه وخصمه وابن زوجته، أنه فى هذا التفيسر، ما روى حرفاً واحداً عن المفسرين، وإنما اعتمد على ما وسوس به صدره وشيطانه[3]. على أن أهل المغرب السنيين ترددوا فى إتباع الأشعرى فى تفسيره للقرآن، وكانوا يتركون التأويل ويمرون المتشابهات كما جاءت إقتداء بالسلف، حتى جاء ابن تومرت وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذهب الأشعرية[4].

وقد ألف أبو الحسن على بن عيسى الرمانى المتوفى سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م، وهو عالم بالكلام والفقه والنحو واللغة، تفسيراً للقرآن. وقد بلغ من قيمة هذا التفسير أنه قيل للصاحب ابن عباد: هلا صنفت تفسيراً، قال: وهل ترك لنا على بن عيسى شيئا[5]. وكذلك ألف أبو بكر النقاش المعتزلى، المتوفى سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م، تفسيراً كبيراً، يقع فى أثنى عشر ألف ورقة[6]. «وكان يكذب فى الحديث»[7]. وكذلك صنف أبو بكر الأدفوى المصرى المتوفى عام ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م تفسيراً يقع فى مائة وعشرين مجلداً[8]، ولم يزد عليه فى عظم التأليف إلا عبد السلام القزوينى

(١) السيوطى، طبقات المفسرين، ص٢ .

(٢) بستان العارفين، ص٧٥-٧٧ .

(٣) نفسه، نفس المصدر والصفحات.

(٤) عن تاريخ البربر لإبن خلدون، جـ١، ص٢٩٩ .

(٥) السيوطى، طبقات المفسرين، ص٢٤ .

(٦) الفهرست لابن النديم، ص٣٣؛ والإرشاد لياقوت، جـ٦، ص٤٩٧ .

(٧) السيوطى، طبقات المفسرين، ص٣٠ .

(٨) نفسه، حسن المحاضرة، جـ١، ص٢٣٣ .

شيخ المعتزلة ببغداد المتوفى ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م، فإنه ألف تفسيراً فى ثلثمائة مجلد، منها سبعة مجلدات فى الفاتحة[١]. ونستطيع أن نكون لأنفسنا فكرة عن طريقة هؤلاء المفسرين إذا عرفنا أن عبيد الله الأسدى المعتزلى المتوفى سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م صنف تفسيراً للقرآن ذكر فيه فى بسم الله الرحمن الرحيم مائة وعشرين وجهاً[٢]. ولما كانت كل فرقة من هذه الفرق فى هذا العصر تعتد بالقرآن وترجع إليه بحيث كان مصدرها الأكبر للإستشهاد ومستودعها الذى تتسلح به فى أدلتها، فقد كان لابد للقرآن ككل كتاب مقدس أن يتعرض لكثير من التكلف فى التفسير. وقد إشتهر الصوفية والشيعة بأنهم أصحاب تأويلات؛ وقد جروا على عادة مألوفة من قبل، وهى الخروج عن ظاهر القرآن بالتأويل البعيد لإثبات دعاويهم[٣]. وقد حاول بعض الشيعة ان يؤولوا كثيراً من الأسماء الواردة فى القرآن بأنها أسماء أشخاص فقالوا أن البقرة التى أمر قوم موسى بذبحها هى عائشة[٤]. وأن الجبت والطاغوت هما معاوية بن أبى سفيان.

أما المفسرون العلماء فكانوا على خلاف ذلك، ومنهم أبو زيد البلخى المتوفى سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م، الذى تتلمذ للكندى ببغداد، وأخذ عنه الفلسفة والتنجيم والطب وعلوم الطبيعة. كان البلخى يتنزه عما يقال فى القرآن من تأويل بعيد، ولا يقول إلا بالظاهر المستفيض من التفسير والتأويل؛ وقد بين ذلك فى كتابه المسمى «نظم القرآن»[٥]، ثم صنف كتاباً فى البحث عن التأويلات أغضب فيه رجلاً

(١) نفسه، طبقات المفسرين، ص١٩ .

(٢) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص٨٠-٨١ .

(٣) ابن حزم، جـ٢، ص١٤ .

(٤) ابن قتيبة، المرجع السابق، ص٧٤-٧٥ .

(٥) ياقوت، الإرشاد، جـ١، ص١٤٨ .

قرمطياً، فقطع هذا القرمطى عن البلخى صلات كان يجريها عليه[1]. على أنه وإن كان أصحاب المذهب الظاهرى بأجمعهم قد جعلوا أساس مذهبهم الأخذ بالظاهر فى تفسير كتب الشريعة، وأولها القرآن، فإن أحداً منهم لم يضف تفسيراً للقرآن، وذلك لأسباب بينة، وهى أن التفسير الحرفى للقرآن لم يكن يروق للمسلمين فى ذلك العهد، كما أنه لا يروقنا اليوم.

وقد كانت القصص القديمة العربية واليهودية والنصرانية المذكورة فى القرآن ميداناً خاصاً لإختلاف ونزاع شديد، وكانت هى النقطة التى يواجه العلم فيها مشكلة الخوارق؛ لأن هذه القصص لا تعرف من تقدم محمداً ﷺ من الأنبياء عليهم السلام إلا بأنهم أصحاب معجزات. ولذلك نجد أن أشهر الكتب التى ألفها أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبى النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م، وكان أوحد زمانه فى علم القرآن، بعد تفسيره المشهور للقرآن كتابه المسمى «العرائس فى قصص الأنبياء»[2].

وقد ألف الرازى الطبيب المشهور حوالى ٣٠٠هـ، كتاباً سماه «مخاريق الأنبياء» لم يستجذ المقدسى ذكر ما فيه «فإنه المفسد للقلب المذهب للدين. الهادم للمروءة المورث البغض للأنبياء»[3]. وحاول البعض أن يوفق بين ما فى القرآن وبين العقل، فكان ما وصلوا إليه مضحكاً كالذى تأدى إليه البروتستانت، الذين فسروا الإنجيل تفسيراً عقلياً. فمثلاً زعم قوم أنه يجوز خروج الناقة المنسوبة إلى صالح عليه السلام من الصخرة معناها حجة دافعة وسلطان قاهر أذعن له القوم، وأن يكون شربها ماء العين إبطال تلك الحجة جميع ما خالفها. وزعم آخرون أن اسم الناقة

(١) الفهرست، ص١٣٨، الأرشاد لياقوت، جـ١، ص١٤١-١٤٢ .

(٢) Goldziher, Zahiriten, p. 134.

(٣) المقدسى، كتاب البدء والتاريخ، طبعة هوار، جـ١، ص٤ .

كناية عن رجل وإمراة[1]، وخرافات كثيرة لجميع قصص القرآن وما فيها من بعض الأسماء.

ويروى عن النبى محمد ﷺ انه وعد امته بقوله: «يبعث الله على رأس كل مائة سنة رجلاً من اهل بيتى يبين لهم امر دينهم»، وقد أحصى العلماء المتأخرون هؤلاء «المجددين» الذين يموت كل واحد منهم فى أوائل قرنه، وقد اختار العلماء حوالى عام ٤٠٠هـ ثلاثة رشحوهم لهذه المهمة، وكلهم لم يكونوا ذوى شأن عظيم، وفى حوالى عام ٣٠٠هـ، لم يقع إختيارهم إلاعلى الأشعرى المتوفى عام ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م[2]. ويدل هذا على قلة العلماء بين أهل السنة من الجمهور، لأن أعظم مفكرى الإسلام فى ذلك العهد كانوا جميعاً بين صفوف المعتزلة الذين كانت تنبعث من عندهم جميع المسائل التى يعالجها المتكلمون. ولم يكن المعتزلة من حيث هم فرقة لها مذهبها الخاص أشد مخالفة لأهل السنة من الشيعة فى ذلك الوقت؛ ذلك أن من الفريقين كما قال بن حزم من يخالف أهل السنة الخلاف البعيد، ومنهم من يخالفهم الخلاف القريب[3]. وفى ذلك العصر، كانت مخالفة المعتزلة لجمهور المسلمين مخالفة كلامية محضة لا تخرج عن حدود مسائل علم الكلام؛ وهى شبيهة بخلاف الصوفية، لأن هؤلاء اعتبروا فرقة إلى جانب الفرق الأخرى الكبيرة[4]. أما فى العبادات، فقد كان المعتزلة فى الغالب متفقين مع أهل السنة؛ هذا إلى أنه كان بين المعتزلة شيعة كالزيدية، وكان من هؤلاء بعض أهل

(١) نفسه، نفس المصدر، جـ٣، ص٤٢ .

(٢) وقد اختلف العلماء، هل لكل قرن مجدد واحد، فقد ذهب الذهبى إلى القول بأن المائة سنة الثلاثة الأول، ابن سريج فى الفقه، والاشعرى فى أصول الدين، والنسائى فى الحديث. طبقات السبكى، جـ٢، ص٨٩ .

(٣) ابن حزم، الفصل فى الملل والنحل، جـ٢، ص١١١ .

(٤) المطهر المقدسى؛ البدء والتاريخ، جـ١، ص١٦ .

البيت مثل أبى عبد الله الداعى، وهوأحد تلاميذ أبى عبد الله النصرى[1]. وكان من الشيعة المعتزلة المشهورين إلى جانب من تقدم أبو الحسين الراوندى والرمانى اللغوى[2]. المتوفى عام ٣٤٨هـ/ ٩٩٤م، وكان أساتذتهم كلهم تقريباً فُرساً هاجروا إلى العراق أو استوطنوا أصفهان. بل يقال إن الجبائى - المذمور آنفاً- المتوفى عام ٣٠٣هـ/ ٩١٥م، ألف تفسيراً للقرآن بالفارسية[3]؛ وكان موضوع بحث المعتزلة علم العقائد بمعناه المحدود. وأول ما عالجوا من ذلك مسألة القدر، وما يتصل بها من وصف أفعال الله بالخير والشر. وكانت هذه المسألة أكبر ما اثار إهتمام أدمغتهم التى تأثرت بمذهب زاردشت. وكان إمام المعتزلة فى عصر المأمون ابو الهزيل العلاف، وأكبر ما ظهرت فيه قدرته وإنتصاراته، ردوده على الثنوية[4]. وفى أواخر القرن الثالث الهجرى أخرج المعتزلة أكبر مدافع عن مدهب التنويه وهو ابن الراوندى الذى كان من المعتزلة، ثم إنسلخ عنه، وشنع عليهم حتى استعانوا بالسلطان على قتله[5]. وفى القرن الرابع الهجرى كان نصيب المعتزلة فى أصفهان على الأقل، نصيب الصوفية من أنهم دخل فيهم بعض الشيعة فانتسبوا بسبب ذلك لعلى ورودوا سند مذهبهم إليه[6]. ويذكر الخوارزمى أن المعتزلة يعتدون بالحسن البصرى - الذى يعتد الصوفية به، ويدعونه لأنفسهم - إعتداد الشيعى بالوحى؛ وإعتداد الزيدية بزيد بن على والإمامية بالمهدى[7]. ونجد آثاراً متفرقة

---

(١) ابن المرتضى؛ المعتزلة، ص٦٣ .

(٢) السيوطى، طبقات المفسرين، ص٢٤ .

(٣) Spitta el-aschari, 87.

(٤) ابن المرتضى، المعتزلة، ص٢٥-٢٧ .

(٥) نفسه، نفس المصدر، ص٥٣-٥٤ .

(٦) نفس المصدر، ص٥-٦ .

(٧) الثعالبى، يتيمة الدهر، جـ٤، ص١٢٠ .

تدل على أثر مذاهب الغنوسطيين فى المعتزلة مثل ما يحكى عن أحمد بن حائط من قوله أن للعالم خالقين: أحدهما قديم وهو الله تعالى، والآخر حادث وهو كلمة الله عز وجل عيسى بن مريم التى بها خلق العالم[1]. وكان بعض المعتزلة فى القرن الرابع يتكلمون فى القدر وتحديد معنى الفسق والإيمان. ولكن كانت عمدتهم التى يتمسكون بها هى الكلام فى التوحيد وما يوصف به الله تعالى، ثم يزيد بعضهم غير ذلك[2]. ولا يخلو ذلك من تأثير الفلسفة اليونانية التى كان لها أثر فعال فى تحريك الخواطر فى أثناء القرن الثالث الهجرى. ولكن تأثيرها الظاهر كان مقصوراً على الطبقة العليا من المتكلمين مثل الجاحظ[3]، كما أن الفلسفة أثرت فى علم العقائد النصرانى الذى كان رجاله طوال تلك المدة يعالجون مسألة الصفات الإلهية بقصد بيان وحدة الذات وتنزها عن الكثرة[4]. ولما كان المعتزلة قد جعلوا عمدة بحثهم الكلام فى ذات الله وصفاته، فلم يقتصر الأمر على أن صارت هذه المسألة أهم مسائل العقائد الإسلامية حتى اليوم؛ بل أدى كلامهم فى هذه المسألة إلى طبع الفلسفة العربية بطابع خاص. كما أن مباحثهم فى هذا الموضوع كان لها أثر فى مذهب سبينوزا؛ ونفذ التأثير من مذهب سبينوزا إلى الفكر الأوربى. يقول ابن حزم أن المعتزلة هم الذين إخترعوا لفظ الصفات، وكان الذى يستعمل قبل ذلك هو كلمة «النعوت» أو «الأسامى»[5]. أما ما يمتاز به المعتزلة من الخصال فيقول المقدسى[6]: «أنهم لا ينفكون من أربع

(١) ابن حزم، الفصل فى الملل والنحل، جـ٤، ص١٩٧ .

(٢) ابن المرتضى، المعتزلة، ص١٢ .

(٣) S. Horovitz, uber den Einfluse der griechis chen, 1909

(٤) Becker, ZA, Bd,26, 175-177

(٥) البخارى، كتاب التوحيد نقلاً عن جولدزيهر .Goldziher zah

(٦) المقدسى، ص٤١ .

خصال: اللطافة والدراية والفسق والسخرية». ومما يدل على أن المعتزلة كانوا مولعين بالمناظرة والجدل[١]. أن مذهبهم كله يقوم على الجدل[٢]. ولذلك قال المعتزلة أن المختلفين كلاهما على صواب[٣]؛ ومع ذلك كانوا متكاتفين حتى أن تكاتفهم فى القرن الرابع كان مضرب المثل، وحتى تمثل الخوارزمى باعتداد المعتزلى بالمعتزلى[٤]، وكل المتكلمون ينظرون فى كل شئ «وأرادوا معرفة كل شئ»[٥]. وكان من يسمون بالفلاسفة ينظرن إليهم بإزدراء، «كما ينظر الباحث فى علم النفس التجريبى إلى صاحب ما بعد الطبيعة»[٦]. وكان الفلاسفة يرمون المتكلمين بالتعصب، وإستحسان التقليد واللجاج. وانهم «إنفتح باب الحيرة عليهم، وسد باب اليقين عنه، ولهذا قلّ تألههم وتنزههم، وصاروا يقولون بتكافؤ الأدلة»[٧]. ولما كان المتكلمون ينكرون السحر بجميع صور التنجيم، بل أنكروا كرامات الأولياء[٨]؛ فإننا نستطيع أن نعتبرهم من دعاة الحرية، أى حرية الفكر والإستنارة؛ رغم مذهبهم الكلامى، وما كان لهم فيه من تدقيقات. جاء فى كتاب الإرشاد لياقوت: «إتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلمى العالم ثلاثة: «الجاحظ، وعلى بن عبد الله اللطفى، وأبو زيد البلخى». والأول والثالث من هؤلاء الثلاثة - ولا أعرف من أمر الثانى شيئاً - رجلان يمثلان الفكر الحر على

---

(١) يتيمة الدهر، جـ٣، ص١٠٦ .

(٢) أبو المحاسن بن تغريردى، النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٢٢١، ط. ليدن.

(٣) السمرقندى، بستان العارفين، ص١٥ .

(٤) الخوارزمى؛ رسائل، ص٦٣ .

(٥) الجاحظ، الحيوان، جـ٤، ص١٠٩ .

(٦) كتاب معانى النفس فى Goldziher AGGW.N.F.10

(٧) ابن المرتضى، المعتزلة، ص٥١ .

(٨) لم يكن هذا مذهب المتكلمين جميعاً. المؤلف.

نحـو جـدير بـالتـقـدير؛ أمـا الجـاحظ «فـيـزيـد لفظه عـلى مـعـناه» وأمـا أبـو زيـد «فيتوافق لفظه ومعناه»[1]. والجاحظ يشبه فولتير Voltaire، أما أبو زيد (وقد توفى عام ٣٢٢هـ/ ٩٣٣م) وقد جاوز الثمانين من عمره. فقد كان اثبت وأكثر إتزاناً، وهو يشبـه الإسكندر همبلت Alex. Humboldt بين دعـاة الفكر الحـر فى القـرن التـاسع عشر. وقد جمع إلى دراسة الفلسفة دراسة التنجيم والطب والجغرافيا وعلوم الطبيعة. وألف كتاباً سماه «القرآن» تكلم فيه بكلام لطيف، وكان يتنزه عن التأويل البعيد للقرآن. وكان الحسين بن على المروذى يجرى عليه صلات دائماً، فلما أملى كتابه فى البحث عن التأويلات قطعها عنه، وكان الجبهانى يجرى عليه صلات أيضاً، فلما أملى كتاب القرابين والذبائح حرمه وإياها. وكان الحسن قرمطياً، والجيهانى ثنوياً.

وقد وجهت إلى المعتزلة إتهامات إذا ذكرت للمسلم الحق ملأت قلبه رعباً وخوفاً؛ فيذكر ابن قتيبة أن ثمامة ابن أشرس كان ينتقص الإسلام، ويرسل لسانه بما لا يكون من رجل يعرف الله ويؤمن به «ومن المحفوظ عنه المشهور أنه رأى قوماً يتعادون يوم الجمعة إلى المسجد لخوفهم فوت الصلاة فقال: «انظروا إلى البقر، انظروا إلى الحمير، (يقصد المسلمين القاصدين لصلاة الجمعة)، ثم قال لرجل من إخوانه: ما صنع هذا العربى بالناس!»[2].

وفى القرن الثالث الهجرى، كان أهل السنة يواجهون المعتزلة بالكراهية والإحتكار، ثم خرج الأشعرى حوالى آخر القرن الثالث على المعتزلة، بعد أن كان منهم، وبدأ يحاربهم بسلاحهم، وعلى هذا نشأ المذهب الكلامى الرسمى القائم

(١) ياقوت، الإرشاد، جـ١، ص١٤٧-١٤٨ .

(٢) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ٦٠، ٧١-, ٧١ ط مصر ١٣٢٦هـ.

على النظر العقلى فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، وكان مذهب الأشعرى مذهب توفيق، وذلك شأن كل مذهب رسمى، ولذلك سمى مذهباً أوسط[1]. وقد حسب الأشعرى أن فى قدرته أن يوفق بين أهل السنة وبين العقل، وأعلن فيما كتبه تمسكه بمذهب الحنابلة؛ يقول الأشعرى: «قولنا الذى نقول به، وديانتنا التى ندين بها، التمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ. وما روى عن الصحابة، والتابعين وأئمة الحديث؛ ونحن بذلك معتصمون؛ وبما كان عليه أحمد نضر الله وجهه، ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون، ولمن خالف قوله قولة مجانبون، لأنه الإمام الفاضل والرئيسى الكامل الذى أبان الله به الحق عند ظهور «الضلال»[2]، ولكن الحنابلة يخاصمون الأشعرى[3]، ويقول ابن الجوزى: أن الأشعرى ظل معتزلاً دائماً[4].

ومع بدايات القرن الرابع الهجرى، كان أصحاب المذهب السنى القدماء يحاربون الشيعة الذين صعروا خدودهم ببغداد، ويضيقون على متكلمى المعتزلة فى سائر البلاد حتى نغصوا عليهم العيش، ولكنهم على الرغم من إثارتهم للعامة لم ينجحوا فى ذلك إلا قليلاً، ولا نسمع من هذا الإضطهاد إلا قليلاً[5]. ولم يكن مذهب الأشعرى قد قوى فى ذلك العهد ليكون خصماً ويهاجم، فإنه لم ينشر فى العراق إلا منذ نحو سنة ٣٨٠هـ، وعند ذلك بدأت تظهر آثار الإضطهاد له، وقد حاول الحنابلة ان يمنعوا الخطيب البغدادى المتوفى عام ٤٦٣هـ / ١٠٧١م من

---

(١) المقدسى، ص٣٧ .

(٢) Spitta, Aschari, pp. 132-133

(٣) Ibid. p. 111

(٤) ابن الجوزى، المنتظم، ص٧١ ب.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، الفصل الخاص بعلم الكلام.

دخول المسجد الجامع بغداد، لأنه كان يذهب مذهب الأشعرى وكان أكابر الأشاعرة فى ذلك العهد يضطهدون وينفون فى أيام طغرل بك. وقرب أواخر القرن الرابع تحاملت الحنابلة على رجل من كبار الأشاعرة ذوى النفوذ، وهو القشيرى المتوفى عام ٥١٤هـ / ١١٢٠م؛ ووقع بسبب تهيج الحنابلة قتال فى الشارع، واضطر القشيرى إلى ترك بغداد(١). ومن هذه الحادثة أرخ ابن عساكر مبدأ وقوع الانحراف بين الحنابلة والأشاعرة(٢). ولم ينتشر هذا المذهب الكلامى الجديد الذى قدر له أن يصير مذهب جمهور المسلمين إلا إنتشاراً بطيئاً فى الدولة الإسلامية. ففى أقصى الشرق كان الماتريدية ينافسون الأشاعرة، وذلك على الرغم مابين الفريقين من تشابه فى أصل المذهب وكان لابد لهم أيضاً أن يقاوموا الحنابلة الذين كان شيخهم حوالى عام ٤٠٠ هـ / ١٠١٠م يلعن أبا الحسن الأشعرى وينال من الأشاعرة(٣) وأن يهاجموا أيضاً هجمات الكرامية الذين تحزبوا على الأشاعرة، ورفعوا أمرهم إلى السلطان محمود بن سبكتكتين مدعين أن الأشاعرة يعتقدون أن النبى محمد ﷺ ليس نبياً اليوم، وأن رسالته انقطعت بموته، ولم يكن هذا معتقداً للأشاعرة(٤)، أما فى المغرب فقد أنتشر مذهب الأشاعرة من بلد إلى آخر فقامت لهم سوق خاص فى صقلية وفى القيروان والأندلس «ثم رق أمرهم والحمد لله رب العالمين»(٥). ولم يكن مذهب الأشاعرة معروفاً قط فى شمال إفريقية، حتى حمله (أى المذهب الأشعرى) إليها محمد بن تومرت حوالى عام

(١) Goldziher, ZDMG, 62, P.8

(٢) Spitta, Aschair, P145.

(٣) السبكى، طبقات، جـ٣، ص١١٧ .

(٤) نفسه، نفس المصدر، جـ٣، ص٥٤ .

(٥) ابن حزم، الفصل فى الملل والنحل، جـ٤، ص ٢٠٤ .

(٦) Goldziher, ZDMG, 41, P30ff

٥٠٠ هـ / ١١٠٧م[٦]. وكانت الحكومة فى أوائل القرن الخامس الهجرى تتدخل نوعاً من التدخل الرسمى لفض المنازعات المذهبية.

وكان تسامح المسلمين فى حياتهم مع اليهود والنصارى، وهو التسامح الذى لم يسمع بمثله فى العصور الوسطى سبباً فى أن لحق بمباحث علم الكلام شئ لم يكن قط من مظاهر العصور الوسطى، وهو عام مقارنة الملل، ولم تكن نشأة هذا العلم من جانب المتكلمين ذلك أن النوبختى وهو مؤلف أول كتاب له شأن فى الآراء والديانات كان من نقلة كتب اليونان إلى لسان العرب[١]. وكذلك ألف المسعودى كتابين فى الديانات[٢]. ولم يكن المسعودى متكلماً، ثم جاء المسبحى المتوفى عام ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م، وكان قد أشتغل فى الدواوين زماناً طويلاً، ومن مؤلفاته كتاب «درك البغية فى وصف الأديان والعبادات» وهو كتاب مطول على طريقة المسبحى، ويقع فى ثلاثة الاف وخمسمائة ورقة، وإذاً فقد عنى هذا المؤلف بالبحث فى الأديان إلى جانب إشتغاله بأمور الدولة، وهذا الكتاب هو الكتاب الوحيد الذى يتصل بعلوم الدين من بين كتب المسبحى، ومرجع العناية بذلك يرجع إلى أن أسرة المسبحى من حران، ولذلك عنى بما كان يعنى به الصابئة[٣]. ثم أقبل على البحث فى الملل بعض المتكلمين الذين تطلعوا إلى معرفة ماغاب عنهم، فمن ذلك كتاب الملل والنحل، (وقد صار هذا الأسم شائعاً بين المؤلفين فى هذا الباب) لأبى منصور البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٨م[٤]. ثم جاء ابن حزم الأندلسى المتوفى عام ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م فألف كتاب الفصل فى الملل والأهواء

(١) ابن الجوزى، المنتظم، ١٦٥ب.

(٢) كان أول اعتقاد رسمى يصدر فى عهد الخليفة المأمون كتب فى العقيدة.

(٣) ابن سعيد، المغرب، ص٩٦-٩٧ .

(٤) طبقات السبكى، جـ٣، ص٢٣٩ .

والنحل، ورد فيه على مختلف المذاهب متحمساً فى ذلك للدفاع عن الإسلام. وفى أوائل القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى ألف أبو اليمان البيرونى المتوفى عام ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م كتابه المعروف باسم «تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة» وجعله كتاب حكاية لمذاهب الهند، على وجهها لا كتاب جدل وحجاج، ولذلك لم يناقض الخصوم، ولم يتحرج من حكاية كلامهم، وإن ظهر الحق[١]. فكان هذا الكتاب بحث علمى نزيه ومما ينبغى أن نلاحظه أن عقيدة مؤرخو النحل كانت فى الغالب موضعاً للشكوك من قبل الشاكين وطعنهم، وقد نقل ياقوت[٢] عن صاحب تاريخ خوارزم ما أتهم به الشهرستانى[٣] من التخبط فى الاعتقاد والميل إلى الألحاد، لأنه فى زعم مؤرخ خوارزم لم يكن فى مجلسه قال الله ولا قال الرسول.

أما عن المذاهب الفقهية :

وهى تمثل جانباً من جوانب العلوم الدينية التى خلقت فى نهاية الأمر مذاهب شتى ومتباينه، لعبت دوراً أساسياً فى حياة المسلمين سواء من حيث الاستقرار أو القلق والأضطراب، خاصة فى الأفكار الدينية.

ويعتبر القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى أهم نقطة فاصلة فى تاريخ التشريع الإسلامى، ويقال أنه فى هذا القرن وقف سير التشريع الإسلامى المبنى على الإجتهاد المطلق وعلى الحكم بالرأى فى فهم القرآن والحديث النبوى[٤].

---

(١) البيرونى، كتاب الهند، طبعة سخاو، ص٤ .

(٢) ياقوت، معجم البلدان، جـ٣، ص٣٤٣ من الطبعة الأوربية.

(٣) المتوفى عام ٥٤٨هـ وهو صاحب الكتاب المشهور المسمى الملل والنحل.

(٤) Snouck Hurgron, RHR, 37, P.176.

وبنهاية هذا القرن إنتهى عصر الإبتكار فى التشريع، وكأن التشريع الإسلامى كان موقوفاً على علماء هذا العصر، حتى أنه أصبح الخروج من قبل من أى من المسلمين العلماء فى نص من نصوص هذا القرن يعتبر خروجاً على الدين الإسلامى، واعتبر العلماء الأولون بذلك كالمعصومين، وأصبح الفقيه لايستطيع إصدار حكمه الخاص إلا فى المسائل الصغيرة، وهذا يشبه ماحدث عند اليهود من مجئ الربانين الذين كان قصار تناقشهم فى آراء القدماء فقط، وذلك بعد مضى عهد علماء الكتب، الذين كانوا يعلمون الكتاب ويحق لهم وحدهم الاجتهاد، ولكن هذا هو إعتبار المسألة من وجهة النظر الإسلامية فقط[1]. والواقع أنه ظهر فى هذا الميدان الفقهى ماوقع فى غيره من الميادين، على أن أهم ماحدث هو تسرب آراء فى التشريع مما كان قبل عهد الإسلام إلى الفقه الإسلامى، كما تسربت بعض النظريات اليونانية والرومانية القديمة، وكان يمثلها الفقهاء ويخالفهم أصحاب الحديث المتمسكون بالسنة القديمة والذين يقيسون الحياة بمقياس الوحى والسنة النبوية، ولم يشأ هؤلاء المتمسكون بالقديم أن ينزلوا عن مكانهم بسهولة، فقد كان لهم الغلبة فى إقليمين من أهم أقاليم الدولة الإسلامية وهما فارس والشام، وكذلك كانت لأهل الحديث غلبة فى السند، كما كانت همذان وأجناديها أصحاب حديث[2]. وكان أهم المذاهب بين أصحاب الحديث الحنابلة والأوزاعية والتورية[3]. ولم يكن الحنابلة - خلافاً لما صار إليه الحال فيما بعد - يعتبرون من جملة الفقهاء، وفى سنة ٣٠٦هـ / ٩١٨م ذكر أصحاب المذاهب فكانوا :

(١) راجع ماكتبه ابن خلدون فى مقدمته عن الفقه.

(٢) المقدسى، ص١٧٩، ٣٩٥، ٤٣٩ .

(٣) ابن النديم، الفهرست، ص٢٢٥ - ٢٢٧ .

(٤) السبكى، طبقات، جـ٢، ص٣٠٧ .

الشافعية والمالكية والثورية أصحاب سفيان الثورى والحنفية والداودية[٤]. ولم يذكر الحنابلة بين الفقهاء فى هاتين المدتين، ولما توفى محمد بن جرير الطبرى عام ٣١٠هـ / ٩٢٣م دفن بداره ليلاً لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهاراً، وكان ذلك بتأثير الحنابلة، وقد تعصب عليه هؤلاء لأنه جمع كتاباً ذكر فيه إختلاف الفقهاء ولم يذكر فيه احمد بن حنبل - كما أسلفنا من قبل - فسئل فى ذلك فقال : لم يكن فقيهاً وإنما كان محدثاً[١]. ولم ينل الحنابلة الإعتراف بأنهم فقهاء إلا أخيراً[٢]. اما مذاهب غيرهم من أصحاب الحديث فلم تستطع البقاء. ففى القرن الثالث الهجرى غلب المالكية على أصحاب الأوزاعى فى الأندلس[٣]، وكان قاضى دمشق المتوفى سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م أوزاعى المذهب[٤]. وكان للأوزاعية على عهد المقدسى مجلس بجامع دمشق[٥]. ويرى المقدسى أن مذهب الأوزاعى لم ينتشر أكثر من ذلك لأنه كان متطرفاً، فقل الواردون عليه والناقلون عنه، «ولو كان على سابلة الحج لنقل مذهبه أهل الشرق والغرب»[٦]. وكذلك يعد المقدسى مذهب سفيان الثورى بين المذاهب المندرثة، بعد أن كان لهذا المذهب جلبة فى أصفهان والدينور[٧]. وفى سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م توفى أبو بكر عبد الغافر بن عبد الرحمن الدينورى ولم يكن ببغداد مفتٍ على مذهب سفيان الثورى غيره، وهو آخر من أفتى بجمع المنصور على مذهب الثورى[٨].

---

(١) المقدسى، ص٣٧ .

(٢) الغزالى، كتاب الفقهاء لمحمد بن جرير الطبرى، ط مصر، ١٩٠٢م ، ص١٤ .

(٣) نفسه، نفس المصدر.

(٤) أبو المحاسن بن تغريردى، النجوم، جـ٢، ص٣٤٧ .

(٥) المقدسى، ص١٧٩ .

(٦) نفسه، ص ١٤٤ .

(٧) نفسه ص ٣٧، ٢٩٥ .

(٨) المقدسى، ص٢٩٥، أبو المحاسن، ط كاليفورنيا، ص ١٢٠ .

ولم تكن المذاهب قد استقرت عند بداية القرن الثالث الهجرى بعد، رغم ماقيل من انه فى هذا التاريخ كان قد بطل نحو من خمسمائة مذهب فى الدين[1]. وقد أسس داود الأصفهانى المتوفى عام ٢٧٠هـ / ٨٨٣م مذهباً كان له شأن، وهو مذهب الظاهرية، وقد عظم شأن هذا المذهب فى الشرق فى القرن الرابع الهجرى. وكان بين اتباعه كثير من أصحاب الجاه بإيران[2]. وكان الداودية بفارس يتقلدون الأعمال والقضاء، وكانت لهم الغلبة، لأن السلطان عضد الدولة كان يتقلد هذا المذهب[3]. وقد أنكر الظاهرية أشد الإنكار مافعله الشافعى من محاولة التوفيق بين المنهج الفقهى القديم الذى إنتهى إليه وبين المنهج الجديد[4]. وكان مذهب الظاهرية سبباً فى وضوح المناهج شأن غيره من مذاهب المتطرفين وكانت القاعدة الكبرى التى استندوا إليها هى التمسك بحرفية النصوص تمسكاً دقيقاً. ولكن هذه القاعدة علمية، وسرعان ماأدركوا أن الفقه ليس علماً نظرياً، بل هو عمل. ولم يكن الأثر الأكبر لمنهجهم القائم على نحو اللبس فى الفقه، بل كان فى المباحث التاريخية واللغوية. ويرى المقدسى أن أكبر خصال أصحاب داود هى : الكبر، والحدة، والكلام، واليسار[5]. وقد أسس أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ، المتوفى ٣١٠هـ/ ٩٢٣م مذهباً خاصا به. وقد ظل الناس بعد موته عدة شهور يجتمعون للصلاة عند قبره ليلاً ونهاراً[6]. وكان للطبرى صاحب يسمى ابن شجرة، توفى سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م وقد ناهز التسعين، وكان جريرى المذهب، ثم

(١) الطبرى، اختلاف الفقهاء، ص ١٤ .

(٢) Goldziher, Zahir, En, PP. 110-111 .

(٣) المقدسى، ص ٤٣٩ .

(٤) الخوارزمى، مفاتيح العلوم، ص٨ .

(٥) أبو المحاسن، المرجع السابق، ص١٢٦ .

(٦) طبقات السبكى، جـ٢، ص ١٣٩-١٤١ .

خالف أستاذه وأصبح يختار لنفسه ولايضع لأحد من الأئمة أصلا. ومع هذا تقلد قضاء الكوفة[1]. وهو دليل على مرونة الظروف وعدم التعصب بسبب الإختلاف فى الرأى. وكذلك كان ابن حربويه الشافعى المذهب قاضى مصر، المتوفى عام ٣١٩هـ/ ٩١٣م بعد أن جاوز المائة يختار فى أحكامه «وحكم بما لو حكم به غيره ما سكتوا عليه، فلم ينكر عليه أحد، لأن أبا عبيد كنية بن حربويه، كان لا يطعن عليه فى علم، ولا تلحقه تهمة فى رشده، ولا يحيف فى حكم»[2].

على العموم استقرت المذاهب الفقهية الكبرى فى ذلك العصر وتوطدت أركانها على النحو الذى نجده اليوم، إذا استثنينا البلاد التى آل أمرها إلى الشيعة، ولم يبرز مذهب الإمام أحمد خارج العراق، إلا فى القرن الرابع الهجرى[3]. على أن أهم المذاهب الأربعة المذكورين آنفاً؛ هو المذهب الشافعى إلى اليوم، وكان أكبر مراكزه مكة والمدينة[4]. ويقول السبكى: «وأما بلاد الحجاز فلم تبرح أيضاً منذ ظهور مذهب الشافعى، وإلى يومنا هذا فى أيدى الشافعية القضاء والخطابة والإمامة بمكة والمدينة، والناس من خمسمائة وثلاث وستين سنة يخطبون فى مسجد رسول الله ﷺ ويصلون على مذهب ابن عمه محمد بن إدريس، يقنتون فى الفجر، ويجهرون بالتسمية، ويفردون الإقامة إلى غير ذلك. وهو ﷺ حاضر يبصر ويسمع؛ وفى ذلك أوضح دليل على أن المذهب صواب عند الله تعالى»[5]. ولم يكن للشافعى اتباع كثيرون فى العراق، وكان الغالب على فقهاء

(١) ياقوت، الإرشاد، جـ٢، ص٢٨ .

(٢) ملحق الكندى، ص٥٢٨، طبقات السبكى، جـ٢، ص١٠٢ .

(٣) السيوطى، حسن المحاضرة، جـ١، ص٢٢٨ .

(٤) الخوارزمى، رسائل، ص٦٢-٦٣ .

(٥) طبقات السبكى، جـ١، ص١٧٤ .

(٦) المقدسى، ص١٢٧ .

هذا الإقليم وقضاته أصحاب أبى حنيفة[١]. وإن كان قد ولى قضاء القضاة ببغداد أحد الشافعية سنة ٢٣٨هـ/ ٤٩٩م[١]. وقد أفلح الشافعية فى التغلب على الحنفية فى المشرق[٢]، وكان أكبر حصن لهم فى الشام ومصر؛ وكان أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقى والمتوفى سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٤م، أول من ولى قضاء مصر من الشافعية؛ وهو أول من أدخل فى دمشق مذهب الشافعية وحكم به، بعد أن كان فى الغالب اعتناق أهل دمشق لمذهب الأوزاعى[٣]. وكان ينافسهم فى مصر المالكية الذين استولوا على مصر منذ منتصف القرن الثانى الهجرى. وفى سنة ٣٢٦هـ/ ٩٣٨م، كان للمالكيين فى المسجد الجامع خمس عشرة حلقة، وللشافعيين مثلها، ولأصحاب أبى حنيفة ثلاث حلقات فقط[٤]. وفى عهد المقدسى تولى إمام مسجد ابن طولون أحد الشافعية لأول مرة، ولم يقدم فى هذا المحراب إمام قط إلا وهو يتفقه لمالك[٥]. وكان معظم الفقهاء بمصر مكن أصحاب مالك. ويقول السيوطى؛ أن أبا بكر النعال المتوفى عام ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م كان إمام المالكية بمصر، وكانت حلقته فى الجامع تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها[٦]. ولهذا اشتدت الدولة الفاطمية فى محاربة المالكية. ففى سنة ٣٨١هـ/ ٩٨٩م، مثلاً ضرب رجل بمصر وطيف به فى المدينة لأنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس[٧]. ولما زالت دولة الفاطميين وحلت محلها دولة الأيوبيين، وهم من الأكراد الشافعية، أكملوا

---

(١) طبقات السبكى، جـ٢، ص٢٤٤ .

(٢) السيوطى، طبقات المفسرين، ص٣٦ .

(٣) ملحق القضاة، الكندى، ص٥١٨، طبقات السبكى، جـ٢، ص١٧٤ .

(٤) المغرب لابن سعيد، ص٢٤ .

(٥) المقدسى، ص٢٠٢-٢٠٣ .

(٦) السيوطى، حسن المحاضرة، جـ١، ص٢١٢ .

(٧) المقريزى، خطط، جـ٢، ص٢٤١ .

إنتصار هذا المذهب بإيثارهم للفقهاء الشافعية؛ ولكن الصعيد بقى فى الجملة مالكى المذهب إلى يومنا هذا؛ ولم ينتصر مذهب الشافعية غرباً أكثر من ذلك. وقد إقتسم المالكية والحنفية بلاد المغرب، وكان مذهب الحنفية يفضل لمرونته وأنه كان أكثر ملائمة للدولة والحكومة الفاطمية من مذهب مالك، ولكن لما خرجت بلاد المغرب من يد الفاطميين، سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م، لم يقتصر البلاء على مذهبهم الشيعى فقط، بل شمل مذهب الأحناف السنيين الذين كانوا يظلونهم برعايتهم: وإنتقل الغرب إلى مذهب مالك؛ ولا يزال عليه إلى اليوم[١]. أما فى الأندلس فكانت السيادة المطلقة لمذهب مالك[٢].

أما فى بغداد، فقد كان الحنابلة، دون سائر أهل السنة أكبر من أقلق بال الحكومة، ثم إنهم اشتدوا فى محاربة الشيعة ببغداد، وقد بنوا ببغداد مسجداً «وجعلوه طريقاً إلى المشاغبة والفتنة»[٣]، ثم عظم أمرهم حتى أزعجوا بغداد، واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون إلى المسجد، وكانوا إذا مرّ بهم شافعى المذهب، أعزوا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت[٤]. ولكنهم ادخروا أشد غضبهم للشيعة، ولمن خاصمهم من المتكلمين. وكان الشافعية أشد الفقهاء قدرة على الشغب. وكانوا خصوماً لمن عاداهم لا يعدلون عن الخصومة، على حين كان خصومهم يتصالحون ويبحثون عن طريق للوفاق. على أن المذاهب كانت فى الجملة على وفاق ومسالمة تامة فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى. ونجد العلماء - كالمقدسى - يوصون بترك الخلاف ولزوم أحد المذاهب، وترك الغلو فى

(١) مقدمة جولدزيهر، لكتاب محمد بن تومرت، ص٢٣ .

(٢) المقدسى، ص٢٣٦ .

(٣) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص٤١ .

(٤) نفسه، نفس المصدر، ص٣٦٦ .

(٥) ياقوت، الإرشاد، جـ٢، ص٧ .

الدين. وكف اللسان عن تمزيق المسلمين(*). ولم يكن الإنتقال من مذهب إلى آخر بالأمر العسير، مثلما حدث بإمامة أحد الشافعية لمسجد بن طولون الغالب عليه المذهب المالكى. ولما سئل المقدسى عن سبب تفقهه لأبى حنيفة مع أنه شافعى شامى وأهل بيته أصحاب حديث، أجاب بأنه استحسن مذهبه لخلال ذكرها[1]. ولم تظهر المذاهب فى تنافسها إلا فى القرن الخامس الهجرى، بعد أن اندرست المذاهب الصغيرة.

وبعد أن قدمنا لإهتمام الإسلام بالعلم والعلماء، وذكر بعض أسماء العلماء فى مجال العلوم الدينية والمذاهب الفقهية، وأثر ذلك على المسلمين والدين الإسلامى، لا نغفل هنا أيضاً أن نذكر بعض أسماء العلماء المسلمين فى مجال العلوم الطبيعية التى كان لها دور هام فى سعادة البشرية منها: فى علم الفلك مثلاً نذكر؛ أنه كان للمسلمين حظ وافر فى علم النجوم وفضل كبير عليه، ويكفى أنهم جمعوا فيه بين آراء اليونان والهند والفرس والكلدانيين وعرب الجاهلية، شأنهم فى ذلك كسائر العلوم الأخرى، فحمد القزازى مثلاً نقل كتاب «السندهند» للمنصور ليكون قاعدة علم النجوم عند العرب، واستمر هذا العلم معمولاً به حتى عصر المأمون.

وفى أيام المأمون نبغ العالم الإسلامى الشهير، محمد بن موسى الخوارزمى وكان له علم واسع فى النجوم فاصطنع «زيجا» - أى كتاب فيه جداول حركات النجوم - جمع فيه بين رأى الهند والفرس والروم، وإن اعتمد فى هذا الكتاب المجدول على مذاهب الفرس، وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطليموس، وجعل تاريخه على الحساب الفارسى، فنقله مسلمة بن أحمد المرحيطى

---

(١) المقدسى، ص٢٠٣، ١٢٧ .

الأندلسى المتوفى عام ٣٩٨هـ، وجعله بالحساب العربى.

وفى أثناء ذلك، أكتشف العرب الأسطرلاب ليستخدم فى عمليات الرصد، وكان صاحب الفكرة لهذا الإكتشاف هو أبو إسحق ابراهيم بن حبيب بن سليمان المتوفى عام ٧٧٧م، وهو فلكى مسلم ألف كثيراً فى علم الفلك.

وترجع أهمية الاسطرلاب فى تحديد زوايا إرتفاع الأجرام السماوية عن الأفق فى أى مكان، ثم استخدم بعد ذلك فى حساب الوقت وكذلك البعد عن خط الاستواء؛ ثم استخدمه البحارة فى عرض البحر (البحار والمحيطات).

وبعد قيام العرب بفتوحاتهم الواسعة فى الشرق والغرب، ظهرت فى العراق أول ترجمة عربية للمجسطى بأمر هارون الرشيد عام ٨٠٠م والتى كانت نواة لترجمة العديد من المؤلفات المتصلة بعلم الفلك.

وفى عهد المأمون، جمع علماء الفلك وأمرهم برصد الكواكب وبنى لهم مرصداً عظيماً فى بغداد، والذى منه قام البلخى برصد السماء واستطلاع أبراجها، وأهم مؤلفاته «المدخل إلى علم أحكام النجوم».

وفى عهد الدولة الفاطمية تم إنشاء مرصداً على جبل المقطم، لازال يعمل به حتى اليوم مع إدخال تعديلات وآليات جديدة تتمشى مع التطور العلمى الفلكى، وفيه استخرج ابن يونس فى عصر المأمون «الزيج الحاكمى» وهو كتاب أو سجل فيه حركات الكواكب والنجوم، وهذا المرصد هو الأول فى مصر الإسلامية.

وكان ابن يونس (أحد علماء الفلك المشهورين) يعمل فى مرصد القاهرة وقد رصد فى القاهرة عامى ٩٧٧-٩٧٨ كسوف الشمس مرتين، ويعتبر العلماء أن هذا المرصد من قبل بن يونس هو أول إرصاد دقيق يقوم على أساس علمى.

ومن علماء المسلمين المشهورين أيضاً، أبو ريحان محمد بن أحمد البيرونى (٩٧٣-١٠٤٨م) فقد كان فلكياً مرموقاً، له كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» وقد ألف كتاباً أهداه للسلطان مسعود بن محمود، وأسماه «القانون المسعودى فى الحياة والنجوم» كما وضع ملخصاً للرياضة والفلك والتنجيم فى كتاب أسماه «التفهيم لأوائل صناعة التنجيم».

ومن علماء المسلمين البارزين فى علم الفلك أيضاً: تقى الدين الراصد، والبديع الاسطرلابى البغدادى، والشيخ شرف الدين الطوسى، هؤلاء الآخرين قد أحدثوا تطوراً كبيراً فى تقدم علم الفلك عند المسلمين، منها إدخال آلات حديثة مثل السمت والإرتفاع وذات الأوتار والمساطر والبراكين وغيرها؛ حتى أن الأسبان قد اعترفوا بأن العرب قد علموهم «الرقاص» أى البندول لقياس الوقت.

أما فى علم الرياضيات:

فقد قام العرب فى العصور الوسطى بنقل كتب الإغريق فى مجال الجبر والهندسة وحساب المثلثات.

وقد قام الحجاج بن يوسف بن مطر بنقل كتاب بطليموس وكتب إقليدس فى الهندسة إلى العربية فى عهد هارون الرشيد؛ أما فى عصر المأمون فقد قام إسحق بن حنين بنقل كتاب مبادئ الهندسة لإقليدس وكتاب الكرة والاسطوانة لأرشميدس.

وبحكم تجارة العرب مع الهند، عرف العرب كتابين وضعهما الهنود فى الجبر على أيام الخليفة المنصور العباسى ٧٥٤-٧٧٥م، عرفوا من خلالهما القواعد الأساسية الخاصة المتوالية العددية وحل المعادلات. وفى الهندسة أعطيت تلك

الكتب الهندية بياناً عن مساحة المثلث والشكل الرباعى داخل دائرة. وقد استعان العرب بالكتابيين وتمت ترجمتهما.

ثم تلى ذلك إهتمام العرب بهذه العلوم الرياضية حتى ابتكروا فيها الكثير، وفيما يلى أشهر علماء المسلمين وما ابتكروه فى هذا المجال. الخوارزمى، أول علماء العلوم الرياضية عند المسلمين، وهو عالم فلكى كما ذكرنا وأشهر كتبه فى الحساب «أتلارد من باث - Athelard of Bath» وقد وجدت هذه الترجمة عند اللاتينية فى مكتبة جامعة كمبردج. وله فى علم الجبر «جبر الخوارزمى» الذى اعتمد عليه العرب والمسلمين غيرهم فى القرون الوسطى وفى كتابه «الجبر والمقابلة» ثم بحث فى قواعد الجمع والطرح.

ومن علماء الرياضيات المشهورين عمر الخيام الذى نبغ فى حل المعادلات التكعيبية عن طريق علم الهندسة، وقد نشر وويك Woepcke سنة ١٨٥١م فى باريس كتاب الخيامى فى الجبر.

والكرخى من أشهر علماء بغداد فى علم الرياضيات، وكانت الأعداد التى استخدمها تكتب بالحروف.

واستمرت المدارس العربية الإسلامية قائمة حتى القرن الخامس عشر الميلادى، ولم يكن من بينها من علماء الرياضة النابهين آن ذاك غير العالم الإسلامى «ناصر الدين» الفلكى وقد عاش فى الفترة من ١٢٠١- ١٢٧٤م.

ومن علماء المسلمين الذين عرفوا بالتفوق فى علوم الجبر والحساب والهندسة «جابر بن افلح» الذى ولد فى اشبيليه وتوفى فى قرطبة فى النصف الثانى من القرن ١١م.

وما كاد ينتهى القرن ١٤م حتى كانت الأجزاء الخمسة الأولى من كتاب الهندسة لإقليدس قد تقررت ضمن المنهج الدراسى فى كثير من الجامعات الأوروبية.

أما فى مجال العلوم الزراعية والنباتية:

من المفكرين والعلماء الأوروبيين الذين شهدوا للعرب والمسلمين فى مجال العلوم النباتية والزراعية العالم الأوروبى «سيديو» الذى اعترف بأن العرب أضافوا مواد نباتية كثيرة كان يجهلها اليونان جهلاً تاماً، وزودوا الصيدليات بأعشاب يستعملونها فى التطبيب والعلاج.

ويعتبر ابن البيطار رائد علم النبات، حتى أن معاصروه قالوا عنه أنه الحكيم الأجل، العالم النباتى، وعلامة وقته فى معرفة النبات وتحقيقه واختباره.

سافر إلى بلاد اليونان، وزار مصر والمغرب والشام وجمع الحشائش والنباتات، والتقى بالعارفين بعلم النبات واستفاد منهم وحقق النبات فى بيئته وتعرف على خصائصها.

نبغ ابن البيطار فى أوساط القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى فتناول الكتب المترجمة. وكان فى مصر أيام الناصر صلاح الدين الذى اعتمد عليه فى الأدوية النباتية، حتى جعله رئيساً على العشابين. ويعتبر ابن البيطار ثورة علمية فى مجال النباتات العشبية؛ فقد الف كتابه الشهير فى هذا المجال المعروف باسم «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» وقد وصف فى كتابه أكثر من ١٥٠٠ عقار بين نباتى وحيوانى ومعدنى، ثم تطور فى معرفة العقار النباتى إلى طريقة استعماله.

وهكذا يضرب ابن البيطار مثلاً للعالم العربى المدقق، النافذ الذى يعتمد على البحث والتجريب والمشاهدة مما جعله فى مقدمة علمآء المشرق والمغرب.

ومن العلماء العرب الأقدمين الذين كان لهم أكبر الأثر فى علم النبات ابن سينا الذى وصف كثيراً من النباتات الطبية فى كتابه «القانون» كما كتب فصلاً ممتعاً فى كتابه «الشفاء». أما الرازى فقد كتب عن النباتات العطرية والفاكهة؛ ومن هؤلاء العلماء فى هذا المجال أيضاً: الدينورى، الإدريسى، والبغدادى، والقزوينى، والغافقى، وغيرهم من أطباء العرب الذين كانوا يعرفون آنذاك بالعشابين.

واشتهر من بين علماء العرب فى علم النبات رشيد الدين الصورى فكان «...يصطحب معه مصوراً عند بحثه عن الحشائش فى منابتها ومعه الأصباغ على اختلافها وتنوعها ...».

وللعرب فى الزراعة كتاب جليل وضعه أبو زكريا الاشبيلى وحاول فيه أن يطبق معارف أهل العراق واليونان والرومان، وأهل افريقية فى بلاد الأندلس، واستفاد أهل الأندلس من خبرة أبو زكريا الاشبيلى وما وضعه فى كتابه من معرفة لخواص التربة، وتركيب السماد، وأدخل طرق كثيرة فى الحرث والغرس والرى. وهذا ما جعل الأندلس فى عهدهم جنة الدنيا.

وكان ابن العوام من أبرز علماء الزراعة فى بلاد الأندلس، والتى اعتبرت من أهم مناطق الزراعة فى البلاد الإسلامية، ويرجع ذلك إلى طبيعة شبه جزيرة أسبانيا بما فيها من أنهار ووديان ومرتفعات، وتنوع تربتها، وابن العوام الأندلسى هو ابو زكريا يحى بن محمد بن أحمد بن العوام الاشبيلى، ومؤلفه «كتافة

الفلاحة، يعتبر حجة فى مجال الزراعة التى اعتبرها فناً من الفنون يمكن للإنسان أن يتخذها صنعة يصل بها إلى معاشه.

وقد ذكر ابن العوام فى مؤلفه بعض الأحاديث النبوية الشريفة مثل: «اطلبوا الرزق فى خبايا الأرض» وقوله: «من غرس أو زرع فأكل منه إنسان أو طائر أو سبع كان له صدقة»، وقوله: «من غرس غرساً فأثمر أعطاه الله من الأجر بقدر ما يخرج من الثمر».

أما فى علم الكيمياء:

فقد كان للعرب والمسلمين منذ القرون الأولى اليد الطولى فى البحث فى سر الكيمياء والإلمام ببعض عملياتها المختلفة، ومن أشهر علماء المسلمين جابر بن حيان الصوفى وله بهذه المناسبة عدة مخطوطات بدار الكتب كما اشتهر أبو بكر محمد بن زكريا الرازى، وابن سينا وابن رشد، وكان علم الكيمياء يعرف أسماء كثيرة منها السر الأعظم والسر المكتوم، والصنعة الإلهية والحجر المكرم، والحجر الفيلسوفى نسبة إلى الصعوبة التى كان يلقاها الباحث فى الاستقصاء عن تفهم سر الكيمياء. وكان غرضهم من مزاولة الكيمياء تحضير المعادن النفيسة من المعادن التى دونها مرتبة، أو تحضير دواء يشفى الأسقام والعلل أو لأسباب أخرى.

وجابر بن حيان، هو أبو موسى جابر بن حيان الكيميائى الأول للمسلمين، لم تكن الكيمياء قبله علماً قائماً على التجربة العملية، بل كانت نوعاً من الصناعة يتناقلها الناس بلا تجربة أو مشاهدة. ولهذا سمى جابر بن حيان برائد علم الكيمياء، وارتبط اسمه فى الشرق والغرب بأول من وضع الكيمياء على أسس علمية.

ويرجع أصل جابر بن حيان إلى قبائل الأزد اليمنية، وقد ولد فى طوس من أسرة ازدية، استوطنت الكوفة، وكان ابوه «حيان» من المشتغلين بالعقاقير ولكنه سافر إلى طوس فى مهمة سياسية سرية خاصة بالدعوة للعباسيين، الذين كانوا يعملون فى طى الخفاء لإسقاط الأمويين. وقد ولد حيان اثناء إقامة أبيه بطوس فى هذه المهمة سنة ٧١٢م على الأرجح، ثم قبض على «حيان» وقتله عامل الخليفة الذى كان يأتمر عليه، وأرسل «جابر بن حيان» اليتيم إلى أهله ببلاد العرب ليعولوه حتى يكبر. وقد تعلم الرياضيات وهو فى بلاد العرب على يد رجل يمنى يسمى حرب الحميرى، ولايعلم عنه إلا انه أستاذ تلميذه العظيم.

وآل الأمر للعباسيين، وكان جابر قد ظفر بصداقة جعفر الصادق، وتتلمذ عليه، فكان ذلك وسابقة أبيه فى خدمة الدعوة للعباسيين من العوامل التى جعلت لجابر مكانة فى بلاط الرشيد ببغداد. ولم يكن على اتصال مباشر بالخليفة، ولكنه كان وثيق الصلة بوزرائه البرامكة.

وقد نجح جابر بن حيان فى صناعة المادة التى تحافظ على الورق من الحريق خاصة عندما طلب منه أستاذه جعفر الصادق من البرامكة ضرورة إيجاد ورق يحفظ له كتابه «الضيم».

ولما نجح جابر فى ذلك زادت صلته على مر الأيام بالبرامكة، وأصبحت بينهما صداقة حميمة. ومما يروى عن علاقته بهم أن يحيى البرمكى كانت له جارية جميلة فاتنة، وقد تناولت الجارية دواء لعلاج علة بها، لكن الدواء زاد من سوء حالتها، فتدهورت وأصيبت بضعف شديد، وكان جابر بن حيان يجلس مع يحيى البرمكى فى ذلك اليوم، عندما أحد الخدم يبلغ يحيى بخبر الجارية، حزن يحى حزناً شديداً على جاريته، فقد كان يحبها حباً جماً، فنظر إلى جابر

يستعين بعلمه وهو يقول «ياسيدى ماذا عندك ينفع علاجها (علاجاً لهذه الجارية) فقال «جابر بن حيان»: كيف لى أن أصف لها الدواء السليم وأنا لم أرها لمعرفة مابها؟.

فوافق يحى على دخول جابر عليها، وعندما دخل جابر إلى غرفة الجارية وجدها كأنها تلفظ انفاسها الأخيرة؛ فأخذ يدرس حالتها ويسأل من حولها عن تاريخ مرضها، ثم وصف لها مجموعة أدوية الواحد بعد الآخر تناولتها ... وما أن مضى على ذلك بضعة أسابيع حتى شفيت هذه الجارية ... وكانت فرحة يحى البرمكى لاتوصف بنجاة جاريته الحسناء. فكان هذا الموقف بادرة خير وبركة لجابر بن حيان حيث إزدادت الثقة به عند أهل الرأى والأمر.

لقد وضع جابر بن حيان برنامجا علميا يرى أن يلتزم به كل من يعمل به فى الكيمياء تتمثل فى :

- تحديد الغرض من التجربة قبل البدء فيها.

- يجب أن يتفرغ صاحب التجربة لها، حتى يعطى التجربة حقها من الوقت والرعاية والأهتمام.

- يجب أن يكون المعمل فى مكان خاص للتجربة.

- يجب أختيار الزمن المناسب، والفصل الملائم للتجربة.

- الصبر والمثابرة عنصراً هاما من عناصر النجاح، والفشل مرة أو مرتين وأخرى لاتعنى اليأس.

وهذا ما قاله العلامة «أديسون» فى العصر الحديث ...

- لايجب على الكيميائى أن يتسرع فى استنتاج نتائجه.

- يجب تجنب ماهو مستحيل أو عقيم.

ويرى جابر بن حيان التجربة العملية وحدها لاتؤتى ثمارها إن لم تعتمد على القراءة، ويدعمها الإطلاع الوافر الغزير. فهو يشترط على تلاميذه قراءة كتبه ثلاثة مرات متتالية لكل قراءة منها هدف : فالقراءة الأولى للتثبت من صحة الألفاظ والمعانى فى النص، والقراءة الثانية فلدراسة النص من حيث معانيه ومدلولاته القريبة والبعيدة، أما القراءة الثالثة فهى للتأمل وتبويب المعانى ومعرفة دقائقها.

ويؤكد جابر بن حيان على أنه لانجاح فى تجربة أو عمل عملى إلا إذا كان مسبوقا بالقراءة، ثم تأتى التجربة العملية، اى إقرأ أولاً ثم تأمل العمل.

وكان جابر بن حيان أول من أكتشف حامض الكبريتيك وتقطيره، ثم حامض النيتريك، وأول من كشف الصودا الكاوية واستحضر ماء الذهب، وأول من أستحضر طريقة فصل الذهب عن الفضة بواسطة الحامض، وهى نفس الطريقة التى تستخدم حتى الآن لتقدير العيارات الذهبية فى السبائك الذهبية.

وهو أول من لاحظ مايحدث من راسب كلورور الفضة عند إضافة ملح الطعام إلى محلول نترات الفضة. كما أستحضر مركبات أخرى مثل كربونات البوتاسيوم وكربونات انصوديوم، واستعمل ثانى أكسيد الماغنسيوم فى صناعة الزجاج.

ولجابر بن حيان بحث فى السموم تحت اسم «السموم ودفع مضارها». وقد أرتبط جابر فى كتابه هذا بالأسلوب العلمى.

وهناك من العلماء المسلمين ابن الهيثم من علماء النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى واضع علم الضوء على أساس سليم.

ولد فى عام ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م وكان أول أمره بالبصرة فى العراق. بدأ حياته فى أزهى عصور الحضارة الإسلامية من الناحية العلمية ومن أزهى العصور فى تاريخ العالم كله، فقد تمكن من نقل كتب الفلسفة والطب والهندسة وعلوم الرياضيات من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية.

وكان من أشهر علماء المسلمين فى تلك المجالات، الكندى والفارابى فى الفسلفة، وأبو بكر الرازى فى الطب، والخوارزمى فى الرياضيات، وثابت بن قرة أيضاً، وفى الكيمياء جابر بن حيان، وفى الفلك أبو معشر البلخى وغيرهم كثيرون.

ترعرع ابن الهيثم فى ذلك العصر، واطلع وهو شاب على هذه الثروة العلمية، ودأب وصبر وثابر وأخلص فى تحصيل العلوم بشكل منظم فارتسمت الصورة العلمية الصحيحة لهذا الشاب الواعد.

ومن تصانيفه فى المرحلة الأولى من حياته ردوده على الفلاسفة وعلماء المنطق، ومنها ما اتجه فيه اتجاهاً خاصاً مثل كتابه فى «الأصول الهندسية والعددية» والذى وصفه بنفسه قائلاً: «كتاب جمعت فيه الأصول الهندسية والعددية من كتاب إقليدس وغيره، ونوعت فيه الأصول، وبرهنت عليها ببراهين حسية ومنطقية».

ومن كتبه فى الفنون الهندسية كتابه فى علم المساحة، تناول فيه أموراً كثيرة منها مسألة تربيع الدائرة، وتعرف الآن بمساحة الدائرة.

وبلغ الحاكم بأمر الله الفاطمى قول ابن الهيثم «لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملاً يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة أو نقص، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال فى مصر». فاستقدمه الحاكم بأمر الله وأحسن وفادته فى صورة مبهرة.

انتظر الحاكم بأمر الله الفاطمى مايصنعه ابن الهيثم فى نيل مصر، وانتظر الفائدة التى تعود على البلاد من مشروع ابن الهثم الذى لم يتم لأن ما رآه ابن الهيثم بنفسه من أن نيل مصر لم يأت من مكان مرتفع فى الجنوب كما كان يظن أو يعتقد، واعتبره أن خطأه فى تقدير المسألة اعتمد على الرواه وليس على المشاهدة والملاحظة.

ولكنه على اية حال أعترف بخطئه، وهذه ميزة العالم الصادق الأمين.

على أن مايحمد لأبن الهيثم أنه أول من وضع علم الضوء على أساس علمى سليم؛ خاصة لو علمنا أن حقائق علم الضوء قبل ابن الهيثم لا رابط يربطها ولا نظام يجمعها.

ومن الثابت أن كتاب «المناظر» لابن الهيثم يعتبر أكبر الكتب استيفاءاً لبحوث الضوء، وأرفعها قدراً، وهو يجرى فى عرضه للمادة العلمية على أحدث الأساليب، إن لم يتفوق على بعضها فى بحث الضوء، وتشريح العين، وكيفية تكوين الصور على شبكية العين.

هكذا كان عظمة الابتكار الإسلامى وهى تتجلى لنا فى البصريات.

الفصل السادس

النظم البحرية الإسلامية والتجارية وأثرها في الحياة الإقتصادية

الغزو العربى ٦٤١ / ٧٥٢:

بدأ الغزو العربى طور جديد فى تاريخ البحر المتوسط والأحمر وفى تاريخ الإنسانية.

وكان العرب طول حياتهم أصحاب الحرب فى البر، وقد كانت المدن الإسلامية فى البلاد المفتوحة - كما ذكرنا من قبل - قواعد أساسية فى نظم الحكم والإدارة وقيام الجيوش الإسلامية البرية، من أمثلة تلك المدن، دمشق، بغداد، الفسطاط، وغيرها. ولكنهم - أى العرب - سرعان ما أدركوا أن البحر لا يمكن إغفاله، وكان أول من فطن لذلك معاوية بن أبى سفيان، على أن أكثر القواد الآخرين لم يفطنوا لأهمية الجمع بين العمليات الحربية فى البر والعمليات الحربية فى البحر. وكان هذا سر نكبة عقبة فى تقدمه نحو الغرب دون أن يستند إلى حماية حربية بحرية.

وخلفاء معاوية من بنى أمية ساروا حقاً على نهج البيزنطيين، فضرب عبد الملك بن مروان الدينار الذهبى ونقش عليه نصاً عربياً، فكأنه نازع القياصرة ما أدعوه من أن لهم وحدهم سك الذهب. وأمر بإنشاء قاعدة بحرية فى قرطاجنة (تونس الحالية) وأرسل لذلك ألف صانع مصرى من بناة السفن بأسرهم، واستولى المسلمون على قوصرة القريبة من الشاطئ الأفريقى فى موقع مهم. على أن موسى بن نصير اختار لبناء القاعدة موقعاً على بحيرة بعيداً عن الشاطئ بعض الشئ، ثم وصل القاعدة بقناة. وهكذا أقيمت فى تونس قاعدة أمينة للأسطول العربى - قاعدة جديدة أضيفت للقواعد القديمة فى مصر وسورية.

على أن تاريخ البحرية الإسلامية وبداية إتصال المسلمين بالبحر، لم يكن

منذ هذا التاريخ (٦٤١م)، بل أن المسلمين تنبهوا إلى أهمية البحر ودوره فى تحديد مصير بعض نتائج المعارك الحربية. ذلك أنه يمكن القول أن معركة اليرموك بين المسلمين والبيزنطيين، وما حققه المسلمون من إنتصار حاسم فيها، يعتبر نقطة تحول هامة فى حركة الفتوح الإسلامية؛ حيث إنهارت المدن البيزنطية فى بلاد الشام الواحدة تلو الأخرى، وحلت محلها السيادة الإسلامية، حتى أن هرقل إمبراطور الروم البيزنطيين حزن حزناً شديداً وقال عبارته المشهورة وهو يودع أرض الشام «عليك يا سورية السلام ونعم البلد هذا العدو»[1].

أما السواحل السورية، فقد وجه يزيد بن أبى سفيان همه إلى فتح مدن الساحل السورى، ولم يأت عام ١٧هـ، حتى سقطت فى يده جبيل وعرقا وصيدا وبيروت؛ وفى نفس الوقت كان عبادة بن الصامت يفتتح عنوة مدن الساحل الشمالى، وهى اللاذقية وجبلة وأنطرطوس[2].

وأدى فتح بلاد الشام إلى فتح مصر، إذ كانت تربطهما منذ أقدم العصور مصالح سياسية وحربية وتجارية واحدة، وكثيراً ما ارتبط الشام ومصر معاً، بفضل موقعهما الجغرافى والمصالح المشتركة؛ وكان مصيرهما واحد فى خلال فترات طويلة من التاريخ القديم والوسيط، بل والحديث[3].

ولم ير أصحاب العقول البسيطة من هؤلاء العرب أول الأمر سوى مدمرين

---

(١) البلاذرى، فتوح البلدان، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، القسم الأول، القاهرة، ١٩٥٦م، ص١٦٢ .

(٢) البلاذرى، المصدر السابق، ص١٥٧ ؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٢، ص٤٩٢ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم، الصلات التاريخية بين الشام ومصر فى العصر الإسلامى، مجلة العلوم، بيروت، العدد الخامس، ١٩٦٤ .

لكل حضارة وصناعة وتجارة؛ ولكن سرعان ما تبين للجميع خلال الحروب التى شنها العرب إهتمام هؤلاء بالحقول المزروعة. والسكان المسالمين المقيمين بالأرض، والفطنة التى كانوا يتميزون بها فى تنظيم سلطانهم فى البلاد المفتوحة.

لقد سجلت الفتوح العربية فى بلاد الشام تحولاً إستراتيجياً من الناحية الدفاعية وكذلك فى مصر ايضاً؛ إذ أن العرب فى البلدين قد أحسوا بعد أن افتتحوا مدناً ساحلية تمتد من انطاكية فى الشمال حتى ساحل برقة (فى ليبيا) غرباً بأهمية الدفاع البحرى عنها، فى وقت كانوا يدركون أن ثقافتهم البحرية محدودة، ليس بالنسبة للدولة البيزنطية المعادية للإسلام والمسلمين، ولكن حتى لأصحاب المدن الساحلية فى مصر والشام، لم يكن العرب يضاهوهم فى فهم استراتيجية الدفاع البحرى. ولاشك أن سبب إحساس العرب بهذا الفارق الكبير بين الطرفين فى الجانب البحرى يرجع إلى تعرض القسم الجنوبى للجزيرة العربية (اليمن)، (عمان)، وحضر موت، زمناً طويلاً لسيطرة الأحباش المسيحيين الذين استأثروا بالطريق التجارى عبر البحر الأحمر، ثم لسيطرة الفرس على الخليج الفارسى (العربى حالياً) واحتكروا لأنفسهم تجارة الهند[1]. هذا إلى طبيعة بلادهم الصحرواية، وصعوبة الملاحة فى البحر الأحمر. مما دفع الخليفة عمر بن الخطاب إلى اتساع سياسة البحرية الهجومية، بعد أن كانت مقتصرة على البحرية الدفاعية فقط؛ وبدأ المسلمون تأسيس القوة البحرية الإسلامية حفاظاً على سيادتهم على مصر والشام.

ويرجع الفضل الأكبر فى إنشاء الأسطول العربى الإسلامى إلى معاوية بن أبى سفيان - كما ذكرنا - عامل الشام فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب وأيضاً

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية، ص١٤ .

عثمان بن عفان. ذلك أن هذا الأمير قد فطن إلى أهمية الأساطيل البحرية فى الدفاع عن السواحل، وكان معاوية قد قام بتنظيم الثغور الإسلامية فى الداخل وكذلك المدن الساحلية، وكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يصف له حال هذه السواحل، ويقترح عليه إنشاء اسطول بحرى للغزو فى البحر، ولكن الخليفة عمر رفض وطلب منه تقوية الحصون فقط.

ولما استخلف عثمان بن عفان الخلافة فى المحرم سنة ٢٤هـ كتب إليه معاوية يستأذنه فى غزو قبرص، فرفض كما نهاه عمر بن الخطاب من قبل[1]. وأمره كما أمره من قبل عمر بن الخطاب بإعادة تحصين السواحل وشحنها وإقطاع من ينزله إياها القطائع، ففعل[2]. وفى بداية خلافة عثمان تغلب البيزنطيون على بعض سواحل الشام، فاستعادها.

وأمام تهديدات البيزنطيين بين الحين والآخر، اضطر معاوية إلى تنفيذ خطته فى إعداد اسطول بحرى حتى يتهيأ له أن يفتح مدينة طرابلس المنيعة من جهة، وغزو الجزر المواجهة لساحل الشام كأرواء وقبرص ورودس، ويتخذها مراكز أمامية لتوجيه الغزوات البحرية إلى ممتلكات الروم البيزنطيين من جهة ثانية. واستعان معاوية فى صناعة الاسطول الشامى المصرى بجماعة من الملاحين العرب من بين الأزد الغساسنة لإدارة العمليات البحرية. ونجح معاوية فى ذلك، ثم بدأ بتوجيه الاسطول لفتح طرابلس التى كان يعتبرها كالشوكة القائمة فى جانبه؛ وقد تمكن من فتحها سفيان بن مجيب الأزدى فى عام ٢٦هـ، أى بعد الفتح الثانى للإسكندرية بفترة وجيزة، ثم أرسل معاوية حملة إلى قبرص عام ٢٨هـ،

---

(١) البلاذرى، فتوح البلدان، جـ١، ص١٨١ .

(٢) نفسه، ص١٥٢ .

فكانت أول غزوة بحرية إسلامية «ولم يركب المسلمون بحر الروم قبلها»[1].

وما كاد معاوية يظفر بالخلافة فى سنة ٤١هـ، حتى حرص على الإهتمام بالسواحل الشامية المصرية، رغم قيام محاولة لحرق قطع الاسطول المصرى إلا أن معاوية تغلب على تلك الحركة[2].

وكان لتضامن مصر والشام فى مرحلة التحدى البيزنطى لقوى الإسلام بعد حركة الفتوحات العربية الإسلامية، ووقوف البلدين معاً أثناء عمليات الغزو البحرى، أكبر الأثر فى تحقيق أمل معاوية فى إنشاء بحرية إسلامية، حولت خطط العرب من استراتيجية دفاعية إلى هجومية، فى مرحلة مبكرة للغاية من تاريخهم الإسلامى.

ربما كان مرجع بعض هذا اليسر وهذه السهولة إلى ضعف الدولة البيزنطية بسبب حروبها الطويلة الذى استمر قرابة قرن من الزمان مع بلاد فارس، وهى الحروب التى إنتهت حيث بدأ العرب. وربما رجع أيضاً إلى عجز بيزنطة، بعد أن صار كل إعتمادها على العنصر البحرى فى مواجهة غزو برى واسع النطاق. وربما رجع هذا اليسر - إلى حد ما - إلى دفاع المسلمين عن دينهم الإسلامى، وما توفر لدى المسلمين من تلك الحماسة الدينية آنذاك. على أنه مما لاشك فيه أن السبب الرئيسى لنجاح العرب إلى غير هذه الأسباب يرجع إلى رفض معظم السوريين والمصريين القيام بأية مقاومة، بسبب حنقهم الشديد على البيزنطيين وإضطهاد هرقل لعقيدتهم المنوفيزتية، وكذلك بسبب النظام المالى الظالم، الأمر الذى دفع هؤلاء إلى الترحيب بالجيوش العربية. وعلى أية حال لقد تقرر مصير سورية فى

---

(١) البلاذرى، ص١٨١ .

(٢) جرجى ينى، تاريخ سوريا، بيروت، ١٨٨١م، ص٣٧٨ .

معركة واحدة هى معركة اليرموك، كما تقرر مصير مصر فى معركة حصن بابليون. حقيقة إن بعض المدن قاومت مقاومة أكثر من شكلية. ولكن معظمها - ما عدا الساحلية منها - لم تستطع الصمود طويلاً، هذا إلى أن الشروط السخية التى منحها العرب لمن سلموا لهم، ساعدت كثيراً؛ ولاشك كما ساعد أيضاً التسامح الدينى الإسلامى الذى عامل به العرب المسلمون أهل سورية ومصر من نصارى ويهود معاملة حسنة؛ وبهذا قد بدات السيطرة الإسلامية فى نظر سكان تلك الأقاليم اقرب ما يكون إلى حركة تحرير من البيزنطيين[1].

وقد ذكرنا أن العرب الفاتحين كانوا فى أول الأمر غير مستعدين ولا راغبين فى مواجهة البحر وقتها، ورفض عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ما طلبه منهم معاوية من إنشاء أسطول بحرى[2]. ويظهر أن خوف الخلفاء المسلمين آنذاك يرجع إلى مراكز الحكم التى أقامها العرب فى البلاد المفتوحة التى كانت داخلية بعيدة عن الساحل، مثل دمشق فى سورية والفسطاط فى مصر.

لكن إذا كانت غرائز العرب وعدم الخبرة أبعدتهم عن ركوب البحر العميقة الزرقاء، فإن السياسة الحكيمة أشارت بإرتيادها والمغامرة فيها. فالجغرافية جعلت من مصر وسورية الساحلية بلاداً لا يمكن عزلها عن البحر المتوسط، وأهم من هذا أن العرب سيطروا بإمتلاكهم هذه الأقاليم على التجارة والأرباح التجارية الناتجة منها. ولما كانت ثروة مصر وسورية من تجارتهما الداخلية وعلاقتهما التجارية الخارجية مع بلاد البحر المتوسط: فإن العرب إذا ما إنصرفوا عن البحر، وأهملوا العلاقات الإقتصادية التى تقوم مع بلاد البحر المتوسط لنضب معين

---

(١) هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى، جـ١، ص٤١-٥٧ .

(٢) آرشيبالد- لويس، القوى البحرية والتجارية، ص٨٨-٨٩ .

الذهب الذى جعل تلك الأقاليم جذابة فى نظر الحكام العرب. ولذا سرعان ما إندمج الفاتحون لمصر وسورية طوعاً أو كرها فى حياة البحر.

وذكرنا أيضاً، أن أهم ما دفع العرب الفاتحين إلى التحول نحو البحر حاجتهم للدفاع عن الأملاك الجديدة التى كسبوها. حقيقة أنهم ملكوا البر، ولكن البحر كان لا يزال فى قبضة البيزنطيين. وربما لم يشعر العرب شعوراً كاملاً حتى عام ٦٥٤م بعظم الخطر الذى قد يتعرضون له من البحر، ففى ذلك العام استطاعت حملة بحرية بيزنطية أن تنزل جيشاً إلى أرض مصر، وتستعيد الإسكندرية، واستلزم الأمر قتالاً عنيفاً حتى أجليت هذه القوة[١]. وعندما تم إجلاء العدو عن الإسكندرية، أمر عمرو بن العاص والى مصر الإسلامية بهدم حصون الإسكندرية حتى لا تجد حملة فى المستقبل حصوناً تمكنها من الصمود أمام قواته البحرية[٢]. ولم يكن هذا سوى حل مؤقت للمشكلة.

وشابهت الحال فى سورية الحال فى مصر تقريباً، إذ سرعان ما أدرك معاوية والى سورية ضعف سلطانه على سواحلها أما قوة اسطول بيزنطة القريب من شواطئ سورية، وكيف أن سكان المدن الساحلية، ومعظمهم على مذهب اليونانيين الأرثوذكس، ظلوا يتطلعون إلى البحر أملاً فى الخلاص، لولا أن معاوية بن أبى سفيان أعد عدته ليقضى على هذه الآمال، واستطاعت مدينة مثل أرواد بفضل ما وصلها من مدد عن طريق البحر، أن تصمد للمقاومة وألا تستسلم لمعاوية إلا بعد وقت طويل من خضوع بقية البلاد السورية[٣]. ولهذه الظروف كان معاوية أول من نظم أسطولاً بحرياً وأول من أرسل حملة عربية للغزو فى البحر المتوسط.

(١) Lan-Poole, A History of Egypt in the Mid. Ages, New York, 1901, p. 21 .

(٢) نفسه، نفس الصفحة.

(٣) Wiet G., L'Egypt Arab. Paris, 1937, pp. 22-23 .

أخذت هذه الحملة شكل غزوة بحرية عام ٦٤٨م إلى جزيرة قبرص، والواقعة فى قبضة البيزنطيين، وكانت الحملة - إلى حد ما - غارة بحرية؛ كما كانت فى الوقت نفسه عملاً دفاعياً، جمع له معاوية - كما أسلفنا - عدداً من سفن مدن سورية الساحلية وفرقاً من المقاتلين المصريين، والراجح أن هذه القوة البحرية لم تكن فى مجموعها مكونة من العرب. وقد سهل على العرب بفضل استيلائهم على دور الصناعة البيزنطية فى الإسكندرية وسورية سليمة، ان تكون لديهم سفن حربية حاضرة، وكذلك ما قام به معاوية من بناء سفن جديدة، كما كانت تحت أيديهم السفن التجارية التى يملكها أهل سورية ومصر، وهذه يمكن الإستيلاء عليها، واستخدامها فى الأغراض الحربية عند اللزوم، مع ما يكفيها من ملاحى تلك الثغور الخبيرين بشئون الملاحة. ومن الممتع أن نلاحظ أن الروايات التاريخية العربية نقلت إلينا معارضة الخليفة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان لمشروع معاوية البحرى، وهو أمر يدل على عدم خبرة العربٰ - بعيداً عن جنوب وشرق الجزيرة العربية - وخاصة عرب الداخل فى مكة والمدينة، والطائف، بالملاحة البحرية وأهميتها الحربية والتجارية؛ إذ خشى الخليفة عمر بن الخطاب ومن بعده عثمان بن عفان عواقب بدعة الغزو فى البحر(١). ومع ذلك صادف معاوية التوفيق. ويذكر مؤرخو العرب أن الاسطول الذى هاجم قبرص بلغ ١٧٠٠ سفينة - وهو أمر يبدو أنه مبالغ فيه - وأنه استولى على الجزيرة فى سهولة ويسر، كما استولى على غنائم كثيرة، وفرض على أهلها ضريبة بلغت ٧٢٠٠ قطعة من الذهب تدفع إلى دمشق سنوياً. ويضاف إلى هذا أن يتعهد أهل قبرص بإبلاغ العرب عن أية استعدادات يقوم بها البيزنطييون ضد المسلمين(٢). ومن هذا الشرط

(١) Hitti, op.cit, pp. 167-168.

(١) أرشيبالد، لوييس، المرجع السابق، ص٩١ .

الأخير نرى سر إهتمام معاوية بقوة بيزنطة البحرية. وبعد عام من الهجوم السابق سقطت أرواد فى يد قوة برية بحرية من العرب، وكانت آخر معاقل البيزنطيين على السواحل السورية.

وكان التنظيم الذى لازم حملة قبرص بداية مرحلة النشاط البحرى للعرب. ففى السنوات السبع التالية، قام المسلمون بسلسلة من الغارات البحرية من قواعدهم فى مصر وسورية[1]. وفى عام ٦٥٢م قامت حملة من سورية مؤلفة من ٢٠٠ سفينة وأغارت على جزيرة صقلية وعادت بغنائم عظيمة[2]، وفى نفس السنة وجهت حملة أخرى ضد رودس[3] حيث عاد المغيرون ومعهم الأنقاض النحاسية لتمثال إله الشمس (هيليوس) الذى يعتبر أحد عجائب الدنيا السبع فى العالم القديم بين عامى ٢٩٢-٢٨٠ ق.م. ويظهر أن قبرص لم تلتزم بشروط معاهدة عام ٦٤٨م، بدليل العودة إلى الإغارة عليها عام ٦٥٤م. وفى تلك الغارة دمرت الحملة ميناء القسطنطينية، واحتلت الجزيرة نهائياً، ونزل بها ١٢,٠٠٠ من جنود المسلمين أقاموا على الساحل الشمالى لها.

ويظهر أن الغارات التى إنتهت بإحتلال الجزيرة أثارت حماسة الدولة البيزنطية نحو البحر، ودفعتها بعمليات بحرية جديدة. وكانت هذه العمليات قد توقفت منذ فشلها فى الإسكندرية عام ٦٤٥م. وفى عام ٦٥٥م أعد قنسطانز الثانى خليفة هرقل اسطولاً كبيراً تراوح عدده مابين ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ سفينة شراعية، والتقى هذا الاسطول فى السنة نفسها بأسطول صغير مشترك من العرب والمصريين مكون من ٢٠٠ سفنية أقلعت من شواطئ سورية قرب موضع يقال له

(١) د، عبد اللطيف عبد الهادى السيد، موسوعة التاريخ الإسلامى، جـ٤، خلافة معاوية.

(٢) أرشيبالد، لويس، المرجع السابق، ص٩١-٩٢ .

(٣) Al-Baladuri, pp. 236-237.

«فونكس Phoenix» بآسيا الصغرى، وتعرف هذه الواقعة بموقعة «ذات الصوارى» وإنتهت بأول نصر عربى فى معركة بحرية. ويبدو أن إنتصار العرب جاء نتيجة لخطط غير عادية، إذ ربطوا سفنهم بعضها ببعض بسلاسل ثقيلة، فإستحال على أعدائهم البيزنطيين إختراق صفوفهم. واستخدموا فى تلك المعركة خطاطيف طويلة يصيبون بها صوارى وشرع سفن الأعداء البيزنطيين، الأمر الذى إنتهى بكارثة بالنسبة للعدو البيزنطى؛ ونجا إمبراطور قنسانز الثانى بأعجوبة من الموت، بفضل سفينة من سفنه السريعة[1].

ومما يلفت النظر أن المكان الذى دارت فيه هذه المعركة، وهو ساحل الأناضول، يزدحم بغابات السرو الكثيفة، وهو الخشب المستخدم فى صوارى السفن. ولعل البيزنطيين قرروا القيام بتلك المعركة ليحولوا بين الخشب اللازم لصناعة السفن هناك، وبين وقوعه فى قبضة العرب المسلمين؛ وإذا صح هذا الزعم فإنه يقوم دليلاً على أهمية الخشب فى الصراع البحرى بين العرب المسلمين، والبيزنطيين.

ويعد هذا الإنتصار البحرى العربى العظيم، آخر العمليات البحرية التى استمرت أكثر من عشر سنوات بين الطرفين، إذ توقف المسلمون بعد هذا النجاح؛ ولم يحاول البيزنطيون أيضاً معاودة نشاطهم البحرى. ويرجع سبب ذلك إلى وجود بعض مشاكل داخلية عندهم (الطرفين) جعلت من مصلحة الطرفين المتنازعين أن يوقفا العمليات البحرية دون معاهدة. ففى الجانب الإسلامى شغل معاوية بنزاعه مع على بن أبى طالب حول موضوع الخلافة، واستغرق الأمر أكثر من عشر سنوات، إلى أن استقرت له الخلافة فى دمشق، ثم أصبح معاوية فى حال

(١) . Michael Lee Syrian, Chronicle, II, p. 441

تسمح له بتجديد نشاطه ضد أعدائه البيزنطيين[١]. غير أن قنسطانز الثانى وهو منهمك فى صراعه مع الجانب الغربى من إمبراطوريته، لم يهمل أمر الجانب الشرقى مع المسلمين، ويظهر أنه أحس عام ٦٦٦م بهدوء وأمن فى البر والبحر، سمح له بمعاودة النزاع مع معاوية بن أبى سفيان؛ ففى ذلك العام أرسل إلى الأراضى الداخلية فى سورية، رجالاً وصلوا حتى فلسطين وعرفوا باسم المردة Mardaites، وهم جماعات غريبة من سكان الجبال جندتهم بيزنطة وأطلقت عليهم اسم حائط آسيا الصغرى النحاسى[٢]. ولعل نزول هؤلاء المردة إلى سورية كان من ناحية البحر، أو لعل الأمداد جاءت إليهم عن طريق البحر. ويبدو أن أثرهم كان قوياً لدرجة أن معاوية رغب فى السلام، حتى ولو بدفع إتاوة للقسطنطينية[٣]. وحملة المردة هذه خير دليل على ضعف موقف البحرية الأموية أمام الشواطئ السورية فى السنوات العشر التى أعقبت إنتصارها فى معركة «ذات الصوارى».

وهناك علامات أخرى تشير إلى ضعف البحرية العربية فى ذلك الحين، وهى أنه فى عام ٦٦٣م، نقل الخليفة الأموى فى دمشق أعداداً كبيرة من الفرس من ديارهم، وأقامهم فى مدن سورية وفلسطين الساحلية مثل صيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وعكا وبعض المدن الأخرى. كما أقام التحصينات القوية حول المدن الساحلية[٤]. وفى عام ٦٦٩م، أضاف الخليفة إلى هؤلاء الفرس أقواماً من أهل العراق وأنزلهم أنطاكية والمراكز الساحلية الأخرى[٥]. ويبدو أن أسوار مدينة

---

(١) Judges of Egypt, ed, Guest' p. 13

(٢) Theophanes, pp. 554-555

(٣) Al Baladuri, p. 162.

(٤) أرشيبالد- لويس، القوى البحرية والتجارية، ٩٦ .

(٥) نفسه، نفس المصدر، ص٩٦ .

الاسكندرية التى هدمها عمرو بن العاص اعيد بناؤها فى ذلك الوقت، لأن زائراً للمدينة من البلاد الغربية عام ٦٧٠م ذكر أن الحصون كانت تخطيها إحاطة تامة[١].

ويظهر أن موت قنسطانز وما أعقبه من إرتباك وفوضى أثناء عودة خليفته قنسطنطين الرابع إلى القسطنطينية، دفع معاوية إلى أن يفكر فى إزالة آثار هزيمة عام ٦٦٦م، فعاد إلى الهجوم البحرى عام ٦٦٩م وربما كان ما كان من أمر جماعة المردة هو العامل الذى أقنع الخليفة الأموى بضرورة السيطرة على شواطئ المتوسط، فإن الصفة البارزة لجهود البحرية العربية كانت فى إتخاذها خطة الهجوم فبعد أن كانت الحملات الأولى التى قام بها العرب المسلمين ذات طبيعة دفاعية - مثلما حدث فى قبرص - أو مجرد غارات بسيطة فإنها استهدفت فى السنوات العشر التى تلت عام ٦٦٩م السيطرة على شواطئ البحر المتوسط.

إتجه جانباً من الغزو نحو الغرب؛ فأغاروا على صقلية عام ٦٩٦م[٢]. وفى العام التالى إنتشر جيش عربى كبير فى شمال افريقية، وأقام قاعدة حصينة دائمة فى القيروان فى جنوب شرق تونس. ومن هذه القاعدة أخذوا فى القيام فيما بعد بأعمال حربية امتدت بعيداً فى داخل الإقليم[٣].

على أنه يجب أن نشير على أن غزوات العرب تجاه الغرب كانت أقرب ما تكون إلى الخدعة الحربية، وأن جهودهم الحقيقية إتجهت نحو القسطنطينية نفسها بإعتبارها مركز السلطان البيزنطى؛ إذ فى عام ٦٦٩م/ ٤٩هـ، قام العرب بغارة تجريبية على خلقدونية لإختبار قوة الدفاع فى المنطقة المحيطة بالعاصمة

---

(١) Wiet, op. cit, pp. 27-28.

(٢) أرشيبالد- لويس، ص٩٦-٩٧ .

(٣) نفسه، نفس المرجع، ص٩٦ .

البيزنطية[1]. وفى عام ٦٧٢م/ ٥٢هـ سلطت القوة العربية الإسلامية البحرية تسليطاً عنيفاً على منطقة بحر إيجة؛ فهاجمت كريت واستولت على رودس فى نفس الوقت. وقام البيزنطيون بغارة مضادة على دلتا النيل عام ٥٣هـ/ ٦٧٣م[2]. ولم تؤد تلك الغارة الهدف المرجو منها. ويرجع ذلك إلى خروج عمارة ضخمة عليها فرق بحرية من المصريين والسوريين، قاصدة مياة بحر مرمرة وذلك فى نفس السنة؛ وقد استمرت هناك سبع سنوات تحاصر العاصمة البيزنطية، وهذا على الرغم من بقاء إتصالها بالبحر الأسود، وبقاء الطريق البرية المؤدية إليها مفتوحة. ولذا فإنها كانت تحصل على كل ماتحتاج إليه من المؤن والإمداد. وجاء خلاص المدينة بسبب إختراع النار الإغريقية (Greek Fire) ضد اسطول العدو المحاصر للعاصمة. وكان التركيب الكيماوى السرى مما يحتمل أن يكون قد استخدم منذ سنة ٥١٦م، ثم اكتشفه من جديد أو أدخل عليه تعديل، رجل يدعى كاللينيكوس، وهو سورى مقيم فى القسطنطينية، وهناك استخدم هذا التركيب الجديد لأول مرة أثناء الحصار، فكانت النتيجة هى الدمار؛ فاحترقت سفن العرب المسلمين وتشتت شملها، وأبحر الباقى فى ذعر وإتجه نحو بحر إيجه. وفى عام ٦٧٩م/ ٦٠هـ. قفلوا عائدين إلى ديارهم وقواعدهم فى سورية ومصر[3].

كان من نتيجة هذه العملية البحرية أن اضطر الخليفة الأموى إلى طلب الصلح، وعقد هدنة بذلك مهما كان الثمن، فتجددت الإتاوة من جديد، ولكنها زيدت إلى (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف رطل من الذهب وخمسين حصاناً كل عام[4]. وبولغ

(١) اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، طبعة بيروت، جـ٢، ص٢٢٩ .

(٢) البلاذرى، فتوح البلدان، جـ١، ص٢٧٨ .

(٣) الكندى، كتاب الولاة والقضاة، بيروت، ١٩٠٨م، ص٣٨ .

(٤) أرشيبالد- لويس، المرجع السابق، ص٩٧ .

فى إذلال يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، وكان قد خلف أباه فى الحكم، وكان يبلغ من العمر آنذاك نحو ثلاثين عاماً[1]. وعاد البحر المتوسط لسلطان بيزنطة.

وقد برهنت الأحداث التى جرت فى أفريقية، وفى الشرق على أن نتائج هذا النصر البحرى البيزنطى كان خطيراً؛ ففى أثناء الهجوم الكبير على القسطنطينية بين عامى ٥٣-٦٠هـ/ ٦٧٣-٦٧٩م قام العرب المستقرون فى القيروان بعدة غزوات داخل شمال افريقية، فأخضعوا قبائل البربر ونشروا فيها الإسلام، ولكنهم لما كانوا يملكون قوة بحرية، فإنهم تركوا المدن والحصون التى فى أيدى البيزنطيين على الساحل دون إزعاج كبير، غير أن ما احرزوه من نجاح كان عظيماً، بحيث عقد قائدهم عقبة بن نافع العزم فى سنة ٧٢هـ/ ٦٨١م على الزحف بقواته غرباً نحو طنجة وساحل الأطلنطى؛ ولم يثنه عن عزمه هذا، إنتعاش قوة البيزنطيين فى البحر. على أن إغفاله لما يمكن للقوة البحرية أن تحدثه، قد أدى إلى نكبته؛ وذلك بسبب ظهور تجمعات معاوية من قبل البربر بزعامة شخص يدعى كسيلة، وإنضم البيزنطييون المقيمون فى معاقل على الساحل إلى ذلك المغامر من البربر؛ وقد ضمنوا وصول مدد وتأييد من ناحية البحر، وإنقطعت خطوط مواصلات عقبة، وتعرض لهزيمة كبيرة، مما سهل للبيزنطيين والبربر المنتصرون واستولوا على القيروان عام ٧٣هـ/ ٦٨٣م، ولم ينجح من العرب إلا قليل، وكان هذا قد أدى إلى تقهقرهم إلى قاعدتهم الأصلية فى برقة الليبية على حدود مصر. الأمر الذى أدى إلى إستعادة السيادة البيزنطية البربرية على منطقة الشمال الأفريقى من جديد.

وبإعتلاء جستنيان العرش بعد موت قنسطنطين الرابع عام ٦٨٥م، بدأت

---

(١) المسعودى، التنبيه والإشراف، طبعة بيروت، ص١٨٦ .

العداوات من جديد، إذ قطع عبد الملك بن مروان خليفة الأمويين الإتاوة المتفق على إعطائها إلى القسطنطينية[1]، كما أرسل زهير بن قيس على رأس جيش كبير من برقة شمال أفريقية للإنتقال من هزيمة ٧٣هـ/ ٦٨٣م، وصادف هذا الجيش نجاحاً أول الأمر، فاستعاد القيروان وقتل كسيلة فى المعركة[2]. ولكن الجيش تقهقر بعد ذلك إلى برقة، وكان سبب ذلك نشاط الاسطول البيزنطى فى البحر المتوسط، فإن حملة بحرية بيزنطية استطاعت النزول فى برقة خلف خطوط زهير بن قيس، الأمر الذى اضطره إلى الإنسحاب، ومع ذلك فإن القوات البيزنطية هزمت هزيمة منكرة[3]. وفى نفس الوقت سلط «المردة» فى شمال سورية، على سورية من جديد، فإضطر عبد الملك بن مروان، كما اضطر أسلافه من قبل إلى عقد صلح غير مشرف؛ بعد أن وضح له أن قوة بيزنطة البحرية، مما لا قبل له بها، وتحدد فى معاهدة سنة ٦٨٩؛ المعقوده بين بيزنطة ودمشق مقدار الإتاوة السنوية التى يدفعها الخليفة وقدرها (٥٠٠٠) رطل من الذهب، وفى نظير ذلك يتعهد جستنيان بسحب ١٢,٠٠٠ من جنوده «المردة» من جبال لبنان للإقامة فى اسيا الصغرى، وأن يكون دخل قبرص مناصفة بينهما وأن تظل الجزيرة أرضاً محايدة بين الدولتين المتحاربتين[4].

ولم يقدر لهذا الصلح أن يستمر طويلاً؛ ففى عام ٦٩٣م/ ٧١هـ عادت الحرب ثانية إلى الإشتعال. ويرجع السبب إلى أن عبد الملك بين مروان ضرب الدينار الذهبى العربى لأول مرة، ونقش عليه نصاً بالعربية ولم ينقش عليه صورة

(١) Hill, Chprius, vol, I, p. 287

(٢) ابن الأثير، الكامل، جـ٥، ص٢٦ .

(٣) الطبرى، تاريخ، جـ٨، ص١١٣، ابن الأثير، جـ٥، ص٢٦ .

(٤) Theophances; p. 558. Hittie, op.cit, p117

القياصرة البيزنطيين. وأعلن جستنيان الحرب بمجرد أن وصله عدداً من الدنانير الذهبية الإسلامية وقد اشتاط غيظاً[1]. ولكن يبدو أنه تسرع فى قراره لأنه لم يصادف نجاحاً يذكر، ولم يكن فى الوقت ذاته قادراً على الإفادة من «المردة» المقيمين حينذاك فى آسيا الصغرى؛ فعجز عن القيام بضغط يذكر على دمشق، وانتهى أمره بهزيمة منكرة على حدود اسيا الصغرى؛ ثم أن طرده لكثير من أهل قبرص من جزيرتهم أثار شعوراً من المرارة فى نفوس قواته البحرية من أهل الجنوب. وفى عام ٦٩٨ ثار البحارة الكريتيون ونادوا بأمير اسطولهم ويدعى «أسيبمار» إمبراطوراً على بيزنطة، ولقب طيباريوس الثالث، وأبحر الإمبراطور الجديد إلى القسطنطينية فلم تقاوم المدينة قواته[2]، وفرّ الإمبراطور المعزول جستنيان الثانى إلى القرم، ومنها إلى مملكة الخزر (Kazaria).

كان من جراء هذه الأحداث، أن تشجع الأمويون فى الظفر بنصر كبير فى شمال أفريقية. ففى عام ٦٩٣، أرسل عبد الملك بن مروان، حملة حربية قوامها ٤٠,٠٠٠ رجل تحت قيادة حسان بن النعمان، واهتم هذا القائد بالمعاقل الساحلية البيزنطية وتمكن بمساعدة بعض الوحدات البحرية الإسلامية من القضاء على تلك المعاقل الواحد بعد الآخر . وفى عام ٦٩٥م سقطت قرطاجنة عاصمة افريقية البيزنطية فى يد العرب، ولكن البيزنطيين والبربر عادوا إلى الحرب بسبب ثورة البربر حيث تزعمتهم إمرأة تدعى الكاهنة وهى من قبيلة جراوة[3]. كما استطاع اسطول بيزنطى بقيادة حنا بطرق صقلية، استعادة قرطاجنة[4]، ولكن هذا

---

(١) Ibid, p. 559

(٢) Hill, Cyprus, vol.I, pp. 89-90

(٣) ابن الزثير، الكامل، جـ٥، ص٢٦-٢٧ .

(٤) الطبرى، تاريخ، جـ٨، ص١١٨-١١٩ .

المحاولات البيزنطية ذهبت أدراج الرياح، إذ عاود العرب هجومهم، فاستردوا قرطاجنة عام ٦٩٨م، وماتت الكاهنة فى إحدى المعارك سنة ٧٠٠م، وإنتهى بذلك الحكم البيزنطى فى افريقية إلى الأبد[١].

وتبع ذلك أن أظهر الخليفة عبد الملك إهتمامه الشديد بالقوة البحرية، ويمكن إرجاع هذا الإهتمام إلى ما قاساه أول عهده على بحرية أعدائه البيزنطيين. لذلك نجده يأمر موسى بن نصير والى أفريقية بإنشاء قاعدة بحرية هناك، ويرسل له ألف قبطى مصرى من بناة السفن - مع عائلاتهم - لمعاونتهم على بناء اسطوله[٢]، يضاف إلى هذا استيلاء العرب على جزيرة قوصرة التى تقع قرب الشاطئ الأفريقى، وسيطرتهم على المضيق الفاصل بين الشاطئ وجزيرة صقلية[٣]؛ ولم يبن موسى بن نصير قاعدته البحرية، أو دار صناعته فى قرطاجنة، بل إختار موضعاً بعيداً بعض الشئ عن الساحل يطل على بحيرة، ثم حفر قناة تصل ذلك الموضع بالخليج القريب. وفى هذا المكان قامت مدينة تونس، وهجرت قرطاجنة كلية[٤]. ويدل هذا العمل على خشية العرب من التهديدات البيزنطية البحرية، ثم غدت تونس - الميناء الداخلى - قاعدة أمينة للأسطول العربى، وبعيدة عن أية مغامرة بيزنطية بحرية؛ بينما لم تكن كذلك قرطاجنة. وفى ظل هذا الإستقرار المأمون الجانب انشأ موسى بن نصير مائة سفينة بحرية حربية فى القاعدة البحرية الجديدة[٥]. وإنضم هذا الاسطول الأموى الذى كان يعمل فعلاً

---

(١) نفسه، نفس المصدر والجزء والصفحات.

(٢) محمد عبد الله عثمان، مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، ص/٣٢ ٣٦ .

(٣) العدوى، قوات البحرية العربية، ص٥٧-٦٦ .

(٤) ابن الأثير، الكامل، جـ٥، ص٢٦-٢٧ .

(٥) نفسه، نفس المصدر والجزء والصفحات.

فى البحر المتوسط[١]. وأصبح شمال افريقية مركزاً بحرياً ثالثاً اضيف إلى المركزين السابقين العربيين القديمين فى سوريا ومصر.

وسرعان ما اثبتت القاعدة البحرية الجديدة فى تونس فائدتها. ففى عام ٨٤هـ/ ٧٠٣م أغار اسطول مصرى على صقلية وهبت عاصفة جامحة هددته بالفناء فلجأت سفنه إلى القاعدة الآمنة فى تونس[٢]. اما الأكثر اهمية من كل هذا فهى السفن الجديدة التى أشرف عليها موسى بن نصير، والتى أرسلها للإغارة على صقلية، وربما للإغارة على سردينيا أيضاً عام ٨٥هـ/ ٧٠٤م[٣]. ثم قاد موسى الاسطول بنفسه عام ٨٩هـ/ ٧٠٨م نحو جزر البليار وأغار على جزر مايورقه وأسر حاكمها البيزنطى على الأرجح[٤]. وكانت جزيرة سردينيا هى الغنيمة فى عام ٩١هـ/ ٧١٠م[٥].

لم يكن هذا العمل من قبل الاسطول العربى المسلم مجرد غارات عرضية بل كان وفق خطة محكمة ذلك أن موسى بن النصير استخدم اسطوله من قاعدته تونس ليشل ويمنع تهديد الاسطول البيزنطى من قواعده فى صقلية وسردينيا وجزر البليار. وقد رأينا كيف أن فشل عقبة بن نافع فى الحصول على اسطول مماثل ليحمى به ظهره وجناحه كلفه حياته وحياة جيشه منذ عشرين سنة مضت، أما ابن النصير فإنه تجنب هذا الخطأ وكان تحركه من تونس إلى سبتة سريعاً ومكللاً بالنصر.

---

(١) أرشيبالد-لويس، المرجع السابق، ص١٠٠-١٠١ .

(٢) Hill, Cyprus, vol. I, pp. 286-287

(٣) Nuwairi, vol. II, pp. 252-253

(٤) Theophance, p. 611

(٥) Runciman, Byzantine Civilization, pp. 116-117

وعندما بلغ مضيق جبل طارق بقواته الكبيرة العربية والبربرية رأى أسبانيا ولا شئ يفصلها عن افريقية سوى مجاز ضيق من البحر، ولما كانت البلاد فى يد حكام ضعاف من القوط الغربيين فإنها بدت له طعمة دسمة، غير أن موسى تردد فى الأمر فلم يكن - فيما يبدو - كل اسطوله معه وإنما كان منشغلاً بحماية خطوط مواصلاته الطويلة ومراقبة الاسطول البيزنطى فى جزيرتى سردينيا وصقلية، وكل ما أمكن الحصول عليه أربع سفن أمده بها كونت جوليان حاكم سبتة الذى انضم إلى العرب، وعلى هذه السفن الأربع عبر طارق بن زياد أحد قواد موسى بن نصير المضيق ونزل فى الجانب المقابل عند سفح جبل لايزال يحمل اسمه حتى اليوم[1]. وهذا النجاح السريع الذى احرزه طارق حمل ابن نصير على أن يمده بخمسة آلاف مقاتل، وعليه أن يبنى كذلك سفناً للشاطئ الافريقى لتحمل هؤلاء الرجال إلى سواحل اسبانيا. وعلى هذه السفن ذاتها رحل ابن نصير بجيشه الرئيسى عندما بلغته انتصارات طارق[2]. ومنذ تلك اللحظة تحول فتح اسبانيا إلى عمليات برية من النوع الذى ألفه العرب فى عصر الفتوح الإسلامية الأولى فى مصر وسوريا، ولم يكتف العرب هنا فى إستيلائهم على أسبانيا بل إنسابوا عبر جبال البرانس وضموا إلى أملاكهم ناربون ببلاد الغال (فرنسا) وكان يتبع القوط الغربيين.

وإلى جانب حماية الاسطول العربى خطوط مواصلاتهم الطويلة فى شمال افريقية المقابلة لجزيرة صقيلة فإن موسى بن النصير وطارق بن زياد استخدماه فى فتح أسبانيا التى كان لها نتائج عظيمة منها: أنه فيما بين الأعوام ٦٩٣-٧١٧م

---

(١) آرشيبالد- لويس، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ص١٠٣ .

(٢) نفسه، نفس المرجع، ص١٠٢-١٠٣ .

إلتف العرب حول الجناح الأيمن لقوة البيزنطيين البحرية وذلك بإختراقهم مناطق الدفاع البحرى البيزنطى فى شمال افريقية ثم إمتداد فتحهم فى أسبانيا وجنوب فرنسا وبذا يكون الإسلام قد بدا كالهلال على ما يقرب من ثلثى شواطئ البحر المتوسط بين نهر الرون وشمال افريقية.

ويرجح أن أسباب فشل البيزنطيين فى مواجهة البحرية العربية الإسلامية يرجع إلى تلك الحروب الأهلية التى إجتاحت الإمبراطورية البيزنطية ذلك أن جستنيان قد عاد من منفاه عام ٧٠٥م ليصب غضبه وإنتقامه على أعدائه فى العاصمة البيزنطية، الأمر الذى زاد اضطراب الحكومة. يضاف إلى هذا تجمع البلغار عبر الدانوب وإنتشارهم فى ضواحى العاصمة ذاتها حول منطقة القرن الذهبى والأكثر من هذا سوءاً قيام الأمويين بإعداد اسطول ضخم للدخول فى معركة بحرية فاصلة. حقيقة أن الغارة البحرية البيزنطية على مصر سنة ٧٠٩م، وهى التى انتهت بأسر القائد الإسلامى ربما أخرت الخطط العربية بعض الوقت، لكن بقاء الإمبراطورية البيزنطية دون حاكم شرعى بعد موت جستينان الثانى مكن العرب من إتمام استعداداتهم[١].

ويعتبر الهجوم الضخم الذى قام به الأمويين على القسطنطينية للمرة الثانية (٩٨-٩٩هـ/ ٧١٧-٧١٨م) أقصى ما بلغه جهدهم فإن العمارة البحرية التى جمعوها بلغت ١٨٠٠ سفينة بما فى ذلك وحدات مصرية وسورية وإفريقية تمكن من الاستيلاء على جزر بحر إيجة والدرنديل، وفى عام ٧١٧م/ ٩٨هـ ظهر الجيش الإسلامى يسانده الاسطول أمام القرن الذهبى، وواجهت المدينة فى هذا العام هلاكاً محققاً كالذى حدث فى عامى ٦٢٦م، ٦٧٣م لولا ظهور ليو الثالث الايسورى

(١) ارشيبالد - لويس، المرجع السابق، ص١٠٣ .

Leo الذى اقتضت الأزمة أن يصبح إمبراطوراً للدولة البيزنطية واستمر حصار المدينة البيزنطية نحو ستة أشهر فى الشتاء، وعانى الجنود العرب بملابسهم الخفيفة قسوة البرد. وفى أثناء ذلك تفاوض ليو الثالث الايسورى مع البلغار وفى الربيع هاجم البلغار العرب المحدقين بالعاصمة من الجانب الأوروبى وأبعدهم عنها ثم هاجم الاسطول البيزنطى بالنار الإغريقية الاسطول العربى الإسلامى وهذه النار وإنحياز البحارة المسيحيين الذين كانوا يعملون فى الاسطول العربى إلى الجانب البيزنطى قلبا الوضع تماماً، إذ تعرض الاسطول الإسلامى إلى حريق النار الإغريقية مما اضطره إلى التراجع جنوباً، وفى أثناء تراجعه لقيته عاصفة - كما حدث عام ٦٧٩م- نالت هى الأخرى منه، ويمكن القول أنه لم يرجع من ذلك الاسطول سليماً إلى قواعده أكثر من عُشر مجموعه.

وعادت وحدات الاسطول البيزنطى المنتصرة إلى الخروج من بحر إيجة إلى شرق البحر المتوسط متعقبة قطع الاسطول الإسلامى، وقد أغار الاسطول البيزنطى عندئذ على دلتا النيل عام ٧٢٠م[١]. وأغار عليها مرة أخرى سنة ٧٢٥م[٢]. واضطر الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يخفض الجزية المقررة على جزيرة قبرص إلى ما كانت عليه فى الأيام السابقة أيام معاوية[٣]. ولم ينشط العرب للحرب إلا فى الغرب فقط حيث أغارت بعض أساطيلهم من شمال افريقية على جزيرة صقلية عام ٧٣٠م[٤]. وشجعها على ذلك المشاكل التى واجهت بيزنطة هناك نتيجة لعصيان حاكم الجزيرة فى عام ٧١٨م/ ٩٩هـ[٥].

---

(١) الكندى، ص٧٩-٨٠ .

(٢) Wiet, Op. cit, pp. 56-57

(٣) Hill, Cyprus, vol. I, pp. 286-287

(٤) ارشيبالد- لويس، المرجع السابق، ص١٠٦-١٠٧ .

(٥) نفسه، نفس المرجع، ص١٠٧ .

تطلع الأمويون إلى مهاجمة بيزنطة من جديد فى عام ٧٢٦م بسبب إنشغال الإمبراطورية البيزنطية فى مشاكلها الداخلية الدينية فى ما عرفت فى التاريخ بالحركة اللاايفونية (حرب الصور) فأغار الاسطول العربى على جزيرة صقلية فى السنة المذكورة، وفرض عليها جزية عالية زمن عبد الملك بن مروان وابنه الوليد[١]. ولم يكن الوضع فى بيزنطة يسمح بمقابلة هذا الإعتداء بمثله قبل مضى عشر سنوات على الأقل، ففى عام ٧٣٦م اغارت بيزنطة على مصر واستولت على عدد كبير من السفن[٢]. ثم أعقبت هذه الغارة بغارة أخرى قوامها ٣٦٠ سفينة منتهزه فرصة ثورة الأقباط المصريين[٣]. وقابل العرب هذا العمل بغارة على قبرص عام ٧٤٣م وحملوا معهم عدداً كبيراً من سكان الجزيرة واحتفظوا بهم أسرى فى سوريا[٤].

ويظهر أن الأعمال الحربية البحرية فى الشرق كانت عبارة عن القيام بغارة وأخرى مضادة لها، على قبرص ومصر بإعتبارهما الهدفين الرئيسيين اللذين تتكافأ فيهما قوى الفريقين ولم تكن الحال كذلك فى الغرب فإن أساطيل المسلمين فى شمال إفريقية قامت بالغارة تلو الأخرى على صقلية وسردينيا بصرف النظر عن أى إنتقام من جانب البيزنطيين، وفى السنوات ٧٢٧، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣٣، ٧٤٠، ٧٥٢م تعرضت صقلية لغزوات الاسطول الإسلامى[٥]. وفى عام ٧٣٥، ٧٥٢[٦] وقعت سردينيه ضحية لتلك الغارات، وإن لم تكن كل هذه الغارات موفقة

(١) الطبرى، تاريخ الطبرى، جـ٨، ص١١٨-١١٩ .

(٢) نفسه، نفس المصدر، جـ٨، ص١١٨، ١٣٠ .

(٣) ارشيبالد - لويس، المرجع السابق، ص١٠٧ .

(٤) أرشيبالد- لويس، المرجع السابق، ص١٠٧-١٠٨ .

(٥) نفسه نفس المرجع والصفحة.

(٦) نفس المرجع، ص١٠٨ .

ذلك أن غارة ٧٣٣ ضد صقلية وغارة ٧٣٥ ضد سردينيا انتهتا بهزيمة العرب أمام القوات البيزنطية المدافعة بفضل استخدام النار الاغريقية وهلاك كثير من قوات العرب[1].

وختمت جولات هذا الصراع عام ٧٤٧م حين نشبت معركة فاصلة حسمت النزاع بين كل من القوات البيزنطية والأموية فى البحر وجرت المعركة على مقربة من قبرص حيث حاصر اسطول كريت البيزنطى اسطولاً عربياً ضخماً مكوناً من ألف سفينة سريعة تمثل مدى ما بلغته القوة البحرية الإسلامية من إزدهار فى سوريا ومصر، أما الاسطول البيزنطى فكان اقل من ذلك عددا، والراجح أنه تسلح بالنار الإغريقية لأنه لما نشبت المعركة إنهزم الاسطول العربى حيث حرقت بعض سفنه والبعض الآخر قفل راجعاً إلى حيث أتى.

وبعد هذه المعركة لم يستطع العرب فى مصر وسوريا أن يعوضوا ما فقدوه واختفت قوة مصر من البحر المتوسط قرابة قرن من الزمان، ولم تستعد سلطانها فعلاً إلا أيام الفاطميين أواخد القرن العاشر الميلادى/ الرابع الهجرى كذلك لم يكن هناك ذكر لأخبار البحرية السورية لمدة ربع قرن، ولم يستعد الاسطول العربى السورى نشاطه وحيويته إلا زمن ليو الطرابلسى أواخر القرن ٩م[2].

ولم تكن القاعدة البحرية العربية الإسلامية بأحسن حال من المصرية والسورية - أعنى القاعدة البحرية فى شمال افريقية - ذلك أن انتصارات الاسطول البيزنطى فى الشرق أتاح الفرصة لإرسال جانب من قطع الاسطول البيزنطى إلى الغرب (الشمال الإفريقى) وتوقف غارات اسطول المسلمين فى

(١) Amari, op.cit, pp. 295-300

(٢) Brooks. E.N. op.cit, pp. 385-391

شمال افريقية لمدة نصف قرن بعد غارة ٧٥٢م[1].

ومجمل القول أن الأمويين تحدوا سيادة الاسطول البيزنطى فى البحر المتوسط ثلاث مرات: الأولى؛ وكانت بصفة أساسية دفاعية فى حقيقة أمرها، وقد بدات عام ٦٤٨م وانتهت إنتهاء غير حاسم عام ٦٥٥م، والثانية؛ وهى غارات هجومية بدات عام ٦٦٩م واشتملت على حصار عظيم للقسطنطينية دام ست أو سبع سنوات وانتهت بإنتصار بيزنطى كامل، وأما الثالثة: فهى أشد الموجات جدية، بدأت عام ٦٩٣م واستمرت قرابة ستين عاماً وانتهت عام ٧٥٢م، على أن هذه الموجة بدأت بإنتصار العرب، وعلى الأخص فى الجانب الغربى من حوض البحر المتوسط كما اشتملت على حصار ثانى كبير للقسطنطينية وبعد فشل هذه الجهود الأموية الضخمة إنحط شأن الصراع بين الدولتين فتحول إلى غارات ومناوشات إنتقامية أو غارات مضادة وشاهدت سنة ٧٤٧م نصراً بيزنطياً، وفى عام ٧٥٢م اختفت قوات الأمويين البحرية من حوض البحر المتوسط نهائياً.

على أن أهم نتائج لهذا الصراع البحرى الإسلامى البيزنطى أن العرب قضوا - أثناء الموجة الثانية من هجومهم - على مراكز دفاع أعدائهم البرية والبحرية فى المنطقة الوسطى من حوض البحر المتوسط ويكونون بذلك قد طوقوا أحد أجنحة القسطنطينية البحرية، كما أضافوا شمال افريقية وأسبانيا إلى أملاكهم وخرجت من قواعدهم بشمال افريقية فى القرن التالى وحدات بحرية للإنتقام من هزيمة عام ٧٤٧ البحرية.

أما النتيجة الثانية الخطيرة فتتمثل فى المصير الذى إنتهت إليه إيطاليا.

والجدير بالذكر أن اصطناع العرب اسطولاً بحرياً لهم فى حوض البحر

---

(١) Hitti, op.cit, p 602

المتوسط لم يكن قد تم بصورة عشوائية ولكن لظروف سياسية وحربية فرضت على الدولة الإسلامية ضرورة خلق اسطول بحرى فى حوض البحر المتوسط، هذه الظروف تمثلت فى وجود قوة معادية لها باع طويل فى السياسة البحرية وهى الدولة البيزنطية التى كانت تضع يدها على معظم مياه حوض البحر المتوسط من أقصاه إلى أدناه إن لم يكن لها السيطرة الكاملة عليه.

ولما كانت الفتوحات الإسلامية فى مصر وسوريا وشمال افريقية بل وفى أسبانيا، كان لابد من صدام حتمى للدولة الإسلامية مع الدولة البيزنطية فى مياه البحر المتوسط، مما دفع العرب المسلمين إلى ضرورة إمتلاكها لأسطول حربى لمواجهة هذا التحدى فى تلك المناطق السالفة الذكر.

وعلى هذا كان لابد من تنظيم بحرى له قواعده وأصوله حتى يمكنها مواجهة هذا العدو المخضرم فى استغلال مياه البحر المتوسط بإعتبارها مناطق إنطلاق لحماية ممتلكاتها من جهة وتهديد الدولة المطلة على شواطئ البحر المتوسط المعادية لها من جهة ثانية.

ورغم أن التنظيمات البحرية كانت باهظة التكاليف إلا أنه كان أمراً مقضياً لامفر منه ولابد من إتمامه.

وعلى هذا يمكننا القول أن التنظيمات البحرية للدولة الأموية جاءت على النحو التالى:

أولاً: وجود ثلاثة أساطيل عربية إسلامية مستقلة ذاتياً إلى حد ما، ويرتكز كل واحد منها على إقليم بحرى مستقل؛ وهذه الأساطيل الثلاثة هى اسطول سوريا واسطول مصر ثم اسطول شمال افريقية الذى تكون بعد عام ٧٠٤ .

ثانياً: وجود وحدة بحرية صغيرة - إذا ما قورنت بأساطيل العرب فى البحر المتوسط - تعمل فى البحر الأحمر لحراسته وهذه يحتمل خضوعها للاسطول المصرى[1]. ونذكر بصفة عامة أن هذه الأساطيل الثلاثة تقابل أوضاع الأساطيل البيزنطية، فأسطول سوريا الإسلامية يقابل اسطول بيزنطا (هايوت) فى آسيا الصغرى واسطول شمال افريقيا الإسلامى يقابل اسطول صقلية البيزنطى، أما اسطول مصر الإسلامية فيقابل الاسطول البيزنطى فى القسطنطينية العاصمة البيزنطية. وانعقد لواء كل واحد من هذه الأساطيل إلى أمير من أمراء البحر. وكان اسطول مصر من بين هذه الأساطيل الثلاثة أكثر أهمية واضخم عدداً. والراجح أنه من الحملات المشتركة مثل الحصارين الذين فرضا على القسطنطينية وفى الإشتباكات الكبيرة كتلك التى حدثت فى ليديا عام ٦٥٥م/ ٣٧هـ، وعلى مقربة من قبرص عام ٧٤٧م/ ١٣٥هـ، وكان أمير البحرية المصرية هو القائد العام للجميع[2]. وغالباً ما اشترك الاسطولان المصرى والسورى فى عمليات واحدة[3]. على حين استقل اسطول شمال افريقيا بعملياته عنها وشاهد الحصارالثانى للقسطنطينية فقط الأساطيل العربية الإسلامية الثلاثة مجتمعة[4].

ثالثاً: أن مصر كانت مركزاً لبناء السفن فى العصر الأموى. ففى الفسطاط والقلزم (السويس حالياً) بنيت السفن العربية الأولى[5]. واستقدم معاوية

---

(١) آرشيبالد- لويس، المرجع السابق، ص١١٦ .

(٢) Weit, op.cit, p. 175

(٣) Ibid, pp. 175-176

(٤) آرشيبالد-لويس، المرجع السابق، ص١١٦ .

(٥) Wiet, op.cit, pp. 175-176

بناة السفن من المصريين ليبنوا سفن الاسطول السورى فى عكا. وسرعان ما أصبحت هذه المدينة أهم قاعدة بحرية فى سورية[1]. وفعل عبد الملك بن مران مافعله معاوية إذ أوفد عمالاً مصريين إلى شمال افريقية حيث بنوا - بعد عام ٧٠٠م، أول أسطول بحرى إسلامى لموسى بن نصير[2]. وخلال أربعين عاماً بعد الفتح بلغ ما انفقه متولى بناء السفن فى مصر ٧٠٠٠ دينار سنوياً. والمشكلة الرئيسية التى واجهها الموكلون ببناء السفن فى مصر وهى ندرة الخشب[3]. فعلى الرغم من تعدد الوسائل التى لجئوا إليها، بقيت هذه المشكلة دون أن تحل نهائياً.

ومع هذا، فإن البحرية الإسلامية الأموية تبدو اقل تنظيماً وأكثر بعداً عن الأساليب الصحيحة إذا قيست بالأساليب البيزنطية صاحبة الخبرة السابقة فى النظم البحرية (التجارية - الحربية). فمثلاً نجد أن العمليات التى قامت بها القوات العربية فى أسبانيا خلت تماماً من اى عنصر بحرى. وعندما عبر العرب جبال البرانس، وتقدموا جنوبى فرنسا، لاقوا هناك أول مقاومة جدية من جانب الفرنجة، وظلت هذه المقاومة غير ذات أثر فعال حتى عام ٧٣٧م/ ١٢٦هـ. لذلك لم تكن موقعة نور عام ٧٣٢م أكثر من صد لغارات العرب. أما الصراع الحقيقى فإنه حدث فى أكوتين وبروفانس وتنجدوك. ففى هذه الجهات سار الفتح العربى بإنتظام؛ إذ تم الإستيلاء على ناربون عام ٧٢٠م[4]. وسقطت كاركاسون عام ٧٢٥م، واحتلت نيم والجهات المحيطة بها[5]. وفى عام ٧٣٥م فتحت آرل أبوابها للمسلمين

(١) آرشيبالد- لويس، المرجع السابق، ص١١٦ .

(٢) الإدريس، نزهة المشتاق، نشرة دوزى، ليدن، ١٨٩٣، ص١٣٦ .

(٣) المقريزى، الخطط، جـ٣، ص١١٠-١١١ .

(٤) Molinier and Zotenburgin Hist. ed.lx, 551-552

(٥) Ibid, pp. 553-556

غير أن شارل مارتل (المطرقة) أرسل حملة تأديبية ضد آرل ومرسيليا وليون، غير أن العرب مع هذا دخلوا إفينون الشاطئ الأيسر لنهر الرون[1].

وفى النهاية أثارت هذه الأحداث شارل مارتل وحفزته على العمل، فقاد حملة كبيرة إتجه بها صوب الجنوب واستعاد افينون، وحاصر ناربون، وأحرق نيم وأجوارها، إنتقاماً لمساعدة سكانها للمسلمين[2]. ثم سقطت ناربون أقوى المراكز الإسلامية عام ٧٥٩م[3].

اما عن أثر هذه الحروب البحرية والبرية على الحياة الإقتصادية خاصة التجارة فى حوض البحر المتوسط .. فيجب أن نعترف بأن الفتوح العربية الإسلامية لم تحدث أول أمرها سوى تغييرات طفيفة فى تجارة البحر المتوسط، ولم تترتب عليها إنقلابات إقتصادية حينذاك، فالعرب لم يكن لديهم الرغبة أو الإستعداد لقطع علاقات مصر وسورية الإقتصادية التقليدية بسبب سوء أوضاعهم الإقتصادية، ولم يكن العرب من التجار أو رواد البحار وإنما كانوا فاتحين فقط؛ ولذا تركوا ممارسة التجارة لمن كان بيدهم الإشراف عليها من قبل. وهم المسيحيون من اليونانيين السوريين المقيمين بالإسكندرية وسائر الموانى السورية.

والجدير بالملاحظة أن العرب ظلوا يطبقون الأنظمة الإدارية الرومانية والبيزنطية حتى نهاية القرن السابع، من ذلك نظام الضرائب مع بعض التغيير، والعملة الذهبية، وكل ما يتصل بأنظمة الصناعة. وبقى غير المسلمين يديرون

(١) آرشيبالد- لويس، المرجع السابق، ص١١٨ .

(٢) Molinier and Zotenburg, op. cit, 554

(٣) Ibid pp. 554-555

شئون المال والإدارة والأعمال الكتابية فى دواوين الحكومة. وكذلك بقيت اللغة اليونانية لغة الإدارة الحكومية فى هذا الإتجاه[1]. إذن فقد جرى العمل بالنظم القديمة فى ظل إدارة جديدة فى بلاد المشرق الإسلامى.

أما فى مصر، فالمعروف أن العرب استولوا على دور سك النقود التابعة للحكومة البيزنطية، وعلى المصابغ ومصانع أوراق البردى[2]، مع بقاء العلامات الخاصة التى تشير إلى الثالوث باقية على أوراق البردى فى القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى. وإنتقل إحتكار مصانع لنسيج الرقيق (دور الطراز) فى تنيس وتونه ودمياط والإسكندرية من الدولة البيزنطية إلى الحكام العرب[3]. والأكثر من ذلك أهمية استمرار دور الضرب فى سك العملة الذهبية البيزنطية ذاتها. وكانت هذه العملة هى النقد المتداول فى مصر وسورية دون منازع حتى عام ٦٩٢م/ ٧٢هـ[4]. أما النقد الإسلامى، الذى نقشت عليه كتابات عربية، فإنه ظل حتى ذلك الحين يصنع من الفضة[5].

وما حدث فى مصر حدث مثله تماماً فى سورية، والذى يلفت النظر كان إستمرار الصلة بين القديم والحديث؛ فوجود الوزراء والموظفين المسيحين فى بلاط معاوية ويزيد، وبقاء اللغة اليونانية مستخدمة فى سجلات الدولة، وإنطباع الحكم الأموى فى بدايته بالطابع غير الدينى، والتسامح الدينى الذى شمل غير المسلمين فى البلاط الأموى. كل ذلك يدل على إستمرار الأساليب اليونانية

(١) Hitti, op. cit, pp. 217-218

(٢) Lopez, Mohammed and Chrlemagne, 1943, xvIII, 210

(٣) Grohman, "Tiraz" in the Encyclopedia. of Islam

(٤) Hitti, op.cit, p. 117

(٥) أرشيبالد- لويس، المرجع السابق، ص١٢١-١٢٢ .

الرومانية السابقة، وهو نفسه يتناقض تماماً مع ما حدث من تطورات فى نهاية الحكم الأموى، وحكم العباسيين[1]. وأن بناء الجامع الأموى بدمشق متأثراً ببعض الأبنية البيزنطية مما يثبت ذلك الإتجاه[2]. ويبدو أن حكومة مصر أدارت دفة الحكم من دمشق، وفق المؤثرات البيزنطية، وعن طريق الحكام العرب أنفسهم مدة الخمسين سنة الأولى من الفتح العربى.

ولا دليل على توزيع السكان فى هذه البلاد وما طرأ عليها من تغيير، كنتيجة للفتح العربى. اللهم إلا فى الأقاليم الساحلية السورية. وعندما استرد العرب مدينة الإسكندرية عام ٦٤٥م، خرج بعض اليونانيين مع الحاميات والأساطيل البيزنطية المنسحبة، ولكن معظمهم بقى فى البلاد لم يرحل عنها[3]. ولكن الفتح العربى كان سريعاً ومسالماً لدرجة لم تسمح إلا لأعداد ضئيلة منهم بالهجرة، أما فى شمال افريقية فثمة دليل على أن بعض السكان غادروا البلاد عقب غارة ٦٤٧م، ويحتمل أنهم قصدوا صقلية[4]. وكذلك حدثت هجرات من قرطاجنة عندما سقطت نهائياً فى يد الأمويين عام ٦٩٨م[5]. وهناك إشارة إلى هؤلاء اللاجئين فى اخبار سقوط جزيرة قوصرة نهائياً فى يد العرب عام ٧٠٠م[6]. وعلى الرغم من كل تلك الأمثلة، فإنه يبدو من المبالغة القول بحدوث إنتقال جموع السكان من مكان لآخر، فى القرن السابع بسبب الفتوحات العربية.

---

(١) نفسه، نفس المرجع، ص. ١٢٢

(٢) Hitti, op. cit, p. 117

(٣) أرشيبالد- لويس، المرجع السابق، ص١٢٢-١٢٣ .

(٤) نفسه، نفس المرجع، ص١٢٣ .

(٥) Hitti, op.cit, pp. 240-248

(٦) أرشيبالد- لويس، المرجع السابق، ص١٢٣ .

أما فيما يتعلق بالسواحل السورية وقبرص، كان بهما حركات واسعة النطاق بين السكان، ليس فى الحقيقة بسبب الفتوحات العربية الإسلامية، ولكن بسبب تخريب ملوك الفرس لكثير من المدن السورية وإضطهادهم لهم بقسوة خاصة من السكان اليونانيين الملكانيين، ويقال مثل هذا تماماً عن قبرص، منذ خرّب أول خلفاء بنى أمية مدينة القسطنطينية الهامة عقب الإستيلاء على الجزيرة عام ٦٥٤م، وسمح لكل من أراد أن يغادر الجزيرة بمغادرتها[1]. والأدلة ضعيفة على أن أكثر السكان أغتنم هذه الفرصة للخروج. ومن الإنصاف القول أن معظم المهاجرين من سورية أو قبرص، أو أى مكان آخر دخله الإسلام كان أكثرهم إما من رجال الدين (الكنيسة الأرثوذكسية الملكانية) أو من رجال الحكومة البيزنطية، وكان أقلهم من التجار أو أهل الحرف الذين تعتبر هجرتهم خطراً جسيماً من وجهة النظر الإقتصادية[2].

كما أن من الخطأ التسليم بالقول بما أصاب بعض الأقاليم التى كانت تتمتع بثروات طائلة بالخراب بسبب الحروب التى نشبت بين الدولة الأموية الإسلامية وبيزنطة، لأن الحرب لم تكن شاملة أصابت كافة الأقاليم (بإستثناء شمال سورية وشمال افريقية وبعض مدن مصر) بل أن معظم الأقاليم لم تتعرض للحروب بين الطرفين.

الواقع أن الوحدة السياسية من الناحية النظرية والوحدة المالية لأقاليم البحر المتوسط ظلت كما هى؛ وأن قيام خلفاء الأمويين بدفع إتاوات سنوية لبيزنطة، فيه إعتراف من الناحية النظرية على الأقل بأن حكام القسطنطينية كانوا لا يزالون فى بدايات الدولة الأموية يتمسكون بسيادتهم على كل من سورية

---

(١) يبدو أن Lynn White قد بالغ كثيراً فى هجرات اليونانيين.

(٢) Lane-pool, egypt, p. 20

ومصر. ويؤكد هذا القول إستمرار إستخدام العملة الذهبية البيزنطية، التى كان مجالها كل بلاد البحر المتوسط، والتى استمرت الأداة الدولية للتعامل التجارى.

على أنه يجب الإعتراف بما ترتب على الفتح العربى من آثار، والتى أعظمها هو توقف إرسال ضريبة القمح من مصر إلى العاصمة البيزنطية (القسطنطينية)؛ على حين ظل هذا القمح يجمع، كما كان فى الماضى بأيدى الحكام العرب، وتأخذ الإسكندرية ما تحتاج منه دون مقابل، أما ما كان يرسل لتموين بيزنطة فأصبح يرسل لتموين مكة والمدينة. وتيسيراً لإرسال هذا القمح، عمد عمرو بن العاص عام ٦٤٣م إلى حفر قناة تصل النيل بالبحر الأحمر (خليج أمير المؤمنين)، وبهذا أنشئ طريق مواصلات مائى نحو الجنوب[١]. وكان لهذا التحول فى مصير القمح تأثيرات هامة على القسطنطينية ذاتها، إذ تخلى هرقل عن سياسة توزيع القمح دون مقابل فى العاصمة، ولما كان تموين عاصمة الدولة فى طليعة مسئوليات حكومة الإمبراطورية البيزنطية، فقد صار من الضرورى إيجاد مصادر جديدة للقمح[٢]. والراجح أن المناطق الزراعية القريبة فى البلقان وآسيا الصغرى وجنوب روسيا عوضت النقص الناجم عن ضياع قمح مصر. وبهذا جاء التحول فى صالح الفلاحين من سكان بيزنطة، أو بمعنى أدق من سكان الإمبراطورية البيزنطية، إذ أنهم كسبوا سوقاً مهمة جديدة لحاصلاتهم. وتفسر هذه الحقيقة إستقلال ورخاء وحرية هؤلاء الفلاحين، كما يتضح من نصوص «قانون الفلاحين» الخاص بهم.

وكانت سياسة العرب الزراعية تقوم على أساس الجمع بين أراضى الدولة الساسانية وسورية ومصر - والتى لم تكن لهم مصلحة فى بقاء مراكز المكوس القديمة التى كانت تقع بين المنطقتين.

---

(١) Lane-poole, Egypt, pp. 20-21

(٢) Chron, paschale ed. Dindorf, Bonn, 1832, p. 711

والواقع أن سياسة القمح المصرى، وعدم تصديره أو إرساله إلى بيزنطة، اضعف من شأن التجار، إذ أصبح لم يعد هناك حاجة لهؤلاء التجار، وصارت حرية التجارة - فيما يبدو - هى قاعدة التعامل فى بلاد البحر المتوسط؛ وصدر قانون رودس البحرى الذى ينص على هذا المنح فى حرية التجارة، وأصبح من حق ربابنة السفن أن يكونوا أحراراً فى تصرفهم.

وحرية التجارة هذه هى التى تفسر لنا مقدار ما بلغته مصر من رخاء حتى عام ٧٠٥م؛ وهذا رغم الحروب والغارات البحرية. ويقول الرحالة الأوروبى آركولف، الذى زار مصر عام ٦٧٠م، أن الإسكندرية غدت ملتقى تجارة العالم كله، وتوافدت عليها أعداد غفيرة من التجار لشراء ما بها من بضائع[1]. وهذا الرخاء الذى عمّ وادى النيل حوالى عام ٧٠٠م، جعل واليها يبعث إلى دمشق يبلغها أن خزائنه لم تعد تتسع لقبول موارد جديدة ويطلب من الخليفة أن يدله على ما يفعل، فجاءه الرد بأن ينفق الفائض فى بناء المساجد[2]. ولم تكن تجارة مصر مع بلاد البحر المتوسط هى وحدها ذات أهمية، بل إن تجارتها مع الجنوب والشرق اتسعت ونمت، بسبب زوال الدولة الساسانية التى كانت تسيطر على مياه البحر الأحمر والمحيط الهندى. وساعد فى هذا الإنماء والتوسع أيضاً حفر قناة أمير المؤمنين السالفة الذكر. ونظراً لأهمية التجارة فى البحر الأحمر، فقد احتفظ الأمويون بوحدات بحرية فى مياهه - ذكرنا هذا عند نظم الاسطول - لحماية طريق التجارة إلى مكة والمدينة، وهى الطريق التى تنتهى عند عدن أيضاً.

وعم المدن الداخلية السورية رخاء مماثل، وإنتفعت العاصمة دمشق بما تدفق فيها من أموال الغنائم والخراج على خزائن الخلفاء من ولايتهم فى الغرب

(١) Wiet, op.cit. pp. 27-28

(٢) Lane- poole, Egypt, pp. 24-26

والشرق[1]. وساعد على نشاط التجارة وزيادة الرخاء زوال الحواجز الجمركية الرومانية القديمة التى فصلت بين سورية والعراق.

سقطت الدولة الأموية، وقامت الدولة العباسية فى بغداد، وهى مدينة فارسية فى أفكارها وثقافتها، وتتجه نحو وسط آسيا والمحيط الهندى لا صوب البحر المتوسط. فحق «لأينهارت» أن يلقب هارون الرشيد بملك بلاد فارس، كما حق ليثوفانس أن يصف العباسيين نفس الوصف.

لقد بقيتا مصر وشمال افريقية عاجزتين بحرياً خلال الخمسين سنة الأولى فى حياة الدولة العباسية، وتخلت مصر نهائياً عن قوتها البحرية، وضاعت على شمال افريقية مدينة قوصرة، ولم تعد تقوم بأى نشاط بحرى من قواعدها فى تونس[2]. هذا إلى جانب أن المسلمين هناك تحركوا جنوباً صوب السويس بعيداً عن إنتقام قوات صقلية البحرية المغيرة[3]. ويتعرض المؤرخ العربى ابن الأثير لهذه الفترة من تاريخ المغرب فيقول (... وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنها، وربما طارقوا تجاراً من المسلمين فيأخذونهم[4]. وما إنشاء الحصون فى طرابلس عام ٧٩٦م، وبناء الرابطات فى منستير وفى أماكن أخرى على الساحل الأفريقى، إلا دليل على مدى أثر تلك القوة البحرية آنذاك. أما بالنسبة لمصر والشرق فإن ثمة ما يدل على تشابه الحال وذلك من عبارة ينسبها المسعودى لهارون الرشيد؛ مؤداها: أن هارون الرشيد حين فكر فى حفر برزخ السويس عاد فرفض تلك الفكرة على أساس إحتمال إبحار السفن البيزنطية عبر تلك القناة للإغارة على المدينتين المقدستين مكة والمدينة[5].

---

(١) Hill, Cyprus, I, pp. 286-287

(٢) Prooks, 4the relation between the Enpire and Egypt.

(٣) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٣، ص٩٦ .

(٤) الكندى، ص٣٨؛ ابن الأثير، المرجع السابق، جـ٣، ص٩٦ .

(٥) المسعودى، جـ٤، ص٢١٣ .

أمـا الاسطول الـسـورى الـذى أخـذ يـنـتـعش بعض الشئ بعـد الهـزائم الـتى لحقت به عـام ٧٤٧م، فإن وضعه كان مـثل وضع الاسطول الأندلسى، إذ كان جزءاً من قوات الحـدود ذات الطبيعة المحلية. أما عن مـهمـتـه فإن العبـاسيين قد وجهوه ضد بيزنطة على أنه بلغ من ضعف هـذا الاسطول السورى أنه لم يقم بأول عملية هجـومـيـة إلافى عـام ٧٧٣م. ومما هـو جـديـر بالملاحظة أن الأمـويين فـى الأندلس آنذاك وجهوا هجماتهم البحرية ضد الفرنجة وليس ضد بيزنطة.

حـاول العـبـاسـيـون أن يـثـبـتـوا سلطانهم كـاملاً على مـصـر وشـمـال افـريـقـيـة والأندلس، فـأرسلوا جـيـوشـاً قـوية للسـيطرة على تلك البـلاد، وكـان أكـثـر هذه الجيوش من الـفرس، ولكن هذه الجـهـود باءت بافـشل، وخـرج الأندلس عن سلطان العـبـاسـيـين إلى سلطان عـبـد الرحـمن الأول (الـداخل) الأمـوى[1]. ولم تسـتـطع حملات العباسيين أن تبلغ بسفنها الأندلس[2]؛ بإستثناء حملة واحدة وصلت إلى مدينة باجة فى الجنوب، ولكنها أخفقت. وفى سنة ٧٨٨م ثارت مراكش واستقل بها الأدارسة دون مـعـارضـة من الـعـبـاسـيـين[3]. وفى عـام ٨٠٠ تلقى الأغـالبـة من بغداد إعترافاً فعلياً بإستقلالهم بشئون تونس[4].

وظلت مصـر وحدها خاضعة خضوعاً مباشراً للعباسيين. على أن سلطانهم تعرض للخطـر مراراً بسبب الـثـورات التى تناوب بها الـعـرب والأقباط معاً. والواقع أن تلك الـثورات كانت متـأصلة لدرجـة جعلت السيطرة على مـصـر امـراً مـشكوكاً فيـه[5]. ولعل كل هـذه الأقـاليم فى مـصـر وشـمـال افـريقـيـة قـد أفلتت من قـبـضـة

(١) البلاذرى، جـ١، ص٢٧٩ .

(٢) ابن الأثير، المرجع السابق، جـ٦، ص١٩٦ .

(٣) Mas Latrie; traites de paix et cammerce, p. 5

(٤) Amari, Syoria, I, pp. 268-269

(٥) Wiet, Egypt Arabe, pp. 61-63

العباسيين بسبب حاجتهم إلى قوة بحرية فى حوض البحر المتوسط فعّالة، وليس بسبب نقص فى قواتهم الحربية البرية التى كانت متوفرة لديهم.

وإذا كانت بيزنطة قد أملت شروطها على الدولة الإسلامية فى بعض فترات من القرن السابع والثامن الميلاديين بسبب قوته وتملكها لقوة بحرية، فإن الأمر منذ عام ٨٠٠م قد تغير وإنتقلت القوة البحرية من أيدى بيزنطة إلى أقاليم أربعة هى: الأندلس وسورية وشمال افريقية والدولة الكارولنجية.

أما الأندلس وهى الأقوى شأناً، فكانت مع ذلك أقل خطورة بسبب إتجاه اسطولها ضد الإمبراطورية الكارولنجية وبسبب تحالفها مع بيزنطة. غير أن العمليات البحرية للأسطول الأندلسى اتسعت حتى شملت معظم غرب البحر المتوسط. فأغار عام ٧٩٨م على جزر البليار، وفى المدة من ٨٠٦/ ٨١٥م، هاجم الاسطول الأندلسى كورسيكا والشواطئ الكارولنجية.

وبينما عاشت بيزنطة جو من الهدوء فى حوض البحر المتوسط، إذا بالاسطول السورى يفاجئها بحملة بحرية على قبرص سنة ٨٠٦م، وأعقبت تلك الحملة حملات أخرى فى العام على رودس[1] ولم ينقذ السلام سوى قبول القسطنطينية دفع الجزية لهارون الرشيد فى بغداد.

وأما الأغالبة فى تونس بشمال أفريقية فقد قاموا بأعمال بحرية ضد بيزنطة. فأغاروا على منطقة البلوبونيز عام ٨٠٥م، مما دفع الحكومة البيزنطية إلى قبول إتفاقية مدتها عشر سنوات بين بطرق صقلية وأمير الأغالبة[2]، ومع أن هذه الإتفاقية جددت لعشر سنوات أخرى، إلا أنها كانت عديمة الأثر، فلم تمنع

---

(٢) ارشيبالد- لويس، المرجع السابق، ص١٦٦ .

(١) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

عرب شمال افريقية من الإغارة على سردينية عامى ٨١٢، ٨١٣[١].

وعندما تولى شارلمان عرش الإمبراطورية الرومانية، اقام مركزين بحريين هامين فى غرب البحر المتوسط، أحدهما على طول السواحل الأندلسية فتمكن من الإستيلاء على طرطوشة وبرشلونة عام ٨١٢م، أما الثانى فعلى طول الساحل الغربى الإيطالى، مما مكنه ذلك من إحراز نصر قرب جزيرة ميورقة عام ٨١٣م، مما منع قيام الأموين بعد هذا التاريخ بغارات تهدد أراضى الفرنجة حتى عام ٨٣٨م[٢].

وبين عامى ٨٢١، ٨٢٣م تعرضت بيزنطة لثورة داخلية قام بها توما الصقلبى، أضعفت من قوة البيزنطيين البحرية بشكل تمكن المسلمون الوافدون على الإسكندرية من الأندلس من إكتشافه، عندما نزلوا إلى كريت دون مقاومة، حتى اقاموا لهم هنا مركزاً حصيناً كان مبعثاً للرعب والفزع فى بحر إيجة[٣].

وفى تلك الأثناء شن الأغالبة حملة بحرية قوية على صقلية تمكنت من خلالها الإستيلاء على صقلية، وبدأت بذلك مرحلة جديدة فى تاريخ صقلية، إذ انطوت صفحة السيادة البيزنطية، وبدأت صفحة النفوذ والسيادة الإسلامية على البحار، واستشعر بذلك المسلمون بقوتهم وبأنهم صاروا سادة البحر المتوسط؛ بعدما أخفق الأمويون من تحقيقه من قبل.

أما عن التعامل التجارى فى البحر المتوسط بعد حدوث تلك التطورات فإن الحقائق تؤكد تمتع التجارة بقسط أكبر من الحرية مع دوقية بنفنتم اللومباردية ومع روما نفسها. وترجح المعلومات أن صقلية صار لها دور كبير فى عملية التجارة

(١) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

(٢) Vita Hilud; Imp. in MGH Script. ii. 632

(٣) Vasilive. Byz. Labari trans. 1. 287

خلال السنوات الأولى من القرن التاسع الميلادى/ الثالث الهجرى.

أما عن تجارة الأندلس، فلم تجد صعوبة أو مشاكل مع الشرق، وثمة حقيقتان تؤكدان هذا؛ أولهما: ما جاء من أن اليهود قاموا من مدينة مرسيليا وعن طريق الأندلس[1] بالتجارة مباشرة مع مصر والشرق أوائل القرن التاسع الميلادى/ الثالث الهجرى، والحقيقة الثانية: أن إبحار المنفيين المسلمين من ثوار قرطبة إلى الإسكندرية - حسبما ذكرنا - لم يواجهوا أية معارضة فى عرض البحر. ويدل ذلك على صلات تجارية وثيقة بين الجهتين.

ونستطيع أن نقرر هنا، أن التجارة على هذا النحو، تؤكد على عدم وجود نظام تجارى واضح المعالم، إذ كانت تنفتح ثغرات فى نظام التجارة، والظاهر أنه وجد تراخى ملحوظ فى نظام التعليمات زمن الإمبراطورة البيزنطية «إيرين» عندما أهمل شأن القوة البحرية بين كل من سورية ومصر. كذلك لم تكن هناك رقابة على شواطئ شمال أفريقية فيما بين سوسة وقابس وبين مصر وسورية[2]. ويتضح مما كتبه خرداذبة عن هذين الطريقين فى أوائل عصر العباسيين، أن الطريق الرئيسية بين الرقة ومصر لم تسلك سبيلها إلى الساحل، ولكنها سارت فى الداخلى من الرقة إلى دمشق، واقتربت من الساحل فقط عند جنوب فلسطين[3]؛ وحدث هذا أيضاً بين مصر وشمال افريقية إذ لم تتبع التجارة الطريق الرومانية الساحلية فى ذلك العصر، وإنما تركت الشاطئ إلى الداخل سالكة مجموعة من الواحات الصحراوية.

ويزيد هذا الأمر وضوحاً ما نذكره من السفارات التى قامت بين

---

(١) theophance, pp. 442-443.

(٢) ارشيبالد- لويس، المرجع السابق، ص١٧٦-١٧٧ .

(٣) نفسه، نفس المرجع والصفحات.

الكارولنجيين وبين العباسيين، وأولى هذه السفارات هى التى أوفدها بين عام ٧٦٥م[١]. وآخرها سفارة من الخليفة المأمون إلى لويس إلتقى عام ٨٣١[٢]؛ وتعددت هذه السفارات بشكل ملحوظ أيام شارلمان عندما إتفق العباسيون والكارولنجيين على عدائهم لحكام القسطنطينية وأمراء قرطبة الأمويين. على أن السفارات التى كانت بين شارلمان والأغالبة فى تونس كانت أوثق صلة وأحكم رباطاً.

ولم تقتصر نظم الخلل فى نظم الرقابة التجارية فى حوض البحر المتوسط من الشرق إلى الغرب أو العكس، بل حدث ما هو أخطر من هذا، ذلك أن المدن التجارية الإيطالية خالفت نظم التجارة فى حوض البحر المتوسط آنذاك، ومنها البندقية والتى كانت تتمتع بحكم ذاتى تحت السيادة البيزنطية.

ولاشك أن فرض قيود دقيقة على التجارة مع مصر وسورية كان معناه القضاء على نظام الثغور أو ما يعرف بنظام «الثيمات» البحرية التى اعتمدت عليها الأساطيل الإقليمية ووجود تجارة تهريب ويفسر اللاجئين الأندلسيين بإتجاههم إلى الإسكندرية المضطربة الأحوال[٣].

وقد قام المسلمون بإجراءات إنتقامية، لوقف التعامل التجارى المحظور بين جزر بحر إيجة وشواطئ آسيا الصغرى من جهة وبين مصر وسورية من جهة ثانية.

على أن هذه الحالات الشاذة وأمثالها، لا تغير من الصورة الكاملة لتجارة ذلك العصر. ذلك أن التونسيين مثلاً تمكنوا من أن يقيموا تجارة مع الشرق ومع موانى غرب إيطاليا، وأن تكون لأمالفى والبندقية ونابلى تجارة مع البلاد العربية

(١) Lopez, Orig. du Capit. Genois" , p. 43

(٢) Buckler, op.cit, pp. 9-10

(٣) الادريسى، ص ٢٠٠-٢٠١ .

فى شمال افريقية وبلاد الشرق؛ وأن تكون لآسيا الصغرى وكريت وبلاد اليونان علاقات تجارية مع مصر وسورية، إلا انه مع هذا كان ضئيلاً نسبياً، ولم يكن له سبيل إلى أن يناظر التجارة العظيمة الحرة التى كانت بين بيزنطة وبين تلك البلاد ذاتها قبل عام ٧١٦م.

وقد كان شمال افريقية أحسن حالاً من الأندلس، رغم أن قيام بلد من نوع فاس، يؤكد الطبيعة الزراعية التى اتصف بها القسم الغربى من بلاد المغرب آنذاك[١]. على أن الثورات العنيفة استمرت حتى عام ٨٠٠م بين قبائل البربر، وقد انتشرت آراء الخوارج بينهم وبين الجند المحاربين من العرب[٢]. وربما كانت هذه الإضطرابات سبباً رئيسياً فى تدهور الأحوال الإقتصادية فى ذلك الحين، وربما كانت نتيجة لهذا كله. لكن ثمة حقائق مؤكدة لا غموض فيها، ففى خلال الخمسين سنة التى سبقت إستقلال الأغالبة بحكم تونس هبط مستوى الرخاء فى هذه المنطقة إلى حد ضئيل جداً، حتى غدت الوسيلة الوحيدة لتغطية نفقات الحكومة هى الإعانة السنوية المرسلة من مصر، والتى بلغت مائة الف دينار من الذهب[٣]. ولاشك أن هذا يدل على حال تختلف كثيراً عن حال الثراء الذى تمتع به شمال افريقية من قبل فى العصر البيزنطى.

أما فيما يتعلق بمصر، فقد عرضنا للحالة فيها بإختصار، ولكن بدراسة أكثر دقة، يتضح لنا مركزها الإقتصادى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع. فمع بقاء الدينار الذهبى الإسلامى وسيلة للتعامل فى مصر، فإن أحوالها

---

(١) شارل ديل، البندقية جمهورية ارستقراطية، ص٢١، ٢٨، ٣٧ .

(٢) أرشيبالد لويس، المرجع السابق، ص١٩٣-١٩٤ .

(٣) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص٦٩ .

الإقتصادية يمكن أن يقال عنها كل شئ إلا كونها مُرضية[1]. وحتى هذا المستوى السئ للمركز الإقتصادى؛ نجده يتدهور فى المدة بين ٧١٦م إلى ٧٥٢م؛ وفى أيام العباسيين الأول، يبدو أن ثورات القبط والقبائل العربية المقيمة بمصر، قد قامت بسبب زيادة الضرائب على الأخص، ثم دخل ذلك الإقليم عام ٨١٥م فى دور من الفوضى والإضطراب استمر ستة عشر عاماً، ولم يسد النظام بعض الشئ إلا بعد عام ٨٣١م، وأضيف إلى عامل القلاقل ذاك، إعتداءات خارجية، كتلك التى قام بها الأندلسيون على الاسكندرية. هذا كله أوقف حركة النقل والتصنيع والتجارة فإنتشرت بين النساجين فى تنيس[2]؛ وهجر الفلاحون القبط أراضيهم رغم عدم السماح لهم بذلك[3]، وخرّب البدو الرحل مساحات كبيرة من الأرض الزراعية على الرغم من الجهود اليائسة التى بذلها ولاة العباسيين لإعادة النظام[4]. وهنا يكون الفارق كبير بين مصر هذه وبينها أيام البيزنطيين، وكذلك أوائل عهد الأمويين.

أما الحالة الإقتصادية فى سورية: فإن الدينار الذهبى ظل مستخدماً هناك أيضاً؛ ويبدو هذا غريباً، إذا علمنا أن الدرهم الفضى هوالعملة السائدة وقت ذاك فى بلاد العراق المجاورة لسورية ويدل بقاء استخدام الذهب فى سورية على إستمرار بقاء التجارة بينها وبين مصر والقسطنطينية.

وامتدت مناطق استخدام الفضة إلى الشرق والغرب على جانبى منطقة استخدام الذهب. ففى الغرب استخدم الأندلس الدرهم الإسلامى واستمرت العراق وفارس تستخدم الدرهم الفضى القديم المضروب على نمط العملة الساسانية التى كان لها السيادة فى المحيط الهندى.

---

(١) Lan-poole; Egypt, 31-38

(٢) Hill, Cyprus, vol, I, pp. 261-270

(٣) أرشيبالد- لويس، المرجع السابق، ص١٩٤-١٩٥ .

(٤) نفسه نفس المرجع والصفحات.

بدأ عهد جديد فى حياة البحرية الاسلامية والنظام الاقتصادى فى حوض البحر المتوسط، إذ فى خلال مايقرب من قرن ونصف حدث التوسع والإمتداد الاسلامى فى حوض المتوسط وذلك لحادثتين هامين أولهما: اغارة المسلمين على صقلية، وثانيهما إستيلائهم على جزيرة كريت جنوب إيطاليا[1] وذلك فى عام ٨٢٨م. وكانا الحادثان بداية النهاية للسيادة البيزنطية على مياة البحر المتوسط وأخذت السيادة الاسلامية تحل محل السيادة البيزنطية من جبال طوروس فى الشرق حتى جبال البرانس فى الغرب، وهو يشمل كل الإمتداد المتوسطى.

وكان أبلغ الحملات أثراً على مصير السيادة البيزنطية الحربية تلك التى قامت بها الأساطيل الإفريقية الشمالية فى بحار صقلية وإيطاليا وكذلك التى قامت بها كريت الاسلامية فى بحر الأرخبيل اليونانى على أن الحملات التى وقعت فى البحار الغربية ترتب عليها نتائج أخطر مما ترتب على الحملات فى البحار الشرقية، وقد بدأ الهجوم فى الغرب بإنزال قوة من المغاربة على شاطئ صقلية الجنوبى عام ٨٢٧م، وصارت القوات البحرية الاسلامية عبر الجزيرة لتحاصر عاصمتها سرقوسة، وتحرك اسطول إسلامى ليتم ذلك الحصار من البحر أيضاً. غير أن بيزنطة سرعان مادعت البندقية وتسكانيا والكارولنجيين لمواجهة هذا الخطر الإسلامى، وقد نجحوا بالفعل فى إفشاله.

غير أن هذا الاخفاق، لم يثن العرب المسلمين عن إستئناف الهجوم فى العام التالى، فأمد أسطول افريقى كبير الجيش الاسلامى المرابط فى الجزيرة بقوات أخرى[2] يضاف إلى هذا وصول قوات أندلسية من طرطوشة إلى الجزيرة

---

(١) Vasiliev, A. Byzance et les Arabes, I, P. 73.

(٢) أرشيبالد لويس، المرجع السابق، ص٢١٢ .

لمساعدة القوات الاسلاميةهناك. على أن هذه القوات الأندلسية لم تبذل سوى مساعدات يسيرة ثم إنسحبت بعد أن حاق بها الهزيمة على أيدى قوات بيزنطية فى داخل الجزيرة[١] ولكن القوات الأفريقية لم تنسحب بل مالبثت أن تقدمت لحصار مدينة «بلرم» الهامة على الشاطئ الغربى لصقلية. وتمكنت قوات الأغالبة البحرية من إسقاط المدينة عام ٨٣١م[٢] ومنذ ذلك الحين صارت «بلرم» أهم قاعدة حربية وأعظم مراكز القوة الإسلامية بصقلية، وصار لها نوع من الحكم الذاتى، وإن تبعت دولة وحكام الأغالبة من الناحية الإسمية. كذلك كانت بلرم تمثل الثغر الأكبر الذى تقلع منه الأساطيل الإسلامية للإغارة على الشواطئ الإيطالية وباقى الممتلكات البيزنطية فى الجزيرة.

وسرعان ماقوى شأن هذه القاعدة الجديدة (البحرية) الأولى بفضل ماجد من تطورات كان أولها إستيلاء الأغالبة على جزيرة قوصره بفضل اسطولها[٣] عام ٨٣٥م، وبهذا الانتصار صار إرسال الامدادات إلى صقلية أكثر سهولة عن ذى قبل أما التطور الثانى فهو تحالف بلرم مع المدن الايطالية الموجودة على ساحل كمپانيا وعلى الأخص مدينة نابلى[٤].

ومما يستحق أن نسجله أن أسطول افريقية (الأغالبة) إشتمل أثناء الاشتباك على حراقات - وهى سفن تقذف بلهب النفط - الأمر الذى مكن الأفريقيين من مقاومة النار الاغريقية. وهذا هو أول ذكر لإستخدام المسلمين لمثل هذا النوع من السفن، ولعله كان سلاحهم السرى الجديد[٥] .

---

(١) ارشيبالد لويس، المرجع السابق، ص ٢١٢ .

(٢) ابن الاثير، جـ٦، ص ٢٤٠ .

(٣) نفسه، نفس الجزء والصفحة.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٦، ص٢٤٠ .

(٥) نفسه، نفس المصدر والصفحة.

ومما يجدر الاشارة إليه، ذكر أسباب نجاح العرب فى مياه البحر التيرانى، إنشغال القسطنطينية بالمشاكل فى أماكن أخرى من الغرب. فقد حدثت إذ ذاك هجمات إسلامية على المراكز البيزنطية فى كل من البحرين الأيونى والادرياتى. وبدات الهجمات على برنديزى عام ٨٣٨م، وبأسطول من مسلمى كريت وشمال إفريقية، وأخفقت المحاولات البندقية فى صد هجمات المسلمين الذين حطموا اقليم تورنت تماما[١] .

كان من نتائج هزيمة البندقية، وتأسيس حكومة إسلامية جديدة فى بارى، وإستيلاء مسلمى كريت على تورنت، أن تعرض البحر الادرياتى لغارات الأساطيل العربية. ففى سنة ٨٤١م بدأت هذه الأساطيل غزواتها بالإستيلاء على مدينتى انكونا وأوزيرو "Osero" بجزيرة كرسو وإحراقها، كما استولت فى أثناء عودتها على سفن البندقية التجارية العائدة من صقلية.

ولعشر سنوات كاملة من هذه الحوادث، لم يتحرك المسلمون ضد جيرانهم المسيحيين إلا حركات طفيفة وذلك - فيما يظهر - يرجع إلى ماكان من صراع بحرى بين مسلمى كريت وبين الأغالبة[٢] .

ومنذ عام ٨٥٩م، وبعد ثمان سنوات من هذا التاريخ قرر المسلمون إتمام فتح صقلية فأرسل والى بلرم جيشاً برياً وحراقات إلى سرقوسة. ولكن الاسطول البيزنطى المتواجد فى البحر تمكن من رد المهاجمين عام ٨٦٨م[٣] وكان رد فعل الأغالبة عنيفاً إذا استولوا على جزيرة مالطة سنة ٨٧٠م وتأكدت بذلك سيطرتهم

---

(١) ارشيبالد - لويس، المرجع السابق، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٢) نفسه، نفس المرجع، ص ٢١٨، ٢١٩ .

(٣) البلاذري، جـ١، ص ٢٧١- ٢٧٣ .

على المضايق الواقعة بين صقلية وافريقية[١] .

وبعد سبع سنوات أخرى قام الأغالبة بضربتهم الأخيرة ضد بيزنطة، فقاد إبراهيم بن الأغلب - المتنازل عن الحكم فى شمال افريقية - حملة برية وبحرية كبيرة من بلرم عام ٩٠٢ ضد المواقع المملوكة لبيزنطة فى صقلية، وسقطت كلها فى أيدى المسلمين. وفى هذه الأثناء أتاحت الإضطرابات التى لازمت سقوط دولة الأغالبة، وقيام الفاطميين بالقيروان فرصة للإيطاليين ليأخذوا بعض الراحة، رغم ضعف بيزنطة الحربى براً وبحراً.

وقصارى القول، أنه لم يأت عام ٩٠٢ حتى كانت صقلية قد وقعت فى قبضة مسلمى شمال أفريقية، على الرغم من المقاومة الطويلة التى قامت بها بيزنطة للحيلولة دون ذلك.

وفى عام ٩٠٩م استولى الفاطميون على تونس، وأصبحوا سادة القيروان؛ أما محاولة فرض سيطرتهم على صقلية فلم تصادف نجاحاً يذكر فى أول الأمر[٢] وتعرضت القوة البحرية الفاطمية فى عام ٩١٣م لتهديدات الاسطول الصقلى، الذى إستغل فرصة إنشغال الفاطميين بضم مصر، فحطم قوة بحرية أفريقية تجاه لانلى على مقربة من المهدية، وأنزل بعض قواته ونهب صفاقس وغزا طرابلس (ليبيا)[٣] ولم يستطيع الفاطميون أن يستعيدوا سلطانهم على الجزيرة إلا عام ٩١٧م، حين هاجموهما بأسطولهم الذى إستخدموه ضد مصر من قبل[٤].

(١) ارشيبالد - لويس، المرجع السابق، ص ٢١٩ .
(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٦، ص٢٤١ .
(٣) نفسه، نفس المصدر، جـ٦، ص ٢٤١ .
(٤) ارشيبالد، لويس، المرجع السابق، ص ٢٢٦ .

ولقد توقفت الجهود المشتركة بين طرسوس وسورية ومصر، بسبب المشاكل الداخلية التى صرفت المسلمين عن أعدائهم البحريين البيزنطيين وترجع هذه المشاكل إلى إمتداد نفوذ ابن طولون من مصر إلى سواحل سورية حتى طرسوس والذى وقع اسطولهم فى أيدى الطولونيين عام ٨٨٨م.

وعلى هذا، يمكن القول أنه كانت لمسلمى طرسوس وسورية ومسلمى مصر أيضاً قوة بحرية قوية، وعلى الأخص أوائل القرن العاشر الميلادى/ الرابع الهجرى وإستطاعت هذه القوة تدعيم قوة كريت وتقوية إمكانياتها لتهديد طرق التجارة البحرية البيزنطية وتم هذا كله رغم الخلافات القائمة فى صفوف المسلمين وقتذاك.

على حين كانت قوة المسلمين البحرية بوسط البحر المتوسط وشرقه هكذا متفقة، كانت الحال فى الغرب والاندلس أن أظهرت الدولة الأموية بأسبانيا عدم إكتراث بتكوين قوة بحرية لها أول الأمر، وبدت أقل إهتماماً بهذا الموضوع من أى إقليم اسلامى آخر فى حوض البحر المتوسط، وربما يرجع عدم الاهتمام الحقيقى فى أن حكام قرطبة ظلوا على سياستهم التقليدية التى قضت بمصادفة البيزنطيين ومعاداة العباسيين. ولهذا رأيناهم لايساهمون بصفة عملية فى الفتوحات العربية فى العصر العباسى، أو حتى فيما هو بعد سقوط دولة الأمويين فى دمشق، ولكن الذى تحمل عبء هذا الغزو البحرى هم دولة الأغالبة التى قضت على قوة البيزنطيين البحرية وأضعفت شوكتهم البحرية، ولم يحدث أن ساعد الأندلسيون أعداء الدولة البيزنطية إلا مرة واحدة عام ٨٢٩م، إذ خرجت حملة من طرطوشة وإشتركت فى الهجوم على صقلية جانبا من الوقت ولكن سرعان ما إنسحبت من القتال.

ولعل الضغط البحرى الذى قام به الفاطميون من قواعدهم فى إفريقية وصقلية هو وحده السبب فى عودة ظهور القوة البحرية البيزنطية فى البحر التيرانى لأول مرة بعد عام ٨٨٨م وقد أزعج هذا الاسطول البيزنطى الفاطميين كثيراً، فأرسلوا عام ٩٣٥م اسطولاً كامل الاستعداد ليثبت دعائم سلطانهم على مياه البحر التيرانى، وأغار هذا الاسطول الفاطمى على سردينيا وكورسيكا وربما على جنوة أيضاً. واستطاع أن يحرق الكثير من السفن البيزنطية غير أنه سرعان ماتوقفت حركات الفاطميين هذه بسبب سلسلة المشاكل الداخلية الخطيرة؛ إذ حدث على أثر فشل هجوم ثالث على مصر عام ٩٣٦م، أن قامت ثورة فى صقلية شغلوا أنفسهم بإخضاعها ثلاث سنوات (٩٣٧-٩٤٠م) ثم بعد ذلك قامت ثورة أخطر فى شمال افريقية وهى المعروفة بثورة أبى حماره (أبى يزيد الخارجى) وهددت بضياع كل أملاك الفاطميين فى افريقية[١].

أما عن كيفية تنظيم القوى البحرية الإسلامية فى مناطقها الثلاث هى: الاندلس، وشمال افريقية، وكريت ، وسورية، ومصر، فأمر لايزال غامضاً وذلك حسب تصوير المقريزى لهذا الموضوع قائلاً «إن إعادة تنظيم الاسطول المصرى، بعد الغارة البيزنطية عام ٨٥٣م هؤلاء الملاحين ضئيلى الأرزاق كانوا يجمعون للعمل على غير نظام، والذين كانوا موضوع إزدراء ذوى الاعتبار من الجماعة الاسلامية والغالب أن تنظيم ذلك النوع من القوى البحرية على غرار تنظيم القوى البرية التى كانت تقوم بالغارات قرونا طويلة على الأراضى فيما يحاذى نهر ابرو بأسبانيا أو جبال طوروس على الحدود البيزنطية. هذا وحتى فى القرن التاسع عشر لم يختلف نظام أساطيل القراصنة الرابضة عند شواطئ بلاد

---

(١) د. عبد اللطيف عبد الهادي السيد، موسوعة التاريخ الاسلامي، جـ٦ .

البربر عن تلك الأساليب.

وكان للمسلمين فى البحر المتوسط خاصة الأغالبة منهم والفاطميين فى شمال افريقية إبتداء من القرن التاسع، وكذلك صقلية فى القرن التالى (العاشر) تنظيما أكثر تنسيقاً وإنتظاماً[1] وذلك لأن أساطيلهم بنيت فى دور صناعة منظمة، وجهزت بالعتاد والرجال عن طريق الحكومة، وقام على إمرتها - مابين أمير وقبطان - رجال ذو دراية واسعة وذوو قدرة على ملاقاة أسطول العدو فى معارك بحرية هامة وحاسمة. وأن الإنتصارات التى حققتها وأحرزتها أساطيل صقلية والأغالبة فى شمال أفريقية والفاطميين عامى ٨٥٩، ٨٨٨م قرب صقلية وهى الإنتصارات التى قضت على آمال البيزنطيين فى المحافظة على هذه الجزيرة، كانت ماحققته تلك القوات البحرية الإسلامية المنظمة.

أما فيما يتعلق بتنظيمات البحرية الاندلسية فى القرن العاشر فإن أمير البحر فى الدولة الأموية بالأندلس كان أحد الأربعة الكبار الذين تعتمد عليهم الخلافة. وكان يقال عنه أنه كان قسيم الخليفة فى السلطان فهذا يحكم البر وذاك يحكم البحر، وكانت المرية هى القاعدة البحرية الرئيسية وفيها تجمعت معظم دور الصناعة الهامة. هذا بالإضافة إلى قواعد أخرى فى سلبيس والجزيرة وبجاية وطرطوشة وغيرها. ومن الطبيعى أن عدداً من السفن كان يرابط فى هذه القواعد أيام السلم، ولكن فى وقت الحرب كانت كلها تتجمع فى مكان واحد.

ومن الأمور الهامة المتعلقة بالقوى البحرية الاسلامية فى ذلك الحين تجهيزها بالنار الأغريقية، أو بمركب نفطى مشابه للنار الاغريقية، فالحراقات

---

(١) كانت مناجم الحديد والمصانع الأخري مملوكة للدولة في بلرم، ومنها استطاع الأمراء أن يمونوا الأساطيل الحكومية في صقلية.

التى استخدمها الأغالبة قرب صقلية عام ٨٣٥م كانت سفناً من قاذفات اللهب، تقذف مادة سريعة الإشتعال على سفن الأعداء، وإستخدام ليو الطرابلسى قاذفات فى هجومه على سالونيك عام ٩٠٤م ولهذا السلاح أحرق الفاطميون السفن التى هاجموها فى البحر التيرانى عام ٩٣٥م.

أما عن الآثار الاقتصادية التى ترتبت على السيطرة الاسلامية الجديدة فى الفترة (٨٢٧ / ٩٦٠م) وهى سيطرة ليست كاملة بالمعنى الحقيقى للكلمة؛ ذلك أنه لم توجد فى تلك الفترة وحدة سياسية وبحرية شاملة تضم جميع البلاد الاسلامية المحيطة بالبحر المتوسط. أن تعتبر «دار السلام» أو «دار الإسلام» يستند إلى أساس من الواقع ولكنه لايدل على ماتدل عليه كلمة «إمبراطورية».

الواقع أنه كانت توجد فى تلك الفترة ثلاث مراكز لثلاث قوات إسلامية بحرية متميزة فى حوض البحر المتوسط، الأولى فى الشرق (بغداد) والثانية فى الوسط (مصر) والثالثة فى الغرب (الاندلس) أو شمال افريقية، وأغلب الظن أن أهم هذه القوى الثلاث هى القوة المتمركزة فى شمال إفريقية وهى التى فى ذلك الحين دولة الأغالبة عام ٩٠٩م التى إنتقل الاشراف عليها إلى الفاطميين بعدهم. وقد توحدت هذه القوى الثلاث مرتين تحت حكم الطولونين وتحت حكم الأخشيدين وكانت كريت وثيقة الصلة بمصر دائما، وكثيرا مايحدث ألا تكون تلك الأساطيل متحدة بل فى حالة عداء كما حدث عام ٩٠٣م، ٩٣٥م.

الواقع أن وجود ثلاث خلافات إسلامية فى قرطبة والمهدية وبغداد فى ذلك الحين، دليل على وجود عوامل إنحلال فى العالم الإسلامى. وعلى هذا فإن السيادة الاسلامية على البحر المتوسط فى ذلك الحين لم تكن شيئاً يمكن

مقارنته مثلابالدولة البيزنطية الواحدة.

مع أنه يجب الاعتراف بأن السيادة الاسلامية البحرية كانت لها آثار عظيمة على الحياة الاقتصادية والتجارية فى كل أقاليم البحر المتوسط، وبخاصة عن طريق التجارة الدائرة فى الشمال، الواصلة بين سورية ومصر لجلب التوابل والمنتجات الفاخرة من منطقة الشرق الأدنى والأقصى إلى شمال افريقية وسائر بلاد الإسلام فى الغرب.

وقد عم الرخاء بلاد المغرب بفضل هذه السيطرة، وليس هناك أكثر إسترعاء للنظر من المقارنة بين هذا الأقليم أواخر القرن الثامن أوائل التاسع، وبينه فى هذه الفترة التى نتكلم عنها. فقدت غدت تونس أواخر حكم الأغالبة بلداً زراعياً غنياً، اكتست أقاليمه الجنوبية بأشجار الزيتون والكروم وفاضت سهولة الوسطى بالحبوب الوفيرة[١] ولم تكن صناعتها أقل إنتعاشاً من ثروتها الزراعية فعلى مقربة من الحدود التونسية الجزائرية الحالية وجدت مدينة «بجاية» الغنية بمناجم الحديد والأسمدة والفضة والرصاص[٢] وخامات المعادن التى استخرجت كانت تستخدم فى بلاد المغرب وعلى الأخص فى قاعدة سوسة البحرية[٣] وقامت فى القيروان صناعة الزجاج والخزف المموه بالمينا، وإمتازت أنواعه برقيها وجودتها[٤] وغدا النسيج من الصناعات الهامة، وإشتهرت البلاد بإنتاجها الفاخر من الأبسطة والأقمشة الرقيقة (الطراز)[٥] وتدخلت حكومة الأغالبة فى الحياة

(١) اليعقوبي، ص ٣٤٩ .
(٢) Revue des Etudes Islamiques, 1935, p.303.
(٣) العمرى، وصف افريقية والمغرب والأندلس، تونس ١٩٠٦م، ص٩٨ .
(٤) أرشيبالد - لويس، المرجع السابق، ص٢٣٨- ٢٣٩ .
(٥) نفسه، نفس المرجع والصفحات.

الاقتصادية والتجارية تدخلاً مباشراً فأشرفت على الأسعار، وعلى مستوى الانتاج وأحوال الصناعة، وذلك عن طريق نظام الحسبة، وإشراف المحتسب[1] .

وكانت القيروان أعظم المراكز التجارية أهمية حيث صدر منها القمح إلى الأسكندرية، والرقيق السودانى إلى بلاد البحر المتوسط الشرقية وربما إلى الأندلس أيضا. أما زيت الزيتون فكان يستورد من طرابلس والساحل حيث يعاد تصديره إلى صقلية وإيطاليا[2] كذلك كانت تونس ذاتها مركزاً تجارياً هاماً هى الأخرى، وكذلك «قوصره» وقفصة وبجاية والأربس[3]. ولم تقل اهمية مدينة قابس الواقعة عند نهاية أحد الطرق الصحراوية[4] عن المدن السابقة ولا عن صفاقس وسوسة. وكانت صفاقس مركزاً هاماً لصيد الأسماك وزيت الزيتون كما كانت سوسة سوقاً لزيت الزيتون وترسانة بحرية رئيسية وثيقة الصلة بصقلية[5] وعظمت الثروة فى هذا الإقليم من التجارة والصناعة؛ واشتغل أفراد الأسرة المالكة ومن دونهم من الناس بالتجارة فى أنواع السلع المختلفة.

والجدير بالذكر فى ذلك الحين ما أقيم من أعمال المنافع العامة مثل قناطر رقادة والقيروان، وأسوار صفاقس وسوسة ويرجع تخطيط هذه المدن إلى أيام الأغالبة لا إلى أيام البيزنطيين أو الرومان على الرغم من أن أسلوبها المعمارى جاء قريب الشبة من الأساليب الرومانية والبيزنطية. ثم عظم قدر القيروان فى ميدان الفكر، وعلا مركزها كمدينة مقدسة فى نظر أهل العلم، وإن

---

(١) ابن خلدون، كتاب العبر، جـ٦، ص٣٥١ .

(٢) المغرب الكبير، ص٦٥٣ - ٦٦٥ .

(٣) ابن ابي دينار القيرواني، المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ص٧٤ .

(٤) أرشيبالد - لويس، المرجع السابق، ص٣٥٢-٣٥٣ .

(٥) نفسه، نفس المرجع والصفحات.

دل هذا على شئ فهو يدل على الرخاء الاقتصادى آنذاك.

وفى زمن الفاطميين إزدادت ثروة البلاد رغم فداحة الضرائب التى فرضها عليها هؤلاء لتحقيق أطماعهم الحربية والواقع أن الثروة الكبيرة التى أنفقها الخليفة الفاطمى على فتح مصر تجمعت فى الغالب نتيجة الرخاء الذى تمتعت به بلاد المغرب فى التجارة والصناعة فى الداخل والخارج معاً[1].

اما عن تجارة شمال أفريقية مع مصر فى القرن العاشر فقد كانت نتيجة درجة كبيرة من الأهمية، فقد توافد على وادى النيل عدد كبير من البربر أقاموا فى الاسكندرية وماحولها[2] وكان لهم دور كبير وخطير فى الثورات التى مهدت لنجاح الفاطميين فى حملاتهم للإستيلاء على الاسكندرية عام ٩١٤، ٩٢٠، ٩٣٥م ويبدو أن الفاطميين وثقوا بقدرتهم فى السيطرة على البحار لدرجة أنهم بنوا عاصمتهم «المهدية» ذات التحصينات المنيعة عام ٩١٥م على شاطئ البحر المتوسط، وهم بذلك أول الحكام المسلمين الذين قاموابمثل هذا العمل[3] وممايدل على اهمية إتصال شمال إفريقية ببلاد الشرق الأدنى وقتذاك إدخال زراعة بعض النباتات الشرقية مثل القطن وقصب السكر والزعفران فى بلاد المغرب، وربما فى صقلية أيضاً[4] ومن الأمور الجديرة بالاعتبار أيضاً، قيام نظام أبراج المراقبة الدقيق التنظيم على طول الساحل وهى الأبراج التى يمكن بواسطتها نقل الأخبار عن طريق استخدام النار المشتعلة فوق قممها بين

---

(١) بلغت حصيلة ماجمعه الفاطميون من أجل الحملة التي فتحت مصر عام ٩٦٩م نحو ٢٤,٠٠,٠٠٠ ديناراً ذهبياً، وهو مبلغ ضخم جداً.

(٢) Lan - Poole, Egypt, pp.101-102.

(٣) Wiet, Egypt Arabe, p. 127-29.

(٤) البكرى ، ص ١٥٩- ١٦٠ .

الاسكندرية وسبته خلال يوم واحد[1].

وفى مجال الانتعاش والرواج الاقتصادى أيضا اهتمام الأغالبة والفاطميين من بعدهم فى تخطيط المسالك والطرق لتسير فيها القوافل مخترقة الصحراء إلى بلاد السنغال والنيجر والسودان حيث يتوافر الذهب والرقيق؛ وصارت سجلماسة التى أسسها الرستميون حكام تافيلت عام ٧٥٨م، أهم مدخل لطرق القوافل المقلة لهذه التجارة .. وفى القرن العاشر بلغت الضرائب المفروضة على تجارة الرقيق والذهب (السودانية) حوالى ٤٠٠,٠٠٠ ديناراً سنوياً وكانت هناك ثلاث طرق للقوافل توصل إلى ذهب السودان هى : طريق سجلماسة إلى السنغال والثانى فى الوسط ويمر عبر واحة وارقلان "Ouargle" إلى عنق نهر النيجر، أما الطريق الثالث فيقع إلى الشرق ويبدأ من الجريد أو طرابلس ماراً بغدامس إلى قلب السودان وسيطر الرستميون فى تافيلت على الطريقين الغربيين، وذلك حتى منتصف القرن العاشر الميلادى/ الرابع الهجرى وكان الرستميون أصدقاء للأمويين فى الأندلس[2] ثم تغلب جوهر الصقلى قائد الفاطميين على الرستميين وبعد عام ٩٥٨م إنتقل أمر السيطرة على هذه الطرق الثلاث المؤدية إلى الجنوب إلى حكام تونس فعملوا على توطيد هذا النظام بين جماعات البدو حتى لايتعرضوا لهذه التجارة الرابحة[3] .

أما فيما يتعلق بمصر فلم تكن آنذاك بقدر ماكانت عليه دولة الأغالبة ومن بعدهم الفاطميين فى المغرب من حيث الرخاء الاقتصادى والنشاط التجارى ذلك أنه بعد فتح كريت بخمس سنوات أى فى عام ٨٣٢م تم إخماد آخر ثورات

(١) نفسه، نفس الصفحات.

(٢) Lombard, M. L'er Musulman de v11 auxle, II, p. 149.

(٣) أرشيبالد - لويس، المرجع السابق، ص ٢٥٦-٢٥٧ .

المصريين بعد فترة من الفوضى والإضطراب الداخلى إستمرت اكثر من قرن من الزمان[١] وسرعان مابدأت البلاد تستعيد الرخاء الذى كان من قبل فى أوائل عهد الأمويين وظهر أثر هذا الأحياء المتزايد فى إحياء النفوذ المصرى فى البلاد الجنوبية. ففى عام ٨٥٤م امتنع جيران مصر الجنوبين وهم قبائل البجة سكان النوبة عن دفع الجزية، وقتلوا رجال المناجم والقواد المصريين هناك ونهبوا إسنا وإدفوا عندئذ أرسلت مصر حملة كبيرة فى النيل عاونتها قوة أخرى ارسلت إلى القصير على البحر الأحمر، وإستطاعت الحملة أن تخمد ثورة هذا الاقليم فى وقت قصير[٢] ثم سارت أعمال البحث عن ذهب النوبة بسلام، وزاد استغلاله، وتدفق من جبال النوبة إلى مصر مثلما تدفق إلى شمال إفريقية. وكذلك نشطت التجارة فى غير الذهب من الجنوب إلى الشمال، ويغلب على الظن أن القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر قد أعيد فتحها فى ذلك الحين. يدل على ذلك أن المسعودى يذكر فى أوائل القرن العاشر أنه رأى فى كريت سفناً محملة بخشب الساج، وهذه لايمكن أن تصل إلى هناك إلا عن طريق تلك القناة[٣] .

وكان الطولونيون الذين حكموا مصر أواخر القرن التاسع الميلادى/ الثالث الهجرى، قد أظهروا مدى أهمية التجارة فى نظر حكام مصر ببنائهم حياً تجارياً مستقلاً بمدينتهم القطائع قرب الفسطاط. ومما يؤيد توافر الثروة فى البلاد؛ إنشاء القصر الفخم الذى بناه خمارويه بأشجاره الصناعية المذهبة والمفضضة، وبحيرته المملوؤة بالزئبق، يضاف إلى هذا إزدياد قوة مصر وإمتداد نفوذها حتى سورية وطرسوس زمن الطولونيين وتدل الأرقام المالية التى وصلتنا من ذلك

(١) Lombard, op. cit, pp. 150-151

(٢) Lombard,op. cit ,pp.109-110

(٣) Wiet, Egypt Arabe, pp. 167-168.

العصر، على مبلغ ماتمتعت به البلاد من ثراء. ففى عام ٨٧٠م حين تولى ابن طولون أمر مصر أرسل إلى الخليفة فى بغداد خراجاً بلغ ٧٥٠,٠٠٠ دينار[١] وبعد أربع سنوات إرتفع الخراج إلى ٢,٢٠٠,٠٠٠ دينار[٢] وفى أثناء حكمه ارتفع الخراج من ٨٠٠,٠٠٠ إلى ٤,٣٠٠,٠٠٠دينا[٣]، وهذا دليل على رخاء البلاد الزراعى[٤].

وقد بلغت مصر درجات أعظم من الرخاء خلال القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى رغم الإضطرابات التى حدثت أوائل ذلك القرن. ويبدو أن تجارة الشرق الذاهبة إلى المحيط الهندى أخذت تتحول عن طريق الخليج الفارسى والعراق أى طريق هرمز والبصرة إلى طريق مصر والبحر الأحمر. ويذكر المقدسى أن ثغر عدن صار فى ذلك القرن أهم مراكز تلك التجارة المربحة[٥]. ولا جدال فى أن بغداد أخذت تتدهور وتفقد مكانها، ولعل هذا يوضح سر سلطان الأخشيد الذى لم يقتصر - فيما بين عامى ٩٣٥، ٩٦٨م - على مصر فقط بل شمل سورية وطرسوس والحجاز بما فى ذلك مكة والمدينة أيضاً.

ولم يقم رخاء مصر فقط على الزراعة وعلى ذهب النوبة وعلى إنتعاش طريق التجارة الدولية الهام المار بها؛ طريق البحرين الأحمر والمتوسط؛ فقد كانت مصر إلى جانب هذا كله بلدا صناعياً هاماً؛ إذ أنتجت من وافر تيلها وكتانها نسيجاً رقيقاً (طرازاً) فى تنيس ودمياط وشطا ودبيق[٦]. وأمتازت بصفة خاصة بالأقمشة ذات الخيوط الفضية والذهبية، وكانت تحصل على مايقرب من ٢٠ ألف

(١) Lane- pool, Op. cit, pp. 59-60.

(٢) Ibid. pp. 59-61.

(٣) Ibid. pp. 60-61

(٤) أرشيبالد - لويس، المرجع السابق، ص ٢٥٥ .

(٥) نفسه، نفس المرجع، ص ٢٥٤-٢٥٦ .

(٦) Le Strange, G, Bagdad under the caliphs, p.173.

إلى ٣٠ ألف دينارَ فى السنة مما كانت تصدره من تلك الأقمشة إلى العرق[1] ومن صناعتها ذات الشأن الأبسطة القرمزية اللون. وظهرت فى هذه الأثناء أيضاً صناعة الورق التى حلت محل البردى[2] وترجع أول وثيقة حكومية من الورق إلى عام ٩١٢م، كما ترجع آخر وثيقة حكومية من الورق البردى إلى عام ٩٣٥م[3] يضاف إلى هذا كله شهرة مصر فى ذلك الحين ببضاعتها الكثيرة وأسلحتها القوية، وتحفها الدقيقة المطعمة بالذهب والفضة والجواهر الثمينة.

على أن فارقاً مهما جعلت تجارة وادى النيل تختلف عن تجارة بلاد المغرب هو السلبية الواضحة التى كانت الخاصة الرئيسية للتجارة المصرية، فكانت تعمل فى نقل تجارة الأجانب أكثر من إشتغالها بتبادل التجارة لحسابها الخاص مع العالم الخارجى الأمر الذى أحال الاسكندرية إلى مخزن كبير لتجارة غرب البحر المتوسط فازدحمت بكثير من تجار المغرب والبندقية والقسطنطينية. وكانت الفرما (بورسعيد الحالية) الميناء الذى يستقبل تجار سورية وسائر أقاليم شرق البحر المتوسط. ويغلب أن تكون أحد أسباب السلبية المشار إليها هو حاجة مصر إلى الخشب مع إنها استوردت كميات كبيرة من الاسكندرونة ومن البندقية، وحاولت فى الوقت ذاته معالجة أخشابها المحلية لتجعلها صالحة لبناء السفن، وإن كان من المشكوك فيه القول بأنه كان كافياً لها. وعلى الجملة فقد تغلبت على مشكلة الأخشاب بشكل مُرض.

أما عن سورية وفلسطين فقد شاركت مصر فى رخائها رغم تأثر بعض بلاد تلك الأقاليم بالصراع الذى قام بين العباسيين والطولونيين والإخشيديين، وبين

(١) المقريزى، الخطط، جـ١، ص١٩٦-١٩٧ .

(٢) Mez Renaissance of Islam, pp.467-469.

(٣) ارشيبالد-لويس، المرجع السابق، ص٢٥٨ .

الأسرات الصغيرة الحاكمة فى دمشق وحلب وطرسوس. وقد إنتعشت طرابلس وبيروت وصور وسائر الموانى الساحلية الأخرى بسبب إعادة فتح البحر أمام التجارة الإسلامية. وهكذا عاد التجار السوريون إلى البحر ثانية، رغم أن مجال تجارتهم ظل أكثر محلية من مجال تجارة إخوانهم أهل المغرب الذين اتجهوا أول أمرهم إلى مصر والقسطنطينية[1] ويبدو أن الرخاء الصناعى والتجارى الذى شاهدته حلب ودمشق وبيت المقدس كان عظيماً جداً[2] وتؤيد الأرقام ماكانت عليه تلك البلاد من ثروة فى ذلك الحين، ففى عام ٩٠٨م بلغ دخل سورية ٣٨ مليون درهم (أى حوالى ٢ مليون دينار)؛ وذلك بعد دفع أجور الموظفين كافة[3]، ويقرب هذا الرقم إلى حد كبير من الرقم الذى بلغه دخل مصر زمن الطولونيين.

ونرى فى البلاد الاسلامية الواقعة غرب البحر المتوسط الإسلامى أحوالاً مماثلة لأحوال البلاد فى شرق البحر المتوسط. فقد تمتع الأندلس أواخر القرن التاسع ووطوال القرن العاشر الميلاديين/ الثالث والرابع الهجريين بإزدهار زراعى وتجارى وصناعى كبير، وهذه حالة تختلف إختلافاً كبيراً بالنسبة لما كانت عليه البلاد من كساد أواخر عهد القوط الغربيين وأوائل أيام المسلمين. وظلت الزراعة المجال للنشاط الإقتصادى. فالقمح هو أكثر المحاصيل اهمية وزيت الزيتون هو أكثر المحاصيل إنتاجاً، وكان أكثره يستهلك محلياً، والماشية والأغنام عديدة وفيرة، وأشجار الفاكهة تكاثر عددها، والنبيذ يصنع فى كل مكان، ويشربه الناس علناً، والارز وقصب السكر زراعة فى المناطق ذات المياه الوفيرة فى القسم الأدنى من

(١) عن قوة سورية في البحر، انظر اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص٤١٠ .

(٢) وعن تجارة سورية انظر : The Book of the prefectm, V.I

(٣) وراجع هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدني، جـ١، ص١٤٥-١٧٥ .

حوض نهر الوادى الكبير على مقربة من اشبيليه ومالقة[١] اما الكتان الذى كان يرزع فى إقليم البيرة، وكذا القطن الذى إزدهر قرب أشبيلية فإنهما كانا يصدران إلى شمال إفريقية، ويباعان هناك بأثمان مرتفعة[٢] واخذ تربية دود الحرير طريقها إلى الأقليم المحيط بجيان[٣].

ولم يهمل شأن الصناعة على نقيض ماكانت عليه حالها أيام القوط الغربين فاستغل ماهناك من حديد بين أشبيلية وقرطبة فى القسطنطينية وفريش[٤]، وإنتج الزئبق فى المدائن[٥]، والقصدير فى الغرب [٦]، والرصاص قرب قبرة، والفضة قرب مرسية[٧]، وبلغت صناعة النسيج شأناً بعيداً فصنعت الأقمشة الصوفية فى بكيران، والأبسطة فى حنجالة وقونكة، والكتان فى سرقسطة والحرير فى بسطة وقرطبة، كما إشتهرت هذه الأخيرة بخزفها الرقيق وتحفها الذهبية والفضة ومصنوعاتها الجلدية وذاع صيت طليطلة فى إنتاج السيوف، وإنتقلت صناعة الورق من الشرق إلى أسبانيا حوالى ذلك الحين.

وكان الأندلس حين ذاك بلداً عامراً بالمدن أكثر مما كان المغرب، وصارت قرطبة زمن عبد الرحمن الثالث من كبريات العالم الإسلامى، وشاع ذكر ماإشتهرت به من ثقافة وعلم وثروة، وكانت الجهات الأكثر أهمية والأكثر تقدماً هى الركن الجنوبى والجنوبى الشرقى؛ أى الجزء المواجه للبحر المتوسط؛ وهذا

---

(١) ياقوت، مادة أ، م.

(٢) أرشيبالد- لويس، المرجع السابق، ص٢٥٩-٢٦٠ .

(٣) نفسه، نفس المرجع والصفحات.

(٤) هايد، المرجع السابق، جا، ص ١٤٥- ١٧٥ .

(٥) نفسه، نفس المرجع والصفحات.

(٦) أرشيبالد، المرجع السابق، ص ٢٦٠ .

(٧) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

يبين أهمية تجارة البحر بالنسبة للأندلس[1] وربما ظفرت الأندلس مثلما ظفر شمال إفريقية بجانب من ذهب السودان، الذى جاء عبر طريق القوافل الغربية إلى سلجماسة والمغرب الأقصى[2]. وعلى أية حال فقد كانت أسبانيا من الغنى بحيث أمدت - حسبما يقول ابن حوقل[3] - عبد الرحمن الثالث بين عامى ٩١٢-٩٥١م بإيراد بلغ ٢٠ (عشرون) ألف دينار من الذهب، أى أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ ألف دينار سنويا. ولايمكن أن تعدل هذه الثروة العامة ثروات الفاطميين فى شمال افريقية، أو الطولونيين فى مصر أو حكام العباسيين فى سورية؛ ولكنها على أية حال ثروة عظيمة المقدار.

وعلى هذا يمكن القول أن آثار سيادة الاسطول الاسلامى على البحر المتوسط قد جددت حيوية كل من سورية ومصر، وجلبت الرخاء إلى الاندلس وصقلية الاسلامية وشمال افريقية وافاضت خيراً كثيراً على تلك البلاد من تجارة البحر وذهب بلاد السودان والنوبة. بل أكثر من هذا أن العملة الاسلامية صارت فى معظمها تعمل بالعملة الذهبية، أى إنتشار الدينار الذهبى شرقاً وغرباً، وصارت بلاد العالم الاسلامى من "تاجه" فى الغرب وحتى جزر الهند الشرقية مرتبطة تجارياً داخل وحدة إقتصادية واحدة، ففى حوالى عام ٨٠٠م كان الدينار الذهبى لايستخدم إلا فى مصر وسورية وشمال افريقية وبعض أجزاء من إيطاليا. ولكنه غدا حوالى عام ٩٥٠م نقداً دولياً دون منازع وإستخدم فى سائر العالم الإسلامى[4]. ففى أوائل القرن العاشر سك عبد الرحمن الثالث ديناراً

(١) المقريزي، جـ١، ص٣١١ .

(٢) ولحماية هذا الطريق، أرسل عبد الرحمن الثالث اسطوله ليطلع بالأمر سنة٩٣١ فى Ceuta.

(٣) ابن حوقل، ص ٧٣، ٧٥ .

(٤) Lompard, Op. cit, pp. 152-153.

اندلسياً على قاعدة الذهب لا الفضة التى جرى الأخذ بها كقاعدة للنقد أواخر أيام القوط الغربيين وأوائل حكم المسلمين فى الأندلس[١]. وقد إنتشر الدينار الذهبى الاسلامى فى الشرق اكثر منه فى الغرب خاصة فى العراق وإيران والمحيط الهندى بين جزيرة مدغشقر وساحل مليار[٢].

يضاف إلى ذلك أن وحدة العالم الاسلامى - إلى جانب وجود قاعدة الذهب الموحدة- كانت تتجلى فى الوحدة الاقتصادية بصورة ملموسة، وذلك فى شيوع إستخدام أساليب العالم الاسلامى (حكوماته) إقتصاداً مماثلاً من الاندلس إلى بلاد التركستان فنظام الجوازات المعمول به فى مصر والموروث عن الأمويين، ظل يستخدم زمن الطولونيين والاخشيديين، بل إنه إنتشر شرقاً حتى بغداد[٣] ويصدق القول أيضاً أن اشراف الدولة على الصادر والوارد، جعل التجار الأجانب يدفعون ١٠٪ على مايحملونه من بضائع وادى النيل، ويتسلمون مقابل ذلك ترخيصاً بالإقامة فى البلاد لمدة عام[٤].

ووجد مثل هذا النظام عند الفاطميين فى شمال أفريقية حيث كان لزاماً حتى على الحجاج الذاهبيين إلى مكة والمدينة أن يمروا بالقيروان، وأن يدفعوا للدولة عوائد خاصة من المال[٥] كما وضع الحكام المسلمون فى كل من الاندلس وبلاد المغرب القواعد الدقيقة لتنظيم الصناعة والاشراف عليها فى مدنهم[٦] وجعلوا للدولة نوعاً من الاحتكار على نمط ماعرف فى مصر.

---

(١) Ibid. pp. 153-154.

(٢) كان قبل ذلك يأتي الخراج من بلاد بابل وخوزستان وفارس نقداً.

(٣) ارشيبالد - لويس، المرجع السابق، ص٢٦١-٢٦٢ .

(٤) نفسه، نفس المرجع والصفحات.

(٥) Mezi Renaissance of Islam, p.41

(٦) Ibid. pp. 41-42

وهناك دليل آخر على الوحدة الاقتصادية فى الدولة الاسلامية خلال تلك الفترة (٨٢٧-٩٦٠م) إلا وهو تطور الأساليب المصرفية الدولية؛ إذ تقدمت أساليب أعمال البنوك كثيراً، وكان كبار رجال هذه الحركة المصرفية من أهل فارس أو منّ أهل البصرة بأرض العراق. وزاد تداول الحوالات وخطابات الاعتماد؛ ويرى ابن حوقل أن هذه الحوالات المسحوبة على رجال المصارف من أهل الشرق والقابلة للصرف ببلاد المغرب، قامت مقام النقود فى السودان فى القرن العاشر(١) ولكى تتصور مدى دولية هذا التصرف المالى، علينا أن ننظر إلى الجهات التى تنقل بينها رجال المال من سكان البصرة وأهل فارس إن هؤلاء ظهروا فى كل مركز متى مراكز التجارة فهم فى جدة عند نهاية طريق الحج، وهم فى سجلماسة ببلاد المغرب، وهم كذلك فى طرابلس (ليبيا) وبيروت ومصر(٢) .

ويمكننا أن نرى مثلاً آخر من أمثلة وحده العالم الإسلامى وذلك فى إنتشار نباتات المناطق الحارة وشبه الحارة ذات القيمة الإقتصادية على تطاق واسع فى سائر ديار الاسلام؛ وعلى الأخص فى أقاليم غرب البحر المتوسط؛ إذ جلب الليمون والبرتقال من الهند الى البصرة وسورية بعد عام ٩١٢م، ثم امتدت إلى طرسوس وأنطاكية وفلسطين ومصر(٣) وفى هذه الأثناء إتخذت دودة القز طريقها إلى الغرب حيث إنتقلت إلى سورية ثم صقلية والاندلس، ظهر قصب السكر والقطن فى بلاد المغرب والاندلس.

وهكذا فإنه يرجع الفضل للعرب أكثر مما يرجع للرومان فى إدخال حاصلات ذات قيمة إقتصادية إلى بلاد البحر المتوسط، وأقلمتها فى تربة هذه البلاد(٤) .

---

(١) Iba Hawkal Geog, pp. 42, 45, 70.

(٢) أرشيبالد، لويس، المرجع السابق، ص٢٦٣ .

(٣) أرشيبالد، لويس، المرجع السابق، ص٢٦٣ .

(٤) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

أما فى أواخر القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادى عشر الميلاديين (٩٦٠ / ١٠٤٣م) فإنه قد حدثت تغييرات على جانب كبير من الأهمية فى الشكل العام من حيث الحياة البحرية والاقتصادية، فقد استطاعت الخلافة الفاطمية بالقيروان، بعد محاولات فاشلة لأكثر من خمسين عاماً أن تتحرك صوب الشرق وأن تستولى على معظم ماكان يملكه الاخشيديون فى مصر وسرية والحجاز. بهذا إستطاع الفاطميون أن يربطوا القوة البحرية الاسلامية فى شرق المتوسط بالمحور البحرى فى وسطه؛ وهو المحور المتكون من شمال افريقية وصقلية وأصبحت الدولة الفاطمية فى مواجهة صريحة مع الدولة البيزنطية.

فعندما ترك المعز لدين الله الفاطمى عاصمة القيروان إلى القاهرة، عاصمة الجديدة، قسم ممتلكاته فى المغرب إلى قسمين: أولهما صقلية، وهذه ترك بها الاسرة الكلبية، وثانيهما شمال افريقية، وهذه ترك بها الأسرة الزيرية ثم اضيف إلى هاتين الأسرتين أسرتان غيرهما أوائل القرن الحادى عشر الميلادى، وهما الاسرة الحمادية التى استقلت بالجزائر إستقلالا ذاتياً، ثم أخرى تناوبت السيطرة على طرابلس من قبائل زناتة وصنهاجة. وفى أول الأمر لم يكن لهذه التقسيمات التى حلت بأملاك الفاطميين فى الغرب ولا للصراع الداخلى الناشب فيما بعد سوى أثر ضئيل على طبيعة القوى البحرية فى حوض البحر المتوسط.

ولم يختلف الحال فى بلاد الأندلس عنه فى بلاد المغرب، إذ أخذ سلطان الأمويين هناك ينهار بسرعة بعد وفاة المنصور بن أبى عامر، ووقعت الامارات الاسلامية المتنازعة فى خلافات، أفقدت الأندلس قوتها البحرية؛ هذا فى الوقت الذى أخذ فيه الغرب اللاتينى ينهض من فوضاه وإضطرابه اللذان ساداه منذ نهاية شرلمان.

وجملة القول أن العصر كان عصر إنتقال إذ أخذ النظام الاسلامى البحرى طريقة إلى الزوال بسبب حروبه مع البيزنطيين وأيضاً المدن التجارية الايطالية فى الوقت الذى أخذ البيزنطيين فى محاولة لإستعادة سيادتها من جديد، وظهور عدو جديد قد فاجأ المسلمين هم الغرب اللاتينى.

لقد بدأت ممتلكات المسلمين فى حوض البحر المتوسط تتساقط الواحدة تلو الأخرى، فمثلا نجد جزيرة كريت تنتزع من مصر عام ٩٦٠م وتمكنت بيزنطة من إستعادة قبرص عام ٩٦٣م، ولم يتمكن الاسطول الاسلامى الاخشيدى حماية تلك الممتلكات.

وكان ضعف القوة البحرية الاسلامية لم يكن قاصراً على ضياع ممتلكاتهم فى حوض البحر المتوسط بل كان له أثر كبير فى تحرك الجيش البيزنطى صوب قيليقية وإحتلها عام ٩٦٥م، وما أن حلت سنة ٩٦٨ حتى أصبح الطريق مفتوحاً أمام القوات البيزنطية فى سورية فسلمت المدن الداخلية مثل حماه وحمص، كما سلمت المدن الساحلية مثل طرسوس ومرقية وجبلة واللاذقية، وفى عام ٩٦٩م سقطت أنطاكية، ودفعت حلب الإتاوة المفروضة عليها. ولاح أن شمال سورية وسواحلها على وشك العودة إلى السيادة البيزنطية بعد مرور ثلاثة قرون، وفى خلال عشر سنوات (أى حتى عام ٩٧٩م) تنازلت القوى البحرية الإسلامية عن كريت وطرسوس ومصر ومعظم السواحل السورية للدولة البيزنطية التى إستعادت حيويتها من جديد.

بعد ماقام الفاطميون بحركتهم الكبرى صوب الشرق عام ٩٦٩م يؤيدهم جيش ضخم وأسطول كبير، تحت قيادة القائد جوهر الصقلى، فسقطت مصر فى

قبضته دون قتال يعتد به وأعقبتها فلسطين وجنوب سورية. ولم يلبث الحجاز أن إعترف بسلطان الفاطميين[1] وصار للخلفاء الشيعة أمر السيطرة على مكة والمدينة. وفى الوقت الذى حاول فيه الفاطميون جس نبض القوات البحرية البيزنطية تعرضت -اى الدولة الفاطمية- لحركات ومشاكل القرامطة الذين أعلنوا الحرب على الفاطميين، وتعاونوا مع المدن الساحلية السورية، وأمكنهم إلحاق الهزيمة بالأسطول الفاطمى قرب يافا. وأمام خطر القرامطة إضطر المعز لدين الله الفاطمى أن يقود جيشاً بنفسه إلى مصر قادماً من المغرب عام ٩٧٣م ليتولى إدارة الأمور بنفسه، هذا فى الوقت الذى أصبح فيه القرامطة على مشارف القاهرة - العاصمة الجديدة للفاطميين - وإستقرت الأوضاع فى الدولة الفاطمية خلال المدة من ٩٧٥، ٩٩٥م ولم تتعرض للتهديدات البيزنطية الأمر الذى دفع الفاطميين إلى ضرورة توجيه ضربة قاصمة للقرامطة فى ربيع الأول ٣٦١هـ/ ٩٧٣م حيث أبعدوهم حتى الأحساء.

كذلك كان للإسطول الفاطمى دور كبير فى إخماد ثورات المصريين والشاميين، وكانت أخطر هذه الثورات تلك التى وقعت أحداثها فى الشام وعرفت بثورة الملاح المعروف «بالعَلاقة» فى مدينة صور سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م فى خلافة الحاكم بأمر الله وقد إنتهى الأمر بسقوط صور فى أيد الفاطميين، وإستسلم الملاح وأرسل إلى القاهرة، وسلخ حياً ثم صلب وقتل أصحابه[2].

أما المعارك ضد البيزنطيين فكان لزاماً على الدولة الفاطمية بعد مد نفوذها إلى بلاد الشام أن تتأهب لمواجهة الخطر البيزنطى الذى كان يهدد

---

(١) المقريزي، إتعاظ الحنفا، جـ١، ص١٢٧ .

(٢) ابن القلانس، ذيل تاريخ دمشق، ص٥٠، ٥١، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٧، حوادث ٣٨٧ .

سواحل الشام ومصر، فعندما قام الامبراطور البيزنطى يوحنا تزمسكس بغزو الشام ٣٦٥هـ/ ٩٧٧م وإفتتح معظم بلاد الشام الشمالية، زحف إلى طرابلس، ولكنه لم ينجح فى الاستيلاء عليها، لمناعة أسوارها ومساندة الأسطول الفاطمى لها، مما إضطره إلى رفع الحصار عنها بعد أن تأكد لديه إستحالة النيل منها[١].

وفى سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م وقعت فى بحر الاسكندرية معركة بحرية بين الاسطول الفاطمى فى مصر والاسطول البيزنطى إنتهت بأسر سبعين من رجال البحر البيزنطيين، وطارد الاسطول الفاطمى باقى سفن الأسطول البيزنطى الفارين فى داخل البحر المتوسط. وعادت السفن المصرية الفاطمية وفى حوزتهم مائة أسير، وإحتفلت القاهرة بهذا النصر البحرى[٢].

وقد ذكر المقريزى أن غزاة البحر عادوا فى هذه السنة التالية (٣٨٤هـ/٩٩٤م) بمائتين وعشرين أسيراً طيف بهم فى شوارع القاهرة[٣] بعد غزوة قام بها الأسطول الفاطمى فى عرض البحر ضد قطع الأسطول البيزنطى وكان من نتيجة ذلك أن رفع الامبراطور البيزنطى باسيل الثانى حصاره عن طرابلس[٤].

ثم ساد بين الفاطميين والبيزنطيين منذ طليعة القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى سلام كان يقطعه بين الحين والحين نكث من جانب البيزنطيين، وعودة البيزنطيين إلى مهاجمة جزر الأرخبيل والسواحل الاسلامية، وظل الأمر كذلك إلى أن نزل الصليبيون ببلاد الشام.

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص٥٦ .

(٢) المقريزي، إتعاظ الحنفا، جـ١، ص٢٨٢ .

(٣) المقريزي، المصدر السابق، ص٢٩٠ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم، احمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الاسلامية، ص١٠٠ .

بعد هذا المجد الفاطمى فى بلاد الشام ومصر، بدأ الوهن منذ خلافة الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١- ٤٢٧هـ) حيث تمكن بنومرداس الكلابيين من تأسيس إمارة لهم فى حلب ثم ظهر الأتراك السلاجقة على مسرح الأحداث فى بلاد الشام وتمكنهم منذ سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م من إقتطاع عدد من مدن الشام، ومع ذلك ظل الفاطميون يحتفظون حتى تلك السنة بقواعدهم الساحلية هناك. بينما كانت بعض المدن الشامية من جانبها قد تخلت عن الاعتراف بالسيادة الفاطمية مثل القاضى ابو طالب حسين بن عمار الذى أعلن استقلاله بمدينة طرابلس سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م[١] وفى نفس العام اعلنت دمشق وصور وأكثر مدن فلسطين إستقلالهم عن الدولة الفاطمية ولم يبق لبدر الجمالى الذى قلده الخليفة المستنصر بالله الفاطمى على عكا وسواحل الشام سوى عكا وصيدا[٢] وقد أخفق بدر الجمالى فى إسترجاع صور بعد محاولات عديدة.

وفى سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م استولى إتز التركمانى على دمشق، وقطع الخطبة العلوية، وحاول دخول القاهرة ولكنه أخفق وعاد مهزوما فى رجب سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م[٣]. وترتب على إنتصار الفاطميين على السلاجقة عودة بعض مدن الشام وإعلان ولائها للفاطميين وأخفق بدر الجمالى فى محاولة لإستعادة دمشق.

وهكذا لم تأت عام ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م حتى كانت الدولة الفاطمية قد فقدت سلطانها من معظم سواحل الشام، وانحصرت قواعد الفاطميين البحرية فى عسقلان فقط، وأصبحت المركز الرئيسى الذى تخرج منه الأساطيل لغزو سواحل الشام.

(١) ابن القلانس، ذيل تاريخ دمشق، ص٩٧ .

(٢) نفسه، نفس المصدر، ص٩٨ .

(٣) ابو الفداء، المختصر في أخبار البشر، جـ٤، ص١٠٢ .

فى هذه الأثناء كانت أنباء الزحف الصليبى على سواحل الشام تصل تباعاً إلى السلطات الفاطمية فى القاهرة؛ ونظر الفاطميون إلى الصليبيين على أنهم حلفاء المستقبل ضد السلاجقة خصوم الفاطميين سياسياً ومذهبياً؛ لذلك تلكأوا فى مواجهتهم، وإن كان سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين فى ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٧م قد حرك سكون الأفضل بين بدر الجمالى للدفاع عن الكيان الفاطمى.

وبعد مناوشات بين الأفضل والقوات الصليبية، يبدو أنه تمكن من إسترجاع عكا سنة ٤٩٤هـ/ ١٠٩٩م وأقام عليها واليا من قبله هو «زهر الدولة الجيوشى»[١] كذلك نعتقد ان الأفضل إسترجع مينة صور واقام عليها والياً يدعى «عز الملك انوشتكين الأفضلى.

أما عسقلان فظلت تجاهد الصليبيين حتى سقطت بدورها سنة ٥٤٨هـ بعد حصار أحكمه الصليبيون عليها فى البر والبحر سبعة أشهر.

لكن ماهو أثر ماحدث من تغيير فى الأوضاع البحرية على الحياة الاقتصادية والتجارية فى عالم البحر المتوسط.

يمكننا القول أنه على الرغم مما أصاب الدولة الفاطمية من إضطرابات داخلية وتهديدات خارجية من قبل السلاجقة والصليبيين ومن قبلهم البيزنطيين، إلا أن هذا لم ينعكس بشكل عملى على الحياة الإقتصادية فى بلاد العالم الإسلامى بشكل سلبى بل نجد أن مصر مثلاً زمن الطولونيين والأخشيدين إرتفع مستوى نشاطها الإقتصادى تحت حكم الفاطميين؛ وبنيت القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية الجديدة قرب النيل وقال عنها المقدسى عام

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٨، ص٢٢١ .

٩٨٧م إنها أضخم وأهم مدينة فى شرق العالم الإسلامى[١] وفتن بسحر هذه العاصمة الرحالة الفارسى ناصر خسرو (حول منتصف القرن العاشر)، وتكلم هذه الرحالة عن حوانيتها التى تبلغ عشرين ألفاً - كلها ملك الحكومة - وعما يصنع بها من الأوانى الخزفية والزجاجية الفاخرة[٢].

إستمرت مصر محتفظة بأهميتها الزراعية والصناعية معاً، فأنتجت السكر والعسل بكميات وفيرة؛ وزرع الأفيون بكثرة فى أسيوط وكانت هذه المدينة مركزاً هاماً لصناعة المنسوجات الكتانية. وإشتهرت تنيس أيضاً بهذه الصناعات كما اشتهرت بالأقمشة الكتانية الملونة، وبصناعة كميات كبيرة من الأدوات القاطعة وأيضاً المقصات[٣] وإستمرت دور الطراز (المنسوجات الدقيقة) فى مصر مصدر الثروة كما ظلت مصانع الدولة تنتج الأقمشة الموشاه بالذهب والحرير العتابى المموج وسائر المنتجات الأخرى الفاخرة. ويبدو أن عمال هذه المصانع كانوا على جانب كبير من الرضا بأحوالهم بفضل ماأعطى لهم من الأجور الطيبة[٤].

حافظ الفاطميون فى مصر على إستمرار إشراف الدولة على الحياة الإقتصادية؛ وهذا الإشراف كان الطابع الملحوظ فى مصر منذ عهد البطالمة من ذلك الاحتفاظ نظام جوازات الإنتقال والسفر، والدقة فى جباية الضرائب ورقابة الأسواق حيث يجب أن تعرض جميع السلع[٥] ونظموا جماعات العبيد للبحث عن الذهب فى مناجم النوبة.

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٢١٧، وابن جبير، الرحلة، ص٦٢، ٦٣ .
(٢) Wiet, op.cit, pp. 303-304.
(٣) Wiet, Op. cit, pp. 307-308.
(٤) أرشيبالد- لويس، المرجع السابق، ص٣٢٦ .
(٥) المقدسي، المصدر السابق، ص٢١٩، ٢٢٣ .

أما فيما يتعلق بسورية وأوضاعها الاقتصادية فى هذه الفترة فقد كانت لاتقل رخاء عن مصر، على الرغم مما تعرض له الاقليمان -كما ذكرنا- من قلاقل داخلية وهجمات خارجية، إلا أن الزراعة والصناعة قد تقدمتا بهما، ودخلت إليهما (أى سورية وفلسطين) زراعة قصب السكر من الشرق فى تلك الفترة من تاريخ المسلمين فزرع القصب فى الجليل وفى جوار صور، وإنتجت نابلس ومعظم بلاد سورية أنقى أنواع زيت الزيتون[١] وذاعت شهرة دمشق بما انتجته من الأقمشة والأوانى النحاسية، كما أشتهرت الرملة وطبرية بأقمشتها ذات الألوان المتعددة، أما الورق فإنه صنع بدمشق وبعض المدن الأخرى بسورية[٢].

ونجمت تجارة الشام مع الشرق والجنوب، وغدت عدن (فى اليمن) ميناء رئيسيا لكل تجارة المحيط الهندى الذاهبة إلى بلاد الهند والصين[٣] ونشطت حركة التجارة عبر البحر الأحمر إلى بلاد الحبشة وزنجبار[٤] وإستخدم كثير من حجاج المسلمين هذا الطريق البحرى، فكانوا ينزلون بثغر جدة فى طريقهم إلى مكة والمدينة، وليس ثمة دليل على استخدام القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر فى ذلك الحين. وكان الطريق الرئيسى للحجاج والتجارة يسير إلى عيذاب، ومنها براً إلى أسوان، ومن هذه عن طريق اليل إلى القاهرة والاسكندرية.

وازدهرت تجارة البحر المتوسط مع سورية ومصر، وصارت الاسكندرية علاقات تجارية مع صقلية والقسطنطينية. وتردد على مدينة طرابلس كثير من

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٢٧ .
(٢) نفسه، نفس المصدر والصفحة.
(٣) أرشيبالد- لويس، المرجع السابق، ص ٣٢٧ .
(٤) Weit, Op. cit, pp. 169-170 .

التجار الأجانب الوافدين من بيزنطة والأندلس وصقلية وبلاد غرب أوربا[1] وكان أكثر تجار غرب أوربا مع الفاطمين، البنادقة وأهل أمالفى. وقد أمد البنادقة الفاطميين بالحديد والسلاح وخشب السفن، وحملت سفنهم فى عودتها من مصر، التوابل والمنسوجات وسائر المنتجات الفاخرة[2].

نشطت التجارة كذلك بين العراق وايران وبين سورية بوجه خاص، وكانت شيلان العمائم المصنوعة فى تنيس تصدر إلى أسواق إيران[3] وقد منعت الدولة الفاطمية تصدير الأقمشة الدقيقة من مصر إلى بغداد كجزء من الحرب الاقتصادية التى أثاروها ضد منافسيهم العباسيين فى بغداد.

وأن العمائر الكثيرة الرائعة التى انشأها خلفاء الفاطميين فى مصر والثروة المذهلة التى إحتوتها خزائن المستنصر بالله - قبل أن يلحق بها الخراب الذى أصاب القاهرة سنة ١٠٦٧م - كل ذلك يوضح عظيم الثروة التى تمتعت بها مصر فى ذلك الحين[4] كما يوضحه أيضاً حساب جزية الرءوس المقررة على سكان البلاد من المسيحيين؛ ففى القرن التاسع زيدت ضريبة الرأس إلى نصف دينار؛ فسبب هذا الكثير من التزمر كما حدث فى تنيس عام ٨١٥م.

أما عن الأوضاع التجارية الاقتصادية فى شمال أفريقية زمن الزيريين، فهى لا تختلف إلا إختلافاً يسيراً عما كانت عليه الحال فى مصر؛ فابن خلدون يقول «وإستمر ملك المعز بن باديس بأفريقية والقيروان، وكان أضخم ملك عرف

---

(١) البكرى، ص٣٠، ٩٧، ١٧١ .

(٢) أرشيبالد، لويس، المرجع السابق، ص٣٢٨ .

(٣) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

(٤) Lan- poole, Egypt, pp, 147-148 .

للبربر لأفريقية وأترفه وأبذخه»[١] . وثمة براهين أخرى يذكرها ابن حوقل[٢] أواخر القرن العاشر، والبكرى[٣] فى القرن الحادى عشر الميلادى؛ تؤكد ماذهب إليه بن خلدون.

ففى تلك الفترة الزمنية (العصر الفاطمى) ظل شمال افريقية وفير الانتاج من الناحية الزراعية، وكانت الحبوب هى المحصول الأساسى هناك؛ وإنتشرت زراعتها حول «باجة» كما غطت أشجار الزيتون أرض الوديان الواقعة غرب القيروان بين تونس وصفاقس؛ وكانت القيروان ذاتها فى وسط هذه الزراعات المنتشرة، وصار التمر وقصب السكر من أهم حاصلات الواحات بإقليم الجريد فى الجنوب، وزرع الموز وقصب السكر فى قابس، والقطن فى هدنة وجهات أخرى، والنيلة فى شنوب والزعفران فى قرطاجة والمدن الداخلية.

وحفلت الصناعة بتقدم يفوق ماحفلت به الزراعة فى ذلك الوقت ذاته؛ وإشتهرت مدن مثل قابس وصفاقس وسوسة والقيروان بما أنتجته من أنواع المنسوجات[٤] وصنعت قرب قفصة نوع خاص من النسيج يسمى «الكساء الطراقى» كان يصدر أيضاً إلى مصر[٥] وفى تونس صنعت أنواع فاخرة من الأوانى الخزفية؛ وكانت زويلة وكبره وبجاية مراكز هامة لصناعة الزجاج[٦] ووضحت الأوانى النحاسية فى نواح متعددة هناك.

وغدت القيروان أهم مدينة تجارية بالإضافة إلى عظم أهيمتها من الناحية

(١) انظر: ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٦، ص ١٥٨ .
(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص٤٤، ٥٢، ٧٢ .
(٣) البكرى، ص٢٠، ١٥٩، وراجع أيضاً ابن خلدون، نفس المصدر.
(٤) المقريزي، إتعاظ الحنفا، جـ١، ص٣١١ .
(٥) أرشيبالد- لويس، المرجع السابق، ص٣٣٠ .
(٦) المقريزي، المصدر السابق، ص٣١١-٣١٢ .

الصناعية. وقد وضعها المقدسى بين عواصم العالم مع برقة وقرناه وسلجماسة؛ وبلغت المكوس المحصلة عند أبوابها ٢٦٠٠ درهم فى اليوم الواحد. وصدرت صفاقس زيتها إلى مصر وصقلية وأوربا وإلى جهات من شمال أفريقية، وتاجرت المهدية على نطاق واسع مع مصر وسورية[١] أما طرابلس التى كانت على رأس إحدى الطرق الهامة المؤدية إلى السودان، فكانت مركزاً لتجارة الرقيق من الزنوج والأوربيين معاً؛ ومنها كانوا يرسلون إلى أسواق الشرق الإسلامى[٢].

ويذكر المقدسى أن جزيرة صقلية الإسلامية كانت من اهم مراكز التجارة فى العالم الإسلامى؛ وكانت زراعتها مزدهرة وكذلك صناعتها، وانتشرت فى الجزيرة زراعة القطن والزعفران والقنب، واستخرجت أملاح النشادر بكميات وفيرة فى إقليم أتينا وبعض جهات أخرى[٣]. واستخرجت أيضاً كميات من الفضة والحديد والرصاص والزئبق والكبريت والنفط وكانت توجد بكميات غير قليلة فى الجزيرة[٤].

أما بلاد الأندلس، فقد تمتعت هى الأخرى برخاء مماثل لما ذكرناه فى شمال أفريقية ومصر وسورية وغيرها، فقد زادت ثروتها بعد وفاة عبد الرحمن الثالث حتى لقد بلغ دخل (الحكم الثانى) ضعف دخل ابيه. وظل ذهب السودان يتدفق عليها من سبتة عبر المغرب الأقصى، مما زاد فى إزدهار الحياة الإقتصادية بها، على نحو ما حدث فى دولة بنى زيرى بشمال افريقية؛ وغدت تجارة الأندلس مع شواطئ افريقية وشرق البحر المتوسط على جانب كبير من الأهمية. ومن

(١) البكرى، ص ١٥٩، ١٧١ .

(٢) آرشيبالد - لويس، المرجع السابق، ص٣٣١ .

(٣) نفسه، نفس المرجع والصفحة.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجلد (١).

الناحية الإقتصادية، لم يتأثر الأندلس كثيراً بسبب القلاقل التى صاحبت سقوط قرطبة أوائل القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى؛ إذ ظل ملوك الطوائف على جانب كبير من الغنى والتمدن[1]. وتأثر المغرب الأقصى بحضارة الأندلس إلى حد كبير.

ومن وجهة النظر الإقتصادية يمكن القول أن تلك الفترة من تاريخ العالم الإسلامى خاصة تلك الدول والأقاليم المحيطة بالبحر المتوسط والأحمر كانت إستمراراً للفترة السابقة عليها والممتدة من (٨٢٧-٩٦٠م) بل أن هذه الفترة الفاطمية شهدت توسعاً كبيراً؛ إستكمالاً لتطورات ترجع مبادؤها إلى الفترة السابقة.

أما طوال القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى، وبعد تعرض بلاد لشام ومصر ومنطقة الشمال الإفريقية للعدوان الصليبى فإنه يمكن القول أن حالة التشرزم الإسلامى، وظهور أكثر من خليفة فى شمال افريقية وتهديد المغول للمشرق الإسلامى عند نهاية القرن الثانى عشر الميلادى، يبدو الأمر واضحاً أن مركز التجارة والحكم والإدارة إنتقل إلى أيدى أجنبية من أوربا الغربية ممثلاً فى الصليبين، ثم المغول بعد ذلك مع بدايات القرن الثالث عشر الميلادى ممثلاً فى المغول، أقول تبدو الأمور واضحة فى إنتقال التحكم فى إقتصاديات البلدان الإسلامية المذكورة إلى هؤلاء الأجانب الذين استغلوها لصالحهم بطبيعة الحال، وأن أفضل ما تناول هذا الموضوع المؤرخ الفرنسى، هايد، الذى ترجم إلى أربعة أجزاء تحت عوان «تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى

(١) إقرا عن إزدهار الأندلس في القرن الحادي عشر الميلادي وإنتعاش الزراعة فيها في Ibn Al-Awan, Le Liure de L'Agric. Paris, 1864-7,3 Vols.

فى العصور الوسطى، وأذكر ذلك لأننا سوف نتخطى هذه الفترة الزمنية التى تصل إلى نحواً من القرنين من الزمان (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين) وذلك حتى قيام دولة المماليك الإسلامية ١٢٩١م.

وعلى هذا، نقول أنه عندما قامت الدولة الأيوبية المجاهدة (٥٦٤-٦٤٨هـ/ ١١٦٩-١٢٥٠م) على أنقاض الدولة الفاطمية فى مصر والشام، كانت البحرية العربية الإسلامية تعانى من ضعف كبير بعد إستيلاء الصليبين على عسقلان وصور وعكا وغيرها من القواعد البحرية فى بلاد الشام، وامتدت غاراتهم إلى المدن الساحلية المصرية كالإسكندرية ودمياط وتنيس ورشيد، مما دفع الملك النصار صلاح الدين منذ بداية حكمه إلى محاولة إحياء البحرية العربية الإسلامية كسلاح مضاد للعدوان الصليبى وقام فى سبيل تقويتها بعدة إصلاحات داخلية منها:

أولاً: جعل للبحرية ديواناً خاصاً للإنفاق عليها عرف بإسم ديوان الأسطول، وجعل عليه صديقاً له يتولى مهام الإنفاق على الإسطول والإشراف على بنائه.

وفى عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، عين صلاح الدين أخاه العادل رئيساً عاماً لديوان الاسطول، ثم قام هذا بدوره بتعين صفى الدين بن شاكر نائباً له فى ذلك الديوان[١].

ثانياً: خصص صلاح الدين أموالاً ضخمة وهى متحصلات إقليم الفيوم والحبس الجيوشى وخراج السنط، وحصيلة النطرون، وجانباً من متحصلات

(١) أبو شامة، الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جـ١، ص٢٦٩، وراجع: حسنين محمد ربيع، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، ص٧١ .

الزكاة وأجرة المراكب الديوانية وإقليم البهنسا بمحافظة المينا الحالية[1].

ثالثاً: اعتمد صلاح الدين على الخشب المحلى فى مصر، وخشب الأرز والصنوبر من الشام. كذلك عقد معاهدات تجارية مع إيطاليا لهذا الغرض.

رابعاً: منع صلاح الدين التجار من التعامل مع البلاد المسيحية فى المواد الحربية وأصدر مرسوماً بذلك.

خامساً: اهتم صلاح الدين بتقوية الحراسة الساحلية مثل الرباطات والمحارس والمناور والمناظر بطول سواحل مصر والشام؛ وجعل على حراستها بعض الأمراء والحراس[2].

سادساً: أمر صلاح الدين ببناء أسوار وأبراج فى المدن الساحلية كالإسكندرية ودمياط وتنيس، وأمر بحفر الخنادق حولها.

سابعاً: حرص صلاح الدين على رفع أجور رجال الاسطول لتحسين حالهم، فقرر أن يكون دينار الاسطول ٣/٤ الدينار العام، كما استخدم الملاحين المغاربة فى أساطيله نظراً لإختصاصهم.

ثامناً: عمل صلاح الدين على بث روح الحرب والجهاد فى نفوس المسلمين وتهيئة عقولهم لهذا الواجب المقدس عن طريق المدارس العديدة التى أنشأها.

وبعد عشر سنوات قضاها الاسطول الأيوبى فى إعداد وتدريب قام الاسطول الأيوبى بثلاث عمليات ناجحة ضد العدو الصليبى، الأول: كانت غارة على السواحل البيزنطية سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، وعلى الإمارات الصليبية بالشام.

(١) المقريزي، المصدر السابق، جـ١، ص٧٣ .

(٢) السيد عبدالعزيز سالم، أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص٢٧٤ .

والثانية: كانت معركة بحرية مع سفن العدو بنواحى مدينة بانياس فى شمال الشام[١]. أما العملية الثالثة فكانت غارة بحرية مصرية على ميناء عكا، التى كانت تعرف عند بعض المؤرخين «بقسطنطينية الفرنج ودار كفرهم» فى بلاد الشام[٢].

وفى سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م، هاجم الاسطول المصرى جزيرة أرواد واستولى عليها، ثم توجه إلى انطرطوس وخرب مبانيها وأشعل النار فيها[٣].

وحقق الاسطول الأيوبى عدة إنتصارات أخرى على سفن العدو كانت قادمة من إيطاليا سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م، ثم غارة على بيروت سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م وأخرى على جزيرة كريت وقبرص وثالثة على السواحل الجنوبية لأسيا الصغرى، وغيرها.

وكل هذه الإنتصارات سالفة الذكر كانت توضح نشاط الاسطول المصرى ضد قوافل العدو وقواعده البحرية خلال السنوات العشر التى سبقت واقعة حطين ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ.

وإلى جانب هذا النشاط البحرى من جانب صلاح الدين حرص أيضاً على وحدة المسلمين المهلهلة فى الشرق والغرب، وقد نجح إلى حد كبير فى تجميع قوى الشرق الإسلامى حتى اليمن جنوباً.

وكانت نتيجة هذا المجهود الحربى (البحرى والبرى) من جانب صلاح

(١) أبو شامة، الروضتين، جـ٢، ص٩ .

(٢) نفسه، نفس المصدر، جـ٢، ص١٣-١٤ .

(٣) الباز العريني، مصر في عصر الأيوبيين، ص. ١٢٤ وراجع السيد عبد العزيز سالم، والعبادي، المرجع السابق، ص٢٧٨ .

الدين أن أنزل ضربة قاضية بالعدو الصليبى فى بلاد الشام أجلاه عن ممتلكاته خاصة فى بيت المقدس، وجعله محاصراً فى عكا وفق شروط أملاها على قادة الحملة الصليبية الثالثة والأمراء الصليبيين، وكان ذلك بعد إنتصار حطين مباشرة، وعرف هذا الصلح بصلح الرملة سنة ١١٩٢م/ ٥٨٨هـ. وظل الحال كذلك حتى وفاة صلاح الدين الأيوبى فى العام التالى للمعاهدة (صلح الرملة) سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م ودفن فى دمشق حيث كان موجوداً يجهز الجيوش ويعد العتاد لإجلاء باقى اللاتينيين من بلاد الشام(١).

وإذا كانت السيادة أصبحت لأوروبا منذ عام ١١٠٠م فمن وجهة النظر البحرية أصبحت لغرب أوروبا وسفنه السيادة على معظم جهات البحر المتوسط فيما بين شاطئ الأندلس وسوريا. ووقعت فى حكم شعوبه القواعد البحرية التى مكنت أساطيله من أن يكون لها أثر فعال. وغدت مدن إيطاليا بالذات مراكز الوساطة الكبرى فى التجارة بين الشرق والغرب. وأعاد الإيطاليون على نطاق واسع سير التجارة إلى طريق حوض الرون مع بقاء ممرات الألب محتفظة بأهميتها، ونشطت الحياة الإقتصادية على طول الشواطئ الممتدة بين برشلونة وبين مصب نهر التيبر، وربطت التجارة العابرة لهذا الإقليم نحو الشمال كلاً من فرنسا وبلجيكا وإنجلترا ربطاً محكماً بالبحر المتوسط وأصبح الشرق الإسلامى البيزنطى إقليماً سلبياً من وجهة النظر التجارية، بينما أصبح الغرب العامل التجارى الفعال وغدا غرب أوروبا سيد الموقف، والآمر الناهى فى حوض البحر المتوسط بينما إنتقلت دول المسلمين والبيزنطيين - أصحاب السيادة السابقة - إلى مركز ثانوى. وهكذا وضعت الأسس الإقتصادية التى تقوم عليها الحضارة

(١) أبو شامة، المرجع السابق، جـ٢، ص٢١٥ .

فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر والتى مهدت للسيطرة التى اكتسبتها أوروبا الحديثة الغربية منذ ذلك الحين فى الشئون البحرية والإقتصادية والصناعية والتجارية.

وما حل عام ١١٠٠م إلا وكانت أوربا الغربية التى كونتها الكنيسة اللاتينية والأسرة الكارولنجية قد بلغت أخيراً مرحلة الرشد.

على أننا لا يصح أن نتصور أن إنتصار غرب أوروبا عام ١١٠٠ كان كاملاً ونهائياً. فقد شاهد القرن التالى (الثانى عشر) ثلاث صحوات أو ثلاث انتفاضات أكيدة فى ثلاثة من مراكز القوى البحرية والإقتصادية السابقة فى عالم البحر المتوسط، فقد استجمع المسلمون فى الغرب قواهم من جديد وأنشأوا دولة أندلسية إسلامية متحدة هى دولة المرابطين، ثم دولة الموحدين، وفى أيام هاتين الدولتين أعاد الأندلس والمغرب والجزائر بناء الأساطيل، وتخلص شمال إفريقيا وجزر البليار من النفوذ الأوروبى، وحصلت هذه الأقطار جميعاً من جديد على قدر كبير من الرخاء الإقتصادى. وبلغت الحضارة فى هذا الوقت بالذات أرفع مستوياتها فى الأندلس وشبيه بهذا ما حدث فى مصر وسورية اللتين إتحدتا تحت زعامة صلاح الدين وأصبحتا دولة عظيمة الرخاء قوية السلطان، وأصبح جيشها - كما ذكرنا - قادراً على طرد الصليبيين من الداخل وحصرهم فى سواحل فلسطين وسوريا. وإذا كانت مملكة صلاح الدين الأيوبى - فيما هو محتمل - المستوى العقلى الرفيع الذى بلغه المسلمون فى الأندلس فإن حضارة مصر وسورية على أية حال كانت رفيعة جداً.

على أنه يجب أن نلفت النظر إلى أن القوة البحرية والإقتصادية للأيوبيين فى مصر والمرابطين والموحدين فى الأندلس كانت محلية فى طبيعتها ولا جدال

فى أن هذه القوى الثلاث فى ظل عنفوانها من الناحية الحضارية، ولكنها لم تهدد بصفة جدية سلطان غرب أوروبا وسيادته على البحر المتوسط وتجارته، بل إن الذى نافس بيزا وجنوة والبندقية منافسة يعتد بها كانت المراكز البحرية الجديدة فى الغرب أمثال برشلونه ومونبلييه ومرسيليا. وصارت بعد عام ١١٠٠م أنفذ منافسة بين البيزنطيين ومسلمى الأندلس ومصر. على أن هذه المراكز البحرية والتجارية الجديدة لم تزحزح السفن الإيطالية والتجار الإيطاليين عن السيطرة على البحر المتوسط، فظل أهل بيزا وجنوة والبندقية حتى سنة ١٥٠٠م على ما كانوا عليه فى سنة ١١٠٠، أى أصحاب النصيب الأوفر من ملاحة البحر المتوسط وتجارته، ولم يتأثر مركزهم هذا إلا فى القرن السادس عشر الميلادى عندما إنتقل الزمام من أيديهم إلى الأسبان والبرتغاليين والفرنسيين والإنجليز والهولنديين.

وهذا يؤكد لنا على الرغم من إنتعاش الحياة الإقتصادية فى دولة المماليك فى مصر والشام فإن الأصل فيها لا يرجع إلى النشاط التجارى فى تلك البلاد ولكن فى الحقيقة إلى فرض الضرائب الباهظة على الأهالى بشكل فاق التصور كذلك إنتقال التجارة عبر البحر الأحمر وخليج السويس ثم إلى الشام أو القاهرة، وما كانت تجنيه من رسوم جمركية على هذه التجارة بين الشرق والغرب كانت فى الحقيقة مصدر الثروة فى دولة المماليك، هذا إلى جانب ما كانت تتمتع به مصر والشام من موارد داخلية زراعية كانت أو معدنية او صناعية. غير أن تلك الموارد كانت توجه فى واقع الأمر إلى جهتين أساسيتين هما: إما لتجهيز وإعداد الجيش الذى يقع على كاهله مواجهة خطر المغول والصليبيين من جهة وإخماد الثورات التى كانت تقع فى صفوف الجيش أحياناً طمعاً فى الوصول إلى مراكز

قيادية[1]، ونظراً لأختلاف الأجناس والعناصر (التركية والفارسية) أو كان المماليك مبهورين بالجانب المعماري والفنى فقد إهتموا بهذا الجانب فى حياتهم بشكل ميز دولتهم على غيرهم من الدول الإسلامية[2]. وإن كانت حياتهم قد إنصرفت إلى البزخ والترف والنعيم فى غير موضعه.

وربما من الأمور الملفتة للنظر أن دولة المماليك يمكن إعتبارها من الدول التى امتلكت جيشاً قوياً استطاع أن يدرأ الخطر عن المسلمين فى المشرق الإسلامى، هذا الخطر الذى تجشم على أيدى المماليك كان أحدهما قد زاع صيته وملأ الدنيا هلعاً وهم المغول، وخطر الصليبيين الذى ظل جاثماً على الأراضى الإسلامية فى مصر والشام وبعض أطراف العراق وهم الصليبيين. وبإنتهاء خطر الإثنين إتجه المماليك إلى الفنون والعمارة فى داخل البلاد.

(١) د. عبد اللطيف عبد الهادي السيد، موسوعة التاريخ الإسلامي، جـ٨.

(٢) نفسه، نفس المرجع، جـ٩، الفصل الخاص بالفنون والعمارة لهذا الكتاب.

الفصل السابع

الحضارة الإسلامية وأثرها
في
الحضارة الغربية

الفرق بين الحضارة الاسلامية والغربية:

عندما ترك لنا نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه هذا الميراث الروحى الذى أظل العالم؛ ووجه حضارته عدة قرون مضت؛ بل سيظل دئماً يظل العالم ويوجه حضارته حتى يتم الله نوره فى الكون كله؛ وديمومة هذا الدين الحنيف ستظل إلى الأبد؛ ولا تنمحى آثاره بل تزداد فى كبرياء وشموخ حتى ولو كره الكافرون؛ لسبب بسيط وهو أنه أقام دين الحق ووضع أساس حضارة هى وحدها -وليس غيرها- كفيلة بسعادة العالم. والدين والحضارة الذى بلغهما محمد ﷺ للناس بوحى من الله ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى﴾ حتى يتزاوجان حتى لا انفصال بينهما. ولئن قامت هذه الحضارة الإسلامية على أساس من قواعد العلم والعقل؛ و إستندت فى ذلك إلى ما تستند إليه الحضارة الغربية فى عصرنا الحاضر؛ ولئن إستند الإسلام من حيث هو دين إلى التفكير الذاتى؛ وإلى المنطق التجريدى (الميتافيزيقى) ؛ فإن الصلة مع ذلك وثيقة بين الدين ومقرراته والحضارة وأساسها. ذلك بأن الاسلام يربط بين التفكير المنطقى والشعور الذاتى، وبين قواعد العقل وهدى العلم، برابطة لا مفر لأهله من البحث عنها والإهتداء إليها ليظلوا مسلمين راسخ إيمانهم؛ وإن كان حال المسلمين اليوم فى وضع لا يحسدوا عليه، فإن ذلك مرجعه تخلى المسلمين عن هذه المبادئ وتلك الأسس القوية، ولكن لابد - بمشيئة الله - من صحوة لإعادة مجد الإسلام والمسلمين الأول. وحضارة الإسلام تختلف عن الحضارة الغربية من هذه الناحية المحتكمة اليوم فى العالم؛ كما تختلف عنها فى الحياة وتصويرها والأساس الذى يقوم هذا التصوير عليه. وهذا الإختلاف بين الواحدة والأخرى من هاتين الحضارتين جوهرى إلى الحد الذى يجعل أساس كل واحدة منهما نقيض الأساس الذى تقوم

عليه الأخرى.

ويرجع هذا الإختلاف إلى أسباب تاريخية أشرنا إليها فى الجزء (الكتاب) الثانى من هذه الموسوعة الإسلامية، ذلك أن النزاع فى الغرب الأوروبى المسيحى بين السلطتين الدينية والزمنية[1]. وبعبارة هذا العصر بين الكنيسة والدولة[2]. إلى الفصل بينهما وإلى إقامة سلطان الدولة على إنكار سلطان الكنيسة، وكان لهذا التنازع على السلطان أثره فى التفكير الغربى وفى مقدمة النتائج التى ترتبت على هذا الأثر ما كان من تفريق بين الشعور الرنسانى والعقل الإنسانى، وبين منطق العقل المجرد ومقررات العلم الواقعى المستندة إلى الملاحظة المادية.

فكرة النظام الإقتصادى فى الحضارة الأوروبية:

وكان لإنتصار التفكير المادى أثره البالغ فى قيام النظام الإقتصادى كأساس للحضارة الغربية، وترتب على ذلك ظهور مذاهب شتى فى الغرب تريد أن تجعل كل شئ فى عالمنا خاضعاً لحياة هذا العالم الإقتصادية - المعروف اليوم فى عالمنا المعاصر «نظام العولمة» - وهو درب من دروب الاستعمار الحديث من أجل الهيمنة على شعوب العالم، ولكن فى ثوب جديد قد ينخدع به كثير من الدول خاصة الدولة النامية التى لا تجد لها مكاناً فى ظل هذا النظام بل تسير وفق إرادته ومشيئته حتى لا يمكنها أن تقلع عن هذا النظام الظالم أهله وناسه. كذلك أراد غير واحد من أصحاب هذه المذاهب الغربية أن يضع تاريخ الإنسانية فى أديانها وفنها وفلسفتها وتفكيرها وعلمها بوحى ما كان من مدّ أو جزر إقتصادى فى أممها المختلفة، وأيضاً ما نعرفه اليوم بالغزو الثقافى الذى دمر القيم الإنسانية والروحية، وصارت دول العالم النامية وكأنها لا تعرف لها هوية أو شخصية متميزة

(١)، (٢) د. رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، ٤ أجزاء، القاهرة.

فالكل صار تحت شعار «العالم قرية صغيرة» أى قرية هذه اختلط فيها الحابل بالنابل وإنداست القيم والأخلاق الحميدة بالأقدام ولعل الذى أدى بنا الوصول إلى هذه الحالة المتدنية يرجع فى المقام الأول إلى تخلى المسلمين -كما ذكرنا - عن أسس ومبادئ الدين الإسلامى من جهة ثم أن الحياة الإقتصادية الغربية قامت على أسس نفعية مادية بحتة ومع ما بلغته هذه المذاهب من براعة فى التفكير وقوة فى الابتكار غير أن الذى تحكم فيها تلك المنفعة المادية المشتركة تقيم عليها قواعد الخلق جميعاً وترى ذلك فى المقتضيات المحتومة للبحث العلمى. فأما المسألة الروحية فهى فى نظر الحضارة الغربية مسألة فردية صرفة، فلا محل لأن يعنى الناس انفسهم جماعة بها. ومن ثم كانت الإباحة فى العقيدة بعض ما قدسه أهل الغرب، وكانوا أشد تقديساً لها من تقديسهم الإباحة فى الخلق وهم أشد تقديساً للإباحة فى الخلق من تقديسهم لحرية الحياة الإقتصادية المقيدة بالقانون تقيداً ينفذه الجندى وتنفذه الدولة بكل ما أوتيت من قوة، بل أن تلك الإباحية التى نجح هذا الغرب (الكافر) فى بثها إلى المجتمعات الإسلامية بدعوى «حرية الإنسان» فالحرية الدينية عندهم حرية فردية، والإنسان عندهم له الحق فى إفساد حياة نفسه وبالتالى حياة المجتمع؛ وهى صورة يعانى منها اليوم المسلمين والإسلام فى شتى بقاع الأرض خاصة فى قلب العالم الإسلامى.

معنى هذا أن حضارة الغرب التى قامت على أسس إقتصادية بحتة وتربط سعادة الإنسان وقواعد أخلاقه بالحياة الإقتصادية على نحو ما أسلفنا فإنها تكون مخطئة أشد الخطأ لأنها لا تقيم للعقيدة وزناً فى الحياة العامة، وبالتالى فلا يمكنها أن توفر للإنسان حياة كفيلة بسعادته وإستقراره، بل أن هذا التصور

للحياة لجدير أن يجعل كل تفكير فى منع الحرب وفى توطيد أركان السلام فى العالم أمر غير ممكن وغير مجدى أو مثمر بل على العكس يجر على الإنسانية ما تعانيه من محن فى هذه العصور الأخيرة. فما دامت صلتى بك أساسها الرغيف الذى تأكله أنت أو آكله أنا وتنازعنا عليه وناضلنا فى سبيله قائمة بذلك على أساس الشهوة الحيوانية (الجسدية) فى كل منا فسيظل كل منا يرقب الفرصة التى يحسن فيها الإحتيال للحصول على رغيف صاحبه، وسيظل كل منا ينظر إلى الآخر على أنه خصمه لا على أنه أخوه وسيظل الأساس الخلقى الكمين فى النفس أساساً حيوانياً بحتاً، وإن ظل كميناً حتى تدفع الحاجة إلى ظهوره، وستظل المنفعة وحدها قوام هذا الأساس الخلقى على حين تنزلق عليه المعانى الإنسانية السامية والمبادئ الخلقية الكريمة، مبادئ الإيثار والمحبة والأخوة - مبادئ الإسلام- فلا يكاد يمسكها ولا تكاد تعلق به.

وما هو واقع فى العالم اليوم من قصور فى العالم الإسلامى ووقوعهم فى فلك الهيمنة الغربية وعدم قدرتهم على التحرر من هذه القيود التى قد نعرف بعضها معلناً من خلال الوسائل الإعلامية المرئية والمقروءة والمسموعة وما يخفى علينا من تدخلات فى شئون الحكومات الإسلامية وفرض شروطهم وإملاءاتهم عليهم فى الخفاء هو خير مصداق عملى لما أذكره. ذلك أن التنافس والنضال فى العصر الحالى هما المظهر الأول للنظام الإقتصادى الجشع وهما لذلك أول مظهر لحضارة الغرب والولايات المتحدة الأمريكية، وهما كذلك فى المذهب الفردى وفى المذهب الإشتراكى على السواء. ففى المذهب الفردى مثلاً ينافس العامل العامل، وينافس رب المال رب المال، والعامل وصاحب المال فى هذا النظام خصمان يتنافسان. وأصحاب هذا المذهب يرون فى هذا التنافس وهذا النضال كل

خير للإنسانية وتقدمها!! فهما عندهما الحافز للإتقان والحافز لتقسيم العمل وهما المعيار العادل لتوزيع الثروة. أما المذهب الإشتراكى فيرى فى نضال الطوائف نضالاً يفنيها جميعاً حتى يرد الأمر كله للعمال بعض ما تحتمه الطبيعة. ومادام التنافس والنضال على المال هما جوهر الحياة، ومادام النضال بين الطوائف طبيعية فالنضال بين الأمم طبيعى كذلك وللغاية التى يقع من أجلها نضال الطوائف ومن ثم كانت فكرة القوميات أثراً محتوماً بحكم الطبيعة لهذا النظام الإقتصادى ونضال الأمم فى سبيل المال طبيعى، والاستعمار كذلك طبيعى أيضاً فكيف يمكن أن تمتنع الحرب ويستقر السلام فى العالم، فقد كان القرن العشرين المنصرم وبدايات القرن الواحد والعشرين لا نزال نشهد البيانات على أن السلام فى العالم أو فى عالم أساس حضارته حلم لا سبيل إلى تحقيقه، وامنية معسولة، ولكنها سراب كذوب، وبالتالى ستظل الحروب ويظل الشقاء الإنسانى فى ظل النظام الغربى الإقتصادى.

الإسلام والخلاص من النظام الغربى الإقتصادى:

بعد هذا العرض الذى كان لابد منه قبل الحديث عن الحضارة الإسلامية قد تتضح الصورة جلية، ويظهر سماحة الدين الإسلامى فى ظل نظام يقوم على أساس إنتشار السلام بين الناس جميعاً على أسس سليمة واحدة، وليس كما عرضنا من النظام الغربى الفاسد الذى يقوم على أساس إمتصاص دماء الشعوب الضعيفة.

فالحضارة الإسلامية تقوم على أساس هو النقيض من الحضارة الغربية، فهى تقوم على أساس روحى - وليس مادى - يدعو الإنسان إلى حسن إدراك صلته

بالوجود ومكانه من قبل كل شئ. فإذا بلغ من هذا الإدراك حد الإيمان، دعاه إيمانه إلى استمرار تهذيب نفسه وتطهير فؤاده وإلى تغذية قلبه وعقله بالمبادئ السامية مبادئ الإباء والعزة والكرامة والإنفة والإخوة والمحبة والبر والتقوى، وعلى أساس هذه المبادئ ينظم الإنسان حياته الإقتصادية. هذا التدرج هو أساس الحضارة الإسلامية كما نزل الوحى بها على النبى محمد ﷺ فهى حضارة روحية أولاً، والنظام الروحى فيها هو أساس النظام التهذيبى، وأساس قواعد الخلق. والمبادئ الخلقية هى أساس النظام الإقتصادى فلا يجوز أن يضحى بشئ من مبادئ الخلق فى سبيل التنظيم الإقتصادى.

هذا التصوير الإسلامى للحضارة هو فى الواقع التصوير الجدير بالإنسانية الكفيل بسعادتها ولو أنه استقر فى النفوس وانتظمت الحياة إنتظام الحضارة الغربية اليوم إياها لتبدلت الإنسانية غير الإنسانية ولإنهارت مبادئ يؤمن الناس اليوم بها ولقامت مبادئ سامية تكفل معالجة أزمات العالم الحاضر على هدى نورها.

والناس اليوم فى الغرب والشرق يحاولون حل هذه الأزمات دون أن يتنبه أحد منهم ودون أن يتنبه المسلمون أنفسهم إلى أن الإسلام كفيل بحلها؛ فأهل الغرب يتلمسون اليوم جدة روحية تنقذه من الوثنية تورطوا فيها، وكانت سبب شقائهم وعلة ما ينشب من الحروب بينهم تلك عبادة المال وأهل الغرب يتلمسون هذه الجدة فى مذاهب الهند والشرق الأقصى على حين هى قريبة منهم يجدونها مقررة فى القرآن مصورة خير صورة فيما ضربه النبى للناس من مثل أثناء حياته.

وتجدر الإشارة بى هنا إلى أن تاريخ الإسلام خلا من النزاع بين السلطة

الدينية والسلطة الزمنية أى كما كان فى الغرب نزاع بين الكنيسة والدولة فأنجى العالم الإسلامى ذلك من نزاع فى تفكير الغرب وفى إتجاه تاريخه، وترجع نجاة الإسلام من هذا النزاع وآثاره إلى أنه لم يعرف شيئاً أسمه الكنيسة أو السلطة الدينية على نحو ما عرفت الكنيسة فليس لأحد من المسلمين، ولو كان خليفة أن يفرض أمراً إلى الناس بأسم الدين، وأن يزعم أنه قدير مع ذلك على الغفران لمن خالفه هذا الأمر وليس لأحد من المسلمين ولو كان خليفة أن يفرض على الناس غير ما فرضه الله فى كتابه بل المسلمين أمام الله سواسية لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح وليس لولى الأمر على مسلم طاعة فى معصية الله، ولا فيما لم يأمر به الله يقول أبو بكر الصديق حين خطب المسلمين يوم بايعوه بالخلافة: أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم. ومع ما آل إليه الأمر فى الإسلام بعد ذلك إلى ملك عظيم ومع ما قام به المسلمون أو بينهم من ثورات أهلية فقد أقام المسلمون على تمسكهم بهذه الحرية الذاتية العظيمة التى قررها لهم دينهم هذه الحرية التى جعلت العقل حكماً فى كل شئ فى الدين والإيمان به جعلتهم يتمسكون بهذه الحرية حتى بعد أن أدعى أمراء المؤمنين أنهم خلفاء الله لا خلفاء رسوله على الأرض، وأنهم يملكون من أمر المسلمين كل شئ حتى الحياة أو الموت. يشهد بذلك ما حدث فى عصر المأمون حين اختلف على القرآن أمخلوق هو أم غير مخلوق؟ فقد خالف الكثيرون رأى الخليفة مع علمهم بما يستهدف له المخالف من عقاب أو غضب.

جعل الإسلام العقل حكماً فى كل شئ، وجعله حكماً فى الدين وفى الإيمان نفسه، يقول الله عز وجل ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً صم بكم عمى فهم لا يعقلون﴾[1].

(١) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ١٧١ .

ويفسر الشيخ محمد عبده هذه الآية فيقول: «إن الآية صريحة فى أن تقليد بغير عقل ولا هداية فهو شأن الكافرين وإن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى إقتنع به، فمن ربى على التسليم بغير عقل والعمل ولو صالحاً بغير فقه فهو غير مؤمن، فليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان بل القصد منه أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم والعمل، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله، ويترك الشر لأنه يفهم أنه سوء عاقبته ودرجة مضرته».

وهذا الذى يقوله الشيخ محمد عبده تفسيراً لهذه الآية قد جاء به القرآن صريحاً فى آيات كثيرة، فهو يدعو الناس إلى النظر فى الكون ومعرفة أنبائه ليهديهم نظرهم إلى وجود الله ووحدانيته، فيقول تعالى: ﴿إن فى خلق السماوات والأرض وإختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[1]. ويقول تعالى ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ

---

(١) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ١٦٤ .

يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾[1].

والدعوة إلى النظر فى الكون لإستنباط سننه وللإهتداء إلى الإيمان ببارئه يكررها القرآن مئات المرات فى سوره المختلفة وكلها موجهة إلى قوى الإنسان العاقلة تدعوه إلى التدبر والتأمل ليكون إيمانه عن عقل وبينه، وتحذره الأخذ بما وجده آبائه عليه من غير نظر فيه وتمحيص له وثقة ذاتية بمبلغه من الحق.

هذا هو الإيمان الذى دعا الإسلام إليه، وهو ليس هذا الإيمان الذى يسمونه إيمان العجائز، إنما هو إيمان المستنير المستيقن الذى نظر وتأمل ثم فكر وفكر ثم وصل من النظر والتفيكر إلى اليقين بالله. وما أحسب رجلاً نظر بعقله وقلبه ثم لم يهتد إلى الإيمان وهو كلما أمعن نظره وأطال تأمله وتدبره، وحاول الإحاطة بالزمان والمكان وما تشتمله وحدتهما التى لا نهاية لهامن عوالم دائمة المور شعر بنفسه ذرة من هذه العوالم تجرى كلها على سنن تمسكها وإلى غاية عند بارئها علمها وتيقن من ضعفه وقصور علمه إذا لم يستعن على إدراك هذا الوجود بقوة فوق حسه وفوق عقله تصل بينه وبين هذه العوالم جميعاً وتجعله يشعر بمكانته منها، وتلك قوة الإيمان.

فالإيمان إذاً شعور روحى يحس به الإنسان يملأ نفسه كلما اتصل بالكون وفنى فى لانهاية المكان والزمان، وامتثل الكائنات كلها فى نفسه فرآها تجرى كلها على سنن تمسكها ورآها كلها تسبح بحمد ربها بارئها ومنشئها اما انه جلى شأنه ماثل فيها متصل بها أو هو مستقل بنفسه منفصل عنها، فهذه مضاريات جديلة عقيمة تضل ولا تهدى، وتضر ولا تنفع، وهى بعد لا تزيدنا علماً وهى أشبه إلى حد كبير بذلك الجدل البيزنطى العقيم الذى طال ما ينيف على خمسمائة عام

---

(١) نفسه، سورة يس، الآيات ٣٣-٤٤ .

حـول طبـيـعـة المسيح هل هو إله أم بـشـر؟ اسـتـمـر زمناً طويلاً صـراعاً بين ثلاث كنائس كبـرى هى كنيسة بيزنطة وكنيسـة رومـا ثم كنيسة الاسكندرية حول مـا إذا كان المسيح إله أم بشر وانتهـوا إلى تشتت فـى الفكر والآراء، فمنهم من قال إنه إله ومنهم من قــال أنه إلـه وبشــر ومنهـم من قــال أنه بشــر، وقـد خلق هذا الجــدل البيزنطى العقيم الفلسـفة اليونانية الشهيرة التى عرفت بالفلسفة السفسطائية.

وقد تعـرض القرآن لهذا الجـدل العقيم وحـرص على ذكره حـتى لا يقـع المسلمون فى مثله، فقـال الله تعـالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٧٣) ﴾[١]. ولقـد طالما أجهـد الكُتّاب والفلاسـفة انفسهم يحـاول بعـضـهم حلهـا ويحـاول بعـضـهم مـعـرفـة جـوهـر الخـالق جل شـأنه فذهب جـهدهم عـبثاً وأقـر بعضهم فوق مـا نطيق إدراكه ولئن قـصـر عـقلنا دون هذا الإدراك ليكونن هذا القـصـور أدنى إلى تثبيت إيمـاننا فـشعورنا اليقـينى بوجوده جل شـأنه وبإحـاطتـه بكل شئ علمـاً وبأنـه الخـالق المصور يرجع الأمـر كله من شـأنه أن يقنعنا بأننا لن نستطيع أن ندرك كنهه على شـدة إيماننا به وإن كنا حـتـى اليوم لا ندرك مـا الكهـرباء والأثيـر فـمـا أشـدنا غـروراً ونحـن نشـهـد كل يوم من بديـع صـنعـه إذا نحن نؤمن به حـتـى نعـرف كنهـه، تنزه جـل شـأنـه عـمــا يصـفـون. والـواقـع فى

(١) القرآن الكريم، سورة النساء، الآيات من ١٧١-١٧٣ .

الحياة أن الذين يحاولون تصوير ذاته جل شأنه هم الذين يعجز إدراكهم عن السمّو إلى تصور ما فوق حياتنا الإنسانية والذين يريدون أن يقيسوا الوجود وخالق الوجود بمقايسنا النسبية المحصورة فى حدود علمنا القليل. أما الذين أتوا العلم حقاً فيذكرون قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[1]. وتمتلئ قلوبهم إيماناً بخالق الروح، وخالق الكون كله، ثم لا يزجّون بأنفسهم فى مضاربات عقيمة لا ثمرة لها ولا نتيجة.

ويفرّق القرآن بين الإسلام بعد الإيمان والإسلام دون الإيمان يقول تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا، قلم لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان فى قلوبكم﴾[2].

فمثل هذا الإسلام إذعان لدعوة الداعى عن رغبة أو رهبة أو إعجاب وتقديس، دون إمتثال النفس هذه الدعوة وفهمها إيّاها إلى حد الإيمان بها. فصاحبه لم يهده الله للإيمان عن طريق النظر فى الكون ومعرفة سننه، والإهتداء من هذا النظر وهذه المعرفة إلى خالقه، وإنما أسلم لرغبة أو هوى، أو لأنه وجد أباءه مسلمين. وهو لذلك لم يدخل الإيمان فى قلبه رغم إسلامه. من أمثال هذاالمسلم من يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً. وهؤلاء الذين يسلمون دون إيمان، تظل نفوسهم ضعيفة وعقائدهم مزعزعة وقلوبهم مستعدة للإذعان للناس والخضوع لأمرهم. فأما الذين تصل عقولهم وقلوبهم إلى أن تؤمن بالله عن طريق النظر فى الكون إيماناً صادقاً يدعوهم إلى أن يسلموا لله وحده أمرهم.

---

(١) القرآن الكريم، سورة الإسراء، آية ٨٥ .

(٢) نفسه، سورة الحجرات، آية ١٤ .

فأولئك لا يعرفون لغير الله خضوعاً ولا إذعاناً؛ وهم لا يمنون على أحد إسلامهم ﴿بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾[1].

فمن أسلم وجهه لله وهو مؤمن فأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك لا يخافون فى الحياة فقراً ولا مذلة، لأن الإيمان غاية الغنى وغاية العزة والعزة لله.

والنفس الراضية المطمئنة إلى هذا الإيمان لا تستريح إلا فى الدأب لمعرفة أسرار الكون وسننه كيما تزداد بالله إتصالاً. وسبيلها إلى هذه المعرفة، البحث والنظر فى خلق الله مما فى الكون نظراً علمياً، دعا القرآن إليه، وجدّ المسلمون الأولون فيه، وهو الطريقة العلمية الحديثة فى الغرب، على أن الغاية منه تختلف فى الإسلام عنها فى الحضارة الغربية. فهى فى الإسلام ترمى إلى أن يجعل الإنسان من سنة الله فى الكون سنته ونظامه، على حين ترمى فى الغرب إلى الإستفادة المادية مما فى الكون. وهى فى الإسلام ترمى أولاً وقبل كل شئ إلى حسن العرفان بالله عرفاناً كلما إزداد إيماناً به جل شأنه. وهى ترمى إلى حسن العرفان من جانب الجماعة كلها لا من جانب الفرد وحده؛ فالكمال الروحى ليس مسألة فردية صرفة، فلا محل لأن يعنى الناس أنفسهم جماعة بها، بل هو أساس للحضارة، أو أساس الحضارة للجماعة الإنسانية فى مشارق الأرض ومغاربها. وواجب لذلك على الإنسانية أن تدأب فى سبيل هذا الكمال الروحى أكثر من دأبها للوقوف على حقيقة المحسوسات وأن تجعل من معرفة أسرار الأشياء وسنن الكون وسيلتها إلى هذا الكمال أكثر مما تجعل من هذه المعرفة وسيلة للسلطان المادى على الأشياء.

(١) القرآن الكريم، سورة الحجرات، آية ١٧ .

وليس يكفى لبلوغ هذه المرتبة من الكمال الروحى أن نستعين بمنطقنا وحده، بل يجب أن نمهد لقلوبنا وعقولنا سبيل الوصول إلى أسمى ما نستطيع الوصول إليه من هذا المنطق. وإنما يكون بإلتماس العون من الله وإتجاه الإنسان إليه تعالى بقلبه وروحه، إياه يعبد، وإياه نستعين للإهتداء إلى أسرار الكون وسنن الحياة، وهذا هو الإتصال بالله شكراً له على نعمته ليزيدنا إهتداءً إلى مالم نهتد إليه. قال تعالى: ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليأمنوا بى لعلهم يرشدون﴾(1). وقال الله أيضاً: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾(2).

والصلاة هى الإتصال بالله إيماناً به وإلتماساً للعون منه، وليس القصد منها حركات الركوع والسجود، وتلاوة ما يتلى من القرآن، أو تلاوة التكبير والتعظيم لله جل شأنه، وإنما القصد منها، ومما فيها من تكبير وتلاوة وركوع وسجود إلى هذا السمو والتقديس والإيمان. وإلى عبادته عبادة خالصة لوجهة الله، يقول تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177) ﴾(3).

فالمؤمن الصادق الإيمان هو من يتوجه بقلبه إلى الله ساعة الصلاة، يشهده على تقواه، ويستعينه على أداء واجب الحياة، ويستمد منه هدايته ويستلهمه

(1) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ١٨٦ .

(2) نفسه، سورة البقرة، آيتا ٤٥، ٤٦ .

(3) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ١٧٧ .

توفيقه لإدراك سرّ الكون وسننه ونظامه.

والمؤمن الصادق الإيمان يشعر بنفسه أثناء صلاته، ويشعر بها دائماً شيئاً ضئيلاً أمام عظمة الله العلى الكبير، وأرضنا التى نعيش عليها ليس إلا كوكباً صغيراً فى عالم ألوف الأفلاك والكواكب، وليست إلا كماً ضئيلاً جداً فى لا نهاية هذا الوجود. فما أصغرنا وما أضعفنا شأناً أمام بارئ هذا الوجود ومدبّره جلت عن أفهامنا عظمته. وما أجدرنا ونحن نتوجه بقلوب خالصة إلى جلال الله وقدسه الأسمى نلتمس منه العون لتقوية ضعفنا وهدايتنا إلى الحق أن نرى مبلغ تساوى الناس جميعاً فى الضعف الذى لا يشد من أزره أمام الله مال ولا جاه، وإنما يشد من أزره الإيمان الصادق والخضوع لله والبر والتقوى.

شتان ما بين هذه المساواة التامة الصحيحة أمام الله، وبين ما كانت تتحدث عنه الحضارة الغربية فى العصور الأخيرة من المساواة أمام القانون. ولقد بلغت هذه الحضارة الآن، أن كادت تنكر هذه المساواة أمام القانون، ولا توجب إحترامه على طائفة من الناس. شتان ما بين هذه المساواة أمام الله، مساواة تحسها وتمسها ملموسة فى ساعة الصلاة وتهتدى إليها برأيك الحر، وبين مساواة فى النضال لكسب المال نضالاً يبيح الخديعة والنفاق، ثم ينجو صاحبه من سلطان القانون ما مهر فى التحايل عليه وبرع فى حسن العبث به.

هذه المساواة أمام الله تدعو إلى الإخاء الصادق، لأنها تشعر الناس جميعاً بأنهم أخوة فى العبودية التى هى لله وحده. وهذا إخاء يقوم على تقدير سليم، ونظر حر، وتدبر فرضه القرآن، وهل حرية وإخاء ومساواة أعظم من وقوف هذا المجتمع أمام الله تعنو له جميعاً جباههم. إياه يكبّرون وله يركعون ويسجدون، لاتفاوت فى ذلك بين أحدهم وأخيه، وكلهم مستغفر تائب مستعين، وليس بين

احدهم وبين الله إلا عمله الصالح، وما قدم من برّ وتقوى. إخاء هذا شأنه يصفى القلوب ويطهرها من قذى المادة، ويكفل للناس السعادة كما يؤدى بهم إلى إدراك سُنة الله فى الكون، ما هداهم الله بنوره إلى هذا الهدى.

الناس جميعاً ليسوا سواء فى القدرة على ما أمر الله به من التقوى، فقد يثقل جسمنا روحنا وتغطى ماديتنا على إنسانيتنا، إذا لم ندم رياضة الروح، ولم نتوجه بقلوبنا لله أثناء صلواتنا. وإكتفينا بأوضاع الصلاة من ركوع وسجود وتلاوة؛ ولذلك وجب جهد الطاقة ان نكف عما يجعل الجسم يثقل الروح، ويجعل المادية تغطى على الإنسانية. ولذلك فرض الإسلام الصوم وسيلة لبلوغ مرتبة التقوى. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾[1]. والتقوى والبر سواء، فالبر من إتقى، والبر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والنبيين، وقام بما ورد فى الآية التى أسلفنا.

وإذا كان القصد من الصوم ألا يثقل الجسم الروح، وألا تغطى ماديتنا على إنسانيتنا، فالوقوف به عند الإمساك من الفجر إلى الليل والإمعان بعد ذلك فى الإستمتاع بالذات تفويت لهذا القصد. فالإمعان فى الإستمتاع مفسدة لذاته ومن غير صيام، مابالك به إذا صام المرء، وأمسك طيلة نهاره عن كل طعام وشراب ولذة. فإذا إنقضى وقت الصيام أسلم نفسه لما يحسبها حرمته أثناء النهار من نعمة!إنه إذا ليشهد الله على أنه لم يصم تطهيراً لجسمه وسمواً بإنسانيته، ولم يصم لذلك مختاراً إيماناً منه بفائدة الصوم فى حياتنا الروحية، بل صام أداء لفرض لا يدرك بعقله ضرورته أوعلته، ويرى فيه حرماناً له من حرية سرعان ما يستردها آخر النهار حتى ينهمك فى لذاته إستعاضة عما حرم بالصوم منها. ومن يفعل

---

(١) القران الكريم، سورة البقرة، آية ١٨٣ .

ذلك فشأنه كشأن من لا يسرق لأن القانون يحرم عليه السرقة، لا لأنه يسمو بنفسه عنها ويحرمها على نفسه وعلى غيره مختاراً.

والواقع أن من ينظر إلى الصوم على انه حرمان حال دون حرية الإنسان لفترة وجيزة، فإنه نظر خاطئ يجعل الصيام عبثاً لامحل له. إنما الصيام طهور للنفس يوجبه العقل عن إختيار من الصائم كى يسترد به حرية إرادته وحرية تفكيره، فإذا استردهما استطاع السمو بهما إلى أعلى مراتب الإيمان الحق بالله. وهذا هو المقصود بقوله تعالى ﴿أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر؛ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾[1].

وربما يعجب المرء عندما نقول أن الصيام نستر به حرية الإرادة وحرية التفكير، إذا قصدنا من الصيام إلى ما فيه من خير لحياتنا الروحية، وهو قد يبدو غريباً لأن التفكير الحديث أفسد فى أذهاننا صورة الحرية، حيث هدم حدودها الروحية والنفسية، ثم استبقى حدودها المادية التى ينفذها الجندى بسيف القانون. فالإنسان ليس حراً بحكم هذا التفكير الحديث فى أن يعتدى على مال غيره أو على شخصه، ولكنه حرّ فى أمر نفسه، وإن جاوز فى ذلك كل ما يقره العقل، أو تمليه قواعد الخلق. والواقع أن الإنسان عبد العادة، فهو معتاد أن يتناول طعامه فى الصباح وفى الظهيرة وفى المساء؛ فإذا قيل له: بل تناوله فى الصباح والمساء فقط، إعتبر هذا إعتداء على حريته، فى حين هو إعتداء على عبوديته لعادته. ومنهم من تناول القهوة أو الشاى أو غيرهما من ألوان الشراب فى أوقات معينة له؛ فإذا قيل له أعدل عن هذه الأوقات إلى غيرها عدّ الإعتداء

(١) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ١٨٤ .

على عبوديته لعادته إعتداء على حريته هو شخصياً. وهذه العبودية للعادة مفسدة لسلامة التفكير لأنها تخضعه للتأثر بضروريات الجسم المادية التى طبقتها العادة فيه. ولهذا يعكف كثيرون على الوان مختلفة من الصوم يزاولونها فى فترات من كل اسبوع أو من كل شهر. لكن الله أراد بالناس اليسر، إذ كتب عليهم الصيام أياماً معدودات يكونون أثناءها جميعاً سواء. وإذ جعل لهم الفدية، وإذ أعفى من كان منهم مريضاً أو على سفر على أن يؤدى هذا الصيام فى أيام أخر، تتم بينهم المساواة كما تتم فى صلاة الجماعة. ويشعرون خلال ذلك بإخائهم شعوراً يضعفه تفاوتهم فى الإستمتاع بما رزق الله كلاً منهم من أسباب الإستماع فى الحياة. ومن ثم كان الصيام موطداً لمعانى الحرية والإخاء المساواة فى نفس الإنسان مثلما توطدها الصلاة.

وإذا أقبلنا على الصيام مختارين، مدركين أن أمر الله لا يمكن أن يختلف عن حكم العقل ما أدرك، ما أدرك العقل أغراض الحياة فى أسمى صورها، قدرّنا ما فى الصيام من تحرير لنا من رق العادة، ومن رياضة لإرادتنا وحريتنا، وذكرنا أن ما يفرضه الإنسان على نفسه بإذن الله، من حدود روحية ونفسية لحريته بالتحرير من بعض عاداته وشهواته، هو خير ما يكفل لتفكيره أن يبلغ مراتب الإيمان العليا. وإذا كان التقليد فى الإيمان ليس إيماناً، بل إسلام من غير إيمان؛ فالتقليد فى الصوم ليس صوماً ولذلك يعتبره المقلد حراماناً، ويعتبره المؤمن إيماناً.

وإذا بلغ الإنسان من طريق هذه الرياضة الروحية، أن إهتدى إلى سنن الكون وأسراره، وأن عرف مكانه ومكان بنى الإنسان منه، إزداد حباً لإخوانه من بنى الإنسان، ورحم قويهم ضعيفهم، ونزل غنيهم لفقيرهم عن حظ من ماله، وهذه

هى الزكاة والمزيد عليها هو الصدقة.

والزكاة فريضة من فرائض الإسلام، وركن من أركانه، وهى لون من ألوان العبادة. فالمؤمنون إخوة، ولا يتم إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فالمؤمنون يتحابون بنور الله بينهم، وفريضة الزكاة والصدقة تتصل بهذا الإخاء، ولا تتصل بالأخلاق ولا بالمعاملات وتنظيمها. وما إتصل بالإخاء إتصل بالإيمان بالله. وكل ما اتصل بالإيمان فهو عبادة، وعلى هذا فالزكاة تمثل ركناً أساسياً من أركان الإسلام الخمسة، وهذا ما دفع أبى بكر بعد وفاة النبى يطالب المسلمين بأدائها، فلما راى بعضهم رفضها، اعتبرهم أبو بكر خروجاً على النظام الروحى الذى نزل به القرآن، وإرتداد بذلك عن الإسلام، فكانت حروب الردة، التى أكدّ فيها أبو بكر رسالة الإسلام كاملة، والتى بقيت فخراً على الأيام.

واعتبر بذلك الزكاة والصدقة فرضاً متصلاً بالإيمان، يجعلهما بعض النظام الروحى الذى يجب أن ينظم حضارة العالم. وهذا أسمى ما تبلغ إليه الحكمة وما يكفل للناس سعادتهم. فالمال والحرص عليه والإستكثار منه وإتخاذه وسيلة لإستعلاء الإنسان على أخيه الإنسان، كان ولا يزال سبباً فى شقاء العالم، ومصدراً للثورات والحروب فيه. وعبادة المال كانت ولا تزال سبب التدهور الخلقى الذى أصاب العالم، والذى لا يزال العالم يرزح تحت أعبائه؛ وأيضاً الإستكثار من المال والحرص عليه هو الذى قضى على الإخاء الإنسانى وجعل الناس بعضهم لبعض عدواً. ولو أنهم كانوا أبعد نظراً وإسمى تفكيراً لرأوا الإخاء أدعى للسعادة من المال، ولرأوا بذل المال للمحتاج اكبر جاهاً عند الله والناس، من إذلال الناس لهذا المال. ولو أنهم آمنوا بالله حقاً لتآخوا فيما بينهم، ولكان أدنى مظاهر تآخيهم إغاثة الملهوف، وإعانة المحتاج، ومحو الشقاء عمن تجر أو يجبر لفقر

الشـقـاء عليـهم. وإذا كانـت بعض الدول أدعـيـاء الحضـارة فى عـالمنا اليـوم، تقـيم لشعـوبهـا المنشـآت الخـيـرية لإيواء البـائس، والبـر بالمحـروم، ورعـاية الفـقـيـر باسم الشفقة والإنسانية، فإن إقامة هذه المنشآت بدافع الإخاء والتحاب فى الله والشكر له على نعمـتـه، أسمى فى الفكرة وأدعى إلى سعـادة الـنـاس جـمـيـعـاً. قـال تـعـالى: ﴿وابتغ فـيـمـا آتاك الله الـدار الآخـرة ولا تـنس نصـيـبك من الدنيـا، واحـسـن كـمـا أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾[1].

هذا الإخـاء الإنسـانى يزيـد الناس بعضـهم لبـعض محـبـة، وليس يجـوز فى الإسلام أن تقف هذه المحبـة عند حدود وطن بعينه، ولا أن تنتهى إلى حدود قـارة من القارات بذاتها بل يجب ألا تعرف حدوداً نهائية.

لذلك يجب أن يتـعـرف الناس من أطراف الأرض جـمـيـعـاً، ليـزدادوا إيمـانـاً فى محبـة الله، ووسيلة ذلك أن يجـتـمـعـوا من أطراف الأرض فى صعيد واحـد، وخيـر مكان يجـتـمـعـون فيه و ذلك المكان الذى إنبثق مـنه نور الإسلام نور المحبة والإخـاء والمسـاواة هـو بيت الـلـه الحـرام بمكة المكرمـة، أو كـمـا يـذكـرهـا الـقـرآن فى بـعض مواضعـه «بكة» وهذا الإجتماع هو مـا عرفه الإسلام بالحج وهو ركن ركين أيضاً فى الإسلام، وهو بلغة العصـر، يعتبـر أكبـر مؤتمـر دولى فى العالم يجـمـع بين عناصـر بشـرية شـتـى تشـتـمـل على أجناس مـخـتـلـفـة ولغـات مـخـتـلفـة وعـناصـر مـخـتـلـفـة، ولكنهم جميعاً يجتمعون على دين واحد هو الدين الإسلامى.

فى هـذا الصـعـيـد الذى يجـمـع بين المؤمنين مـن الحـجـج إنمـا اجـتـمـعـوا ليـتـعـارفـوا، وليـرتبطوا بـأقـوى روابط الإخـاء والمحـبـة فـيـزداد إيمـانهم ﴿وجـعـلنـاكم شعوباً وقبـائل لتعـارفوا إن أكرمكم عند الله أتقـاكم﴾. وفـى هذا الإجتمـاع يجب أن

(١) القرآن الكريم، سورة القصص، آية ٧٧ .

تسقط كل الفوارق، وألا يكون بين هؤلاء المؤمنين تفاوت ما، ويجب أن يشعروا بأنهم جميعاً أمام الله سواسية، مؤمنين بوحدانيته، شاكرين لنعمته.

إن ما عرضناه هي قواعد الإسلام وفرائضه كما نزل بها الوحي على النبي محمد ﷺ.

وعلى هذا فإن النظام الإقتصادي الذي يقوم على ما قدمناه من أسس خلقية وروحية جدير بأن يصل بالناس إلى السعادة المنشودة وبأن يمحو من الأرض الشقاء.

ومع هذا إندست في الحضارة الإسلامية أهواء الشعوبية والإسرائيليات، كما إندست في غيرها من الحضارات لأن طائفة من العلماء الذين يجب عليهم أن يكونوا ورثة الأنبياء، قد آثرت السلطان على الحق، والجاه على الفضيلة فأتخذت من علمها وسيلة تضلل بها سواد الناس وأبنائهم من الشباب (النشئ). كما يضل كثيرون من علماء هذا العصر سواد أهله وناشئته؛ هؤلاء العلماء هم أنصار الشيطان، وهم لذلك أثقل الناس تبعة أمام الله. وعلى العلماء الآخرين المخلصين لله ولدين الله أن يحاربوا هؤلاء الآبالسة، ذلك أن مثل هؤلاء قد خلقوا جيلاً جاهداً بأمور دينه يتخبطه الشيطان من المس، فلا يعرف الصالح من الطالح، خاصة وأن الغرب قد وجد ضالته مع هؤلاء المضلين، فأضلوا شباب المسلمين. ولو أن العالم المضلل هذا استظل بحضارة الإسلام على صورها القرآن، ولم تجن عليه فتوح المغول وغيرهم ممن دخلوا في الإسلام ولم يعملوا بمبادئه، ولا عملوا على نشرها، بل إتخذوه وسيلة لحكم سواد الناس (المسلمين) على مبادئ تناقض مبادئ الإخاء الإسلامي، لتبدل الأمر في العالم غير الأمر، ولنجت الإنسانية من كثير ممن ترزح اليوم تحته من أهوال الفتك والدمار.

وإننى لعلى يقين أن تسود الحضارة الإسلامية التى صورها القرآن العالم. إذا قام جماعة من العلماء - فى شتى مجالات العلوم - يدعون إليها على طريقة علمية بعيدة عن الجمود والتعصب. فهذه الحضارة تخاطب القلب كما تخاطب العقل، وتكفل إقبال الناس من كل الأمم والشعوب عليها إقبالاً لن تستطيع مطامع أصحاب المطامع ضده. وإنى لا أستطيع إغفال حجة أخيرة اعتبرها بالغة تلك هى الحجة المستفادة من قول الله تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾[1].

فليس شئ فى الحياة يحفزنا إلى إرتكاب الخطيئة إلا كسب المال أو إشباع رغبة جسدية، ففى عالمنا الحاضر اليوم وما فيه من إرتكاب الجرائم والآثام فى حق البشرية والإنسانية، إنما بسبب ما يلهث حفنة من الإدارات والحكومات الغربية وراء كسب المال على حساب الشعوب الضعيفة. وأن السعى إلى مثل هذا الكسب قد ترتب عليه إهتزاز العالم على نحو ما نراه اليوم وإنتشار الحروب والثورات والإضطرابات. فى سبيل هذا النظام والحرص على كسب المال، تراق الدماء وتزهق الأرواح والأنفس. فكل عسير أمام سعادتهم يسير سهلاً؛ بل إن من الناس من يستهين فى سبيل المال والبنين بما يحسبه مستحيلاً عليه لولا المال والبنون.

ومع ذلك فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا؛ وليست الزينة شيئاً إلى جانب الجوهر. ولا يضحى بالجوهر فى سبيل الزينة إلا الجهلاء والحمقى الذين يخدعهم المظهر عن الحقيقة، واليوم عن الغد. والذين يسعون لزينة الحياة الدنيا من مال وبنين وينسون ما سواهما ليسوا إلا حمقى قد ضلوا السبيل. فالمال

---

(١) القرآن الكريم، سورة الكهف، آية ٤٦ .

والبنون زينة. اما جوهر الحياة فهى الباقيات الصالحات من أعمال الخير. ولهذه الباقيات الصالحات يجب أن نبذل من السعى والجهد أكثر مما نبذل لزينة الحياة من مال وبنين.

وعلى هذا يجب على الإنسان العاقل أن يبذل فى سبيل الجوهر الروح والقلب، ويجب أن تخضع الزينة للجوهر الذى هو خير ثواباً وخير أملاً عند الله.

يقول الشيخ محمد عبده: «كان الإسلام ديناً عربياً، ثم لحقه العلم، فصار علماً عربياً، بعد أن كان يونانياً، ثم أخطأ خليفة فى السياسة، فأتخذ من سعة الإسلام سبيلاً إلى ما كان يظنه خيراً له، ظن أن الجيش العربى قد يكون عوناً لخليفة علوى، لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبى محمد ﷺ، فأراد أن يتخذ له جيشاً أجنبياً من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التى ظن أنه يستعبدها بسلطانه، ويصطنعها بإحسانه، فلا تساعد الخارج عليه، ولا تعين طالب مكانه من الملك، وفى سعة أحكام الإسلام ما يبيح له ذلك. هنالك استعجم الإسلام، وانقلب عجمياً.

خليفة عباسى أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه وبئس ما صنع بأمته وبدينه، اكثر من ذلك الجندى الأجنبى، وأقام عليه الرؤساء منه، فلم تكن إلا عشية أو ضحاها، حتى تغلب رؤساء الجند على لخلفاء، واستبدوا بالسلطان دونهم، وصارت الدولة فى قبضتهم. ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الإسلام، والقلب الذى هذبه الدين، بل جاءوا إلى الإسلام بخشونة الجهل يحملون ألوية الظلم. لبسوا الإسلام على أبدانهم، ولم ينفذ منه شئ إلى وجدانهم، وكثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبده فى خلوته، ويصلى مع الجماعات لتمكين سلطانه، ثم عدا على الإسلام آخرون، كالتتار وغيرهم، ومنهم من تولى أمره. أى عدو لهؤلاء أشد

من العلم الذى يعرف الناس منزلتهم، ويكشف لهم قبح سيرهم! فمالوا على العلم والإسلام ميلتهم، أما العلم فلم يحفلوا بأهله - يقصد هنا الفقهاء - وقبضوا عنه يد المعونة وحملوا كثيراً من أعوانهم أن ينتظموا فى سلك العلماء، وأن يتسربلوا بسرابيله ليعدوا من قبيله، ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبغض إليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن الطلبة. ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين، زعموا الدين ناقصاً ليكملوه أو مريضاً ليعللوه، أو متداعياً ليدعموه، أو يكاد أن ينقض ليقيموه.

نظروا إلى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية، وفى عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية فاستعاروا من ذلك للإسلام ما هو براء منه. لكنهم نجحوا فى إقناع العامة بأن فى ذلك تعظيم شعائره، وتفخيم أوامره، والغوغاء عون القائم وهم يد الظالم، فخلقوا لنا هذه الإحتفالات، وتلك الجماعات، وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة، وأركس الناس فى الضلالة، وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم، وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول. ثم بثوا أعوانهم فى أطراف الممالك الإسلامية ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يقنع العامة بأنه لا نظر لهم فى الشئون العامة. وأن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم، ومن دخل فى شئ من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه، وأن ما يظهر من فساد الأعمال، وإختلال الأحوال، ليس من صنع الحكام، وإنما هو تحقيق لما ورد فى الأخبار من أحوال آخر الزمان، وأنه لا حيلة فى إصلاح حال ولا مال، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه. ووجدوا فى ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما

يعينهم على ذلك، وفى الموضوعات والضعاف ما شدّ أزرهم فى بث هذه الأوهام. وقد إنتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلين، وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم فى جميع الأطراف، وإتخذوا من عقيدة القدر مثبطاً للعزائم، وغُلا للأيدى عن العمل، والعامل الأقوى فى حمل النفوس على قبول هذه الخرافات إنما هو السذاجة، وضعف البصيرة فى الدين وموافقة الهوى. أمور إذا إجتمعت أهلكت. فاستتر الحق تحت ظلام الباطل، ورسخ فى نفوس الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم ويخالفها على خط مستقيم كما يقال.

هذه السياسة، سياسة الظلمة وأهل الأثرة، هى التى روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه، وسلبت من المسلم أملاً كان يخترق به أطباق السموات وأخلدت به إلى يأس يجاور به العجماوات .. فجل ما نراه الآن مما نسميه إسلاماً، فهو ليس بإسلام، وإنما حفظ من أعمال الإسلام، صورة الصلاة والصوم والحج، ومن الأقوال قليلاً منها حرفت عن معانيها؛ ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات إلى الجمود الذى ذكرته وعدوه ديناً. نعوذ بالله منهم، ومما يفترون على الله دينه. فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الإسلام، وإنما هو شئ آخر سموه الإسلام»[1].

هذه هى الحال التى صورها الشيخ محمد عبده، أدت إلى ذيوع مبادئ متناقضة نشرها أصحابها على أنها من الإسلام، وأنها بعض ما أمر به الله ورسوله؛ من هذه المبادئ مبدأ الجبرية، الذى صوره المتأخرون تصويراً يخالف ما جاء فى القرآن. فالقرآن لم يكن أبداً يتمشى مع أولئك المتأخرون الذين دعوا إلى القعود والإستسلام، وقالوا إن العيش ليس بالسعى ولا التدبير، وإنما هو بالرزق

(١) الشيخ/ محمد عبده، الإسلام والنصرانية، ص١٢٢-١٢٥ .

والتقدير، دون أن يكون لعمل الإنسان فيه فضل. وهذه جبرية مخطئة أتاحت لبعض أهل الغرب أن يتهم الإسلام بها باطلاً من غير حق؛ ومن هذه المبادئ مذهب إزدراء المادة وعدم الأخذ منها بأى نصيب. وهذا مذهب الرواقيين اليونانيين؛ وهو مذهب إنتشر فى بعض العصور عند طوائف من المسلمين مع مخالفته لقوله تعالى: ﴿ولا تنسى نصيبك من الدنيا﴾. ومع هذه المخالفة كان لهذا المذهب أدب مترامى الأطراف فى العصر العباسى وما بعده، والقرآن إنما يدعو إلى قصد السبيل، فلا يرضى هذا الحرمان، كما أنه لا يرضى الإباحية التى زعم إيرفنج الأمريكى المشهور أنها غمست المسلمين فى الترف وصرفتهم عن الجهاد، وهوت بالأمم الإسلامية إلى حيث هو اليوم.

ويزعم الكاتب الأمريكى هذا، أن المسيحية تدعو إلى الطهر والإيثار. على النقيض ما يقوله هو عن الإسلام، ولست أريد أن أوازن بين الإسلام والمسيحية (وعلى وجه الدقة النصرانية) فى هذه المسألة، لأنهما فيها متفقان غير مختلفين، وكثيراً ما تجر الموازنة إلى جدل وتنابز لا خير للطرفين فيه، لكنى ألاحظ، وأقف عند الملاحظة، أن أبين سيرة عيسى عليه السلام وما ينسب إلى النصرانية، من دعوة إلى الرواقية والإمعان فى الزهد، إختلافاً بيناً. فلم يكن المسيح (عيسى بن مريم) رواقياً[1]، بل كانت أولى معجزاته، أنه أحال الماء خمراً بعد نفادها «بإذن الله»، وهو لم يكن يأبى دعوة الفرنسيين إلى مآدبهم الفخمة، ولا كان يأبى على الناس أن يستمتعوا بأنعم الله. وسيرة محمد فى ذلك أشد إمعاناً فى قصد السبيل. صحيح أن عيسى كان يدعو الأغنياء إلى البر بالفقراء

(١) تعمدت هنا أن أضع كلمة أو عبارة (عيسي بن مريم) بين قوسين للدلالة علي أنه المسيح، ذلك أن النصاري قد حذفوا كلمة عيسي من الإنجيل، حتي لا يكون ابن مريم، ويكون ابن الله؟!. فقال الله لهم في القرآن ﴿نما المسيح عيسي بن مريم﴾ المؤلف.

ومحبتهم من غير منّ. والقرآن فى هذا وفى الدعوة إليه أبلغ ما عرف البشر. وقد تلا القارئ من ذلك عند الكلام عن الزكاة وعن الصدقة ما يغنينا عن معاودة القول فيه.

وحسبنا رداً على إيرفنج الأمريكى وأمثاله؛ أن القرآن دعا إلى قصد السبيل فى كل شئ. كذلك يقول إيرفنج متهماً العرب والإسلام: «إن بقاء الهلال حتى اليوم فى أوربا، حيث كان يوماً ما بالغاً غاية القوة، إنما يرجع إلى إختيار الدول المسيحية (النصرانية) الكبرى، أو يرجع بالأحرى إلى تنافسها؛ ولعل الهلال باق ليكون دليلاً جديداً على أن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة». يا عجباً، لعل لإيرفنج من العذر أنه قالها منذ قرن مضى، حيث لم يكن الإستعمار الغربى فى تعبيرنا، قد بلغ من الشر والجشع ما أخذ بالسيف ما بلغ اليوم. ولكن الماريشال الإنجليزى اللنبى الذى استولى على بيت المقدس سنة ١٩١٨م بأسم دول الحلفاء قد قال مثل هذه العبارة؛ إذ نادى عند هيكل سليمان: «اليوم إنتهت الحروب الصليبية»، وقال د. بيتر سميث فى كتابه عن سيرة المسيح (عيسى بن مريم): «إن هذا الإستيلاء على بيت المقدس، كان حرباً صليبية ثامنة، أدركت المسيحية فيما يبدو فيها غايتها، وقد يكون من الحق أن هذا الإستيلاء لم ينجح بمجهود المسيحيين، وإنما نجح بمجهود اليهود، الذين سخروهم ليحققوا حلم إسرائيل القديم فيجعلوا أرض الميعاد وطناً قومياً لليهود.

«ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة» لئن صدقت كلمة الإنجيل هذه على قوم، لهى أشد ما تكون صدقاً اليوم على أوروبا المسيحية. أما الإسلام فلم يؤخذ بالسيف، ولئن يؤخذ لذلك بالسيف، وأوربا المسيحية قد أخذت بالسيف فى العصر الأخير إمعاناً فى الإباحية والترف، مما ينسبه إيرفنج باطلاً للإسلام والمسلمين.

إن أوربا المسيحية تقوم اليوم بالدور الذى قام به المغول والتتار حين اتشحوا ظاهراً برداء الإسلام، ثم فتحوا الممالك دون أن يبعثوا بتعاليم الإسلام فيها، فحقت عليهم وعلى المسلمين الكلمة. وكان هذا التدهور والإنحلال الذى أصاب الشعوب الإسلامية، وأوروبا النصرانية اليوم أقل فضلاً من التتار والمغول؛ فالممالك التى فتحها هؤلاء سرعان ما دخلت فى الإسلام حين رأت عظمته وبساطته، أما أوربا فلا تعزو لتنشر عقيدة، لا لتدعو إلى حضارة؛ إنما هى تريد استعماراً، وتريد أن تجعل من العقيدة النصرانية مطية هذا الإستعمار. لذلك لم تنجح الدعاية التبشيرية الأوروبية لأنها دعاية غير مخلصة. وهى لم تنجح ولن تنجح فى الأمم الإسلامية إطلاقاً، لأن عظمة الإسلام وبساطته فى نفس الوقت، وأخذه بحكم العقل والعلم، لا تجعل لأية دعاية دينية أملاً فى النجاح بين أبنائه.

أما ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة، فهى عبارة صحيحة وهى وإن طبقت على المتأخرين من المسلمين الذين غزوا ليفتحوا الممالك وليستعمروا، لا ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم، لهو اليوم أشد إنطباقاً على هذا الغرب الذى يغزو ويفتح لبذل الشعوب ويستعمرها. فأما المسلمون الأولون من عهد النبى وخلفائه ومن جاءوا بعدهم، فلم يغزوا للفتح والإستعمار، وإنما غزو للدفاع عن عقيدتهم، حين هددتها قريش، وحين هددها العرب، ثم حين هددها الروم والفرس، وهم فى هذا الغزو لم يقصدوا إلى الإستعمار؛ فقد ترك النبى ملوك العرب وأمراءها على إماراتهم وممالكهم، إنما أرادوا حرية الدعوة للعقيدة. ولما كانت العقيدة الإسلامية قوية بالحق الذى تنادى به، قوية بأنها لاتجعل فضلاً لعربى على أعجمى إلا بالتقوى، وبأنها لا تجعل لغير الله على الإنسان سلطاناً. فلما جاء المتأخرون ممن دخلوا فى الإسلام وغزو للفتح وأخذوا بالسيف وأُخذوا من بعد ذلك

بالسيف. لكن الإسلام لم يأخذ بالسيف ولن يؤخذ بالسيف. هو لم يأخذ بالسيف شيئاً قط، بل إستولى على العقول والقلوب والضمائر بقوة سلطانه. لذلك تعاقبت على أممه دول حكمتها وقهرتها وتحكمت فيها، فلم يغير من إسلامها، ولا غير من إيمانها. وما تزال أوربا اليوم تحكم الشعوب وتتحكم فيها من الناحية الإقتصادية والفكرية والثقافية، حتى أن البعض أطلق على هذا العصر، عصر تصارع الحضارات، وإن كان هذا الغزو الثقافى والإقتصادى لن يغير من إيمان الأمة الإسلامية شيئاً. فأما الذين يأخذون الإسلام والمسلمين اليوم بالسيف فمصيرهم كى تصدق عليهم كلمة الإنجيل، أن يؤخذوا بالسيف جزاء وفاقاً.

وإذا ما حاولنا أن نقارن بين عصبة الأمم الإسلامية العربية فى أواخر عهد النبى ﷺ، وبين عصبة الأمم اليوم، أمكننا القول: أن بلاد العرب حتى آخر عهد النبى كان كل ملك أو أمير قد ردّه النبى إلى مملكته، ولم تكن فى جزيرة العرب مستعمرة واحدة خاضعة لمكة أو يثرب (المدينة) وكان العرب آنذاك سواسية أمام الله فى إيمانهم القوى، وكانوا جميعاً يداً واحدة على من إعتدى عليهم، أو حاول فتنتهم عن دينهم. وظلت الأمم الإسلامية من بعد ذلك وإلى عهد الإضمحلال عصبة أمم إسلامية، مقر الخليفة فيها هو مقر العصبة، لم تستأثر دار الخلافة فيها بالسطلة الروحية، ولا استأثرت بالعلم ونوره، بل كانت كل الأمم الإسلامية لا تعرف سلطة روحية غير أمر الله. وكانت العواصم الإسلامية كلها عواصم للعلم والفن والعمارة، كما أسلفنا فى هذا الكتاب، وظل ذلك شأنها حتى تغير المسلمون للإسلام، وأنكروا مبادئه الكريمة، ونسوا أخوة المؤمنين، ونسوا أن المرء لا يكمل دينه أو إيمانه حتى يحب لأخية ما يحب لنفسه. هنالك غلبت عليهم الأثرة؛ وهنالك لعبت السياسة المدمرة أدوارها، فصار السيف حكماً ومن يأخذ بالسيف

فبالسيف يؤخذ، وهذا هو الحاصل الآن بين المسلمين فى افغانستان والعراق وفلسطين ولبنان والشيشان وغيرها من بقاع الأرض إعتداءات من قبل أهل الكفر والشرك على الإسلام والمسلمين، يدمرون ويقتلون ويحرقون ويعذبون، مما دفع بعض جماعات المسلمين ان يقابلوهم بما هو اشد واقوى، بقوة إيمانهم ودفاعاً عن عقيدتهم ودينهم، وليس إعتداءاً على حرمة الأخرين، فالقتال على أرض المسلمين وليس أرض العدو الكفار المغتصب. وهذا هو الفرق فى القتال بين المسلمين وغير المسلمين، فالمسلمين يدافعون عن عقيدة وإيمان بالله، والمشرك والكافر من أصحاب الملل الأخرى يقاتلون برغبة الإنتقام والإغتصاب لحقوق المسلمين؛ حتى الآن تتضح الصورة جلية بين قتال المسلمين وقتال غير المسلمين.

وعندما أدركت أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية المهيمنة على العالم اليوم عسكرياً وإقتصادياً، أنه لا طائل من هيمنتها، وأنها حتماً سوف تنتهى، أخذت الآن تبحث عن حياة روحية جديدة، ربما تخلصها من الشرك الذى وقعت فيه بسبب سياستها الحمقاء والغطرسة الكاذبة: ومع هذا وجدت أوربا والولايات المتحدة الأمريكية الفرصة أمامها كى تحقق أهدافها، فقد وجدت نفسها أمام شعوب وحكومات إسلامية نسيت الإسلام، فأخذتها أوربا وأمريكا بالسيف، وتظل الآن تمعن فى أخذها به، حتى أنها نصبت من نفسها حكماً بين الشعوب والأمم الإسلامية، وقد استجاب لذلك بعض الحكام العرب والمسلمين، الذين أوقفوا عقولهم مستجابين لمطالب وأوامر وتوجيهات الأعداء، أعداء الدين والله والوطن؛ فكيف بالله ينتظر بعد هذا الوهن والشلل الذى أصاب أمة الإسلام، إلا أن يعودوا إلى رشدهم ويفيقوا من غفوتهم هذه.

وطالما أن العرب والمسلمين على هذا النحو، فقد آمن الغرب الأوروبى

والولايات المتحدة ومواليهم، بأن السيف هو الحكم، وإن كانوا قد تنبهوا أن السيف هو سبب هذا البلاء فى العالم، فأخذوا يبحثون عن إقرار السلام منذ الحرب العالمية الأولى ثم الثانية فرأوا ضرورة تكوين عصبة عالمية، اطلقوا عليها عصبة الأمم المتحدة، لتحقيق هذه الغاية. ولكنها للأسف لم تحقق شيئاً مما أوكل إليها، إلا إذا كان فى صالح دول الغرب (أعداء العالم الإسلامى).

ولكن يسأل البعض نفسه، لماذا لم يسد السلام العالم حتى الآن منذ قيام تلك العصبة الواهية؟ الإجابة واضحة، وليست صعبة، لأن أساس الحضارة الغالبة (الأوروبية والأمريكية) هو الإستعمار؛ الإستعمار القائم على أساس القوميات وتنافسها ومحاولة كل دولة قوية إستغلال الدول الضعيفة؛ وبالتالى صار من حق كل أمه عربية أو إسلامية غير عربية أن تدافع عن نفسها وأن تعمل على تحطيم الغالب والمغتصب بأى طريقة كانت وبأى وسيلة تمتلكها. ولذلك كان الاستعمار أساس الثورات وأيضاً الحروب، فطالما هناك استعمار فلن يكون هناك سلام، حتى تضع الحرب أوزارها، وستظل الأمم تنظر إلى بعضها نظرة التوجس والخوف، بل نظرة التربص للإغتيال. وكيف يكون هناك سلام وهذه النفس المحطمة باقية، إنما يكون السلام يوم يغير الناس فى مختلف أمم الأرض ما بأنفسهم، ويوم يومنون بالسلام إيماناً حقاً، ويقيمون على أساسه تعاليمهم التى تحقق الحرية لكل الشعوب والمساواة بينهم، وهى من الأسس الحقيقية للإسلام.

ويكون ذلك يوم لا يكون الاستعمار أساس حضارة العالم ويوم يرى الناس جميعاً فى مختلف بقاع الأرض أن واجبهم الأول أن يعين قويهم ضعيفهم، وأن يرحم كبيرهم صغيرهم، وأن يهذب عالمهم جاهلهم، وأن ينشروا لواء العلم فى نواحى الأرض جميعاً، حرصاً على أن يسعد الناس به، لا أن يتخذ أداة الاستعمار

الشعوب بأسم العلم، وبأسم الصناعة التى تستفيد من العلم.

يوم يؤمن الناس جميعاً بهذا المبدأ قويهم وضعيفهم غنيهم وفقيرهم؛ يوم يشعر الناس جميعاً بأن العالم وطن واحد، وأنهم جميعاً أخوة يحب بعضهم بعضا، عندئذ يسود بين الناس التسامح والمودة والإخاء، وكل هذه القيم والمبادئ من أسس الإسلام التى سادت العالم وعاش فى ظله بإختلاف أجناسهم ودياناتهم وألوانهم فى حرية كاملة فى آسيا وافريقيا وأوربا، وذلك فى العصر الإسلامى الأول (العصر النبوى والراشدين والأمويين وجانباً من العصر العباسى). لأن الإسلام لا يحب الإعتداء ولا يدعو له، ويتضح ذلك فى قول الله عز وجل ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1].

هل رأيت فى باب التسامح أفضل وأفسح من هذا الأفق، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم، لا فرق بين المؤمن ومن لم تبلغه دعوة الإسلام على حقيقتها من غير تشويه من اليهود والنصارى والصابئين[2].

ويقول جل شأنه: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، خاشعين لله، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، أولئك لهم أجرهم عند ربهم، إن الله سريع الحساب﴾[3].

أين هذا مما يسود العالم باسم الحضارة الغربية (المادية) من تعصب للقومية، وما يجره هذا التعصب من حروب وكوارث.

---

(١) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ٦٢ .

(٢) الطبري، جـ١، ص٢٥٣-٢٥٧ .

(٣) القرآن الكريم، سورة آل عمران، آية ١٩٩ .

روح الإسلام ودين الإسلام السامى هو الذى يجب أن يسود العالم إذا أراد العالم أن يسود السلام ليسعد الناس به، وأن الدين الإسلامى هو الدين الأوحد فى العالم، ليس هناك دين حقيقى غيره لأن الله عز وجل أرسل محمداً ﷺ للناس كافة، وليس للعرب وحدهم، لأنه خاتم النبيين والمرسلين، فلا دين بعد الإسلام ولا نبى بعد محمد وأن الدين عند الله الإسلام[1]. ولكى يسود السلام العالم يجب على العالم أجمع ان يتبع تعاليم الدين الإسلامى وأن يتخذوا من النبى محمد اسوة يتأسون بها حتى يتحقق للعالم كله السعادة. وقد ذكر بعض المعتدلين فى الغرب قول مأثور جاء فيه: «لو أن محمداً حياً لساد السلام العالم، فالعالم محتاج إلى قيادته وحده».

---

(١) د. عبد اللطيف عبد الهادي السيد، مفكرون غربيون ... لماذا أسلموا؟.

الفصل الثـامن

عالمية الدين الإسلامى

الإسلام دين شادته تعاليمه وسودته مبادئه، وهو باق ما بقى العالم ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، هو الذى أنزل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون﴾. ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾. ترتعد فرائض أوربا خوفاً وفرقاً كلما خطر ببالها يقظة الإسلام وتقدمه. ويبدو للمسيحية شبح تلك اليقظة مرعباً مفزعاً فتسعى جاهدة فى سبيل إحباط مساعى قادتها بكل ما أوتوا من قوة، وما لديها من عراقيل وأحابيل وما كانت الحروب الصليبية التى أثارتها بابوية وأباطرة وملوك وأمراء الغرب فى أواخر القرن الحادى عشر بقيادة بطرس الناسك والبابا أربان الثانى، إلا أثراً من آثار خوفهما ورهبتهما؛ رغماً عن أنهما بأسم المسيحية والمدنية حملا حملتهما المرهقة على الإسلام وحكامه، وفعل بهما ما تترفع عن فعله أقل وأدنى أمم العالم حضارة ومدنية، وما تبرأ منه الإنسانية. فقد بقى الإسلام كما هو، عزيز الجانب، منيع الحمى، يصبر ويصابر، ويوقن أن للأيام دورة، وأن لكل أمة أجل، وأن لكل أجل كتاب.

توالت الحروب، وتتابعت الفتن حتى لم تخل منهما مملكة إسلامية، وكان سببهما واحداً، يكمن فى «متى كانت الأمة الإسلامية ساكنة هادئة يجعلها تتقدم، وتنهض، وتعمل من أجل الخلاص، سواء من سيطرة حكامها المستبدين أو من قبل الآخرين من المستعمرين الذين غرتهم قوتهم المادية الذين وضعوا أيديهم عليها قوة وإقتداراً ليضمنوا غفلتها إلى الأبد؛ وليخفتوا صوتها، كلما عنّ لها أن تبدى ألماً، أو تعلن عن وجودها فى عالم الأحياء. وما كانوا ليعلموا أن الأمر بيد مقلب الليل والنهار، وأنه لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة.

عرف الإسلام فى كل جيل وقبيل أنه دين الرقى والمدنية، وأن تعاليمه لا

ترضى المذلة أو الهوان؛ حتى فى أخطر مراحل تاريخها وأشد أزماتها، وأن أهله كالأسود، يحتملون الرضوخ إلى حد ما؛ فإذا ما طغى الأمر واشتد الأسر، استجمعوا قواهم لتحطيم الأصفاد والأغلال التى كانت فى أعناقهم، وثاروا إلى حيث الخلاص، والويل كل الويل بعد ذلك، لكل معتد أثيم وحسبهم أن ربهم وعدهم الجنة فى سبيل دفاعهم عن دينهم.

أتت على الإسلام حروب عديدة وقرون طويلة وهو يناضل ضد الأعداء ويجاهدهم، وقد أراد الله أن تكون الغلبة له حتى فى أشد الأوقات عسراً، ولئن ذهبت القوة بأجزاء بعض ممالكه، إلا أنها أبقت تلك الأجزاء كما هى توحد الله وتقر برسالة نبيه محمد ﷺ، بل وتنشر فى كل مناسبة ذلك المبدأ القويم، مبدأ عبادة الله وتوحيده، فنبتت تلك المبادئ الحقة فى كل بلاد الله شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ونما عدد معتنقيها وتكاثر عددهم؛ وكان هذا النمو وتلك الكثرة من أبناء المسيحية الذين رجعوا إلى تعاليم الإسلام بعد دراستها وتفهم معانيها، والوقوف على أسرارها، وإن تعجب فعجب أن أولئك الصائبين إليها من العلماء الأعلام، والفلاسفة الكرام، وفى قلب العواصم المسيحية، وعلى مقربة من حصنهم القديم، ومكمنهم العتيد، الذى يحيطه البابا بكبريائه وجبروته؛ ونجد منهم المئات والألوف، يسبحون الله ويقدسونه، ويعلنون رسالة محمد ﷺ، ويمجدونه وكأنهم الجاذبية التى يهوى إليها كل غير متمالك قواه، ومن ذا الذى لا يخرّ سجداً أمام عظمة الله وجبروته، وحسبنا أن ندع قادة أوربا من أبناء المسيحية أنفسهم يتكلمون وحسب القارئ أن يأخذ الحقائق من كلامهم وأفواههم؛ والفضل كما يقولون ما شهدت به الأعداء. ولنبدأ بقول مسيو/ هانوتو وزير خارجية فرنسا سابقاً يقول: «لقد أنبتت فئة من المسلمين فى الصين، فإنتشر

الإسلام فى تلك البلاد إنتشاراً هائلاً؛ حتى ذهب البعض إلى القول بأن العشرين مليوناً من المسلمين - وقد زاد عددهم الآن كثيراً - الموجودين فى الصين، لايلبثون أن يصيروا مائة مليون، فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء (لساكيامونى)، وليس هذا بالأمر الغريب، فإنه لا يوجد مكان على سطح المعمورة إلا واجتاز الإسلام فيه حدوده منتشراً فى الآفاق، فهو الدين الوحيد الذى تفوق شدة الميل إلى التدين به كل إعتناق دين سواه؛ ففى البقاع الأفريقية ترى المرابطين، وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون إلى الوثنين من العبيد العارية أجسادهم من كل شعار قواعد الحياة ومبادئ السلوك فى هذه الدنيا.

كما أن أمثالهم فى القارة الأسيوية ينشرون بين الشعوب الصفر قواعد الدين الإسلامى وأسسه، ثم أن هذا الدين قائم على أسس ثابتة الأركان فى أوربا عينها، حيث عجزت الشعوب المسيحية عن إستئصال جرثومة واحدة من هذا الركن المنيع ... إلخ».

ويقول مسير/ شاتيلين:

« إن المتأمل حال الإسلام فى القطرين الذين هما أصل أقطار آسيا وأقطار العالم الآهل بالسكان، وهما الهند والصين، يجد أن الإسلام وحده يتقدم بينهم، على حين أن غيره من الديانات القديمة يتداعى ويضعف، والمسيحية «النصرانية» ذاتها لا تكاد تثبت».

ويذكر مسيو/ فازيليف:

«إن مصير الإسلام القيام مقام مذهب ساكيامونى (بوذا) وأن لمسلمى المملكة السماوية اعتقاداً جازماً بأن الإسلام لابد أن يسود حتى تزول به تلك الديانات

القديمة؛ وهى مسألة من أهم المسائل. إذ الصين آهلة بثلث العالم أو يزيد، ولو صاروا كلهم مسلمين، لأوجب ذلك تغييراً عظيماً فى حالة تلك البلاد جميعاً. فيمتد فرع محمد بن عبد الله من جبل طارق إلى المحيط الهادى، ويخشى على الدين المسيحى مرة أخرى. ومعلوم أن أمة الصين أمة عاملة، وجميع الأمم تستفيد الآن من علمها، فلو جاء التعصب الإسلامى هكذا (لخشيت بقية الأمم الأخرى السقوط تحت سلطانها).

والآن نكتفى بأقوال هؤلاء، وإن كانوا فى عرضهم وأقوالهم لا يقصدون الإقرار للإسلام بالفضل، ولا إظهار ماله من عظمة روحية، أو مكانة حتى فى العالم، وإنما قصدوا تنبيه أوروبا عامة والمسيحية خاصة إلى خطورة إنتشار الإسلام وسيادته للعالم، فتتلاشى الديانات الأخرى أمامه، كما يتلاشى الضباب أمام أشعة الشمس، فتنتشر الشمس ويختفى الضباب. وهذه الأقوال تحمل فى معناها شيئين متضادين، الأول: شهادة من أعداء الإسلام بعظمته وبقدرته على سيادة العالم، والثانى: تحذير لبنى جنسهم من خطورة هذا المدّ الإسلامى؛ وإن كنا نضيف إلى ذلك فكرة ثالثة هى عالمية الدين الإسلامى الذى أمر به النبى محمد لأن يكون للناس جميعاً، أو الناس كافة، وليس لأمة العرب وحدهم؛ فهو الخاتم فلا نبى بعده.

وقد رأينا أن نضيف هنا سنداً آخر لأقوال الد أعداء الإسلام، من الأمريكيين وهو العالم مسيو/ كرابيتسى وهو يتحدث عن إنتشار الإسلام بين زنوج أمريكا فيقول:

إن بذور الإسلام نبتت فى الولايات المتحدة الأمريكية، ولست أعرف إلى أى

حد نمت وترعرعت. وفى وسعى أن أتكهن بناء هذا الزرع وإزدهاره بين الزنوج والزنجيات الأمريكيات. فى استطاعة المبشر بالدين الإسلامى أن يقول صادقاً: إن الإسلام يقرر المساواة الإجتماعية ويحبذها، وإذا حدثت زنجياً أمريكياً عن المساواة الإجتماعية استمع إليك وكله آذان صاغية. ولقد مضى على الإسلام أكثر من ١٣٠٠عاماً وهو يبث فكرة المساواة هذه ويباشرها، ولا يعتقد بوجود حواجز بين الأجناس البشرية على إختلاف ألوانها: فالقوقازى صاحب البشرة البيضاء ينظر إلى السودانى المسلم صاحب البشرة السوداء على إعتبار أنه أخ له ويعامله على قدم المساواة كما لو كان شقيقه؛ مهما يكن بينهما من تفاوت فى العقلية. ولقد كان الأمراء والملوك المسلمون يعاملون أبناءهم من النساء البيض مثلما يعاملون أبناءهم من النساء السود على حد سواء وبلا تمييز؛ إننا عندما نفكر أن الإسلام صار خطراً فى أمريكا يجب أن نعلم أن الإسلام يجتذب إلى حضيرته آية ديانة أخرى. ففى مصر مثلاً يوجد ٣٤ مليون مسلماً ومليون من النصارى - هذا التقدير فى أوائل الخمسينات من القرن العشرين - واليهود وأصحاب الملل الأخرى، ويربح الإسلام مليون كل عام يعتنقونه، على حين لا تربح المسيحية ولا بمسلم واحد كل عشر سنوات. وقد أزعجنى ما بلغنى. وليس معنى ما بلغنى أن الجزويت ورجال الكنيسة البروتستانتينية والإنجيلية مقصرون فى واجبهم التبشيرى، فأنا أعرف - والكلام لا يزال للكاتب الأمريكى كاربيتسى- أنهم يبذلون أقصى الجهد، لكن من يعتنقون المسيحية من المسلمين لا يشجع على الإطمئنان». ثم قال القاضى كاربيتسى: وهذا هو رأية فى إنتشار الإسلام بين زنوج أمريكا، وقد رأيناه فى نهاية مقاله يحث المبشرين فى طرف خفى على مضاعفة جهدهم، فنحب هنا أن نعرف رأى جماعة الإسلام والقائمين على الدين

الإســلامى وأولى الأمــر من هذه المزاعم الأمــريكيــة وغــيــرها مـن أعــداء الـدين الإسلامى.

ومن كـلام الأعـداء، نسـتطيع أن نؤكـد علـى حقـيـقـة مـفـادها؛ أن الحـضـارة الإسلامية حضارة عالمية وليست هناك أية ديانة أخرى عالمية غير الدين الإسلامى، وذلك تصديقـاً لقول الله تعـالى: ﴿إنا أرسلناك للناس كافة﴾، ﴿ومـا أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

لقد قـامت الحـضارة الإسلامـيـة على أسـاس إيمـانهـا بالإسلام ونـفـورها من التعصب الدينى وإحترامها لكل الأديان الأخـرى، وإعترافها بحق أصحابها فى أن يمارسوا تعاليمها وطقوسها وشعائرها حسبما يريدون. لقد كان هـذا مظهراً من مظاهر الحضارة الإسلامية منذ وجدت، وفى التاريخ الإسـلامى - الذى عرضنا له على إمتـداد الأجـزاء الثـمـانيـة - أمـثلة كـثيـرة، ضـربهـا الخلفـاء والولاة لمسلمـون، حينما قربوا العلمـاء والمفكرين من كل الأجناس والملل، من غيـر تمييـز بين دين ودين، ومـذهب ومذهب، ويكفى أن نشيـر إلى أن كـثيـر من أطبـاء الخلفـاء الأمـويين كان من غير المسلمين[1].

وقد اعـتـرف بذلك كـثيـر من المسيـحيين واليـهـود بتسـامح الدين الإسلامى والمسلمين فى مـعاملتهم لغيـر المسلمين. بل كان منهم الوزراء. وحتى فـى مصر فى عصرنا الحـاضـر؛ وقـد جـاء على لسـان بعضهم وهو البطرق «عيشويابة»[2] مثلاً، وهو الذى تولى منصبه عام ٦٤٧-٦٥٧هـ/ ١٢١٨-١٢٢٨م «أن المسلمين الـذين مكنهم الله من حكم العـالم ليسوا أعداء للمسيحية؛ إنهم يوقرون قديسنا وقسيسينا،

---

(١) د. عبد اللطيف عبدالهادي، موسوعة التاريخ الإسلامي، جـ٤ .

(٢) س. بنزتون: أهل الذمة في الإسلام.

ويحترمون أماكن عبادتنا».

وقال «توماس أرنولد»[1]: «لقد عامل المسلمون الظافرون المسيحيين من العرب بتسامح عظيم منذ القرن الأول من الهجرة». ونستطيع أن نقر أن من اعتنق الإسلام من المسيحيين، إنما اعتنقه عن رغبة وإرادة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا الحاضر بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح الدينى؛ قال الله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وقالوا آمنا بالذى أنزل إلينا وإنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾.

هذا التسامح الدينى، والمساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات وعدم التمييز أو التعصب هو من الحضارة الإسلامية ومن مظاهرها المميزة؛ وهذا التسامح والمساواة من أهم أسس الدين الإسلامى وأهم مظاهر للحضارة الإنسانية الإسلامية.

والحضارة الإسلامية ذات طابع مميز آخر، يجمع بين الدين والدنيا، وبين الروح والمادة، وإن كان لا يسمح للمادة أن تطغى، وإلا خرج بطغيانه عن الأساس السليم، وفقد خاصية هامة من خصائص وسمات الحضارة الإسلامية.

لقد استطاع المسلمون أن يزاوجوا بين تعاليم الدين والبحث العلمى.

ومن الصفات التى ميزت الحضارة الإسلامية عن غيرها، أنها إمتلكت القوة التى تنشأ من إمتزاج عالم الروح وعالم المادة ... ولا غرابة إذن أن نجد باحثاً أوعالماً أورپياً مثل «برك» يقول فى إحدى مؤلفاته «عرب الأمس وعرب الغد» ... ان الطابع الذى ميز الحضارة الإسلامية، هوالطابع الذى لم يفصل بين المادة

---

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلي الإسلام.

والفكر، وبين النظر فى الأشياء بتفاصيلها الدقيقة، وبين الكليات والأفكار العامة، ... واستطرد يقول فى كتابه:

«إن العرب حين بحثوا فى أمور السماء وشئون الروح والفكر، عرفوا كيف يبرزون فى هذا المجال، وعندما بحثوا فى أمور الدنيا عرفوا كيف يفكرون فى الحياة ويسخرون المادة، حتى كانوا ممتازين فى الحالين».

لقد استطاع العالم الإسلامى (أو العقل الإسلامى) أن يولد نزعة موحدة، تنظر إلى الكون نظرة واحدة فى جميع مجالاته. واستدل على ذلك بما إجتمع عند علماء المسلمين من عناية مزدوجة بين الأدب والفسلفة من جانب، والعلم والتجربة من جانب آخر؛ وفى وقت واحد. ويكفى فى هذا المجال أن نذكر أسماء فلاسفة وعلماء من أمثال «ابن سينا» و«ابن رشد» و«البيرونى» و«الخوارزمى» وغيرهم كثير وفى شتى مجالات العلوم قد عرضنا لهم من قبل. فهؤلاء جميعاً وغيرهم إلتقى عندهم الإهتمام بالأدب والدين، والفسلفة مع الإهتمام بالعلم والبحث التجريبى.

هذا الطابع المميز للحضارة الإسلامية أشاد به «فانتجو» فى كتابه «المعجزة العربية» التى قوامها الجمع بين جوانب الحضارة الفكرية الروحية وبين جوانب الحضارة المادية. وتلك المعجزة هى التى جعلت كاتباً أوروبياً حديثاً مثل «راندال» يقرر فى كتابه «تكوين العقل الحديث» أن الفضل فى خلط الروح والسمو الروحى بالحياة المادية يرجع إلى المسلمين الذين مزجوا بين الفكر والعمل. وهكذا كان الفكر الإسلامى الممتاز الخلاق لا يعرف الفصل بين إتجاهات الفكر والروح وبين إتجاهات المادة والواقع».

لقد استطاعت الحضارة الإسلامية بذلك، أن تجنب الإنسان مخاطر إضطراب التوازن فى الفكر بين الروح والمادة، فلم تغلب أحدهما على الأخرى. بل جعلت الجانب المادى مكملاً للجانب الدينى والروحى.

وقد أيد الفيلسوف الغربى «ديوى» هذا الإتجاه بقوله:

«إن العقل لا يصبح ذا دلالة إلا عندما ينصب عمله على المواقف العلمية فى الحياة». وهذا الجانب من الحضارة الإسلامية جعلها حضارة واقعية جمعت بين القول والعمل، وحققت فى نفس الوقت السمو الروحى ومطالب الحياة المادية.

ومن أسس ومظاهر الحضارة الإسلامية أنها تقوم على أساس علمى وفكرى سليم، والحرص على نشرهما أياً كان مصدرهما دون إحتكار الفضل أو حجبه عن الناس.

أما الحضارة الأوروبية الغربية فإنها قامت على أساس مادى صرف واعتبرت المادة مصدر قوة الإنسان وتقدمه، وأقامت حضارتها المادية فى شتى المجالات على أساس قوة الإقتصاد، الذى اعتبرته مصدر قوة الدولة، وبالتالى قوة الإنسان غير أن مثل هذه الحضارة سرعان ما تنهار وتتلاشى لأنها خالية من الروح، فقدت كل عناصر الإنسانية التى تدعى أنها تنادى بها - أى بحرية الإنسان - تلك وسيلتها اليوم المطالبة بحرية الإنسان لها ولأبنائها، وتنكرها على الشعوب الأخرى النامية. لقد حاربت المدنية الغربية حرية الإنسان فى العلم الإسلامى، والإفريقى، واغتالت خيرات الشعوب إما بالقوة أو التلويح بالتهديد، أو فى شكل علاقات إقتصادية لا يمكن مقارنة الطرفين بأى حال من الأحوال فى هذا المجال، فتبسط يدها على مقدرات الشعوب النامية بدعوى قيامها بحركة إصلاح داخلى. وهى

بذلك على النقيض من الحضارة الإسلامية، وما فعلته مع الشعوب الأجنبية، حيث كانت شعوب العالم عندهم سواء بسواء، لا فرق بين مسلم وغير مسلم، فالجميع يتمتع بحرية كاملة فى دينهم ودنياهم.

وكان الخلفاء السلاطين المسلمين يحترمون الفكر البشرى، ولا يفرضون حواجز على الإبداع والإبتكار، لأن العلم فى نظرهم حق ومتاع لكل إنسان، لا فرق بين عربى وأعجمى، وأبيض وأسود.

كل هذه العوامل مجتمعة، أدت إلى حضارة إسلامية، قوامها الدين القويم والفكر الحر والإيمان بالعلم التجريبى، لجميع الممالك والأمصار، وهذا ما جعل الحضارة الإسلامية تراثاً فكرياً وعلماً للإنسانية كلها؛ ولهذا لم نسمع أو نقرأ عن محنة أصابت عالماً مسلماً بسبب رأى أبداه أو كتبه - إلا فى عالمنا المعاصر - بل وجدنا رعاية الحكام والولاة للعلم والعلماء، إذ كان الحلفاء يتفاخرون بمن يحضر مجالسهم من العلماء. بل كانوا يدعونهم من كل فج، حتى أن أبا الأسود الدؤلى قال وقتئذ: «الملوك حكام الناس، والعلماء حكام الملوك».

هذا فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تغط فى ظلام دامس وثبات عميق، وكان رجال الكنيسة يحاكمون العلم والعلماء ويضطهدون كل صاحب رأى جديد يتعارض مع أفكارهم الكنسية التى تقوم على أساس استغلال الشعوب المسيحية الأوروبية أسوأ إستغلال حتى هيمنوا على فكرهم وعقولهم، واستطاعوا إقناع شعوبهم بأنهم وسطاء عند ربهم، وأن بإمكانهم منحهم حق الغفران عند الموت، وظهر آنذاك ما يعرف «بصكوك الغفران». وعندما كشف مارتن لوثر الألمانى ألاعيب البابوية أعلن الثورة عليه فيما يعرف «بحركة الإصلاح الدينى» وتمكن من

كشف تزييف البابوية للدين والفكر المسيحى قروناً طويلة، فأمروا بقتله، كما حاكموا العالم «جاليليو» وأصدروا ضده حكم بالإعدام عندما نادى بأفكاره فى «كروية الأرض ودورانها».

لقد إنتشرت الحضارة الإسلامية فى بيئات صحراوية، وبيئات جغرافية متباينة كانت فيها البادية والحضر، وفيها السهول والمرتفعات والوديان والأنهار، ولم تكن من جنس واحد، بل كانت بيئات تشتمل أجناس مختلفة؛ هذا التنوع الجغرافى والبشرى أعطى الحضارة الإسلامية موارد ومصادر للرقى المادى والفكر الثقافى المختلف الذى تجمع فى بوتقة واحدة أخرجت لنا الحضارة الإنسانية ذات السمة العالمية؛ لأن هذا التنوع البشرى تحت لواء عقيدة وفكر موحد، أمدّ الحضارة الإسلامية بمواهب متنوعة وحيوية متجددة؛ وأعطاها أيضاً قدرة على مسايرة الزمن والقدرة على التحمل والبقاء.

ولقد كان للعلماء والتجار والأئمة حرية التنقل فى مختلف أرجاء الدولة الإسلامية - كما بينا فى الفصل السابق - البعيدة والمترامية الأطراف من سواحل أفريقية الشمالية ودول حوض البحر المتوسط إلى الصين والهند الغربية والشرقية وإلى بلاد الملايو. كان المسلمون فى كل هذه الأصقاع رسل حضارة وثقافة وعلم ونور، وكانوا واسعى الأفق، يدركون رسالتهم وحق الإنسان فى العطاء والأخذ والتأثير والتأثر؛ وهذا بدوره سهل الإختلاط والإمتزاج بين الأقطار الإسلامية، فجعل منهم وحدة إسلامية واحدة مترابطة ومتجانسة فى الدين والعقيدة، والفكر والثقافة والعلم؛ وبفضل ما وجده أهل الفن والعمارة والصناعة من حرية وتشجيع وتأييد؛ إنتقلت هذه الصناعات والفنون من بلد إلى بلد آخر، ومن شعب إلى شعب دون أن يعوقها عائق، أو يحجز عليها حاكم.

هكذا يمكننا القول دون مناورة أن الحضارة الإسلامية بعد كل هذا قد خرجت من حدودها الضيقة إلى حدود مترامية ممتدة، واسعة الأطراف والأرجاء تشتمل على شعوب كثيرة، وأجناس متباينة، وتعيش تحت لواء عقيدة واحدة؛ وهذا ما جعلها حضارة عالمية، تحقيقاً لقوله تعالى ﴿إنا ارسلناك مبشراً ونذيراً﴾، و﴿إنا أرسلناك للناس كافة﴾. وهذه الحضارة العالمية هى التى نهلت منها الحضارة الأوروبية الحديثة كل مقوماتها المادية فقط. لذا، فإنها - أى الحضارة الأوروبية - تبحث عن الأدوات الروحية التى تمنحهم الأمن والاستقرار والأطمئنان فى حياتهم التى رغم رغد العيش فيها إلا أنها حضارة مدمرة للإنسانية.

الخـــاتمة

حول أمية النبي محمد

صلى الله عليه وسلم

لو اننا عرضنا كثيراً من الأمور التى ترويها كتب السيرة وكتب الحديث، على ما فى القرآن، ما وسعنا إلا أن نأخذ برأى الأئمة المدققين. فقد كان أهل مكة يطلبون إلى النبى أن يجرى ربه على يديه المعجزات، إذا أرادهم أن يصدقوه فنزل القرآن، يذكر ما طلبوا ويدفعه بحجج مختلفة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣)﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)﴾[2].

ولم يرد فى كتاب الله ذكر لمعجزة أراد الله بها أن يؤمن الناس كافة، على إختلاف عصورهم، برسالة محمد إلا القرآن الكريم. هذا مع أنه ذكر المعجزات التى جرت بإذن الله على أيدى من سبق محمداً من الرسل، كما أنه جرى بالكثير مما أفاء الله على محمد وما وجّه إليه الخطاب فيه. وما ورد فى الكتب عن النبى العربى لا يخالف سنة الكون فى شئ.

أما وذلك ما يجرى به كتاب الله، وما يقتضيه حديث رسول الله، فأى داع دعا طائفة من المسلمين فيما مضى، ويدعو طائفة منهم اليوم إلى إثبات خوارق

---

(١) القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآيات من ٩٠ - ٩٣ .

(٢) نفسه، الأنعام، الأيات من ١٠٩-١١١ .

مادية للنبى العربى «الأمى»؟! إنما دعاهم إلى ذلك أنهم تلوا ما جاء فى القرآن، عن معجزات من سبق محمداً من الرسل. فاعتقدوا أن هذا النوع من الخوارق المادية لازم لكمال الرسالة، فصدقوا ما روى منها، وإن لم يرد فى القرآن - مع أن القرآن لم يغادر صغيرة منها، إلا أحصاها - وظنوا أنها كلما إزداد عددها كانت أدلّ على هذا الكمال، وأدعى إلى أن يزداد الناس بالرسالة إيماناً. ومقارنة النبى العربى «الأمى» بمن سبقه من الرسل مقارنة مع الفارق. فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو مع ذلك أول رسول بعثه الله للناس كافة، ولم يبعثه إلى قومه وحدهم ليبين لهم. لذلك أراد الله أن تكون معجزة النبى محمد معجزة إنسانية عقلية. لا يستطيع الإنس والجن الإتيان بمثلها، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. هذه المعجزة هى القرآن الكريم وهى أكبر المعجزات التى أذن الله بها، وليست كما يدعى بعض العلماء وغيرهم، القول فى أمية النبى محمد بجهله القراءة والكتابة، لأن أمية النبى لا تعنى على الإطلاق الجهل بالقراءة والكتابة، وهو ما سنوضحه فى الصفحات التالية. أقول أن معجزة الرسول (محمد) مقصورة على القرآن، بعيداً عما جاء به من أعمال خارقة أخرى. وقد أراد الله تعالى من معجزة القرآن للنبى محمد أن تثبت رسالته بالحجة البينة والدليل الدامغ، وأراد لدينه أن ينتصر بفضل منه فى حياة هذا النبى؛ ليرى الناس فى إنتصاره قوة سلطانه؛ ولو أراد الله أن تكون المعجزة المادية وسيلة إلى إقتناع من نزل الإسلام على رسوله بينهم، لكانت ولذكرها فى كتابه - كما فعلها وذكرها على الأنبياء من قبل - لكن من الناس لا يصدقون إلا ما يقره العقل، لذلك كانت الوسيلة إلى إقناع الناس كافة برسالة محمد أوثق ما تكون إتصالاً بقلوبهم وعقولهم، فجعل القرآن حجته البالغة، معجزة النبى الأمى العربى إليهم، وجعل إنتصار دينه، وقوة الإيمان به آيتين من طريق الدليل اليقينى والإقتناع الصادق. والدين الذى يقوم على هذا

الأساس أدعى إلى أن يؤمن الناس جميعاً به على مرّ العصور وإختلاف الأمم وتباين اللغات.

لم يثبت التاريخ أن المعجزات حملت أحداً على الإيمان، بل كانت حجة الله البالغة عن طريق الوحى على لسان نبيه، والذى كانت فى حياته فى سموها البالغ غاية السمو، هى التى دعت إلى إيمان من آمن من قومه «الأميين». وأن طائفة من كتب السيرة جميعاً لتذكر أن طائفة من الذين آمنوا برسالة محمد قبل الإسراء، قد ارتدت عن إيمانها حين ذكر النبى أن الله أسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك حوله. ولم يؤمن «سراقة بن جعشم» لما إتبع محمداً حين هجرته إلى المدينة ليأتى اهل مكة به حياً أو ميتاً طمعاً فى مالهم، على الرغم ما روت كتب السيرة من معجزة الله فى سراقة وفى جواده، كما آمن من سحرة فرعون لما لقف عصا موسى ما صنعوا.

وأما قول السواد الأعظم من المسلمين، علماء وبسطاء فى موضوع أمية الرسول، فهذا أمر قد أثار دهشتى بعد هذا السن الذى بلغت، وكنت مع هؤلاء جميعاً أؤمن بأن الرسول أمى لا يقرأ ولا يكتب، وإن كنت فى معظم مراحل حياتى أتردد فى معنى وحقيقة أمية الرسول، وكلما قرأت القرآن واتعرض للآية ﴿النبى الأمى﴾ كنت على الفور أتراجع عن الشك فى أن الرسول لا يقرأ ولا يكتب، خاصة وكنت دائماً أسمع من علماء فى الدين الإسلامى ثقاة وموضع إحترام، وحتى من غيرهم من خلال الراديو (المذياع) أو التليفزيون - اقول أسمع وأشاهد - لم يقل أحد ولم يعلق أحد على أمية الرسول غير أنه لا يقرأ ولا يكتب، رغم انه ارسل للناس كافة يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة؟!!.

موضوع غاية فى الأهمية، يهم كل مسلم وغير المسلم فى شتى أرجاء

المعمورة، لأنه بالعقل والمنطق - قبل أن نتعرض للنصوص - لا يعقل أن يقود العالم رجل لا يعرف القراءة أوالكتابة، خاصة فى عصرنا الحاضر الذى صار فيه كل شئ يقوم على أساس علمى دقيق، ولا يقبل العقل أبداً أمراً يقوم على أساس عشوائى، لمجرد التسليم به دون مناقشة أو بحث أو استقصاء؛ وأمية النبى محمد ﷺ من الأمور التى سلم بها الجميع خاصة المسلمين، لأن أحداً من العلماء يعتبر الخوض فيه أمر مرفوض وغير مقبول، وأن التسليم به هو الأفضل والأصح؛ هل هذا يعقل فى أن نقبل أمراً مثل هذا فى حق نبينا العظيم؟ وهل يتمشى ذلك مع شخصية النبى محمد وعظمته ومنزلته عند ربه وبين المسلمين وغير المسلمين؟ أمر غير مقبول على الإطلاق فى عصر العلم والتكنولوجيا الحديثة.

وعلى هذا أثرت هذا الموضوع على نفسى، وأخذت على عاتقى أن أنفى عن النبى تلك السمعة التى تتنافى وعظمة وشخصية ونشأة هذا النبى العظيم، مفنداً بحثى هذا بالأسانيد الصحيحة ومعتمداً على القرآن الكريم كمصدر أساسى ثم الحديث أو ما جاء فى كتب السيرة والسلف الصالح، خاصة الذين يعتمد عليهم علماؤنا الأجلاء، وبعض كتابات المستشرقين المعتدلين.

وقبل أن نأتى بالبرهان والدليل على بلاغة الرسول فى القراءة والكتابة، علىّ أن أوضح أولاً معنى ومفهوم الأمية عند العرب لغة وفناً وأيضاً من وجهة نظر المؤرخين، حتى تتبين لنا الحقيقة التى من أجلها أخذت على عاتقى أن أعرض لهذا الموضوع الهام فى كتابى «موسوعة التاريخ الإسلامى» وبينما كان من المفروض أن يكون هذا الموضوع فى خاتمة الجزء الثانى من الموسوعة لأنه يتعلق بنشأة الرسول وحياته الدينية والدنيوية، والذى جاء تحت عنوان «عصرالنبوة» إلا اننا آثرنا أن نجعله فى خاتمة هذا الجزء (الكتاب العاشر) الذى جاء تحت عنوان «الحضارة الإسلامية»، لأننى وجدت أن يكون إبرازاً لشخصية الرسول بشكل وصورة

تليق بشخصه الكريم ومكانته السامية بين الناس والمسلمين جميعاً ؛ لأن هذا الكتاب من الموسوعة - الحضارة الإسلامية - هو فى الحقيقة يرجع إلى ما رسخه هذا النبى من علم دينى إسلامى اشتمل على كل ما يخص البشرية من نفع عظيم، مادياً وروحياً معاً. وهى حضارة تختلف كل الإختلاف عن الحضارة الغربية المادية الزائلة والتى إكتوى بنارها شعوب العالم أجمع.

وعلى هذا نقول فى موضوع الأمية، أنه إختلط على المسلمين مفهوم ومعنى هذه الكلمة «أمى» فهى من وجهة النظر العربية كلغة تعنى عدم القدرة على القراءة والكتابة، حتى انه عندما نسمع كلمة «جاهل» يتبادر إلى الذهن مباشرة أن المقصود بها عدم القدرة على القراءة والكتابة، اى أن «أمى» تساوى «جاهل» وهو شئ مذموم يحقر من شأن الإنسان. وأن الإنسان الذى يوصم بهذه الكلمة «أمى» أو «جاهل» تنتابه على الفور آلام نفسية وعدم رضا عن نفسه. ثم أن هذه الكلمة قد تخلت عن هذا المعنى الضيق لها والمحدود نسبياً ؛ فهذه الكلمة الآن قد تعدت هذا المعنى، وصار الأمى هو الجهل وعدم القدرة أو المعرفة بالحاسبات «علم الحاسوب» الذى صار متحكماً فى حياة الإنسان، وأن الإنسان، أى إنسان لم يكن متقناً لهذا العلم الآن يشعر بضآلة حجمه أمام إنسان آخر على علم ومعرفة بهذا العلم المتميز؛ ومن هنا، إنتقلت الأمية الآن من عدم القدرة على القراءة والكتابة إلى عدم القدرة على معرفة هذا العلم الحديث «علم الحاسوب». وبالمفهوم العام والمعنى الشامل لكلمة «أمى» تعنى الآن الجهل فى مجال معين وعدم الإلمام بها المجال، فهو «أمى» فمثلاً العالم بالفيزياء أو الكيمياء، أو العلوم الطبيعية، هو «أمى» فى العلوم الأخرى الإنسانية كالفلسفة والتاريخ والمنطق وعلم النفس وغيرها من العلوم، وأصحاب هذه العلوم الأخيرة (أميون) فى العلوم الطبيعية لأنه يجهلها ولا يستطيع الخوض فيها على أساس علمى إذا فهو «أمى» أى جاهل

فى العلوم التى لا تخصه. والعالم أيضاً أمى فى مجال التجارة، حتى أن التاجر الذى لا يقرأ ولا يكتب لا يمكن أن نصفه بأنه أمى فى التجارة بل هو بارع وماهر رغم جهله وعدم قدرته على القراءة والكتابة؛ ولكنه أمى فى غير التجارة. وهكذا فكلمة الأمى إذاً من العيب جداً أن نطلقها على من لا يستطيع القراءة والكتابة، لأنه ربما يكون ماهراً فى جانب من جوانب حياته كالتجارة مثلاً؛ وإن كانت الآن بل ومن قبل القراءة والكتابة فى هذا المجال أفضل لصاحبها ممن لا يستطيع القراءة والكتابة، مهما كانت براعته وإتقانه لمهنة التجارة أو غيرها.

على أية حال، ومع هذا، فإننا إذا ما توغلنا فى التاريخ العربى القديم - داخل الجزيرة العربية - نجد القراءة والكتابة فى جاهلية قبل الإسلام موجودة وبشكل ملموس. فالكتابة كانت معروفة بمكة قبل نبوة محمد ﷺ بزمن غير قليل، وكان النبى قد استعمل على تحرير الكتب والرسائل اكثر من واحد من أصحابه، بلغ عددهم إثنى عشر نفراً. وقد فك «النبى» إسار الفقراء من أسرى غزوة بدر مقابل قيامهم بتعليم أنصار المدينة بالكتابة. ومع أن أهل المدينة لم يكونوا مثقفين ثقافة أهل مكة، فقد عرفت بقدرة الكثيرين منهم على الكتابة قبل الإسلام. ومن اليسير مع ثبوت هذه المقدرة على الكتابة، أن نستنبط غير مخطئين أن الآيات التى وعتها الذاكرة بدقة قد سجلتها الكتابة بمثل هذه الدقة.

ثم إنا نعرف أن محمداً كان يبعث إلى القبائل التى تدخل فى الإسلام واحداً أو أكثر من أصحابه لتعليمهم القرآن وتفقيههم فى الدين. وكثيراً ما نقرأ أن هؤلاء المبعوثين كانوا يحملون معهم أوامر مكتوبة فى شأن الدين. فقد كانوا يحملون ما نزل به الوحى بطبيعة الحال، ولا يأتون بشئ من عنديتهم، وخاصة كل ما إتصل منه - أى الوحى - بشعائر الإسلام وقواعده، وما يتلى منه أثناء العبادة، والقرآن نفسه ينص على وجوده مكتوباً، وتنص كتب السيرة حين تذكر

عمر بن الخطاب مثلاً، على وجود نسخة من السورة المتمة للعشرين (سورة طه) فى حيازة أخته وأسرتها. وكان إسلام عمر بن الخطاب قبل الهجرة بثلاث أو أربع سنوات. فإذا كان الوحى يدون ويتبادل فى العصر الأول حين كان المسلمون قليلون، وحين كانوا يسامون العذاب، فمن المقطوع به أن النسخ المكتوبة كثر عددها وتداولها حين بلغ النبى أوج السلطة، وحين صار كتابه قانون العرب جميعاً.

كذلك نجد أن أبا بكر عندما فرغ من أمر مسيلمة «الكذاب» فى حروب الردة، كانت مذبحة اليمامة، التى أتت على كثير من المسلمين، ومن بينهم عدد كبير من خير حفظة أو حفاظ القرآن. هنالك ساورت عمر بن الخطاب المخاوف من أمر الكتاب ونصوصه وما ربما يعلق من ريب، إذا أصاب المقدور من اختزنوه فى ذاكرتهم فماتوا جميعاً. إذ ذاك توجه إلى الخليفة أبى بكر بقوله: «أخشى أن يستحر القتل كرة أخرى بين حفاظ القرآن فى غير اليمامة من المغازى، وأن يضيع لذلك كثيراً منه. والرأى عندى أن تسارع فتأمر بجمع القرآن» وأقرّ أبو بكر هذا الرأى، وأفضى برغبته فى إنفاذه إلى زيد بن ثابت كبير كتّاب النبى ﷺ.

إذاً فموضوع الكتابة كان موجوداً فى قوم النبى محمد بصورة لا يشوبها شائبة، وتدوين القرآن على عهد النبى خير دليل على ذلك.

أما فى عصر الجاهلية، فإن التاريخ العربى القديم، يؤكد لنا أن القراءة والكتابة كانت فى جاهلية قبل المسيح أفضل منها قبل الإسلام، بدليل تلك الآثار التى ذكرت لنا تاريخ بلاد عاد وثمود وغيرها، ووجود خطوط منقوشة فى جنوبى جزيرة العرب وشمالها. ومع هذا لا يمكننا إغفال ما ذكره لنا البلاذرى عن العراق من معلومات قيمة، أفادت الباحثين خاصة علماء الآثار، الذين بحثوا فى تاريخ الأوس والخزرج وما بينهم من كتاب مهرة يعرفون اللغة العربية ومن بينهم أيضاً

بعض اليهود الذين تعلموا العربية وقاموا بتعليم بعض الصبيان فى المدينة؛ وقد شمل التعليم أيضاً النساء الجاهليات (أى فى عصر الجاهلية) وكن يقرأن ويكتبن. كذلك جاء فى تاريخ الطبرى عن إنتشار الكتابة والقراءة فى مدينة «الأنبار» حيث وجد خالد بن الوليد أهلها يكتبون العربية ويتعلمونها[1].

ولقد أشار «درمنجام» عالم الآثار الإنجليزى، من أنه كان هناك فى العصر الجاهلى تعليماً واسع الإنتشار وبشكل منظم فى جزيرة العرب قبل الإسلام، ولكننا لا يجب أن نسير فى ركاب «درمنجام» وأن ما قاله البلاذرى نقلاً عن الواقدى لا يمكن أن نؤيد ما جاء به درمنجام على أن تعليماً واسعاً ومنتظماً كان موجوداً عند العرب، لكن ما يمكن أن نقوله عن القراءة والكتابة فى جاهلية ما قبل الإسلام، أنها كانت شائعة فى مناذرة العراق وغساسنة الشام وتبابعة اليمن؛ وأن عدد الذين يعرفونها فى الطائف ومكة والمدينة لا بأس به، وأنها كانت فى بعض أنحاء الجزيرة جد نادرة.

ولست أدعى لنفسى أننى أول من طرق هذا الباب، أو أنه ليس من السبق العلمى البحث عن معنى الأمية، التى نعت بها العرب الجاهليون، وإن كان من الضرورى إعادة النظر والبحث فى تحديد مفهوم ومعنى الأمية، التى لصقت بالنبى محمد دونما وجه حق؛ وما يترتب على فهمها؛ فإذا كان العرب لا يعرفون القراءة والكتابة، فيكون من العبث البحث عن مصادر التاريخ المدونة عند أمة لا تعرف القراءة والكتابة؛ أو أن الأمية التى نعت بها العرب تعنى شيئاً آخر غير الجهل بالقراءة والكتابة؛ ويكون من حق الباحث والمؤرخ هنا أن يفترض وجود مدونات كان يحتفظ بها الذين يقرءون ويكتبون من الجاهليين. وأن يفترض إحتواء بعضها على كثير أو قليل من أخبار الأمم التى سبقت عصر ما قبل

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٦٦١-٦٦٣، طبعة بيروت، ١٣٧٧هـ.

الإسلام «العصر الجاهلى».

فالبحث فى هذه الأمية طرق فى الماضى، وطرق فى الحاضر، والنتيجة التى إنتهى إليها بحث المتأخرين لا تختلف عن النتيجة التى إنتهى إليها بحث المتقديمن على ما يلاحظ على بعض البحوث المتقدمة من ظنون تبالغ تصويرها العرب، مغمورين فى صحارى البلاد العربية، لايتمتعون بشئ مما يتعمتع به أهل الحيرة وسكان البلقاء فى الشمال، وأهل اليمن فى الجنوب. وعلى مايلاحظ على بعض البحوث المتأخرة من المبالغة فى حسن الظن فى الحياة العربية قبل الإسلام فعلى إختلاف الوجهات، فإن النتيجة التى إنتهت إليها أكثرية المتقدمين وأكثرية المتأخرين، تؤكد ان العرب فى جاهليتهم لم يكونوا جميعاً يجهلون القراءة والكتابة، شأنهم فى ذلك شأن اى دولة فى العصر الحاضر، إذ تنتشر فى بلاد الجنوب على وجه الخصوص نسبة عالية لازالت حتى الآن لاتعرف القرءاة والكتابة. وعلى هذا فالأمر بالنسبة لجزيرة العرب قبل الإسلام لم يكن شئ يثير الدهشة إلى هذا الحد من الإتهام الموجه إليهم بأنهم لايقرأون أو لايكتبون، إن لم يكن جميعهم فعلى الأقل اغلبيتهم، وهذا أمر غير صحيح بالمرة لأنه لو كان صحيحاً فكيف يقول المولى عز وجل ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا﴾ اى أنزل الله عز وجل القرآن بلغة تقرأ وتكتب وهى سمة ميزت العالم العربى عن العالم كله بتلك اللغة المتداولة، التى لايمكن أن تكون إلا قراءة وكتابة كأسلوب فى التفاهم والتعارف والتداول بين الناس، أعنى العرب.

هذه النتيجة التى جعلتنا لانغالى مع المغالين فى إعتقادهم أن العرب كانوا معدمين من الحضارة، أو أن العرب كان لهم فى عصر الجاهلية (ماقبل الإسلام) حظ وافر من ثقافة قامت على دراسة منظمة، وعلى نطاق واسع.

إذاً نعود ونسأل انفسنا، ما معنى «الأمية» التى وصف بها العرب؟ لقد أجاب على هذا السؤال ابن عباس، وآخرين من أصحاب السير الثقاة، فقال ابن عباس عندما فسر قوله تعالى ﴿ومنهم اميون﴾[1]. بأنهم اميين لجحودهم كتب الله ورسله، ثم أجاب عن السؤال ابن زيد، وقتادة عندما فسر قوله تعالى ﴿وهو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم﴾[2]، بقوله، إنما سميت امة محمد ﷺ بالأميين بأنه لم ينزل عليهم كتاب؛ وقال قتادة : كان هذا الحى من العرب أمة أُمية ليس فيها كتاب يقرأونه ولانبى بعث فيهم[3].

ولكن ماأجاب به ابن عباس وابن زيد وقتادة لايصرفنا عما قاله غيرهم فى تفسير مانزل عن اليهود (ومنهم اميون). فقد قال بعض المفسرين أنهم أناس من اليهود؛ وعلق ابن جرير الطبرى على الأقوال التى جمعها فى تفسيره بقوله عن ابن عباس قال : الأميون لم يصدقوا رسولاً أرسله الله، ولاكتاباً انزله، فكتبوا كتاباً بأيديهم فعرفوا بالأميين هنا لجحودهم دين الله؛ وماروى عن ابن عباس أن الأمية فى اللغة العربية عدم المعرفة بالقراءة والكتابة، وقد نقله الطبرى مستنداً إلى حديث قيل أنه روى عن النبى عندما قال: «نحن امة امية[4] لانكتب ولانحسب».

ونحن إذا رجعنا إلى معاجم اللغة نجد إلى جانب تفسير «الأمى» بالذى لايكتب، تفسيراً آخر عند العرب؛ إذ كانت تعنى عند العرب أيضاً (العيَى الجلف

---

(١) القران الكريم، سورة البقرة، آية ٧٨ .

(٢) تفسير بن جرير الطبري، جـ١، ص٢٩٦ .

(٣) القرآن الكريم، سورة الجمعة، ص٦١ .

(٤) تفسير الطبري، جـ٢٨، ص٦١، والمقصود هنا حسابات النجوم وتقويم الشهور، علي حساب الجاهلية.

القليل الكلام)، ولكن لانجد من يفسر قوله تعالى ﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى﴾[1]. غير أنه بأمكاننا القول فى الذين اتبعوا الرسول فى حياته من قومه إذ أن قومه لم يصدقوه جميعهم، بل آمن بعضهم ولم يؤمن الآخر ولاأصدق من هذا الحديث غير ماذكره لنا القرآن الكريم عن قومه المعاندين الذين حاولوا بشتى السبل القضاء على ماجاء به هذا النبى الأمى، لولا أن الله وعده بنصره طالما تمسك بما دعاه الله إليه، وقد تحقق. فأمية الرسول هنا نسبة إلى قومه الذى هو واحد منهم - أى من الأميين - وهذا الذى جعل ابن عباس وابن زيد يقولان: من اليهود أميون لم يصدقوا رسولا أرسله الله ولا كتابا أنزله الله، فهم لايعرفون الكتاب - أى التوراة- إلا أمانى؛ فالأمانى جمع أمنية، والأمنية من التمنى، والتمنى حديث النفس، بما يكون ويما لايكون: ومن معانى التمنى الكذب فيتمنى حديث أى يضع حديث لاأصل له، ومن معانيه القراءة فتمنى الكتاب أى قراه وكتبه، وقال تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته﴾[2]. أى قرأ وتلا وألقى فى تلاوته ماليس فيه[3].

وعلى هذا فهؤلاء الأميون هم الذين تحدثت عنهم كتب التفسير بأنهم لايعلمون الكتاب إلا أمانى مشحونه بوسوسة النفس، وهؤلاء الأميون هم الذين تحدث عنهم القرآن من اليهود بقوله ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيدهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾[4]. فهؤلاء ليسوا قوم النبى محمد، وهم بخلافهم تماماً

(١) لسان العرب، مادة أمم، جـ١٢، ص٣٤ .

(٢) القرآن الكريم، سورة الحج، آية ٥٢ .

(٣) لسان العرب، جـ١٥، ص٢٩٤-٢٩٥ .

(٤) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ٧٩ .

لأن هؤلاء أهل كتاب ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾. فهؤلاء هنا الجاحدون بكتاب الله - التوراة- التى أنزلت عليهم، فهم هنا على علم بالكتاب ولكنهم يكتبون غيره ويسندونه إلى الله؛ فأطلق الله عليهم هنا بأنهم أميون رغم براعتهم فى الكتابة وعلمهم بالكتاب، وعلى هذا يمكن إعتبارهم أميون على ما جلبتهم أماتهم عليه، وليس تحميل كلمة (الأميين) هنا معنى الذين لا كتاب لهم يقرأونه، لأنهم قد نزل فيهم التوراة؛ ومع هذا وصفوا بأنهم أميين.

أما الحديث الذى استدل به ابن جرير الطبرى على أن الأميين هم الذين لايكتبون مستندا إلى المعنى اللغوى، فقد فسره (ناصر الدين الأسد) على ضوء مصادره بقوله، إن هذا الحديث لايعنى إلا كونه ضرباً خاصاً من الكتابة والحساب، الخاص بحساب النجوم وربط ذلك بالكتابة لمعرفة مطلع الشهور، مما لم يكن للعرب عهد به، كذلك جاء نفى الحديث الكتابة والحساب نفياً عاماً وشاملاً، وإنما هو نفى لأن يكون نظاماً متبعاً فى كل الشئون كما كان ذلك عند بعض الأمم ذات التقاويم[1].

ومما يستأنث به هنا ماروى عن أبى هريرة عندما ذكر الحديث: «نحن قوم لانكتب ولانحسب»، أنه لايقصد هنا أن العرب فى العصر الإسلامى لايكتبون، وإنما قصد كتابة الحديث، وأبو هريرة لايعارض فى الكتابة وإنما هو من الجماعة التى كرهت تدوين الحديث على غرار مادون به القرآن[2]؛ وكان يخشى أن يكتب شيئاً لم يكن قد قاله الرسول فيتحمل وزره.

وبناء على هذا، فإنه ليس ثمة مايسوغ تغليط ابن عباس وابن زيد وقتادة فى

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي، ص ٤٦ .

(٢) أمين مدني، التاريخ العربي ومصادره، ص ٢٠٥-٢٠٧ .

تفسيرهم لمعنى «الأميين» أولاً فى قوله تعالى ﴿ومنهم اميون﴾، وثانياً فى قوله عز وجل ﴿وهو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم﴾[1]. وقد بينا الفرق بين اللفظين فى كل آية، وقلنا فى الأولى بأنهم اليهود الذين لايعلمون الكتاب إلا امانى، وفى الثانية العرب الذين لم ينزل عليهم كتاب يقرأونه[2] أو نبى يبلغهم الكتاب والحكمة، حتى أرسل الله إليهم محمداً منهم - أى من العرب- الذين لم ينزل فيهم كتاب ولانبى ليعلمهم الكتاب والحكمة كما جاء فى الآية السالفة (سورة الجمعة آية ٢).

ومجمل القول أن الأمية بمعنى الجهل بالقراءة والكتابة لاتشمل العرب جميعهم - وهو حال دول العالم اليوم - فلقد كان من قريش (قوم النبى محمد) وثقيف والأوس والخزرج فى الحجاز، وفى اللخميين فى العراق، وفى الغساسنة فى الشام وفى الحميريين فى اليمن رجال ونساء يقرأون ويكتبون. ولقد كانت العرب خبرة بالتجارة وبالأعمال التجارية، وكان منهم تجار يهبطون الأسواق العالمية فى الاسكندرية والشام والعراق والحبشة؛ والشئون التجارية تستلزم القدرة على القراءة والكتابة والحساب لمعرفة نوع البضاعة وثمنها ومقدار رأس المال والربح والخسارة. ولايمكننا أن نفترض أن كل تاجر جاهلى يمتاز بذاكرة تغنيه عن تدوين حساباته وأعماله من مكسب وخسارة وأنواع بضاعة وتبادل سلع وغيرها من الأعمال التجارية، ولاسيما بأن أكثر الذين يتنقلون بين الأسواق التجارية كانوا يتجارون برأس مال مشترك أو لحساب غيرهم، مثال ذلك خروج النبى محمدﷺ برحلة تجارية للسيدة خديجة إلى الشام فكيف يكون جاهلاً

(١) القرآن الكريم، سورة الجمعة، آية ٢ .

(٢) تفسير ابن جرير الطبرى، جـ١، ص ٢٩٦-٢٩٧، جـ٢٨، ص٦١-٦٣ .

بالقراءة والكتابة.

ومن الأدلة الدامغة على قدم الكتابة والقراءة فى الجزيرة العربية ووجود كتاب وقراء فى عصور الجاهلية تلك الخطوط التى ظهرت على صخور الجزيرة وجبالها ؛ وما أكثر الخطوط التى نقشت على صخور الأرض العربية. ومن المدونات التى عرفها المحققون فى تاريخ عرب الجزيرة ومصادره، والتى رجع إليها رواد الثقافة والتاريخ، مكتبات حمير فى الجنوب، وذخائر الحيرة فى الشمال، وأسفار اليهود فى منازل اليهود التى هاجروا إليها ؛ فلقد ثبت أن (عبيد بن شريه) عرف الحيرة وعرف كنائسها[1]. وثبت أن رواية (وهب بن منبه) عن نصارى نجران، وقصة الراهب (فيمون) مطابقة للروايات النصرانية، وثبت أن وهب اطلع على كثير من المدونات القديمة، وثبت أن الخط المسند كان معروفا فى كل شبه جزيرة العرب وثبت أن الرواية العربية عن عاد وثمود تكاد تكون هى مصدر المؤرخين الوحيد.

بعد هذه التقدمة فى تحديد مفهوم (الأمية) لغة ومعنى تاريخى، بقى علينا إثبات صدق تعلم النبى القراءة والكتابة منذ نعومة أظافره. وعلينا فى البداية أن نعرض للأسانيد التى يستند عليها علماؤنا الأفاضل الذين غاب عنهم دقة البحث فى أمية النبى محمد، وسلموا بعدم معرفته القراءة والكتابة معتمدين على عبارة (النبى الأمى) فى القرآن، ورواية (أقرأ، قال ما أنا بقارئ) وماحدث أثناء صلح الحديبية وتدوين على بن ابى طالب لنص الصلح ثم إعتراض سهيل بن عمرو على عبارة «من محمد بن عبد الله رسول الله» اى إعتراض أبو سفيان على عبارة «رسول الله» فطلب الرسول من على محوها، فلما استحى من ذلك

(١) راجع ترجمة عبيد بن شريه في كتاب التاريخ العربي ومصادره.

قال أرينيها يا على، واتخذ هؤلاء العلماء من كلمة (أرينيها) دلالة على عدم معرفة الرسول بالقراءة والكتابة. وبناء على تسليم علمائنا بهذه الوقائع واعتبارهم فى أمية الرسول (الجهل بالقراءة والكتابة) تكريم له أمر مثير للحيرة والدهشة، لأن المسلمين جميعاً سلموا جدلاً بأنهم تابعون لقول علمائنا الأفاضل؛ حتى أصبح من العسير أن تقنع أى من المسلمين ببراعة نبينا الكريم محمد بالقراءة والكتابة مما حدا بنا ضرورة التصدى لهذه الفكرة المسيئة لخاتم النبيين وأفضل الرسل أجمعين.

ولنبدأ بأول أسانيد هؤلاء فى قولهم بنزول الوحى على النبى وهو يتحنث فى الغار ومفاجأة جبريل له على باب الغار بقوله إقرأ فأجاب مأخذواً: «ما أقرأ»! فأحس كأن الملك يخنقه ثم يرسله «أى يدفعه بشدة» ويقول له: أقرأ، قال محمد: ما أقرأ! فأحسن أن الملك يخنقه كرة أخرى ثم يرسله ويقول له: إقرأ، قال محمد -وقد خاف أن يخنقه الملك مرة أخرى - ماذا أقرأ؟![1]. قال الملك: ﴿إقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم﴾[2].

وفى الآية الكريمة من سورة العلق بنى العلماء وغيرهم أمية الرسول عند قوله بالرد على جبريل «ما أنا بقارئ» واعتبرت كلمة أو عبارة «ما أنا بقارئ» أى أننى لا استطيع القراءة وكأن جبريل نزل برسالة مكتوبة يعرضها على محمد أن يقرأها فرد عليه بأنه لا يستطيع القراءة وهو أمر لا يقبله العقل لسببين

(١) انظر، سيرة ابن هشام (سيرة سيدنا محمد ﷺ) وأيضاً ابن اسحاق، باب نزول الوحي، وكذلك كتب السيرة.

(٢) القرآن الكريم، سورة العلق، الآيات من ١-٥ .

رئيسيين الأول: انه إذا كانت هناك رسالة مكتوبة بيد جبريل يعرضها على محمد ليقراها فهو - اى جبريل - على يقين بأن محمد يجيد القراءة والكتابة، أما وأنه - اى محمد- يقول ما أنا بقارئ فهى تؤكد انه ليست هناك رسالة من عدمه يعرضها جبريل على محمد لأن الأمر ليس مداعبة بين جبريل ومحمد ولأن رسول السماء عندما هبط إلى الأرض برسالة فقد جاء جاداً لا مداعباً، وعندما يقول إقرأ فهو على يقين من ان الرجل الذى يتوجه إليه ويطلب منه القراءة لابد أن يكون على معرفة تامة بالقراءة لأن أحداً لم يكن فى الغار مع محمد حتى يشهد على اللقاء بأن الوحى نزل على محمد ولكنه لا يعرف القراءة؛ ولكن الأمر لا يستدعى شاهد إثبات على اللقاء ليحدث به الناس (أى قوم محمد). ومن ناحية ثانية فإن كتب السيرة أو فى معظمها خاصة أوثقها وأصحها مثل ابن هشام وابن اسحق مثلاً يفضلون عبارة ما أقرأ أو ماذا اقرأ لأن الوحى لم يكن برسالة مكتوبة ولكنه كان على محمد أن يرد ما اقرأ، أو ماذا أقرأ لأمر غامض يعرض عليه.

ثانياً: أما تكرار الملك (جبريل) على محمد كلمة إقرأ ثلاث مرات فهى الأخرى ليست مداعبة ولكنها لحكمة وحقيقة علمية إذ أنه ثبت علمياً أن القراءة لا يمكن أن تحقق الغرض المرجو منها إلا بعد قراءة النص ثلاث مرات، فالمرة الأولى لمعرفة بعض الكلمات فى النص والثانية للإلمام بما جاء فى النص والتعرف عليه، أما الثالثة فهى لمعرفة الهدف من النص. إذاً فتكرار كلمة إقرأ على محمد ثلاث مرات لم تكن لمجرد التكرار، ولكن للتنبيه والتثبيت والوقوف على حقيقة وطبيعة النص والغرض منه.

بناءً على ماتقدم فإن عبارة «ما أنا بقارئ» ليست مصدراً موثقاً يعتد به، لأنه

لم ينقل عن الرسول أنه قال هذه العبارة رداً على الملك الذى جاءه فى الغار؛ وأن معظم المفسرين الثقاة فضلوا عبارة ماأقرأ، أو ماذا أقرأ، وهى الأقرب للصواب ومقبولة لدى العقل خاصة وأن الله عز وجل عندما يهيأ إنساناً لحمل رسالة ثقيلة، لابد وأن يحيطه بعلم يفوق سائر البشر حتى إذا مانزل عليه الوحى تقبله عن يقين وإطمئنان، وذلك تصديقاً لقوله تعالى : ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربهم فيؤمنوا به فخبتت لهم قلوبهم..﴾[1]. ذلك أن أولى الناس بالعلم هم الأنبياء والرسل، وأن الله قد آتى معظمهم حكماً وعلماً مثل موسى ولوط وداوود وسليمان وغيرهم.

والأمر الذى لايتقبله العقل أن محمداً وهو خاتم الأنبياء والرسل، وأنه أرسل للناس كافة وأن رسالته كاملة لاعوج فيها ولامقتاً فلماذا يخصه الله دون سائر الأنبياء الذين نزل عليهم كتب مثله وقد منحهم الله حكماً وعلماً، لماذا يخصه بالجهل، رغم أن جميع الأنبياء كذبوا واتهمهم أقوامهم بالسحر والجنون والكذب، بل أن النبى محمد اتهم من جانب معظم قومه بأكثر من هذا، ولايزال يتهم حتى اليوم، هل نفى عنه عدم المعرفة بالقراءة والكتابة - كما هو مزعوم الآن - (أو حتى الآن) تهمة أنه ليس بنبى من قبل الله، كلا، بل إن الإسلام يواجه أشد الإيذاء من قبل الأعداء فى شخص النبى محمد، ولم يسلم هؤلاء بأن القرآن من عند الله، بل لازالوا يقولون أنه من عند محمد إذاً، لم تدرأ عنه عبارة «ما أنا بقارئ - المزعومة -» أن يكون القرآن من عنده حسبما يقول البعض خاصة علماء الدين أن هذا الرد جاء ليمحوا شبهة أن يكون القرآن من عنده؛ خاصة وأن سمة الكذب كانت دائماً فى بعض أقوام الرسل المكذبين بالرسل وماجاؤا به من

---

(١) القرآن الكريم، سورة الحج، آية ٥٤ .

كتاب، وإن محمداً شأنه فى ذلك شأنهم تصديقاً لقول المولى عز وجل : ﴿... ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم احاديث فبعداً لقوم لايؤمنون﴾[1].

وعلى هذا، فإن الرسل والأنبياء جميعاً مابعثهم الله إلا مبشرين ومنذرين وإن الذى يدافع عنهم وينصرهم هو الله لأن الذين لايؤمنوا بما جاء به الرسل والأنبياء، ومحمد خاتمهم، ليسوا فى حاجة إلى وسيلة إقناع، بل سيظلوا فى غيهم يعمهون حتى يدركهم الموت بغتة أو يأتيهم عذاب يوم القيامة وذلك تصديقاً لقول الله تعالى ﴿ولايزال الذين ظلموا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتاً أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾[2]. وفى مجال تكذيب النبى محمد بما جاء به من كتاب، تكثر الآيات القرآنية، والتى سنعرض لمعظمها فى نهاية هذا البحث تأكيداً لمحو أو لتصحيح مفهوم الأمية عند النبى محمدﷺ؛ لأن هؤلاء المكابرين لازالوا يطلبون من النبى أن يأتى بكتاب من عنده غير هذا القرآن الذى ينزل عليه تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك أفتراه، وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزوراً وقالوا اسطاير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيما﴾[3]. فهؤلاء الكافرون من قوم النبى محمد والذين رفضوا الأذعان له لايقولون إكتتبها أو تملى عليه إلا إذا كان محمد النبى يقرأ ويكتب، ثم يؤكد المولى عز وجل على إيجادة النبى للقراءة فيقول: ﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه

(١) القرآن الكريم، سورة المؤمنون، آية ٤٤ .

(٢) نفسه، سورة الحج، آية ٥٥ .

(٣) القرآن الكريم، سورة الفرقان، الآيات من ٤-٦ .

(٤) نفسه، سورة الإسراء، آية ١٠٦ .

تنزيلا﴾[٤]. وأعود فأكرر اننى سوف أعرض الآيات التى استطعت قدر الإمكان استخراجها من القرآن فى نهاية البحث لمحو «أمية الرسول الكريم» ولنفى جاهليته بالقراءة والكتابة، وتصحيح العبارة «ماأقرأ» بدلا من «ماأنا بقارئ».

أما الموضوع الثانى وما استند إليه المصرون على جاهلية النبى للقراءة والكتابة، فهى تلك الرواية التى جاءت فى حياة النبى أثناء عهد أو صلح الحديبية بين المسلمين بقيادة النبى وقريش بقيادة سهيل بن عمرو سنة ٦٢٨م. وهنا سوف أحكى القصة كاملة حتى يتبين للناس جميعاً الحقيقة جلية ساطعة.

فبعد مراسلات ومبادلات بين المسلمين وقريش، اتفق الفريقان على الصلح «الحديبية ٦٢٨م» قبل فتح مكة، فأوفدت قريش سهيل بن عمرو وقالوا له: أئت محمداً فصالحه، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا فى عامه هذا فوالله لاتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فلما انتهى سهيل إلى الرسول جرت محادثات طويلة للصلح وشروطه، كانت تنقطع فى بعض الأحيان ثم يعيد اتصالها حرص الجانبين على النجاح. وكان المسلمون من حول النبى يسمعون أمر هذه المحادثات، ويضيق بعضهم بأمرها صبراً لتشدد سهيل فى مسائل يتساهل النبى فى قبولها ولولا ثقة المسلمين المطلقة بنبيهم، ولإيمانهم به لما ارتضوا ماتم الاتفاق عليه ولقاتلوا ليدخلوا مكة، أو لتكون الأخرى. فقد ذهب عمر بن الخطاب فى أعقاب المحادثات إلى أبى بكر ودار بينهما الحديث التالى :

عمر: أبا بكر، أليس برسول الله؟!

أبو بكر: بلى؟!

عمر: أولسنا بالمسلمين؟!

أبو بكر: بلى؟!

عمر: فعلام نعطى الدَّنيَّة فى ديننا ؟!

أبو بكر: ياعمر الزم غرزك (أى الرجل) فإنى أشهد أنه رسول الله.

عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

وانقلب عمر بن الخطاب بعد ذلك إلى النبى محمد وتحدث إياه بمثل هذا الحديث، وهو مغيظ محنق لكن ذلك لم يغير من صبر النبى، ولا من عزمه. وكل الذى قاله فى ختام الحديث لعمر بن الخطاب «أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمراً ولن يضيعنى». ثم كان بعد ذلك من صبر محمد حين كتابة العهد مازاد فى حفيظة بعض المسلمين، فقد دعا على بن أبى طالب وقال له: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: «امسك لا أعرف الرحمن الرحيم، بل أكتب باسمك اللهم» قال رسول الله: «اكتب باسمك اللهم» ثم قال: «ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» فقال سهيل: «أمسك، لو شهدت أنك رسول الله لم اقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك»، قال رسول الله: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله» ... ثم كتب العهد «الصلح» بين الطرفين وفيها انهما تهادنا عشر سنين؛ فى رأى أكثر كتاب السيرة؛ وسنتين فى قول الواقدى، وأن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً من رجال لم يرده عليه، وأن من أحب من العرب مخالفة محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا إليها فى العام الذى يليه فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح والسيوف فى قربها ولا سلاح غيره.

فى هذا الصلح الذى قدمته الآن استند المسلمين الذين ضللوا سائر المسلمين بأمية النبى محمد حتى صار من الصعب جداً إقناع السلمين بإمكانية النبى بالقراءة والكتابة إذ فى هذا الصلح - وقد تعمدت عدم ذكر العبارة التى

ألفوا تكرارها فى الصلح - حيث ذكرت عبارة «أرنيها يا على» عندما طلب سهيل بن عمرو من النبى حذف كلمة رسول الله وأن يكتب أسمه فقط واسم أبيه، ولم يجد النبى نفسه غضاضة فى ذلك، وطلب من على بن أبى طالب حذفها - وحسب زعم علماء المسلمين - رفض على بشدة وقال استحى يا رسول الله، وامتنع، فقال النبى فى بعض الروايات «أشر إليها يا على، أو أرينيها يا على» فمحاها النبى؛ ومن هنا اعتبر النبى فى نظر البعض لا يقرأ ولا يكتب، وهو أمر مثير للسخرية إذ أنه من الطبيعى إذا جلس إثنان أحد يملى على الآخر، وبعد كتابة جانباً من الموضوع، توقف الذى يملى وطلب كلمة معينة، فإنه لا يطلب الورقة ليقرأ كل ما كتب حتى يستخرج الكلمة، يطلب من الكاتب أين الكلمة كذا فيشير عليها وهذا أمر بديهى لا يحتاج إلى فلسفة الفكر وتحويره حسبما يرغب أو يريد. وأما دليلنا من واقع القرآن الذى هو كلام الله لا شك فيه ويؤكد على إجادة النبى للقراءة والكتابة ما جاء فى سورة يونس: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات، قال الذين لا يرجون لقاءنا آتى بقرآن غير هذا أو بدله، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى، إن اتبع إلا ما يوحى إلىّ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم، قل لو شاء الله ما تلوته عليكم، ولا ادراكم به قد لبست فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾[1]. فهذه الآية الكريمة توضح مدى تأكد قوم النبى من القراءة والكتابة حتى أنهم يطالبونه أن يأتى بقرآن من عنده هو، وكان جوابه زيادة فى التأكيد على إمكانيته فى الكتابة، ولكن لا يمكنه أن يخالف أمر الله إن يتبع إلا ما يوحى إليه لأنه لو خالف أمر الله فسيناله العذاب حسبما ورد فى الآية لأنه نبى مرسل وما عليه إلا البلاغ لا يمكنه أن يفعل شئ من تلقاء نفسه، ثم تؤكد الآية على أن النبى عاش فى قومه أربعين سنة يعرفونه كما يعرفون أبنائهم ولم يعهدوا عليه

---

(١) القرآن الكريم، سورة يونس، آية ١٦ .

كذباً ولا نفاقاً، إذ قال لهم: «فقد لبثت فيكم عمراً من قبله (أى قبل نزول الوحى بالقرآن) افلا تعقلون» ثم فى آية أخير تؤكد صدق ما نقول فى أمية النبى أنها تنسب إلى قومه «الأميين» وليس ما يتعلق بالقراءة والكتابة ويحذر الله تعالى نبيه من أن يتبع هوى هؤلاء الغاوين، يقول جل شانه ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (٧٥)﴾[1].

هل هناك شك بعد هذا فى علم ومعرفة النبى بالقراءة والكتابة، إذ يطلب قومه ان ياتى بقرآن من عنده، ويحذره الله أن يتبع غوايتهم! ثم إقراره بأنه لا يمكنه معصية الله حتى يضمن تبليغ رسالته. وهو فى نفس الوقت مؤمن إيماناً راسخاً بأنه لا يمكنه أن يبدل شيئاً نزل عليه من قبل الله حتى لو عرضه ذلك للإيذاء والضرر، فهو مؤمن بأن الله ناصره فى النهاية. ثم يطمئن الله رسوله أنه ليس وحده الذى تعرض للتكذيب والرفض لما أنزل عليه من قرآن بلغة قومه العربية، حتى لا يقولوا (أأعجمى) ولكنه جاء بلغتهم ليكون حجة عليهم مثله مثل سائر الكتب الأخرى التى نزلت بلسان قومهم من عبرية ويونانية وغيرها حتى لا يدعوا انهم لا يفهمون لغة غير لغتهم.

وتأكيداً بأن القرآن هو المصدر الرسمى الوحيد الذى لا شك فيه ما قاله النبى محمد ﷺ فى قومه «أنكم ستختلفون من بعدى، فما جائكم عنى فأعرضوه على كتاب الله فما وافقه فمنى، وما خالفه فليس منى» وهذا مقياس دقيق أخذ به أئمة المسلمين.

---

(١) القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآيات من ٧٣-٧٥ .

قال ابن خلدون: «إن من علامات الحديث الموضوع مخالفته لظاهر القرآن، أو القواعد المقررة فى الشريعة، أو البرهان العقلى أو للحس والعيان وسائر اليقينات»، وهذا المقياس الذى ذكره النبى وما قاله ابن خلدون يتفق مع قواعد النقد العلمى الحديث أدق إتفاق، وينفى تماماً ما قاله الرسول وابن خلدون من أمر التبعية لأن الذى لا يحب مناقشة القرآن فى الغيبيات وما دون ذلك فيما يتعلق بالشريعة والعبادات والعقائد، وما يخص الناس فى حياتهم الدينية والدنيوية فهو أمر لابد من مناقشته ومضاهاته بكتاب الله وسنة نبيه محمد والتى لا تخالف كتاب الله حسبما نصحنا. وموضوع الأمية الخاص بالنبى مطروح للمناقشة والبحث وليس للتسليم به دونما بحث أو تدبر.

ذلك أن البحث والتمحيص والتفكر والتدبر من الأمور التى دعا إليها الإسلام دون إستسلام مسلمين بما قاله الأولين من قبلنا وكأنه يحذر علينا التفكر فيه أو النظر إليه.

والآن سوف أعرض بعض آيات الله العلى القدير التى تبعد الشبهة عن جهل النبى بالقراءة والكتابة وإن كانت لم تأتى صريحة ومباشرة، ولكن سياق الآية وما تشير إليه سواء كانت تتعلق بالنبى محمد أو بغيره من الأنبياء والرسل السابقين عليه؛ وتلك هى الآيات التى استطعنا استخراجها من القرآن الكريم والتى هى أقرب إلى التدليل على صدق قولنا، وإن كان القرآن يذخر بالعديد من الآيات المشابهة.

يقول المولى عز وجل تصديقاً لجهل أمية النبى بالكتب السماوية والأنبياء المرسلين ﴿ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون﴾[1]. ﴿قل إننى هدانى ربى

---

(١) القرآن الكريم، سورة السجدة، آية ٣ .

إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾[1].

﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا﴾[2]. وهى دليل على أن الرسول يقرأ وبالتالى فهو يكتب، إذ أن الله يأمره بالقراءة ولم يأمره أن يعرض ما ينزله عليه من القرآن ليعرضه على أحد غيره ليقراه. وفى ذات الغرض يقول الله ﴿.. ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه، وقل ربى زدنى علما﴾[3]. وأيضاً ﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لأرتاب المبطلون، بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾[4]. ولا زال الإتهام موجه إلى النبى بأنه هو الذى جاء بالقرآن، ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾[5]. ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾[6]. ﴿أم يقولون افرته قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فأعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾. فهى دعوة النبى لهم للدخول فى الإسلام وترك عبادة آبائهم، وأخبرهم أنه أول من يسلم منكم يقول تعالى: ﴿قل

---

(١) نفسه، سورة الأنعام، آية ١٦١ .

(٢) نفسه، سورة الإسراء، آية ١٠٦ .

(٣) نفسه، سورة طه، آية ١١٤ .

(٤) القرآن الكريم، سورة العنكبوت آيتا ٤٨، ٤٩ .

(٥) نفسه، سورة يونس الآيات من ٣٧-٤٠ .

(٦) نفسه، سورة يونس، آية ٥٣ .

إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين﴾[1].

وحتى لا نسترسل فى القرآن فنحتاج إلى بحث مطول يمكن أن يكون مجلداً ضخماً فى هذا المجال لأن القرآن نزل مخاطباً النبى محمد فى ما يجب عليه أن يكون، وما كان من قبله من قصص الأنبياء والأمم الغابرة. ومن أراد أن يثبت فى هذا الموضوع فعليه بقراءة القرآن بتدبر وتعقل ورؤية مستقبلية حث عليها القرآن، ولايجب على المتشككين التسليم بما يقوله السلف دون فحص أو تمحيص وهو أمر يرفضه الدين الإسلامى، ويرفض التبعية والركون على أفكار ومذاهب قد لا تساير سنة التطور إذ أن القرآن كائن حى يحى بحياة الإنسان إلى يوم الدين.

وخلاصة القول اننى أردت من هذه الخاتمة أن أحث كل مسلم إعادة النظر فى قدر الرسول الكريم ومنزلته الرفيعة السامية، لأنه أفضل الناس جميعاً إلى يوم الدين، وهذا لا يتأتى إلا إذا كان على رأس الأنبياء والعلماء والخلق أجمعين، وهذا ما قصدته من أن أضعه فى منزلته التى يستحقها وأن أنفض عنه ما يحط من قدره، وأن شهادتى ليست بجديدة، ولكنها تنبيه لإيقاظ المستسلمين حتى لا نكونن مثل الذين ﴿قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾[2].

وأود أن أنوه هنا إلى أننا بصدد كتابة بحث مطول (كتاب) بعنوان: «أمّية وشفاعة النبى محمد ﷺ» أوضح فيه بإسهاب موضوع الأمية والشفاعة معتمداً على القرآن والسنة.

(١) القرآن الكريم، سورة الانعام، آية ١٤ .

(٢) القرآن الكريم، سورة المائدة، آية ١٠٤ .

قائمة المصادر والمراجع

- ابن الآبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي) :

كتاب الحلة السيراء، تحقيق الدكتور حسين مؤنس جزءان، ١٩٦٣م

- ابن أبى دينار القيروانى:

المؤنس فى تاريخ افريقية وتونس، تونس ١٢٨٦هـ.

- ابن الأثير (على بن أحمد بن أبى الكرم):

كتاب الكامل فى التاريخ، القاهرة، ١٣٥٧هـ.

- الادريسى (الشريف أبو عبد الله محمد):

صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مطبعة ليدن ١٨٩٤، ووصف فلسطين والشام، تحقيق جوانيس جيلد مستر، بون ١٨٨٥م.

- أرسلان (الأمير شكيب):

تاريخ غزوات العرب، مصر، ١٣٥٢هـ.

- البراوى (الدكتور راشد):

حالة مصر الإقتصادية فى عهد الفاطميين، القاهرة ١٩٥٨.

- بروفنسال (الاستاذ ليفى):

الإسلام فى المغرب والأندلس، ترجمة الدكتور عبدالعزيز سالم والاستاذ صلاح الدين حلمى، القاهرة ١٩٥٨.

- البكرى (أبو عبيد• الله بن عبد العزيز):

كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب، نشره البارون دى سلان، الجزائر ١٩١١م.

- البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر) :
كتاب فتوح البلدان، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، جـ١، القاهرة ١٩٥٦.
- البلوى (أبو محمد عبد الله بنمحمد المدينى):
سيرة احمد بن طولون، تحقيق الاستاذ محمد كر على، دمش، ١٣٥٨هذ.
- التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد):
رحلة التجانى، تحقيق الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب، تونس، ١٩٥٨.
- ابن تغربردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكى):
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٨م.
- توفيق (الدكتور عمر كمال):
مقدمات العدوان الصليبى على الشرق العربى، الإسكندرية ١٩٦٧.
- ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد البلنسى):
رحلة بن جبير، تحقيق وليم رايت، ليدن، ١٩٠٧.
- ابن الجوزى (أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قيزوغلى):
كتاب مرآة الزمان، جذ٨، طبعة شيكاغو ١٩٠٧م.
- حسن (الدكتور حسن ابراهيم):
تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة ١٩٦٤م.

- حسن (الدكتور زكى محمد):
  - كنوز الفاطميين، القاهرة، ١٩٣٧م.
  - الصين وفنون الإسلام، القاهرة، ١٩٤١م.
  - فنون الإسلام، القاهرة، ١٩٤٥م.
- حسين (دكتور محمد كامل حسين):

الحياة الفكرة والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية، القاهرة، ١٩٥٩م.

- ابن حمديس الصقلى:

ديوان بن حمديس، تصحيح وتقديم الدكتور إحسان عباس، بيروت ١٩٦٠م.

- حميد الله (دكتور محمد):

مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة، بيروت ١٩٦٠م.

- حميد الله (دكتور محمد):

مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة، بيروت ١٩٦٩م.

- الحميدى (أبو عبد الله محمد بن فتوح الأزدى):

جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس، تحقيق الاستاذ محمد بن تاويت الطنجى، القاهرة، ١٩٥٢م.

- الحميرى (ابو عبد الله محمد بن عبد المنعم):

منتخبات من كتاب الروض المعطار فى خير الأقطار، خاصة بالجرز والبقاع الإيطالية، تحقيق الدكتور أوبيرتو، مجلة كلية الآداب، القاهرة، مجلد ١٨، جـ١.

- الحموى (الستاذ محمد ياسين):

تاريخ الاسطول العربى، دمشق ١٩٤٥.

- ابن حوقل النصيبى:

كتاب صورة الأرض، طبعة بيروت، ١٩٦٢م.

- ابن خرداذبة (ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله):

المسالك والممالك، ليدن، ١٨٨٩م.

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد):

- مقدمة بن خلدون، تحقيق الدكتور على عبد الواحد، القاهرة ١٩٥٧ (أربعة أجزاء).
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، طبعة بولاق ١٢٨٤م.

- ابن الخطيب (لسان الدين):

كتاب أعمال الاعلام، الجزء الثالث، تحقيق الدكتور احمد مختار العبادى، الاستاذ محمد ابراهيم الكتانى، الدار البيضاء ١٩٦٤م.

- ديل (شارل):

البندقية جمهورية ارستقراطية، ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة ١٩٤٨م.

- الذهبى (الحافظ ابو عبد الله محمد بن أحمد):

العبر فى أخبار من غبر، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، الكويت، ١٩٦٠م.

- رستم (الدكتور أسد):

الروم والعرب، جزءان، بيروت ١٩٥٦م.

- زكى (الدكتور عبد الرحمن):

السلاح فى الإسلام، القاهرة، ١٩٥١م

- زيتون (الاستاذ محمود محمود):

الصين والعرب عبر التاريخ، سلسلة أقرأ، عدد٢٥٣، القاهرة ١٩٦٤م.

- سالم (الدكتور السيد عبد العزيز):

* الصلات التاريخية بين الشام ومصر فى العصر الإسلامي، مجلة العلوم، العدد الخامس، بيروت، ١٩٦٤.

* المغرب الكبير جـ٢، العصر الإسلامى، الإسكندرية ١٩٦٦.

* دراسات فى تاريخ العرب، جـ١، عصر ماقبل الإسلام، ١٩٦٧.

* طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى، الإسكندرية، ١٩٦٧.

* تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، بيروت، ١٩٦٢.

* تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس، بيروت، ١٩٧٠.

- سرور (دكتور محمد جمال الدين):

دراسات في تاريخ العلاقات السياسية بين دول الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية فى العصور الوسطى، القاهرةن ١٩٦٠.

- سليم (الدكتور محمود رزق):
النيل فى عصر المماليك، القاهرة، ١٩٦٥.
- ابن سعيد (أبو الحسين على الأندلسى):
المغرب فى حلى المغرب، جذ١، تحقيق الدكتور زكى محمد حسن وآخرين، القاهرة ١٩٥٣.
- السيوطى، (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر):
* حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، جزءات، مصر، ١٣٢١هـ.
* تاريخ الخلفاء، بيروت، ١٩٦٩.
- أبو شامة (عماد الدين أبى محمد عبد الرحمن بن اسماعيل):
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، تحقيق الدكتور محمد حلمى احمد، جزآن، القاهرة، ١٩٥٦م.
- ابن شداد (أبو المحاسن يوسف بن رافع):
النوادر السلطانية والمحاسن لليوسفية، تحقيق الدكتور/ جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٤.
- ابن شداد (عز الدين ابو عبد الله محمد الحلبى):
الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق الدكتور/ سامى الدهان، المعهد الفرنسى، دمشق ١٩٥٣.
- شعيرة (الدكتور محمد عبد الهادى):
الاسكندرية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى، مقال فى كتاب غرفة الاسكندرية التجارية، ١٩٤٩.

- الشيال (الدكتور جمال الدين):

* مجمل تاريخ دمياط، الاسكندرية، ١٩٤٩م.

* وحدة سوريا ومصر فى العصر الإسلامي، محاضرات جامعة الاسكندرية، الاسكندرية، ١٩٥٨م.

- صالح بن يحى:

تاريخ بيروت، طبعة دار المشرق، بيروت، ١٩٦٨م.

- الصينى (الاستاذ بدر الدين حى):

العلاقات بين العرب والصين، القاهرة، ١٩٥٠م.

- الطبرى (محمد بن جرير):

تاريخ الأمم والملوك، طبعة دار القاموس الحديث، بيروت، ب

- الطرطوسى (مرضى بن على بن مرضى):

تبصرة أرباب الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسوار، تحقيق الاستاذ كلود كاهن، مجلة الدراسات الشرقية بالمعهد الفرنسى بدمشق، جـ١٢، سنة ٤٧-١٩٤٨. بيروت.

- ابن عبد الحكم (عبد الرحمن):

فتوح مصر والمغرب والأندلس، تحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٦١م.

- عبد الحميد (دكتور سعد زغلول):

فترة حاسمة فى تاريخ المغرب، مجلة كلية الآداب والتربية، بالجامعة الليبية، المجلد الأول، بنغازى، ١٩٥٨م.

- عاشور (دكتور سعيد عبد الفتاح):
الحركة الصليبية، جزآن، القاهرة، ١٩٦٣م.
- عثمان (دكتور فتحى):
الحدود الإسلامية البيزنطية، بين الإحتكاك الحربى والإتصال الحضارى، ٣أجزاء، القاهرة، ١٩٦٧م.
- عبد الوهاب (الاستاذ حسن):
الآثار الإسلامية بمصر، القاهرة، ١٩٥٥م.
عبد الهادى (دكتور عبد اللطيف):
* موسوعة التاريخ الإسلامى، المكتب الجامعى الحديث، الاسكندرية، ٩أجزاء، ٢٠٠٦-٢٠٠٧م.
* مفكرون غربيون .. لماذا اسلموا؟ المكتب الجامعى الحديث، الاسكندرية، ٢٠٠٦م.
* السياسة الصليبية للبابا انوسنت الثالث، المكتب الجامعى الحديث، الاسكندرية، ٢٠٠٥م.
* الحروب الصليبية، المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية ٢٠٠٦م.
* رسائل جاك دى فيترى، المكتب الجامعى الحديث، الاسكندرية ٢٠٠٥.
* الحركة الصليبية، المكتب الجامعى الحديث، الاسكندرية ٢٠٠٦.
- العبادى (دكتور أحمد مختار):
* دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الاسكندرية، ١٩٦٨م.

* فى التاريخ العباسى والفاطمى، بيروت، ١٩٧٢م.
- العدوى (الدكتور إبراهيم أحمد):
الأميون والبيزنطيون، القاهرة ١٩٥٣م.
- العدوى (دكتور ابراهيم احمد):
قوات البحرية العربية، القاهرة، ١٩٦٢م.
- ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم عمر):
زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق الدكتور سامى الدهان، جـ١، دمشق، ١٩٥١م.
- ابن عذارى (أبو العباس أحمد):
البيان المغرب فى أخبار المغرب، جزآن، بيروت، ١٩٥٠.
- عريب بن سعد:
صلة تاريخ الطبرى، ليدن، ١٨٩٧م.
- العرينى (دكتور السيد الباز):
الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٦٥م.
- عماد الدين الأصفهانى (أبو عبد الله محمد):
كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق الأستاذ محمد صبيح، القاهرة، ١٩٦٥م.
- العمرى (شهاب الدين بن فضل الله):
وصف افريقية والمغرب والأندلس، من كتاب مسالك الأبصار، تحقيق الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب، تونس ١٩٠٦م.

- عنان (الاستاذ محمد عبد الله):
مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، القاهرة، ١٩٣٤م.
- عواد (الاستاذ ميخائيل):
المآصر في بلاد الروم والإسلام، بغداد، ١٩٤٨م.
- ابو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل):
المختصر فى أخبار البشر، صيدا، ١٩٥٩م.
- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم):
تاريخ بن الفرات، تحقيق الدكتور قسطنطين زريق، ونجلاء عز الدين، بيروت، ١٩٣٩م.
- القزوينى:
آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٩٦٠م.
- ابن القطان (على بن محمد بن عبد الملك الكتامى):
جزء من كتاب نظم الجمان، تحقيق الدكتور محمود على مكى، تطوان.
- ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة):
ذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨م.
- القلقشندى (أبو العباس أحمد):
صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، جذ٣، القاهرة، ١٩١٣م.
- كاشف (دكتورة سيدة اسماعيل) ومحمود (دكتور حسن):
مصر فى عصر الطولونيين والأخشيديين، القاهرة.

- كرد على (الاستاذ محمد):
خطط الشام، جـ٤، دمشق، ١٩٣٦م
- الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف):
كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق الاستاذ رفن جسن، بيروت ١٩٠٨م.
- لويس (أرشيبالد):
القوى البحرية والتجارة فى حوض البحر المتوسط، ترجمة الأستاذ أحمد محمد عيسى، القاهرة ١٩٦٠م.
- ماجد (دكتور عبد المنعم):
نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، القاهرة، ١٩٥٣مز
- ماهر (الدكتورة سعاد):
البحرية فى مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٦٧م
- متز (آدم):
الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، تحقيق الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة.
- مجهول:
كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية ١٩٥٨.
- مرزوق (دكتور محمد عبد العزيز):
الفن المصرى الإسلامى، القاهرة، ١٩٥٢.

- المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين):

التنبيه والإشراف، طبعة بيروت، ١٩٦٥م.

- المصراتى (على مصطفى):

ابن حمدين الصقلى، سلسلة إقرأ، عدد ٢٥٠، القاهرة ١٩٦٣م.

- المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد):

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، طبعة ليدن، ١٩٠٦م.

- المقرى (أحمد بن محمد التلمسانى):

نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب، تحقيق الاستاذ على الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٩م.

- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على):

* اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، جـ١، القاهرة، ١٩٦٧م.

*السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، القسم الأول، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٦م.

- ابن مماتى (الأسعد بن المهذب):

كتاب قوانين الدواوين، تحقيق الدكتور عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٤٣م.

- ابن منجب الصيرفى:

الإشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة، ١٩٢٤م.

- ابن منظور (جمال الدين محمد):

لسان العرب، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٥٥م.

- ابن منكى (محمد):
كتـاب الأحكـام الملوكيـة والـضوابط النموسـية فـى فـن القتـال فـى البحـرن لوحـة ٤١، البـاب ٢٩، نـسخة مـصورة محفوظـة بمكتبـة كلية الآداب جامعة الاسكندرية، رقم ٩م.
- مؤنس (دكتور حسين):
* أثر ظهور الإسلام فى الأوضاع السياسية والإقتصادية فى البحر المتوسط، المجلة المصورة التاريخية، مايو ١٩٥١م.
* فجر الأندلس، القهرة، ١٩٥٩م.
- ناصر خسرو:
سفرنامة، ترجمة الدكتور يحى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥م.
- الناضورى (دكتور رشيد):
أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان، مجلـة كليـة الآداب، جامعة الاسكندرية، ١٩٦٨م.
- نسيم (دكتور جوزيف):
* الوحـدة وحركـات اليقظـة إبـان العـدوان الـصليبى، الاسـكندرية ١٩٦٧م.
* العرب والروم واللاتين، الإسكندرية، ١٩٦٣م.
- النعمان (القاضى أبو حنيفة بن محمد المغربى):
المجالس والمسيارات، مخطوط محفوظة بمكتبـة جامعة القـاهرة، رقم ٢٦٠٦٠.

- النعمان:

دعائم الإسلام، تحقيق الاستاذ آصف على فيظى، جـ١، القاهرة، ١٩٥١م.

- النويرى (محمد بن قاسم السكندريى):

* الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الإسكندرية، نسخة مصورة من مخطوطة الهند، محفوظة بمكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، رقم ٧٣٨م.

* نهاية الأرب فى فنون الأدب، نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية، رقم ٥٤٩ معارف عامة.

- الهمدانى (أبو محمد الحسن بن أحمد):

كتاب الإكليل، الجزء الثامن، تحقيق الدكتورنبيه أمين فارس، برنستن، ١٩٤٠م.

- الهمدانى:

* صفة جزيرة العرب، تحقيق الاستاذ محمد بن بليهيد النجدى، القاهرة، ١٩٥٣م.

* مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٨٨٥.

- هونيرباخ (ولهلم):

البحرية العربية وتطورها فى البحر المتوسط فى عهد معاوية، نطوان، ١٩٥٤م.

- ابن واصل (جمال الدين):

تـاريخ الواصلين فـى أخبـار الخلفـاء والملـوك والسلاطين، نـسخة مصورة من مخطوطـة بـاريس، محفوظـة بالمكتبـة العامـة، جامعة الإسكندرية، رقم ٦٤.

- ابن الوردى (زين الدين عمر):

تتمة المختصر فى أخبار البشر، جـ١، القاهرة، ١٢٨٥.

- ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله):

معجم البلدان، خمسة مجلدات، بيروت ١٩٥٥م.

- يحي بن سعيد الأنطاكى:

صلة كتاب سعيد بن بطريق، بيروت، ١٩٠٩م.

- اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن واضح):

* كتاب البلدان، ليدن، ١٨٩١م.

* تاريخ اليعقوبى، طبعة صادر، بروت، جزآن.

- ينى (جرجى):

تاريخ سوريا، بيروت، ١٨٨١م.

<u>المصادر والمراجع الأجنبية</u>

- Ali Bahgat,

  - Les forets en Egypt, (Bulletin de L'Institut d'Egypt 1900)

- Ameer Ali, s;

  - A Short history of the saraces, London, 1900.

- Arnold, Sir, thonas;

  - The Caliphate, Oxford, 1924.

- Atiya, A.S;

  - The Crusades in the Later middle ages, London, 1938.

- Cambridge Medieval History, vol, IV, VI.
- Coupland, R;

  - East Africa and its invaders, Oxford; 1956.

- Davis, F,J; Invasion of Egypt in A.D. 1249,
- Dembynes; G.M.,

  - La Syria a L'epoque des Mamelouks, paris, 1922.

- Dozy, R.

  - a) Histoire des musulmanans d'Espague, Trans in English by Francis Griffin, London, 1913.

- b) Supplement aux Dictionnaires Arabe, 2vols, Leiden, 1881.

- c) Dictionnairs des noms des vetements chez les Arabes, Amesterdam, 1842.

- Devonshire, R.L.,
  - Rambles in Cairo, Cairo, 1931.
- Encyloped of Islam.
- Guillaume;
  - Legacy of Islam, Oxford, 1931.
- Grousset;
  - Histoire des croisades et du Royaume franc de jerusalem, 3 tomes.
- Heyd, W;
  - Histoire des commerce du levant au moyen age, 2 vols, Leipzig 1889.

- وقد اعتمدنا على الترجمة العربية للكتاب فى أربعة أجزاء تحت عنوان تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى. وهو من أمتع الكتب فى مجال التجارة فى العصور الوسطى، وهو يعتبر كتاب وثائقى، ولا يمكن للدارس والباحث فى تاريخ التجارة فى العصور الوسطى الاستغناء عنه.

- Hitti, P.K;
  - The history of the Arabs, London, 1934.
- Hill, G;

– A history of Cyprus, Cambridge, 1948.

- King, E.J;

  – The knights hospitallers in the Holy Land. London, 1931.

- Lane Poole, s'

  – a) History of Egypt in the middle ages, London, 1925.

  – b) The Muhammadan Dynasties, paris, 1925.

  – c) Saladin and the fall of the kingdom of jerusalem, New York, London, 1898.

  – d) The story of Cairo, London, 1902.

- Le strance, G;

  – Palestine under the Musulmane aux Xeme Siecle, paris, 1932.

- Oman, Sir. S;

  – A History of the art of war in the middle ages, London, 1924.

- Runciman, S;

  – A history of the Crusades, 3vols; Cambridge, 1987.

- ترجمة إلى العربية فى ثلاثة أجزاء، السيد الباز العرينى، بيروت ١٩٦٩م.

- Sauvage, J;

  – Historiens Arabes, Paris, 1946.

محتويات الكتاب

موسوعة التاريخ الإسلامى



المكتب الجامعى الحديث

مساكن سوتير - أمام سيراميكا كليوباترا

عمارة (5) مدخل (2) - الأزاريطة - الاسكندرية

تليفون : 4818707 / 03 - تليفاكس : 4865277 / 03 / 002